

المجلد
٩

إِثْرَاءُ
المَشْرُوعِ الحَضَارِيِّ



مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

النبي الوزير
عليه السلام
يوسف
سر ، الصديق

من الابتلاء إلى التمكين

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي
الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

تقديم

أ.د. علي محيي الدين القرّة داغي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين



رقم الإصدار	315
الترقيم الدولي للسلسلة	(Tk) 978-625-5637-70-3
الترقيم الدولي للمجلد	(9.c) 978-625-5637-79-6
اسم الموسوعة	موسوعة الأنبياء والمرسلين: قادة الحضارة الإنسانية الربانية
اسم الكتاب	النبي الوزير يوسف الصديق عليه السلام.. من الابتلاء إلى التمكين
اسم المؤلف	د. علي محمّد محمّد الصّلابي
المدير العام للدار	رجب صونگول
الاخراج الفني	AsaletAjans
الطبعة	الأولى - يوليو 2026 م / محرم 1448 هـ
دار النشر	Imak Ofset Basım Yay. A.Ş. Sertifika No: 71320 Akçaburgaz Mah. 137. Sk. No: 12 Esenyurt/İSTANBUL
	دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة Asalet Eğitim Danışmanlık Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret Sertifika No: 40687 Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd. Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE Tel: +90 212 511 85 47 www.asaletyayinlari.com.tr asalet@asaletyayinlari.com.tr

كما أن إصداراتنا متاحة على منصتي



Google Play
Books

Copyright © 2026

دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

النَّبِيِّ الْوَزِيرِ

عَلَيْهِ السَّلَامُ
يوسف
سِرُّ الصِّدِّيقِ

من الابتلاء إلى التمكين

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

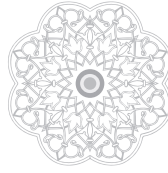
تقديم

أ.د. فضل بن عبد الله مراد

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

أ.د. علي محيي الدين القره داغي

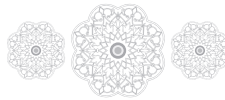
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين



إهداء

إلى أبناء الأمة الإسلامية وبني الإنسان الذين يعتزون بالقيم الرفيعة والأخلاق الحميدة، ويبحثون عن القدوات الحقيقية في حياتهم
أهدي هذا الكتاب

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
[يوسف: ١١١].





تقديم لكتاب: النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين

بقلم

أ.د. علي محيي الدين القره داغي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن لذة العيش مع القرآن الكريم لا يدركها إلا من ذاقها، ولا يحس بحلاوته إلا من تدبر آياته، وتعمق فيها، وعندئذ لا يستطيع أن يترك هذه الصحبة الطيبة ما دامت الحياة قائمة، لأنه يعيش مع كلام الله العزيز الذي ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ولأن روحه المادية تحيي بالروح القرآني^(١)، وبذلك ينسجم مع الفطرة التي بُنيت أيضاً على روح من عند الله تعالى فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

ومن هنا فإذا أزيحت حُجبُ الشهوات، وطهرت النفوس من زيغ الشيطان، فإن القلوب تنتعش بالقرآن وترتقي بآيات الله تعالى فيصبح القرآن الكريم غذاء روحه وسموها، ونور قلبه، وقوته، ونفحات، وهداية عقله وموائد أنسه، وشفاء جسده، ودواء أمراضه، وعندئذ يكون من الصعب عليه الابتعاد عنه

(١) إشارة إلى الآيات التي عبرت عن الوحي والقرآن بالروح مثل قوله تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ [النحل: ٢]، وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فيطلب المزيد، وهذا ما أحسّ السابقون الأولون، فعاشوا مع القرآن الكريم فتحققت لهم حلاوة الارتقاء، ولذة الوصال، فتمنوا ألا يفارقوه في جميع الأحوال، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية عاش في خدمة الإسلام، ومع ذلك يقول في آخر حياته: "وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن"^(١)، وكان الصحابي عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضع المصحف على وجهه، ويقول: كتاب ربي، كتاب ربي.^(٢)

وأحسب أن فضيلة أخي الشيخ الدكتور علي الصلابي قد ذاق طعم القرآن، ولذة الوصال معه لذلك ترك أو آخر التأليف في التاريخ الإسلامي إلى أجل، مع أنه كان موفقاً فيه، وأصدر سلسلة طيبة من السيرة وتاريخ الخلافة الراشدة، والدول الإسلامية.

فقد عاد الشيخ الصلابي بكل قوته إلى أحضان القرآن الكريم، وبخاصة إلى سِيرِ أولي العزم وهم (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، وقد أجاد فيها وأفاد، وأصبحت هذه الموسوعة من المرجعيات النافعة الجامعة التي نالت رضا جمهور المسلمين، وترجمت إلى عدة لغات (فجزاه الله خيراً).

واليوم عاد ليكتب عن نبي عظيم (يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ) وعن قصته التي وصفها الله تعالى بأحسن القصص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، وقد كتب الكثيرون حول هذا النبي العظيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، "ومنهم أنا العبد الفقير إلى الله تعالى" ولكن

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي ابن قدامة المقدسي ص ٢٢٥، ويراجع الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص ٤٦٥، ٤٦٩

(٢) اتحاف المهرة لابن حجر (١١ / ٢٨٣) والتبيان للنووي (٢٣٢) وقال: "إسناده صحيح"



الشيخ المؤرخ المفسر قد أجاد وأفاد، فجمع وأضاف، وحقق وأناف، ودقق فبلغ المراد، وأفاض في ذكر المقاصد والسنن لتحقيق البصائر للناس، وبخاصة للدعاة، كما أنه قد أفاد في بيان التعقيبات الربانية على قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام حيث فيها العبر التي ختم الله تعالى بها سورة يوسف ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

إن قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام في حد ذاتها مدرسة للتربية والتزكية والصبر الجميل والأمل الكبير، والسياسة الرشيدة، والإدارة الناجحة الناجعة، وبخاصة في مجال السياسة الاقتصادية، والخطوة المحكمة للحفاظ على الأمة وتنميتها، وهي مدرسة القيم والأخلاق والبصيرة والتحليل العميق للمآلات، ولذلك أمر الله تعالى رسوله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع المنهج القائم على البصيرة بعد ذكر قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام فقال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

كما أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قدوة للشباب في العفة وسمو الأخلاق، ومقاومة الشهوات، كما أنه قدوة للأقلية المسلمة في التعامل مع الأكثرية غير مسلمة من حيث التعامل بالحكمة، ومن حيث الاتجاه نحو العلم المؤثر في حياة الناس، والتخطيط المبرمج لتصبح الأقلية أقلية نافعة تحتاج إليها الأكثرية، وليست عبئاً عليها، وهذا لن يتحقق في عصرنا هذا إلا بما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَام مع أهل مصر.

كما أن قصة يوسف من بدايتها إلى نهايتها سلوى وصبر للدعاة، حيث نرى أن جميع خطوات المحنة هي خطوات لمنحة الله تعالى على يوسف عَلَيْهِ السَّلَام ولذلك لا ييأس الدعاة، فإنه مهما كانت الابتلاءات شديدة، والمحن عظيمة

فإن وراءها منحاً ربانية، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]، وأن الفجر يأتي بعد الظلام الدامس، وأن الليل مهما طال يسير نحو بزوغ الشمس بإذن الله تعالى^(١).

والحق يقال: إن فضيلة الأخ الدكتور علي الصلابي قد بذل في هذا الكتاب جهداً طيباً مباركاً، استثمر فيه خبرته الطويلة في كتابة التاريخ، وكتاباته النافعة حول سير أولي العزم التي أخرجها مع قصة بدء الخلق، وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في موسوعة عظيمة تتكون من ستة مجلدات ضخام.

فقد استثمر المؤلف الكريم هذا التراكم المعرفي في إخراج هذا الكتاب ليعبر عن أحسن القصص، وليعطي له من العناية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي سبيل ذلك اعتمد على مصادر ومراجع نافعة، منها كتابنا: "يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة المسلمين في غير ديارهم" حيث استشهد بمحتواه ونقل عنه الكثير بأمانة وتواضع العلماء، وقسم كتابه إلى مبحث تمهيدي منهجي، وأحد عشر مبحثاً (أو كوكباً) على عدد إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخصص الكوكب الحادي عشر لتعقيبات ربانية على قصة يوسف، فكان حقاً خاتمة المسك الذي (يفوح من ذكرى شذاه المسك والعنبر والقرنفل) حيث أفاد في هذه التعقيبات الربانية وأجاده، فجزاه الله تعالى خير الجزاء وحشره وإيانا مع النبيين والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وتقبل الله منه، وجعله في ميزان حسناته

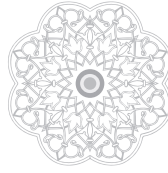
﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩] آمين

كتبه الفقير إلى ربه

أ.د علي محيي الدين القره داغي

الدوحة، ١٥ جمادى الآخرة ١٤٤٤ هـ

(١) يراجع: كتابنا: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، قدوة، طبعة ثانية ٢٠١٨م دار الفداء اسطنبول ص ٢٥ وما بعدها.



مقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَغْفِرُ بِهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا
وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لَجَلالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَلَكَ الْحَمْدُ
حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ إِذَا رَضِيتَ، وَلَكَ الْحَمْدُ بَعْدَ الرِّضَا.

أما بعد؛

إن هذا الكتاب، والذي عنوانه بـ "النبيّ الوزير يوسف الصّديق عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ
الابتلاء إِلَى التَّمَكِينِ"، يعتبر حلقة محورية وهامة في دراسة سير وقصص الأنبياء
والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وإن علاقتي مع قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تمتدُّ من الطفولة، ولكنني تعمّقت بها
أكثر خلال دراستي الثانوية العامة، وفي تلك الأثناء كنت أقصّها على زملائي في
مدرسة الناصر صلاح الدين الأيوبي في مدينة بنغازي بليبيا.



وبعد أن قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عليّ السجن في زمن القذافي، بقيت فيه بين عامي ١٩٨١ و ١٩٨٨م، فكان لقصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مذاقٌ خاص على المستوى الشخصي، وكذلك تأثر بها السجناء الذين كانوا معي في ذلك السجن السياسي، والذي امتلأً بشتى ألوان الطيف الاجتماعي والفكري الليبي، ممن مثّلوا توجهات وأفكار وآراء مختلفة، وخاضوا في السجن حوارات ونقاشات دفاعاً عن آرائهم وقيمهم وتوجهاتهم.

ونتيجة لما تعلمته وعلمته وقرأته وشاهدته وعاشته في تلك المرحلة، فقد سَمَّيت مرحلة السجن «مدرسة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ»، فهي كانت بلسمًا شافيًا، وموردًا عذبًا، وفضاءً معرفيًا ووجدانيًا وروحيًا وأخلاقيًا، جعل الله فيها راحةً وسكينةً وتأملاً وتفكيراً، وكيف لا والقرآن الكريم هو سر سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وخلال فترة السجن، كنت أفهم الآيات الكريمة من سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حسب المعاناة، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]؛ إِنَّ الإنسان المسلم يتعامل مع كلّ البشر مهما كانت عقائدهم وأفكارهم بالإحسان إليهم في قوله وعمله، وهذا الفهم ساعدني في بناء صداقات متنوعة وواسعة ومؤثرة، حتى إنّ بعض السجناء هداهم الله إلى الصلاة والقرآن بعدما كانوا بعيدين كلّ البعد عن الإسلام وتعاليمه.

ولا أنسى أبداً حين أذن الله تعالى بخروجنا من مدرسة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وساق الأسباب لإطلاق سراحنا، فقد تمّ جمعُ السجناء في صالة كبيرة تستوعب المئات، وعندها حضرت صلاة المغرب بتاريخ ٢ مارس / آذار ١٩٨٨، وقد صلى بنا شيخنا الجليل محمد الحراثي الطرابلسي، وقد كان من علماء ليبيا



الكبار، وقد آتاه الله صوتاً شجياً له تأثير ووقع في الأسماع والقلوب، وقد قرأ نهاية قصة يوسف، وبدأ من قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتَابَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠ - ١٠١]، فقد أجهشت جموع المصلين بالبكاء، وفي جو روحاني عالٍ كانت المعنويات تعانق عنان السماء موصولة بالله رب العالمين، وطالبة الرجاء والعفو والفرج والثبات.

وهكذا عشت حياتي مع معاني ودروس ومفاهيم سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكانت مرجعاً وعضداً لي في طريق الصبر والمصابرة والإحسان، والتعرف على أسباب الابتلاء والتمكين، وقيمة العفو والوفاء والإخلاص والعفة والصبر والتقوى والكرم.

وأسأل الله أن يُجملنا بأخلاق الإيمان في هذه السورة وما فيها من خير، وأسأله تعالى أن يحسن خاتمتي، ويتوفني مسلماً، ويلحقني ووالدي وجميع المسلمين بالصالحين.

ولا بد من الإشارة أنه بعد توفيق الله تعالى وفضله وكرمه، أنني وقبل إعداد كتاب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كنت قد انتهيت من موسوعة «نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام»، والتي تألفت من ٦ مجلدات زادت عدد صفحاتها عن ٥٠٠٠ صفحة، وهي:

١. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ الحضارة الإنسانية الأولى



٢. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم؛ قصة ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
 ٣. إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة.
 ٤. موسى كليم الله عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين.
 ٥. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ الحقيقة الكاملة.
 ٦. محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- وقد أجابت موسوعة بدء الخلق وقصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسير أولي العزم عن الأسئلة الوجودية الكبرى للإنسانية؛ من الذي خلقنا؟ ولماذا؟ وإلى أين المصير؟ كما تناولت تلك الموسوعة المفاهيم الإيمانية والقيم الروحية، والعقائد والتصورات، والأخلاق الإنسانية، وأسباب بناء الحضارات وعوامل ضعفها وزوالها، وطريق الفلاح والتمكين والنصر والعزة، ويقابله من جهة ثانية طريق الخسران والباطل والبغي والجهود والاستكبار والكفر والشرك بالله والظلم، وهو سبب تهدم العمران والاستبدال والهلاك الكبير.
- وبعد ذلك، حان الوقت للانتقال من سير المؤسسين العظام للحضارة الإنسانية، ومن تفاسير الكتاب العزيز لتجارب قادة الإنسانية إلى التعمق والغوص في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخذ الدرس المستفاد بأن الطريق الذي خَطَّهُ الأجداد والآباء من آدم إلى نوح، ومن ثم إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد استنار به النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ وسار على هديهم، وذلك بعد طول ابتلاء ومحنة وضنك واتهام وبهتان حتى ظهرت الحقيقة وبانت براءته. وبفضل الله، وبمشورة النبي الوزير وقيادته وحنكته وخطّطه أنقذ مصر وأهلها من هلاكٍ محتم.



وإن النية معقودة بأن تكون القصة بعد هذا الكتاب التي سأبحث بها - بإذن الله - هي قصة الأنبياء الملوك (داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)، ومن ثم إكمال الكتابة والتأليف والتفسير والتبحر في سير جميع الأنبياء الذي ورد ذكرهم بالقرآن الكريم، نظراً لأهمية دراسة سيرهم، والوقوف مع الدروس والعبر والفوائد والأخلاق والسنن والقيم في حياتهم وتجاربهم بإذن الله. والتوفيق أولاً وآخرًا من الله تعالى وحده.

وأما ما يخص الكتاب الذي بين أيدينا حالياً هو كتاب "النبي الوزير... يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين"، فقد قمت بتقسيمه إلى مباحث، وهي:

المبحث التمهيدي: المدخل إلى قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. وبينت فيه اسمها، وعدد آياتها، وترتيب السورة في المصحف، وسبب نزول السورة، وزمن وظروف نزولها، والتشابه بين قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ونبينا محمد رسول الله، وما هي الحكمة في سوقها في مكان واحد؟ وفصائل السورة، ومعنى كلمة يوسف، ونسبه، وفضله، وكم مرة ذكر يوسف في القرآن الكريم، والصور التي ذكر فيها، وأهمية قصة يوسف، وخصائصها، وأغراضها، وأنها ربانية المصدر؛ وقصص حق لا مرية فيه، وقصص واقعي، وقصص يلتزم بالنظافة والأدب، والقصص القرآني تميز بخصائص فنية عن غيره من القصص، وكان كذلك الحديث عن مقاصد سورة يوسف، وفي المبحث التمهيدي شملت المقدمة القرآنية حول قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي المبحث الأول، تكلمت عن رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونصيحة أبيه، وكيد إخوته، وإلقائه في البئر، ونجاته منه. وسرت على منهج علماء التفسير الراسخين من القدماء والمعاصرين مع الاستفادة من المراجع المتخصصة في القصص



القرآني وتاريخ الأنبياء والمرسلين، والكتب التي اهتمت بقصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كالتي كتبها:

١. شيخنا العزيز الدكتور علي محيي الدين القره داغي، يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة للمسلمين في غير ديارهم.

٢. الدكتور أحمد نوفل بكتابه «سورة يوسف: دراسة تحليلية».

٣. الدكتور ناصر العمر في كتابه «تدبر سورة يوسف: تهذيب آيات للسائلين». وغيرها من الكتب المتخصصة في سورة يوسف..

وفي المبحث الأول، يَنْتَ حكم الرؤى، وأنواعها، والآيات المتعلقة بها، وحقيقة الاجتباء ليوسف، وكيد الإخوة، وعداوة الشيطان للإنسان، وخطورة الحسد، وأهمية التربية للأبناء على توحيد الله ومعرفته من خلال الأسماء الحسنى، ووقوع إخوة يوسف في مكائد إبليس، ودخول يوسف في محنة الابتلاء، وصبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونجاة يوسف من غياهب البئر بقدر الله ورعايته وحمايته.

وفي المبحث الثاني: بداية التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفتنه امرأة العزيز، ومكر نسوة المدينة، ودعاؤه بالخلاص من كيدهن.

وفي المبحث الثالث: دخول يوسف السجن، ودعوته لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وتفسيره لرؤيا صاحبيه.

وفي المبحث الرابع: رؤيا الملك، وتفسير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لها.

وفي المبحث الخامس: مطالبة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتحقيق وثبوت براءته.

وفي المبحث السادس: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سُدة الحكم والسلطان والتمكين.



وفي المبحث السابع: مجيء إخوة يوسف إلى مصر، وإكرامه لهم، وطلبه حضور أخيه من أبيهم.

وفي المبحث الثامن: أخذ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الميثاق على أبنائه، وتوجيههم للتعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، وحيلة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في بقاء أخيه معه، وفقد يعقوب لأبنائه الثلاثة.

وفي المبحث التاسع: اشتداد البلاء على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصبره العظيم، وثقته المطلقة بالله تعالى وعفو يوسف عن إخوانه.

وفي المبحث العاشر: أثر البشارة على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطلب أبنائه منه المغفرة، واجتماع شملهم عند يوسف بمصر.

وأما في المبحث الحادي عشر: تعقيبات ربانية على قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد تعرض هذا الكتاب لأصل نشأة بني إسرائيل التاريخية، وشجرة النبوة الإبراهيمية، وأنبياء الفرع الإسرائيلي، وختم النبوة بالفرع الإسماعيلي، وبداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن هم الأسباط؟ وهل هم أنبياء أم لا؟ وحياة بني إسرائيل في مصر، ووصية يعقوب لبنيه حين حضره الموت، ووفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحقيقة النبوة، وأمور تفرد بها الأنبياء، وأهم صفات وأخلاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من عفة وحلم وإخلاص وصدق وإحسان وتقوى وحزم وعلم وحكمة وكرم وحسن وتديب.... الخ.

ولخصت في خاتمة هذا الكتاب أهم ما تضمنه، وشملت مراحل، وكيف تدرج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من سنن الابتلاء إلى التمكين، وذكرت أهم السنن والأحداث والدروس والفوائد التي يمكن لأي مسلم أو مسلمة أو أي إنسان باحث عن

حقيقة الإيمان بالله، ووحدانيته، فإنه سيجدها في قراءته لهذه القصة الإيمانية الماتعة والحكم البديعة التي جمعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كتابه العزيز في سورة واحدة «سورة يوسف»، وهي ترتيبها الثانية عشر بالقرآن الكريم، وهي السورة التي نزلت على رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فترة دعوته المكّية لمؤازرته وتصويره وطمأنته ومؤانسته في طريق الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمة الحق.

وقد انتهيت من مقدمة هذا الكتاب في يوم الأربعاء بمدينة إستانبول بتاريخ ١٣ جمادى الأول ١٤٤٤ هـ / ٧ ديسمبر ٢٠٢٢ م، ولكن مسودة متن هذا الكتاب كان في مدينة الدوحة العامرة، ونسأل الله أن يحفظ ديار المسلمين، ويُعيد للأمة نهوضها الحضاري في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال والجهل إلى الهدى والإيمان.

وحري أن أقول، بأنّ هذا الكتاب سيجعلك بإذن الله تعالى، تتبحر وتنسجم مع تفاصيل قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ منذ طفولته وحتى وفاته، وتتعرف على أهم المحطات التاريخية التي مرّ بها في حياته من ابتلاءات وتمكين، وكيف قاد شعب مصر والشعوب التي حولها إلى برّ الأمان خلال الأزمة الاقتصادية التي مرت في زمانه، وتدرك قيمتها في الوقت الراهن.

ولا يسعني في مرحلة الانتهاء من هذا إلا أن أقف بين يدي الله عَزَّجَلَّ بقلب خاشع منيب معترفاً بفضلِهِ وكرمه، ومتبرئاً من حولي وقولي، وملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل عليّ، وربّي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عنيّ ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد مني العقل، وغابت الذاكرة، وتبيّست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.



اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح صدري وجنبي - اللهم - ما لا يرضيك،
واصرفه عن قلبي وتفكيري. وأسألك ربنا بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلا، أن
تأجرني وإخوتي الذين أعانوني على إتمام هذا العمل، وأسألك اللهم أن تجعله
لوجهك خالصاً ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم.
وكما أرجو من كل من يطّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه
ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء.

قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾
[الحشر: ١٠].

والحمد لله رب العلمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

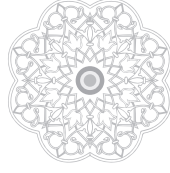
عليّ محمّد محمّد الصّلاييّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الأربعاء ١٣ جمادى الأول ١٤٤٤ هـ

٧ كانون الأول ديسمبر ٢٠٢٢ م





المبحث التمهيدي: مدخل إلى قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام

تعتبر قصة يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَام القصة القرآنية الأطول التي ذكرت في موضع واحد، ولم تذكر في مواضع أخرى، ولو قارنتها مع قصص كليم الله موسى وخليل الله إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَام أو قصص أخرى، لوجدت أن تلك القصص تحتل التوزيع والتقطيع على مشاهد متعددة؛ لأن كل مشهد يُعدُّ وحدة متكاملة، مثل: (موسى والعبد الصالح)، (إبراهيم وحواره مع عبدة الكواكب والنجوم) ... إلخ.

ولكن وحدة أحداث قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لا تجعل من الممكن فينًا وموضوعيًا أن تُقطع أو توزع على مرّات عرضٍ متعددة، وفي هذا يتجلّى وجه من وجوه الإعجاز القرآني، كما تتجلّى دقة وحكمة هذا الكتاب الذي هو ﴿لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]^(١).

وهنا يقول الأستاذ محمّد المبارك فيما نحن بصدد من تميّز سورة يوسف وتفردّها: إنّ لسورة يوسف موقعاً خاصاً في النفوس، فلطالما اشتاقت إلى سماعها النفوس مرّة بعد مرّة، ولطالما تفتحت القلوب والآذان لنغماتها الحلوة، وإنّ لها نغماً علوياً خاصاً بها، وإنّك لتحسّ فيها أنّ يدَ القدر الإلهي تحركُ الحوادث، ولترى فيها الإنسان يريد ويقدر ومن فوقه عناية إلهية غالبية

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان- الأردن، ط ١ (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، ص ١٠.



تبلغ من هذا الإنسان ما تريد لا ما يريد، وتصل بالأمور إلى عواقبها ونهاياتها المرسومة المقدرة.

ولطالما هزّت سورة يوسف المشاعر والعواطف وحركت الضمائر، وهي تجول بنا في عالم الحياة الإنسانية بحوادثها ووقائعها ومشاعرها، وعواطفها وأفكارها وعقائدها. وإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْصُّ فيها قصّة حياة الإنسان أحسن القصص؛ إنّها قطعة من الحياة بعروقها النابضة، ومشاعرها المتأججة، ونوازع الخير والشر فيها.

إنّنا نرى فيها أنفسنا ولكن نرى مع ذلك يدَ القدر ونحسُّ أثرها فينا وفي أعمالنا، إنّنا نراها تخط في الحوادث معبرنا، وتبلغ الغايات المقدرة، إنّها تفتح أمامنا أفق القدر لنجعل إرادتنا من إرادة الله، منفذة لقضائه، منسجمة مع غايات قدره التي هي الخير المحض؛ فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفائل بالمستقبل، ذلك هو السبب الذي يجعل لسورة يوسف هوى خاصاً في نفوسنا، وهي تأخذنا بعقولنا وقلوبنا نحو الله.

إنّ هذه السورة تكشف لنا النقاب عن سرّ الإرادة والقدر وعن العناية الإلهية التي تخفى، إلّا على من آتاه الله حسّاً مرهفاً وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون، وأسبابها الظاهرة، وعواطف الإنسان، ومقرراته وتصميماته.

وذلك ما أبصره يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام من أوّل القصّة فانكشفت له الحقيقة الكبرى فصبر وآمن وترقّب لطف الأقدار وصنيع العناية.

وإنّك إذ تقرأ هذه السورة أو تسمع إلى من يقرؤها لتحسّ بأنغام عذبة علوية ترافق ما يترأى لك فيها من صور الحياة الإنسانية وما تقرؤه من ورائها من أحكام القضاء وسطوة القدر.



افتتحت السّورة بهذه الحروف المقطّعة الثلاثة (الر)، التي تريك من الكلمات موادها الظاهرة وتخفي عنك سرّ ظهورها قرآنًا بألفاظ عربية، وأمّا قصّة يوسف التي هي موضوع السّورة وقوامها، فقد استغرقتها كلّها وهي تزيد على مائة آية عدا نحو عشر آيات هي آخرها تضمّنت عبرتها ومرماها^(١).

وسورة يوسف إحدى السور المكيّة التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصّة نبيّ الله (يوسف بن يعقوب) وما لاقاه عليه السّلام من أنواع البلاء ومن ضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تأمر النّسوة، حتّى نجّاه الله من ذلك الضيق. والمقصود بها تسليّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

والسّورة الكريمة أسلوب فذّ فريد في ألفاظها وتعبيرها وأدائها وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري برقّتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية التي تحمل في الغالب طابع الإنذار، إلّا إنّها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريّة نديّة في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جوّ الأنس والرحمة والرأفة والحنان، وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلّا استراح إليها»^(٢).

✧ أولاً: اسمها وعدد آياتها:

الاسم الوحيد لهذه السّورة هو (يوسف)، فقد ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة في ترجمة رافع بن مالك الزرقني عن ابن إسحاق رَحِمَهُمَا اللهُ أَنَّ أَبَا رَافِعٍ

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، دار الفكر، ط ٤ (١٩٧٣م)، ص ٧٩-٨٢.

(٢) سورة يوسف (عليه السّلام)؛ دراسة تحليلية، نوفل، المرجع السابق، ص ١٤.



بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهرٌ لأنّها قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كلّها، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يُذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر.

وهي مكّيّة على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره. وهي السّورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور، ولم تذكر قصّة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام في هذه السّورة من الإطناب.

وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار^(١).

وقال الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ في البرهان: «ولا شك أنّ العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستعرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز»^(٢).

وهذه السّورة محورها قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام فهي أخصّ سور القرآن الكريم به، وهو أخصّ أنبياء الله بها، بل أخصّ مذكور فيها، فناسب أن تسمى باسمه^(٣).

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ط ١ (١٩٨٤م)، ج ١٢، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار إحياء الكتب العربية، ط ١ (١٩٥٧م)، ج ١، ص ٢٧٠.

(٣) آيات للسائلين تفسير تحليلي وموضوعي، ناصر العمر، مؤسسة الرسالة، ط ١ (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص ٢٢.

❖ ثانياً: ترتيب السّورة في المصحف:

سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام هي السّورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، وتقع في الجزء الثاني عشر أيضاً، وآياتها إحدى عشرة ومائة آية، ولا يماثلها في عدد آياتها إلا سورة الإسراء.

وتأمل الموافقات، أن رقم السّورة والجزء الذي هي فيه يناظر عدد أبناء يعقوب، وعدد الآيات يلمح إلى ذلك فهي إحدى عشرة آية بعدد إخوة يوسف ومائة آية. والقصة الكريمة تستغرق من السّورة مائة آية وآية واحدة. ويستغرق التعليق عليها بقية الآيات وهي عشرة كاملة.

ونتجاوز هذه القضية لننتقل إلى فاتحة السّورة، ونجد أن افتتاحيتها هي بالحروف المقطّعة، وبالذات بحروف: (الر)، ولو تأملت هذه الحروف أيضاً لوجدتها نصف حروف كلمة الرؤيا التي هي من المعالم البارزة في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

❖ ثالثاً: سبب نزول السّورة:

ذكر العلماء أسباب نزول السّورة منها:

أ. أخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقد قال: «نزل القرآن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتلا عليهم زمانا فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، ومن ثم تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الآية. فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله،

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، المرجع السابق، ص ٥.



لو حدثتنا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية كل ذلك يؤمر بالقرآن». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(١).

ب. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سألت اليهود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴿يوسف: ١ - ٢﴾.

ويروى أن اليهود سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك. ويروى أن اليهود أمروا كفار مكة أن يسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت السورة^(٢).

ج. قيل نزلت سورة يوسف في فترة الحزن على وفاة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأبي طالب (عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الذي كان يحميه، وهي فترة اشتد فيها أذى المشركين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واجترأوا عليه لوفاة عمه، ولغياب الزوجة الصالحة التي كانت تسليه وتواسيه، فكان بحاجة إلى تسلية تخفف عنه ما تلقاه من الأذى وما يُعانيه من الحزن، فقد اشتد فيها أذى قريش، حتى إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فقد بلغت الشدة والأذى والابتلاء والتعذيب مبلغها من كفار قريش لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاته، فنزلت هذه السورة تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه، فهي

(١) المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية، ط ١ (١٤١١هـ)، ج ٢، ص ٤٠٩.

(٢) المحرر الوجيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ (١٤٢٢هـ)، ج ٣، ص ٢١٨.

تقول لهم: إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي مَرَّ بِمَصَائِبَ عَظَامٍ، وَشِدَائِدَ جَسَامٍ، وَمَحَنٍ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، قَدْ نَجَا مِنْهَا جَمِيعًا، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ تِلْكَ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ، فَاصْبِرُوا كَمَا صَبَرَ الرُّسُلُ، وَثِقُوا بِمَوْعُودِ اللَّهِ لَكُمْ، فَإِنَّكُمْ بَعْدَ هَذَا الْبَلَاءِ وَهَذَا الْأَذَى سَتَنْتَصِرُونَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِهَا: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠] (١).

✧ رابعاً: زمن وظروف نزول السّورة:

وسورة يوسف مكيّة بالاتفاق - لدى المحققين - وآياتها مائة وإحدى عشرة آية، وعدد كلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون كلمة، وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستون حرفاً.

نزلت سورة يوسف على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد سورة هود، أي في الفترة الحرجة العصيبة من حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث توالى الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد زوجته أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وعمّه أبا طالب الَّذِي كَانَ لَهُ خَيْرُ نَصِيرٍ وَسِنْدٌ قَوِيٌّ وَمَعِينٌ عَلَى أَذَى قَرِيشٍ وَصَنَادِيدِهَا. وبوفاتهما اشتدّ الأذى والبلاء على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين، حتّى عُرف هذا العام بـ (عام الحزن).

في تلك الفترة العصيبة من حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي ذلك الوقت الَّذِي كَانَ يَعْانِي فِيهِ الرُّسُلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنُونَ الْوَحْشَةَ وَالْغُرْبَةَ وَالْانْقِطَاعَ فِي ظِلِّ جَاهِلِيَةِ قَرِيشٍ؛ كَانَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْزِلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ هَذِهِ السُّورَةَ

(١) سورة يوسف فرائد وفوائد، محمّد خالد، د/ ط، ص ٤.



تسلية له وتخفيفاً لآلامه بذكر قصص المرسلين، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً، وإن بعد الضيق مخرجاً؛ انظر إلى أخيك يوسف عليه السلام وتمعن بما حدث له من صنوف البلاد والمحن وألوان الشدائد والنكبات؛ محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه في الجب، ومحنة تعلّق امرأة العزيز به ومرادته عن نفسه بكل طرق الإغراء، ثم محنة السجن، وبعد ذلك العزّ ورغد العيش^(١).

ويكتمل الخطاب الرباني في تبصير نبيه ورسوله الكريم بالقول: انظر إليه يا محمد! لما صبر يوسف على الأذى في سبيل الله وصبر على الضرّ والبلاء نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً في أرض مصر وملّكه خزائنهما فكان السيّد المطاع والعزيز المكرّم وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على البلاء فلا بدّ أن تُقوّى نفسه على تحمّل البلاء، اقتداء بما سبقك من المرسلين، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

✦ خامساً: التشابه بين قصة النبي يوسف عليه السلام وقصة رسولنا محمد صلى الله عليه عنه:

تشابه قصة يوسف عليه السلام وإخوته مع قصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع قريش، فإذا كان يوسف عليه السلام، حيث تأمر أخوة يوسف عليه، وفكروا في قتله وإبعاده وإخراجه، وقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩]، وهذا الحدث كان تثبيتاً لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم يوم تأمروا عليه في دار الندوة، وقرروا حبسه أو قتله أو إخراجه من مكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ

(١) قصة يوسف مدرسة أخلاقية، محمد محمود حماد، المكتبة العصرية، ط ١ (١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)،



يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، فظروف الغدر والتآمر التي مرّ بها يوسف مرّ بها رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه. وإن غيابة الجبّ في محنة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قبيل الرحيل به لمصر فيها تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في غار ثور قبيل الهجرة للمدينة. وسجن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمصر ظلماً وعدواناً فيه ذكرى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهم في شعب أبي طالب بعد أن حاصرتهم قريش وقاطعتهم ظلماً وعدواناً، وهذا كله يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وإن سجن الطاغية ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وظلمه رغم ظهور الآيات الدالة على براءته وصدقه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ، حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]، تذكر في تمادي المشركين في غيهم في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع رؤيتهم الآيات الدالة على صدقه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الصافات: ١٣ - ١٤].

ومن التشابه بين واقع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وواقع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن الله تعالى مكّن للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأرض المدينة كما مكّن ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأرض مصر^(١). فهذه أوجه التشابه بين القصتين، فكل قصة منهما تحملان معانٍ ودروساً في الصبر والحكمة ومواجهة الصعاب والشدائد لتبليغ دعوة الله تعالى في الأرض ونشر كلمة الحق مهما كانت الظروف والأحوال.



❖ سادساً: قصة يوسف عليه السلام والحكمة في سوقها في مكان واحد:

قصة يوسف عليه السلام لم ترد في القرآن في غير هذا الموضع بخلاف قصص سائر الأنبياء وأخبارهم، فإنها جاءت متفرقة، بل لعله لم يرد ذكر ليوسف عليه السلام في غير هذه السورة وآية في سورة الأنعام وآية في سورة غافر^(١).

بدأت قصة يوسف عليه السلام وانتهت في سورة واحدة، والآيات طبعها تستلزم هذا اللون من الأداء؛ فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة، فلا تتم العبرة إلا بها، كما لا يتم التنسيق الفني فيها إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها، وإفراد حلقة واحدة منها في موقع لا يحقق شيئاً من هذا كله، كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين؛ كحلقة قصة سليمان مع ملكة اليمن (بلقيس ملكة سبأ)، أو حلقة قصة مولد مريم بنت عمران، أو حلقة قصة مولد عيسى بن مريم عليه السلام، أو حلقة قصة نوح عليه السلام والطوفان العظيم... إلخ. فهذه الحلقات القرآنية تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها، أما قصة يوسف فتقتضي أن تأتي مشاهدتها كلها متوالية من بدايتها إلى نهايتها^(٢).

وقال أبو إسحاق الإسفراييني رحمه الله: إنما كرر الله قصص الأنبياء، وساق قصة يوسف مساقاً واحداً إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي، فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في سائر القصص^(٣).

(١) آيات للسائلين، د. ناصر العمر، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط ١ (١٩٧٢م)، ج ٥، ص ٦٠.

(٣) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٣٠.

وقال أيضاً: إنَّ سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقصَّ عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه، فنزلت مبسوطة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصَّة، وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها^(١).

✧ سابعاً: فضائل سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام:

كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ بها في الفجر، وفي حديث عبد الله بن شداد بن الهاد الليث، إذ قال: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلاة الصبح وهو يقرأ من سورة يوسف وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، وتخصيصه لها في أطول الصلوات قراءة مشعر بمزيد مزية عنده.

وثبت أيضاً من حديث علقمة بن وقاص الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعَتَمَةِ سورة يوسف وهو في آخر الصفوف حتَّى إِذَا جَاءَ ذَكَرَ يُوسُفَ سَمِعَ لَهُ نَشِيْجاً، وكما قال عبد الله بن عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا حَفِظْتُ سُورَةَ يُوسُفَ وَسُورَةَ الْحَجِّ إِلَّا مِنْ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ مَا كَانَ يَقْرَأُهَا فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُهَا قِرَاءَةً بَطِيئَةً.

وثبت كذلك عن فُرَافِصَةَ بْنِ عَمِيرٍ الْحَنْفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَخَذْتُ سُورَةَ يُوسُفَ إِلَّا مِنْ قِرَاءَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ إِيَّاهَا فِي الصَّبْحِ مِنْ كَثْرَةِ مَا كَانَ يَرُدُّهَا^(٢).

وكلَّ ذلك يُشْعِرُ بَعْضُ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ مَعَانٍ لَهَا أَثَرُهَا الْحَمِيدُ فِي الْأَنْفُسِ الزَكِيَّةِ؛ ولهذا أَكْثَرُوا مِنْ تَكَرَّرِهَا فِي أَطْوَلِ الْمَفْرُوضَاتِ قِرَاءَةً وَذَلِكَ دَالٌّ عَلَى فَضْلِهَا^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠.

(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، حديث رقم ٣٥.

(٣) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٢٧.



✦ ثامناً: معنى كلمة (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَام ونسبه وفضله:

أ. معنى كلمة يوسف:

هو لفظ عربي قديم وفي اللاتينية: (جوزيف)، ومعنى يوسف: ذو اللطف، المتنبئ في المستقبل، الذي فتح الله عليه أن يرى ما في المستقبل، أو صاحب الرؤيا في المستقبل، أو الذي يستوحي ما في المستقبل.

وقد أسماه أبوه يوسف من وحي الحال التي كانت منتشرة، والظرف الذي كان سائداً في تلك المرحلة، ومعناه: (صاحب الرؤية)، أو المتأمل صاحب الرؤية، الذي لديه بُعد نظر فهو يرى أو يتوقع في المستقبل من الذي يفتح الله عليهم، فيستوحيون ما سيكون في المستقبل من خلال ما يجري في الحاضر.

و (يوسف) عَلِمَ لا يحتاج إلى تعريف؛ لأنه علامة تدلّ على الطريق، وهو معلّم للخير، ويدلّ على الصّراط المستقيم، إمام وقُدوة، ومعلم، ومنذر يُستدل به، فهو عنوان قائم للناس على مرّ الزمن^(١).

وفي اللغة العبريّة (يوسف)؛ يعني الزيادة والإضافة، أو النماء^(٢)، ومع هذا؛ فإنّ هناك وجهاً لعربيّته وهو أنّه مشتق من الأسف، فيوسف - بكسر السين - يُفعل من آسف، يوسف إذا أحزن وأهم وأغضب؛ لأنّه آسف أباه بفراقه. وبفتح السين (يوسف)؛ لأن إخوته أحزنوه بفراق أبيه^(٣).

(١) أسماء الأنبياء ودلالاتها ومعانيها، خالد محمد، نور حوران للنشر والتوزيع، دار العرب

للدراستات، ط١ (٢٠١٦م)، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) أسماء الأنبياء وصفاتهم، صالح اللويزي، ص ١٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.



وإن دلالة التسمية لا تتنافى مع أحداث حياته عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد تعرّض في حياته إلى محن كثيرة ابتداءً بكيد الإخوة، ثم فراقه لأبيه، وإلقائه في غيابة الجبّ، وبيعه بثمن بخس كالسلعة من قبل العابرين الذين التقطوه، فأصبح في محنة الرقّ، كما تعرض في بيت العزيز إلى كيد امرأته والنسوة، ثم اتهمه بعفّة، وبعدها بسجن على أثر ذلك، فحياته محن تتلوها محن وحزن يتعقبه حزن، وأسف يتعقبه أسف، فالاسم قد وافق لفظ العربيّة واشتقاقها^(١).

ب. نسبه وفضله عَلَيْهِ السَّلَامُ:

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فهو من أشرف الناس نسباً، وذلك أنّه نبي وأبوه نبي وجدّه نبي، وجدّ أبيه نبي، فهو من سلالة أنبياء^(٢).

ويبين رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضله ومكانته، وأنّه أكرم الناس؛ عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سُئِلَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكرم الناس، فقال: «أتقاهم لله، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»^(٤).

(١) أسماء الأنبياء وصفاتهم، المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٢) بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، محمد بن زريق الرحيلي، جامعة أم القرى، ط ١ (١٤٣٤هـ)، ص ٨١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، حديث رقم ٣١٧٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، حديث رقم: ٣٤٩٠.



قال المناوي - رَحِمَهُ اللهُ -: وأَيُّ كريمٍ أكرم ممن حاز مع كونه ابن ثلاثة أنبياء متراسلين شرف النبوة وحسن الصورة وعلم الرؤيا ورئاسة الدنيا وحيطة الرعايا في القحط والبلاء؟ قال الشاعر:

إِنَّ السَّرَى إِذَا سَرَى فبنفسه وابن السَّرَى إِذَا سَرَى أسْرَاهُمَا^(١)

✦ تاسعاً: كم مرة ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم:

لقد ورد ذكر اسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم في (٢٦) آية، منها (٢٤) آية في سورة يوسف، وآية في سورة الأنعام، وآية في سورة غافر.

أ. الآيات التي ذكرت اسم يوسف في سورة يوسف:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

- ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨].

- ﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيِّكُمْ﴾ [يوسف: ٩].

- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْنُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١٠].

- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

- ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩].

(١) فيض القدير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١ (١٣٥٦هـ)، ج ٥، ص ٦٤.

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦].
 - ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١].
 - ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦].
 - ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].
 - ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩].
 - ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].
 - ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٧٧].
 - ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠].
 - ﴿وَقَالَ يَأْسَفُنِي عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].
 - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥].
 - ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].
 - ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].
 - ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].
 - ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].
- كما أن سورة يوسف في معظمها تتحدث عنه سوى بضع آيات في المقدمة، وتعتبر مقدمة تمهيدية، وفي الخاتمة تكون العبرة التلخيصية^(١).

(١) يوسف أيها الصديق، د. محمد عاطف السقا، دار المكتبي، ط ١ (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م)، ص ١١.



ب. ذكر يوسف عليه السلام في سورة الأنعام:

جاء ذكر يوسف عليه السلام في الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٨٦ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْنَبْتُهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٨٧ ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٨٨ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝٨٩ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَتْهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩٠]. وقد دلت الآيات على أن يوسف عليه السلام:

- من ذرية إبراهيم عليه السلام، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهؤلاء جميعاً أنبياء الله سبحانه وتعالى، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- أنه من المحسنين المجازين بإحسان.

- أنه من المجتبيين المهديين إلى صراط مستقيم.

- أنه من الذين أوتوا الكتاب والحكم والنبوّة.

- أنه من الذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم - ونحن تبعاً له - بالافتداء بهديهم.

- أنه ذكرى للعالمين.

- أن من إخوانهم من ينطبق عليه هذه الأوصاف: ﴿وَمَنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ٨٧]، ولا نعلم من الأنبياء الإخوة فيمن سبق إلا إسحاق وإسماعيل، وموسى وهارون، وقد ذكروا في الآيات^(١).

ج. ذكر نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة غافر:

وقد ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الله تعالى بسورة غافر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَا زِلَّمُوا فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

فقد جاءت الآية ضمن حوار مؤمن آل فرعون مع قومه، وفيها دليل على أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان رسولا نبيا بعثه الله وأرسله إلى أهل مصر ليبلغهم دين الله الحق ويدعوهم إليه، وأنهم كانوا في غاليبتهم في شك من أمره، أي: بين بين، لم يظهروا الكفر والعناد، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم فيسلموا ويتبعوا كما أنهم انتفعوا بتأثيره الخير حال حياته، فلما توفاه الله قطعوا حبل الوصل معه، ولم يحفظوا من أمره إلا اسمه وصفته، وأسقطوا كل ما يربطهم به، وفي التاريخ انقلب الفراعنة على أعدائهم الملوك الهكسوس، وأزال العهد الجديد - كما هي العادة - كل أوامر وصلات وصفات وأفكار ومعتقدات ورجالات العهد البائد، وكان من بين ذلك، العزيز عند الملك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دل هذا المعنى قوله: (هلك)، واللفظ يدل على سقوط الشيء، ومنه في الحسيات: الموت هلاك. ومنه في المعنويات: هلك ملكه. فجمع اللفظ المعنيين: موت يوسف، وموت دعوته في المجتمع المصري^(٢).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢.



✧ عاشرًا: مناسبة سورة يوسف لما قبلها (سورة هود):

وفيها تسعة أوجه:

- الوجه الأول: أن كلتا السورتين افتتحتا بقوله تعالى: (الر).

- الوجه الثاني: ختمت سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وبدأت سورة يوسف بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

- الوجه الثالث: جاء في سورة هود بيان ما لقي الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قومهم، وجاء في سورة يوسف بيان ما لقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من إخوته، ليعلم ما قاساه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أذى الأجنب والأقارب، وفي ذلك تسلية لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد^(١).

- الوجه الرابع: جاء في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وقوله: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، وذكر في سورة يوسف حال يعقوب مع أولاده وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته، فكان كالشرح لإجمال ذلك^(٢).

- الوجه الخامس: اختتمت سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

(١) البيان في علم المناسبات، فايز السريح، دار القبس للنشر والتوزيع، ط ١ (٢٠١٩م)، ص ٩٥.

(٢) أسرار ترتيب السور، السيوطي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ط ١ (١٤٣١هـ)، ص ٩٦.

وافتحت سورة يوسف بالتركيز على الوجدانية من خلال قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحسن توكل يعقوب يوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كما توكل هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل.

- الوجه السادس: قال عَزَّجَلَّ في ختام سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وأحداث قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وربنا ليس بغافل عما فعله إخوة يوسف بأخيهم فناسبت ختام سورة هود^(١).

- الوجه السابع: تمّ التأكيد في سورة هود على أن كتاب الله معكم وأنه من عند الله، ووجوب الإيمان بالتوحيد الخالص، وذكر دعوة مجموعة من الرسل، كهود ونوح ولوط وشعيب وموسى وهارون وكلهم دعوا أقوامهم للتوحيد الخالص وذكر عاقبة كفر أقوامهم وتكذيبهم، فناسب أن يتم ذلك بذكر قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من خلال قصته الكاملة^(٢).

- الوجه الثامن: لما قال تعالى في سورة هود: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، جاءت سورة يوسف فذكرت ندم إخوته واعترافهم بخطأ فعلهم، وفضل يوسف عليهم، قالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، وعفوه عَلَيْهِ السَّلَامُ عنهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وجاء ندم امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ أَمْرَأْتُ الْغَرِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ^(٥٢) [يوسف: ٥١ - ٥٢]؛ فكل ذلك من باب إذهاب السيئة بالحسنة.

(١) البيان في علم المناسبات، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٢) تفسير الموضوعي لسور القرآن، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط ١ (١٤٣٥ هـ)، ج ٣، ص ٥٠٦.



- الوجه التاسع: لما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٨ - ١١٩]، فلا أنسب لهذا من حال إخوة يوسف؛ فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحي عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولي الألباب^(١).

✧ حادي عشر: مناسبة أول السورة بآخرها:

وفيهما خمسة أوجه:

- الوجه الأول: بدأت السورة بالحديث عن الكتاب في قوله تعالى: ﴿الرَّءِيسَ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وختمت بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]^(٢).

- الوجه الثاني: بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وختمت بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، تنبيهاً على أن حُسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة^(٣).

- الوجه الثالث: ذكر وحي الله إليه في أول السورة وآخرها، فقال في أول السورة: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [يوسف: ٣]،

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم الزبير الثقفي، تحقيق: سعيد جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي، ط ١ (١٤٢٨هـ)، ص ١١٥.

(٢) البيانات في علم المناسبات، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مرجع سابق، (٣/ ٥٠٥).

وقال في آخرها: ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

- الوجه الرابع: قال تعالى في أول السورة: ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْعَاقِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]؛ أي: إنك كنت من قبل هذا القرآن غافلاً وإن (مخففة) من الثقلية. وقال في آخرها: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فذكر أنه كان غافلاً، ثم بعد الوحي إليه أصبح على بصيرة يدعو إلى الله سبحانه^(١).

- الوجه الخامس: ابتدأت السورة برؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]، وختمت بتأويل هذه الرؤيا: ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]^(٢).

✧ ثاني عشر: أهمية قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وخصائصها وأغراضها:

ذكر الدكتور ناصر العمر أهم الأسباب التي دعت إلى اختيار قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تدريساً وكتابة، فذكر من تلك الأسباب:

(١) التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم، فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، ط ١ (١٤٣٧ هـ -

٢٠١٦ م)، ص ٢٣.

(٢) البيان في علم المناسبات، مرجع سابق، ص ٩٨.



١. أهمية ربط الحياة بالقرآن والسنة، فالأمة الآن تعيش ظروفًا صعبة لم تمر بها في تاريخها وأعلم يقينًا أن المخرج يكمن في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضُ" (١). وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من الوقوف مع آياته. فأثرت البدء بسورة عشت معها سنين عددًا، وأحسب أنه قد مرت بي بعض تجاربها، وربما كان لذلك أثر جعل دلالات السورة لدي أكثر وضوحًا، وأقرب فهمًا (٢).

٢. كانت المدة بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى من أشد السنوات التي مرت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام، فجاءت سورة يوسف مسلية ومبينة السبيل الذي يمكنهم من الخروج من ذلك الواقع.

وأمتنا اليوم تعيش فترة حرجة في تاريخها، فبعد أن وقعت الأمة تحت وطأة الاحتلال عقوداً درست فيها معالم من علم الشريعة كانت لا تخفي على كثير من الناس، ثم لما بدأت آثار الاحتلال تنحسر بقيام الصحو الإسلامية المباركة في المشارق والمغارب، لم يجد الأعداء بداً من إعادة الكرّة للحيلولة بين الأمة وبين نهضتها، وفي هذا الوقت العصيب يجد المسلم في كتاب ربنا وفي أحسن قصصه عزاءً وتسليةً، كما يجد الإرشاد إلى سبيل الرشاد.

(١) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب العلم، حديث عبد الله بن نمير، حديث رقم ٣١٩.

(٢) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٨.



٣. الارتباط الوثيق بين الأمم السابقة واللاحقة، فرغم اختلاف العصور يبقى التوافق في الطبع البشري، وفي الظروف البشرية؛ ولذلك قصَّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى على نبيِّه هذه القصة رغم وقوعها قبل قرون من مبعثه ليستفيد ممَّا فيها من دروس وعبر، وتستفيد منها أمته إلى قيام الساعة. والقرآن الكريم بيِّن أنَّ قراءة سير الأولين للاعتبار منها، ترفع كفاءة الأمة، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ويقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]. فالله جَلَّ وَعَلَا يدعو للسَّير في الأرض والنَّظر في واقع تلك الأمم، سواء سيرا حقيقياً، أو سيرا فكرياً؛ بمعنى قراءة سير السابقين وتتبع تاريخهم.

٤. ذكر بعض أهل العلم في تفسير قوله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِلْسَّالِطِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن قصة يوسف فنزلت هذه السورة، وهذا لا يتعارض مع ما سبق بيانه، فالله يسر سؤال السائل وقدره لحكمة عظيمة، منها ما يتعلق بواقع المسلمين إذ ذاك، وإذا تأملت قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِلْسَّالِطِينَ﴾ [يوسف: ٧]، بدا لك أنَّ اللفظ أعم وأشمل من مجرد الإجابة عن سؤال خاص، بل اللفظ مشعر بأنَّ فيهما جواباً لكلِّ سؤال، ولعلَّ هذه لطيفة من لطائف الاستهلال لقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]؛ فوصف الكتاب بالإبانة لكلِّ ما يوجب الهدى، وهذا ما رأيته في هذه السورة العظيمة، فقد اشتملت على أحكام شرعية تتعلق بفروع شتى، كما أنَّها تطرقت لأصول عظيمة تتعلق بالعقائد والأحكام والسياسات والاقتصاد والتربية والاجتماع. حقاً إنَّ فيها آيات للسلطين!



٥. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِر السُّورَةِ: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]؛ والعبرة: الاعتبار والاتعاظ والتذكر، وإذا تأملت الآية السابعة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، والآية الأخيرة: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وما بينهما، وما قبلهما من آيات يصدّق بعضها بعضاً، وجدت في ما بينهما الإكسير الذي يمكن أن يكون له عظيم الأثر في حياة الأمة، إذا أخذت به كما أخذ به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا تأثرت به كما تأثر به السلف^(١).

ويقول الدكتور علي محيي الدين القره داغي -حفظه الله- في كتابه "يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة المسلمين في غير ديارهم"، وهو يذكر أهدافه من كتابه: الاستفادة من دروس التاريخ والعبرة من قصص السابقين في الفروع، والاتعاظ بما جرى للآخرين، قال تعالى في ذم هؤلاء الذين لا يستفيدون من الماضي ومن الآخرين: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]؛ فقد أشارت الآية إلى ضرورة الاستفادة من الوحي بالرجوع إلى الله تعالى، والاستفادة من العقل بالتذكر والتدبر والتبصر، والتحليل والنظر في المآلات فالعاقل من اتعظ بغيره، والكيس من عرف نفسه وعمل لمستقبله في الدنيا والآخرة^(٢).

إذا تأملت خبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحبي السجن وجدت ظرفاً من أصول منهج الدعوة، فعند ما سأل السجينان يوسف عن الرؤيا بدأ بالتوحيد فدعا إليه رغم ظروف سجنه، ولم يعدّ السجن عائقاً عن الدعوة، بل جاء في السورة

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي القره داغي، دار النداء، إستانبول - تركيا، ط ١ (٢٠١٨م)، ص ١٥.

تقرير منهج الدعوة مجملًا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والدعاة في مشارق الأرض ومغاربها بحاجة إلى التذكير بهذا المنهج^(١).

وذكر الدكتور على القره داغي في كتابه عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ من أهدافه في كتابه: بيان عظمة القرآن في منهجه المنفرد بتجديد معانيه وعبره وسننه، والاستفادة منه في أكثر من مقام. وقال: ... ولكن الله تعالى هداني في كتابي: «نحن والآخر» إلى أنَّ قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنموذج كامل وقدوة شاملة وأسوة عظيمة للأقلية الإسلامية حيث تتشابه ظروفها مع ظروف سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي قصة نجاح لفرد مسلم داخل بشعب غير مسلم - مصر في ذلك الوقت - فنحن نريد مثل هذا النجاح للأقلية المسلمة، من خلال القيم التي تحلى بها يوسف، ومن خلال الأسباب والوسائل التي اعتمدها للوصول إلى النجاح في الدنيا والآخرة^(٢).

إنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان داعيًا إلى توحيد الله، وقد أفردته بالعبادة، بأقواله، وأفعاله، وسمته، وهدوئه، وصمته، وحججه، وعقله، وقلبه، ولسانه، وجوارحه. - ومن الأسباب أيضًا ما وجدته من التلازم الشديد بين الشدة والفرج - ونحن بأمس الحاجة إلى بثِّ الأمل في الأمة - من أوَّل السورة إلى آخرها! ومن أمثلة ذلك: عندما أُلقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في البئر أوحى الله إليه بأنَّه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وكذلك لما أخبر إخوته أنَّه يوسف خافوا وبادروا بالاعتذار: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]،

(١) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ١٠.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ١٤.



فقال لهم مباشرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فزال ما بهم من انكسار. والأمثلة في السورة متعددة^(١).

- في سورة يوسف دعوة للتفاؤل وحسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوسف ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يفارقهما التفاؤل أبداً حتى في أخرج الظروف، ومن أمثلة ذلك: لَمَّا فَقَدَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَةَ مِنْ أَبْنَائِهِ قَالَ: ﴿فَصَبِّرْْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]^(٢).

- ومن أسباب اختيار هذه السورة، معالجتها لثالث خطر، كل واحد من أقطابه مهلكة، وقد منعت السورة بمجموعها من دخولها، فمنعت من خوض بحر التنازل الذي لا قعر له ولا ساحل، ومنعت من السقوط في هاوية الاستعجال، ومنعت من دخول بيداء اليأس المقفرة، فيوسف ووالده عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يصاحبهما الاستعجال ولا اليأس، ولا التنازل. وهذه الثلاثة إذا دخلت على الفرد قطعته دون مراده وإذا دخلت على الأمة ألزمتها ذيل الأمم، فالاستعجال عاقبته وخيمة، ومن المقرر أن من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، قضاء وواقعاً. أما التنازل؛ فهو الداء الذي وقع فيه كثير من الناس مع الظالمين، فكان من الطيّعي ألا يتحقق لها النجاح المأمول، وإنما اليأس والتشاؤم، فإذا دخل على النفوس أحبطها، وأتعبها وأثقلها ومن كانت نفسه متضعضة مهزوزة فأتى له النصر؟ إن خذلان النفس لصاحبها من أول أسباب انتصار عدوها.

- فمن دروس هذه السورة الثبات في منهج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، واطّراده وعدم تذبذه من أول حياته، وحتى آخر لحظات عمره، فهو مطّرد مستمر في منهج

(١) آيات للسائلين، مرجع سابق ص ١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢.

معتدل في سرائه وضرائه في البئر، في السجن، مع الملك، وهو يرفع أبويه على العرش، في كل أحواله التي قصتها السورة، نلاحظ اطراداً عجيباً. والدعاة وطلاب العلم، بل الأمة كل الأمة بشعوبها ودولها تحتاج إلى الاستقامة والاطراد على المنهج الصحيح وبخاصة في هذه الظروف التي تقلب فيها رياح الفتن القلوب وتصرفها.

- تبين السورة أهمية القصة وأثرها على حياة الداعي والمدعو، وقد اشتملت سور القرآن على عدد من القصص كما بين الله في هذه السورة. والحاجة ماسة لاستخدام هذا الأسلوب القرآني من قبل الدعاة وطلاب العلم والمصلحين^(١).

- في هذه السورة دروس سلوكية وأخلاقية وتربوية ونفسية مهمة. وخذ في هذه العجالة على سبيل المثال نموذجاً إلى أن يأتي موضع التفصيل. تأمل في هذه السورة الدعوة إلى عفة اللسان، تجد يوسف عليه السلام قام استاذاً وداعية يلقي المحاضرات العملية في هذه القصة في كل مراحل عمره وأحواله: صغيراً وكبيراً، مملوكاً ومالكاً، في حالة الشدة ويوم أن فتحت له زهرة الدنيا، في حال الغضب والأسف، وفي حال الرضا والفرح والغبطة، بل في كل السورة. تأمل موقفه من سجن الظلم والاستبداد فإذا به يقول للرّسول: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسُوفِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]؛ طلباً لإظهار الحق مع عفة نبيلة، فلم يشر لامرأة العزيز، ولم يقل: اللاتي راودتني، وإنما اكتفى بإشارة اقتضتها الحاجة إلى تبرئة مقام النبوة. ومن عفة لسانه أيضاً، توريته عندما قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ



إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿يوسف: ٧٩﴾؛ فما قال لن نأخذ إلا السَّارق؛ لأنه يعلم أن أخاه لم يسرق، فكان عفيفاً في مقام المكايدة لم يخرج به المقام إلى أن يصف أخاه بما هو منه براء^(١).

- كذلك نجد في هذه السُّورة قواعد وأصولاً في السياسة الشرعيّة التي نحن في أمسّ الحاجة إليها في هذا العصر في الشورى، في التخطيط، في بُعد النظر، في العدل، الذي هو أساس قيام الدول وغير ذلك.

- نجد في السُّورة أيضاً قواعد وأصولاً في معالجة الأزمات، بل إدارتها، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة. وأمّتنا تمرّ بأزمات متنوّعة، ومن أقوى الأزمات التي ورد ذكرها في السُّورة، السبع الشداد. وفي أسلوب إدارته عَلَيْهِ السَّلَامُ للأزمة التي مرّت بمصر فوائد ينبغي أن نقف معها.

- نجد أيضاً في السُّورة منهاجاً في الحكم على الرؤى وبياناً لبعض شأنها، فالسُّورة ذكرت الرؤيا في ثلاث مواضع، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أيها الناس! إنّه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم. أو ترى له.." ^(٢). غير أنّه وقع فيها - عند الناس - من الخلل والخطأ ما ينبغي التنبيه عليه، فهناك من أنكر إشارات الرؤى ودلالاتها وقلّل من شأنها، وقال كما قال أصحاب الملك: ﴿أَضْغَثُ أَحْلَمَ﴾ [يوسف: ٤٤]. وبالمقابل هناك من غلا فيها، حتّى جعل من الرؤى تشريعاً - بكلّ أسف - وأهل الحقّ وقفوا للمنهج الوسط ^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٥.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النَّهْيِ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، حديث رقم ٤٧٩.

(٣) آيات للسّائلين، مرجع سابق، ص ١٥.

- نجد في السّورة كذلك بيان أن عاقبة المكر السيئ خسارٌ وبوار، فإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مكروا به من أجل إبعاده، فكيف كانت العاقبة؟ وامرأة العزيز كادت ومكرت، وغلّقت الأبواب، وأعتدت للنساء متكأً فلمن كانت العاقبة؟ وفي هذا عزاء للأمة فإنّ المكر الكبار يحاك الآن على مستوى الأمم، وعلى مستوى الدّول، ومستوى الشّعوب، والأفراد، وقصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تقول لكلّ ماكر بباطل: إِيَّاكَ إِيَّاكَ! ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وفي ذلك طمأنينة للأمة وبيان لها بأنّ مكر أعدائها سيرتدّ عليهم^(١).

- نجد في سورة يوسف قصص التائبين المستغفرين، وبيان أثر التّوبة والاستغفار في الحياة، وقد تتبعت الدّعوة إلى التّوبة والاستغفار في القرآن فوجدت أنّه ما من نبي إلّا وقد أمر قومه بهما، والاستغفار خفيف على اللسان، وهو مع ذلك من أخصّ الدّعاء، والدّعاء هو العبادة كما في الحديث، ويقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فالتّوبة والاستغفار من السمّات الظّاهرة في سورة يوسف.

- نجد في هذه السّورة استثمار الفرص، وخاصة من قبل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وخاصة قبل أن يُسجن وأثناء سجنه وبعده، وحتى آخر مراحل عزّه. وإنّ الأمة بحاجة إلى أن تستثمر الفرص استثماراً حقيقياً في موضعه، فتركُ الفرص غَصَص، والفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود.

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٥.



- وفي سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام يضرب يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مثلاً نادراً في الصبر بكل أنواعه ففاذا في الدارين، وخلد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذِكْرُهُما في كتابه؛ ليعلم الناس: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. والأمة بحاجة إلى من يعلمها الصبر، وحرى بنا أن نقتدي بالذين هداهم الله وجعلهم أئمة.

- أشارت السورة الكريمة لصفة الإحسان، وهي من أميز الصفات التي تحلى بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وشهد له بها كل من عرفه، وهي لا تعني مجرد التصديق على المساكين كما يتبادر لذهن الكثيرين، ولكن معناها أوسع وأشمل وهذه الإشارة إنما هي دعوة للمؤمنين للاقتداء بهؤلاء الأعلام لينالوا الرفعة في الدنيا والآخرة.

- أشارت السورة الكريمة لمقومات النصر والتّمكن، وأمتنا في أمس الحاجة لتأملها والعمل بها للخروج من هذه الهوة التي تردت فيها^(١).

ومن أسباب اختيار هذه السورة، ما اشتملت عليه من أغراض وموضوعات متعددة أشار إلى كثير منها ابن عاشور فقال: فأهم أغراضها:

- بيان قصة يوسف - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.

- فيها إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات وهو من أصول الحكمة المشرقية كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤] الآيات.

- أن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالح عباد.

- تحاسد القرابة بينهم.

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧.



- لطف الله بمن يصطفيه من عباده.
- العبرة بحسب العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة.
- سكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر.
- تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لقيه يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من الآلام والأذى.
- لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الآلام أشد ما لقيه من كبراء كفار قومه، مثل عمه أبي لهب، والنضر بن الحارث وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه، فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء، كما قال طرفة:
- وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند
- قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِكِينَ﴾ [يوسف: ٧].
- وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.
- وفيها العبرة بهجرة قوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وآله، وذلك إيماء إلى أن قريشاً ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعاً لهجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها. واسترقاق الصبي اللقيط. واسترقاق السارق، وأحوال المساجين. ومراقبة المكاييل^(١).

(١) المصدر السابق نفسه، ١٩.



- وإن في هذه السّورة أسلوباً خاصاً من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشاً بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم.

- وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث (رستم) و (اسفنديار) من أبطال فارس، فكان يحدث قريشاً بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثاً من محمد فهلّم أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموّه به عليهم بأنه أشيع للسامع، فجاءت هذه السّورة على أسلوب استيعاب القصة تحدياً لهم بالمعارضة.

- على أنها مع ذلك قد طوت كثيراً من القصة من كل ما ليس له كبير أثر في العبرة.

- ولذلك ترى في خلال السّورة ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] مرتين. ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] فتلك عبر من أجزاء القصة.

- وما تخلل ذلك من الحكمة في أقوال الصالحين كقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

ومن أغراض قصة يوسف عليه السلام:

- إثبات الوحي والرسالة.

- بيان أن الدين كله عند الله.



- بيان أن الدين كله موحد في الأساس.
 - بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة.
 - تثبيت فؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجال الدعوة.
 - العبرة والاتعاظ.
 - تصديق التبشير والتحذير.
 - بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفياه.
 - تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان^(١). وغير ذلك من الأمور...
- ومن أسباب اختيار هذه السورة: بعض الخصائص التي ذكرها أهل العلم لهذه السورة، ولخصائص القصة القرآنية عامة، ومنها:
- أ. ربّانية المصدر:

قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة يوسف، والقصة القرآنية عموماً من خصائصها أنّها ربّانية المصدر، موحى بها من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي لا يعترها ما يعترى القصص البشرية من نقص وتحريف، حفظها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحفظه لكتابه، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهي جزء من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى هذه المصدريّة في بداية بعض القصص وفي خاتمتها، ومن ذلك قوله تعالى في بداية سورة يوسف: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ

(١) بعض المبادئ التربويّة المستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، مرجع سابق، ص ٣٥-٤٥.



كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لِمَنِ الْعَفْلِيلِكُ ﴿٣﴾ [يوسف: ١ - ٣]. وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَقْبُ
قِصَّةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

ب. قصص حق لا مرية فيه:

إن القصة القرآنية ربانية المصدر فإنها قصص حق، وهذا يعني أن كل ما ورد
من وقائع، وشخصيات وأزمنة وأمكنة له في عالم الواقع وجود، باعتبارها قصة
تاريخية، فالصدق فيها صدق واقعي، فليس فيها تلفيق أو اختراع أو بناء أحداث
على أساس من الخيال، وإذا كان فيها من أخبار، أو شخصيات لم يرد عنها في
التاريخ ما ورد في القرآن الكريم، فإن القرآن حجة على التاريخ؛ لأنه تنزيل
من حكيم خبير، ولأنه النص الديني الوحيد الذي يسلم في تاريخ البشرية من
التحريف والتزوير^(١).

وإن القصة القرآنية خالية من الكذب والأساطير والخيال، فالقصة القرآنية
سلمت من الخيال فلم تتعرض له في أي حلقة من حلقاتها، ولا جزئية من
جزئياتها، إلا أنها تأخذ بمجامع القلوب، وتأسرها وتحدث من التشويق ما لا
تحدثه أروع الملاحم وأكثرها إغراقاً في الخيال^(٢).

ج. قصص واقعي:

إن القصة القرآنية لا تحلق بالإنسان في عالم المثاليات التي لا وجود لها في
عالم الواقع، بل تخاطبه على أنه بشر له طاقة محدّدة لا يمكن أن يتجاوزها^(٣).

(١) بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام، المصدر السابق نفسه، ص ٢٥.

(٢) بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧.

فالقصة القرآنية واقعية لا تخرج عن حياة البشر، ولكن هذه الواقعية رغم عدم إنكارها لحالات الهبوط، وواقعتها، إلا أنها لا تمجدها وتسلب الأضواء عليها، كما تفعل بعض القصص البشرية^(١).

إن القصص القرآني، إنما هو من واقع الحياة فهو يصورها تصويراً دقيقاً بأخذ مجامع القلوب دون أن يكون للخيال أو الوهم، مداخل فيها أبداً^(٢). ومن واقعيتها أنها ترسم صورة الأنبياء والمرسلين، كما هم عليه من تبليغ لدعوة الله، وبما اتصفوا به من كمال خلقي، ومع ذلك لا تغفل حالة الضعف البشري التي قد يصابون بها^(٣). وصحيح أن القرآن يختار من نفس (بطل القصة) اللفظة المترفعة المستعالية النّظيفة الرائقة، التي تصلح للقدوة وتغري بالارتفاع، ويختار من نفوس المنحرفين اللفظة التي تصوّر سوء قلوبهم، وسوء انحرافهم، لتصلح للتنفير من أفعالهم، والاعتبار - بمصيرهم - وهذا منسجم مع أهدافه، فضلاً على أنه كلّ حقائق، إلا أنه في لقطات أخرى، وخاصة في القصص الطويلة التي تتسع للعرض والتحليل، يعرض النفس البشرية كاملة بكل ما فيها من لحظات (الضعف البشري)، كلّ ما هنالك أنه لا يصنع كما تصنع الفنون (الواقعية) الحديثة، المتأثرة بالتفسير الحيواني للإنسان، ولا يجعل من لحظة الضعف بطولة تستحق الإعجاب، والتصفيق والتّهليل، بل إنه يعرضها عرضاً (واقعياً) خالصاً، ولكنه لا يقف عندها طويلاً، وإنما يسرع لسلط الضوء على لحظة الإفاقة؛ لحظة التغلب على الضعف البشري؛ لأنها هي الجديرة فعلاً بتسليط الأنوار عليها^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨.

(٢) الوحدة الموضوعية، محمد محمود حجازي، مطبعة المدني، القاهرة - مصر، ط ١ (١٣٩٠هـ)، ص ٢٩٢.

(٣) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، ط ١٤ (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، ص ١٩٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٦.



ومع استيفاء القصة القرآنية لكل ملامح (الواقعية) السليمة المتكاملة، وخصائصها في كل شخصية، وفي كل موقف، وفي كل خالصة، فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء، الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع، بصدقه العميق، وواقعيته السليمة؛ المنهج الذي لا يهمل خلصة بشرية واقعية واحدة، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستنقعا من الوحل يسميه: (الواقعية)، كالمستنقع الذي أنشأته الواقعية الغربية الجاهلية.

وقد ألمت القصة بألوان الضعف البشري بما فيها، لحظة الضعف الجنسي، ودون أن تزور - أي تزوير - في تصوير النفس البشرية بواقعيته الكاملة في هذه المواقف، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس، أو الموقف، فإنها لم تسف قط لتنشئ ذلك المستنقع المقرز للفطرة السليمة، ذلك الذي يسمونه في جاهلية القرن العشرين: (الواقعية)، أو يسمونه أخيراً: (الطبيعية)، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي، الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف^(١).

فهي قصة شاملة لجميع نواحي الحياة، وجميع جوانب الإنسان المختلفة تصوّر الواقعة أدق تصوير بعيداً عن الإسفاف والمبالغة^(٢).

وثمة فارق هائل يفرق القصة القرآنية عن غيرها من القصص الإنساني، ذلك أن الإسلام كدين هو منهج كامل متكامل من أجل الحياة، وهو كمنهج ينعكس أثره وتأثيره على واقع الحياة الإسلامية، فيلتزم به المسلمون التزاماً قوياً في الفكر والسلوك، والقيم الحياتية التي تشكل حركة المسلم في إطار الجماعة، وإذا ما تمسك المسلمون بقيم الدين الإسلامي تمسكاً قوياً؛ فإن ذلك سيصبح

(١) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٥٢.

(٢) بعض المبادئ التربوية، مرجع سابق، ص ٣١.

إشارة فاعلة على التأثير الإسلامي في الفكر والنفس والحياة، ويصبح العمل الإبداعي كالقصة له ملامح خاصّة تميّزه عن غيره من أنواع الإبداع الأخرى^(١).

د. قصص يلتزم بالنظافة والأدب:

بقدر ما أن القصص القرآني قصص واقعيّ، ولكنه قصص نظيف لا يستطرد في عرض الفاحشة، فلا يعرضها لإثارة تليذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المحرّفة، بل يذهب سريعاً إلى ما وراءها من العاقبة والعبرة^(٢). فلحظة الجنس - منحرفة أو غير منحرفة - لا تستأهل الوقوف عندها بأكثر من مجرد الذكر؛ لأنّها عارض يعرض في الحياة ويمضي، يمضي لينفح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق^(٣).

وإن من الشواهد على الالتزام بهذه النظافة والبعد عن الفاحشة، قوله جَلَّ جَلالُه في حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودِيَّةٌ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٤]. وإنا نلاحظ في هذه الآيات كيف يعرض القرآن لحادثة الجنس، فهو يعرضها عرضاً نظيفاً نقيّاً وخالياً من الإسفاف وإثارة الكوامن الجنسيّة، لا كما تفعل القصة البشرية حيث تجعل من قضايا الجنس بطلّةً بحدّ ذاتها، وتفخمها وتهوّلها.

وكما أن من نظافة القصة القرآنيّة أنّها لا تقف عند لحظة الضعف الجنسي، أمّا جانب التصدي والصمود لهذا الضعف، فتقف عنده وقفة مناسبة وتسترسل

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣١.

(٣) بعض المبادئ التربوية، مرجع سابق، ص ٣١.



شيئاً ما، فتقول في التصدي لتلك المراودة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]^(١).

هـ. قصص يسعى إلى تحقيق أهداف سامية:

للقصة القرآنية أهداف عالية وسامية تسمو على أهداف القصة الأدبية البشرية عموماً التي ربما كانت لها أهداف رخيصة تسعى إلى التشوّف والإثارة بأي وسيلة كانت^(٢).

فالقصاص القرآني إنّما يهدف إلى غرض تربوي عالٍ: هو العبرة والعظة في الأحداث والأشخاص؛ من أساء منهم ومن أحسن، أمام دواعي الخير والشر^(٣)، وذلك أنّ القصة القرآنية تنشئ الأفراد والمجتمعات على إفراد العبودية لله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعدم الشرك به، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتربي الأفراد والمجتمعات على التحلي بالأخلاق الفاضلة والبعد عن رذائلها وذميمة^(٤).

و. القصص القرآني تميز بخصائص فنية عن غيره من القصص:

تناولت القصة القرآنية عدّة ظواهر فنية لها حساب معلوم في الدراسة الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون، وهي:

- تنوع طريقة العرض: ففي قصص القرآن الكريم أربع طرق مختلفة للابتداء في عرض القصة:

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٣.

(٣) الوحدة الموضوعية، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٤) بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف، مرجع سابق، ص ٣٣.



• مرّة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها، ثمّ يعرض التفصيل بعد ذلك، من بدئها إلى نهايتها، وذلك كطريقة قصّة أهل الكهف.

• وثانية تذكّر بعاقبة القصة ومغزاها، ثمّ تبدأ القصة بعد ذلك من أولّها وتسير بتفاصيل خطواتها، وذلك كقصّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص، وقريب من هذا النحو قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

• وثالثة تذكّر القصة مباشرة بلا مقدّمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجأتها الخاصّة ما يُغني، وذلك مثل ذلك قصّة مريم عند مولد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومفاجأتها معروفة، وكذلك قصّة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس.

• ورابعة: يجعل القصة تمثيليّة فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبّه في ابتداء العرض، ثمّ يدع القصة تتحدّث عن نفسها بوساطة أبطالها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ هذه إشارة البدء، أما ما يلي ذلك فمتروك لإبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، إلى نهاية المشهد الطويل، ولهذا نظائره في كثير من قصص القرآن الكريم.

- تنوّع طريقة المفاجأة:

• فمرّة يكتّم سرّ المفاجأة عن البطل وعن القارئ، حتّى يكشف لهم معاً في آن واحد، مثال ذلك قصّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع العبد الصّالح، والعالم في سورة الكهف.

• في أخرى يكشف السرّ للقارئ، ويترك أبطال القصة عنه في عماية. وهؤلاء يتصرّفون وهم جاهلون بالسرّ وأولئك يشاهدون تصرّفاتهم عالمين وأغلب ما



يكون ذلك في معرض السخرية ومثل ذلك ما نراه في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم^(١).

• في ثالثة يكشف بعض السرّ للقارئ وهو خاف على البطل في موضع، وخاف على القارئ وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة، مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جيء به في غمضة، وعرفنا نحن أنه بين يدي سليمان عَلَيْهِ السَّلَام في حين أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلمه نحن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]؛ فهذه مفاجئة عرفنا سرّها سلفاً، ولكن مفاجأة الصرح الممرّد من قوارير ظلت خافية علينا وعليها حتّى فوجئنا بسرّها معاً حين: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤].

• وفي رابعة لا يكون هناك سرّ، بل تواجه المفاجأة البطل والقارئ في آن واحد، ويعلمان سرّها في الوقت ذاته وذلك كمفاجأة قصة مريم.

- الفجوات بين المشاهد في عرض القصة: تلك الفجوات بين المشهد والمشهد التي يتركها تقسيم المشاهد و (قص) المناظر مما يؤديه في المسرح الحديث: إنزال الستار^(٢).

✧ ثالث عشر: من مقاصد سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام:

تحدّث العلماء عن مقاصد سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وقد ذكر الدكتور علي القره داغي أهمّ مقاصد سورة يوسف بإيجاز شديد، إذ قال:

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٦.

(٢) بعض المبادئ التربوية المستفادة من سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٣٧.



١- التَّعَقُّلُ والتَّدَبُّرُ والتَّبَصُّرُ، فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ أي: تعقلون ما أنزل الله تعالى من الآيات والقصص، وتفكرون في مآلات الأمور، ولا تكتفوا بظاهر الأمور فقط، بل بباطنها ومآلاتها ونتائجها وآثارها، في الدنيا والآخرة.

٢- إحداث الوعي الشَّامِلِ والتَّوَعُّية القريبة والبعيدة الكاملة حتَّى يخرج المسلم عن الغفلة والسطحيَّة، ويكون قادراً على فهم الأشياء والقضايا على حقيقتها ومقاصدها.

٣- تقوية الإيمان بالله تعالى، والتَّوَكُّلُ الكامل عليه، وتفويض الأمر إليه: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ فما على الإنسان إلَّا الأخذ بالأسباب بقدر الإمكان مع التَّوَكُّلِ على الله حقَّ التَّوَكُّلِ.

٤- الرضا التَّام من المؤمن بقضاء الله تعالى وقدره، وحسن اليقين بالله تعالى، بأن المصائب والابتلاءات والمحن تحمل في طياتها المنح الربانيَّة ما دام صابراً راضياً مطيعاً لله تعالى، فلا يستيس من رحمة الله، ولا يقنط من فضل الله، بل يطمع في نصر الله، وفي تفريج الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ فالسورة تؤكد على هذا المقصد من بداية محن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في البئر إلى السجن، ثم من السجن إلى القصر وإلى التمكين. كما أن سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يمثل قِمة الرضا والأمل الكبير، وطرْدِ البأس والقنوت.

٥- العبرة والاتعاظ لأصحاب العقول السليمة والألباب الواعية فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].



٦- بيان أن الحسد لا يعود بالخير حتى على صاحبه بل يؤدي إلى الخذلان والذل والهوان، وإن الله تعالى قد يجعل حسد الحاسد سبباً لارتفاع المحسود، فكما يقول الشاعر أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عرف العود^(١)

٧- الدعوة إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإنكار الشرك وإفراد الله بالعبادة والدلالة على ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

٨- الدعوة إلى تزكية النفس البشريّة من خلال التعريف بها وبطبيعته وترغيب الناس بمحاسبتها ومراجعتها، والرجوع إلى الله بالاستغفار والتّوبة.

٩- الدلالة على الطريق التي تؤدي إلى تقوى الله من خلال بيان وإظهار ثمارها في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وأنه سبب للمخرج من كلّ ضيق وبها ييسر الله الأمور وينور العقول، ويطهر النفوس، وبها تنزل البركات الماديّة والمعنويّة، وبها الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم.

١٠- الإشادة بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة كالإخلاص والصدق والإحسان والعفة، والكرم والعفو والصبر والحكمة والعلم... إلخ.

١١- أهميّة تقديم الخير والإحسان، ومعاونة الناس على حلّ أزماتهم والتّخلص من نكباتهم مهما كانت عقيدة هؤلاء البشر ويكون ذلك الفعل والعمل ممّا يتقرب به إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قدوة المسلمين في غير ديارهم، القره داغي، مرجع سابق، ص ٢٠.

١٢- أَنْ التَّمَكِينَ لِعِبَادِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَحْضُ فَضْلٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى يَسُوقُ لَهُ أَسْبَابَهُ وَيُوفِّرُ لَهُ شُرُوطَهُ، وَسُنَنَهُ وَصِفَاتِ أَهْلِهِ وَهُوَ خَاضِعٌ لِمَشِئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

١٣- أَنْ الْقُوَّةَ وَالتَّمَكِينَ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ فِي خِدْمَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَالْمَسَاكِينَ وَتَقْدِيمِ الْعَوْنِ لِلْمُحْتَاجِينَ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ مَعَ الْأَقَارِبِ... إلخ.

١٤- بَيَانُ أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ عَاشَ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ وَحُزْنٍ، كَمَا أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبَةً مِنْ عِبَادَةِ سِوَاءِ الطَّائِعِ، أَوْ الْعَاصِي.

١٥- أَنَّ الْغَايَةَ مِنَ الْحَيَاةِ تَحْقِيقَ الْعِبَادَةِ وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ وَالْحِرْصَ عَلَى الْوَفَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُلْحَقَ الْعَبْدُ بِالصَّالِحِينَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ وَالْغَايَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ.

✧ رَابِعُ عَشَرَ: الْمَقْدَمَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِقِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ١ - ٣].

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف: ١].

١. ﴿الرَّ﴾:

تَلْفُظٌ: أَلِفٌ لَامٌ رَاءٌ، وَهِيَ مِنَ الْحُرُوفِ النُّورَانِيَّةِ، وَتَسْمَى أَيْضًا بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، لِتَفْرِيقِهَا وَتَمْيِيزِهَا عَنِ الْحُرُوفِ الْمُتَّصِلَةِ فِي الْكَلَامِ الْمَعْتَادِ^(١).

(١) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ، د. مُحَمَّدٌ عَاطِفُ السَّقَّاءِ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص ١٥.



ولم يثبت عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ تكلم في شيء من معاني هذه الحروف المقطّعة، بل غاية ما ثبت عنه؛ هو ذكر عدد أسماء هذه الحروف^(١)، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به عشر حسنات. والحسنة بعشر أمثالها. ولا أقول: (الم) حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٢).

وبعد الاستقراء والاطّلاع، تبيّن أنّ الأحرف المقطّعة ذكرت في تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم المائة وأربع عشرة سورة، سنشير إليها بشكل مختصر، وهي كالتّالي:

- (الم): وردت في سورة البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

- (المص): وردت في سورة الأعراف.

- (الر): وردت في سورة يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

- (المز): وردت في سورة الرعد.

- (طه): وردت في سورة طه.

- (طسم): وردت في سورة الشعراء، والقصص.

- (طس): وردت في سورة النمل.

(١) أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني، منال فهد، المكتبة المركزية، رسالة جامعية، ٢٠١٩م، ص ٧٧.

(٢) رواه الترمذي، سنن الترمذي أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر، رقم الحديث: ٢٩١٠.



- (يس): وردت في سورة يس.
- (ص): وردت في سورة ص.
- (حم): وردت في سورة غافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

- (حم عسق): وردت في سورة الشورى.

- (ق): وردت في سورة ق.

- (ن): وردت في سورة القلم.

ويُلاحظ، بأن غالبية الآيات اللاحقة بالأحرف المقطّعة تتحدّث عن القرآن الكريم، وإن تعدّدت فيها الألفاظ؛ تارة (القرآن)، وتارة: (الكتاب)، وتارة أخرى: (آيات الكتاب) والخ...

وقد اختلف المفسرون في بيان معنى الحروف المقطّعة اختلافاً واسعاً، وقد تعدّدت أقوالهم في بيان المراد منها، وفي صدد الحديث عنها، لا بدّ من التطرّق إلى بيانها، وبيان أوجه الاختلاف في تأويلها مع الترجيح^(١).

وملخص اختلاف العلماء في تأويلهم الأحرف المقطّعة كالتالي:

الأول: اسم من أسماء القرآن، كما جاء عن قتادة في قوله: (الم): اسم من أسماء القرآن^(٢).

الثاني: هي فواتح يفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها القرآن. عن مجاهد قال: (الم)، (حم)، (المص)، (ص): فواتح افتتح الله بها^(٣).

(١) أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني، منال فهد، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧٨.

(٣) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د/ ط، ج ١، ص ٢٠٥-٢١٠، المحرر الوجيز: ج ١، ص ٨٢.



الثالث: قيل: هي أسماء السور. سئل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن قوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ أَلْكَتَبْ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿البقرة: ١ - ٢﴾، و ﴿الْم ١﴾ تَنْزِيلُ أَلْكَتَبِ ﴿[السجدة: ١ - ٢] و ﴿الْم ٢﴾ تِلْكَ أَيْتُ أَلْكَتَبِ ﴿[الرعد: ١]، فقال: قال أبي: إنما هي أسماء سور.

الرابع: قيل: هي اسم الله الأعظم. عن الشعبي قال: هي فواتح السور من أسماء الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ^(١).

الخامس: قيل: هي حروف مقطعة من أسماء وأفعال، كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر.

السادس: لكل كتاب سرّ، وسرّ القرآن فواتحه.

السابع: قال آخرون: ابتداء الله أوائل السور بذلك ليفتح لاستماعه أسماء المشركين، إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له، تلي عليهم المؤلف منه.

الثامن: هو قسم أقسم الله به وهو من أسمائه؛ عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: هو قسم أقسم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** به، وهو من أسماء الله **عَزَّ وَجَلَّ** ^(٢).

التاسع: ابتداء **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** هذه السور بحروف صوتية منفردة، ومهما حاول العلماء أن يفسروها لن يصلوا إلى معانيها وهي ظنون يردّدونها، وليست معاني يستقيم إدراكها، إنّها متشابهة اختصّ الله بعلمه، وقد آمنّا به كلّ من عند ربّنا، ولا ينبغي تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله **عَزَّ وَجَلَّ** ^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ج ١، ص ٢٠٥ - ٢١٠.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ٢٠٥ - ٢١٠.

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط ١ (١٤٣٢هـ)، ج ٧، ص ٣٩٧٤.

العاشر: ذُكرت لتنبئه العرب إلى أن القرآن الكريم إنما أُلِّفَت كلماته من جنس ما تَوَلَّفَ منه كلماتهم، أي: من حروف الهجاء العربيّة المعروفة لديهم، فلم ينزل بكلمات خارقة للعادة حروفها، ولا مباينة للمألوف في مواد تركيبها، ومع ذلك فقد كان عجزهم عنه أبلغ في الحجّة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم حيث عجزوا عن الإتيان ولو بأقصر سورة من مثله، ومع أنّهم أصحاب البلاغة والفصاحة والبيان^(١).

٢. ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾:

- ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة للبعيد، واستعمل هنا ليشعر بارتفاع قدر آيات الكتاب فوق كلّ كلام ارتفاعاً هائلاً وعلوّاً سامياً لا ينال ولا يُدرّك، ولا حتّى يقرب منه كلام آخر^(٢).

ومع أن الآيات بين يديك ممسك بصحائفها، إلّا أنّك تقول: تلك (إشارة للبعيد)، استشعاراً لعلّو مكانتها، وشموخ معانيها، ورفعة شأنها^(٣).

- ﴿ءَايَاتُ﴾: ترد كلمة: ﴿ءَايَاتُ﴾، في القرآن لمعانٍ منها:

الأول: بمعنى الجمل المنزلة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقروءة باللسان، ويُقال لها: في القرآن فواصل، وسجعات، وفقر، ومنه قولهم مثلاً: سورة يوسف مائة وإحدى عشرة آية، والفاتحة: سبع آيات، وهكذا.

(١) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، (١/٣٤)، أثر السياق القرآني في الترجيح، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٢) تأملات إيمانية في سورة يوسف، ياسر برهامي، دار الخلفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ١٢.

(٣) يوسفيات، علي جابر الفيافي، دار الميمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، ص ٢١.



الثاني: بمعنى العلامات، فقال النابغة الذبياني:

توهمتُ آيات لها فعرفتها لسته أعوام وذا العام سابع
ومنها العلامة التي أقامها في الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته
وكماله وتنزيهه.

الثالث: بمعنى المعجزات الخارقة للعادة، التي أجراها الله على أيدي رسله،
ولعله قيل لها آية لأنها علامة.

الرابع: بمعنى العبر والذكر والحكم والعظات التي توخذ بما ينزله الله على
نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المعنى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾
[يوسف: ٧]؛ فالآية هنا بمعنى العبرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

الخامس: بمعنى العجيبة؛ لأنها عجب من العجائب، وقال الدكتور محمد
عاطف السقا: آيات: جمع آية، والآية هي الدليل الواضح والبرهان الساطع،
والحجة البينة على أمر أو شيء ما^(١).

وآيات القرآن الكريم هي آيات الله في كتابه الدالة عليه وعلى مراده في خلقه،
وقد جاءت على ثلاثة أنواع:

- آيات الله في كتابه.

- آيات الله لأنبيائه.

- آيات الله في خلقه.

(١) يوسف أيها الصديق، مرجع سبق، ص ٢٢.



ومن مقاصد آيات الله تعالى في كتابه العزيز:

- الدلالة على الله سبحانه، والتعريف بأسمائه الحسنی وصفاته العليا.

- الدلالة على صدق رُسله.

- الدلالة على مُراد الله من الناس؛ إيمان وتكليف (عبادة)، ويتبعها

حساب وجزاء.

وقد فصلها الله في آيات العقيدة، وفي آيات الشرائع والأحكام، وفي آيات القيم والأخلاق، وذلك لتبين مقاصد الله في خلق هذا الإنسان المميز بالإرادة العاقلة، والاختيار الحرّ، وجعله محلّ العبادة والتكليف الحرّ المختار، ومن ثمّ الحساب والجزاء^(١).

وآيات الله من الخوارق التي يعجز غير الله تعالى أن يأتي بمثلها إلا بأمره وإذنه، ومن أمثلة هذه الآيات: ناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء الموتى لعيسى، ومن أعظم الآيات وأبقاها؛ هذا القرآن العظيم الذي أوتيّه محمد ﷺ فقد أعجز الإنس والجن على أن يأتوا ﴿بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وأما آيات الله في خلقه: هي ما بثّه الله وخلقه في الكون العظيم بسماواته وأرضه (الكتاب المنظور)، في كلّ صغير وكبير، فيه من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة، ومن أصغر جرثومة إلى أكبر دابّة.

إنّ كلّ مخلوق في هذا الكون آية، ومن البدهة والسلامة منطقاً أنّ لهذا الكون خالقاً عظيماً، ولم يدع أحداً إلا الله خلق هذا الكون، أو شيئاً منه، وكما أنّنا لا نجد أحداً من الخلق له القدرة على خلق ذرّة من عدم.

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٢٣.



إنّ هذا الكون أثبت أنّ خالقه واحد؛ هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ودلّت آيات الله في خلقه العظيم أنّ هذا الخالق له صفات العظمة والعلم والقدرة والعدل والحكم، والوجود والقيوميّة، وسائر أسماء الله الحسنی وصفاته العليا الواردة في كتاب الله العزيز الحكيم دلّت على وجوده سبحانه، وعلى وحدانيّته في صفات ربوبيّته، وآيات الله في كتابه (المستور)، دلّت على مُرادِه وعلى مقاصده^(١).

- ﴿الْكِتَابِ﴾: كلمة الكتاب عندما تطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم^(٢)، و﴿الْكِتَابِ﴾ إشارة إلى أنّ القرآن ما دام مكتوباً فهو موثّق لا ريب فيه، وفيها أيضاً دلالة إعجاز أخرى، وهي أنّه في العهد المكي والمدني كان مكتوباً على مواد بسيطة كما أثبتت الروايات، ولكنّه لم يكن مجموعاً كاملاً إلا في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بين دفتين جمع ما تفرّق، وفي عهد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جمع ما اختلف فيه من أحرف. فدلّ قوله الله تعالى: ﴿الْكِتَابِ﴾ على أنّه سيجمع وسيكفل الله بحفظه، وصدق الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولن تكون كتابته معمة، بل ستكون معيّنة، ويدلّ على ذلك قوله: ﴿الْمُيِّنِ﴾، صحيح أنّها وصف لـ ﴿الْكِتَابِ﴾، لا وصف لـ ﴿ءَايَتُ﴾، غير أنّ الآيات جزء من الكتاب وما ينسب هنا على الجزء ينسحب على الكلّ. ولما أشار الحقّ لكونه مكتوباً موثقاً أشار إلى وصف حاله آخر فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]؛ فالهاء تعود على: ﴿الْكِتَابِ﴾، فهذا الكتاب لم يكن

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، (٦٨١٨/١١).

ليكون كتاباً مكتوباً فحسب، ولكن شاء الله أن يحفظه مقروءاً، فهو محفوظ بالقراءة، إذ يأخذه جمع عن جمع بالتلاوة قبل الكتابة^(١).

- ﴿الْمُيِّنِ﴾: أي: الذي يبين كل شيء تحتاجه حركة الإنسان في الأرض، فإن بان لك شيء، وظننت أن القرآن لم يتعرض له، فلا بد أن تبحث عن مادة، أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غاب عنك. ويروى عن الإمام محمد عبده أنه قابل أحد المستشرقين في باريس، فوجه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال: ما دامت هناك آية في القرآن تقول: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فدعني أسألك كم رغبةً ينتجه إردبُ القمح فقال الإمام للمستشرق: انتظر، واستدعى الإمام خبازاً وسأله: كم رغبةً يمكن أن نصنعه من إردبُ القمح فأجاب الخباز على السؤال. فقال المستشرق: لقد طلبت منك إجابة من القرآن، لا من الخباز، فرد الإمام: إذا كان القرآن قد قال: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فالقرآن قال أيضاً: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ولقد أورد الإمام محمد عبده رَحِمَهُ اللهُ بآنَّ العقل البشري أضيق من أن يسع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة؛ لذلك شاء الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ تُوزَع المواهب بين البشر، ليصبح كلُّ متفوق في مجال ما، هو من أهل الذكر في مجاله.

ونحن - على سبيل المثال - عندما نتعرض لمسألة ميراث، نلجأ إلى من تخصص في الموارث ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث. وحتى يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة، ويبحث عند بدء الحج عمن يعلمه خطوات الحج كم أذاها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهكذا..

(١) تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، (١٢٧١/٣).



ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

١. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾:

- ﴿إِنَّا﴾: أي: إن الخطاب من الله الحاضر غير الغائب ذي المجد والمعظمة، والسلطان؛ بجميع أسمائه الحسنی وصفاته العليا.

- ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾: كذلك بصيغة الجمع للتفخيم، وأنزله سبحانه وتعالى بجميع أسمائه الحسنی وصفاته العليا. وضمير الهاء راجع إلى الكتاب^(١). وأما دلالة (الإنزال) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، فإشارة إلى الإنزال، والإنزال يكون جملة واحدة، والتنزيل يكون على مراحل متعددة على اعتبار النزول، ولذا قيل: الإنزال يُستعمل في الدفعة، والتنزيل في التدرج^(٢). ونلاحظ في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، أنها إحدى الصيغ التي أرادها الله سبحانه وتعالى للتعبير عن حال وصول القرآن إلى الناس، ولقد تعددت الصيغ في القرآن، الكريم، فالله تعالى يقول: ﴿نَزَّلَ﴾، و﴿أَنْزَلَ﴾، ولكل من هذه الصيغ مدلولاتها، فسبحان الله العظيم، تعالى شأنه، وجلت قدرته فيما أنزل^(٣). فمثلاً قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلّغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومرة قال تعالى: ﴿وَأَمْنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، والنزول في هذه الحالة منسوب لله عز وجل. وأما قول الحق سبحانه: ﴿يَسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٩٠]، فهو القول الذي يعني أن القرآن قد تعدى كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ ليباشر

(١) يوسف أيها الصديق، محمد السقا، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، د. أشرف أحمد، مكتبة آفاق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦/٢٠١٥ م، ص ٢٧.

(٣) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م، ص ١٥.



مهمته في الوجود ببعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك نجوما متفرقة ليعالج كل المسائل التي تعرض لها المسلمون^(١). وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل، أو نزل به الروح الأمين، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، أي: أن الحق سبحانه وتعالى أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم أنزله مفرقا ليعالج الأحداث ويياشر مهمته في الوجود الواقعي. وفي هذه الآية يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وفي الآية السابقة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، فمرة يصفه بأنه قرآن بمعنى المقروء، ومرة يصفه بأنه كتاب؛ لأنه مسطور، وهذا من معجزات التسمية. ونحن نعلم أن القرآن حين جُمع ليكتب، كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوبا، ويشهد عليه اثنان من الحافظين^(٢)، إذن، فهو قرآن وكتاب، وهذا من إعجاز التسمية.

إن القرآن الكريم أنزل من العلو، فهو يحمل خصائص السمو والعلو والارتفاع، فكل من قرأه وأراد بذلك وجه الله سبحانه وتعالى، وعمل به ابتغاء مرضاته، وحفظه مخلصا لله، تطهرت نفسه، وارتفعت درجته عند ربه، وعلت مكانته في الدنيا والآخرة.

وفي قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، يستوقفنا هذه الآية الإشارة إلى عظمة منزل الكتاب من خلال نون العظمة، وكيف لا، وهو قيوم السماوات والأرض، وملك الملوك، والآخذ بناصية كل شيء. وإن هذه العظمة التي في

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٢٢).

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٢٣).



القرآن لتقطع لك بأنه كلام الله، فإنه لا يستطيع بشر أن يتحل هذه العظمة وإن عظمة المنزل ترتبط بها عظمة الكتاب المنزل، وعظمة الأمة المنزل فيها الكتاب^(١).

- ﴿عَرَبِيًّا﴾: فالقرآن الكريم عربي اللغة، أنزله سبحانه على النبي العربي سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي في أرض العرب إذ قدر سبحانه أن تكون رسالة كل رسول بلسان قومه قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد جاء التأكيد على وصف القرآن الكريم بأنه عربي اللغة في عدد من الآيات الكريمة منها:

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].
 - ﴿وكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

- ﴿وَلَنُفِثَنَّ نَزِيلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]. وغير ذلك من الآيات، وكل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم عربي اللغة بجميع كلماته.

- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَجْمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

- وقال أيضاً: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

(١) تفسير سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

فالقرآن كلّ عربي، وما من كلمة فيه إلّا كان العرب يتكلمون بها قبل نزوله. ويدلّ نزول القرآن الكريم باللغة العربيّة على فضلها وشرفها على سائر اللغات، لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختارها لغة لأفضل الكتب وأشرفها، وكما يدلّ على أن اللغة العربيّة تمتاز بقدرتها الفائقة على تأدية المعنى مهما كان^(١).

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف بقاع الأرض^(٢). وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كلّ الوجوه.

إنّ القرآن الكريم كتاب مبين واضح جليّ لأنّه نزل بلغة العرب، أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني، وهذا يفنّد مزاعم القائلين بعجز اللغة العربيّة عن مسايرة ركب التطوّر العلمي في العصر الحاضر، وهي أكذوبة كبيرة وفريّة عظيمة على اللغة العربيّة، روجها أعداء الإسلام من المستشرقين، وأخذ بها - مع الأسف - كثير من المثقّفين العرب، فعزلوا لغتهم العربيّة عن مجالات الدّراسة والتدريس في معظم الجامعات والكليّات العلميّة وغفلوا عن حقيقة هامّة، هي أنّ اللغة العربيّة كانت لغة الحضارة الإسلاميّة، التي ضمّت تحت أجنحتها مختلف الثقافات والعلوم التي كانت سائدة في العالم، الحضارة التي خلّفت أكبر تراث علميّ وحضاريّ لأمة من الأمم. وغفلوا أيضاً عن كون اللغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، والذي أخبر عن كثير من

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مرجع سابق، (٤/١٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، (٤/٣٦٦).



الحقائق العلميّة التي ما عُرِفَتْ إلّا في العصر الحاضر. ولقد ذهب بعض العلماء في مؤتمر الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٨٦ م إلى المطالبة بجعل الكلمات القرآنيّة العلميّة لأطوار خلق الجنين هي المصطلحات العلميّة، ونادى هؤلاء بتعميمها على سائر الأوساط العلميّة بسبب ما وجدوا من دقّتها العلميّة المتناهية في وصف أطوار الجنين وأحواله^(١).

نالت العربيّة شرفها، وارتفاع مكانتها بين اللغات من ارتباطها بالموصوف، وهو القرآن الكريم، وهو فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْعَرَبِ ولغتهم العربيّة بأنّ القرآن الكريم نزل بالعربيّة ليكون خطاب المولى سبحانه إلى كافة الخلق، فارتفع شأنها بهذا التكريم الرباني، ولولا ذلك لبادت وانثرت منذ زمن بعيد، ولتحولت إلى لهجات متباينة مختلفة لا يكاد الناطقون بأحدها يفهمون الأخرى^(٢).

أخرج القرآن الكريم اللغة العربيّة من عالم الجزيرة إلى عالم الرسالة الرحب عندما خاطب بها العشيرة وخاطب بها أهل مكة ثمّ خاطب بها النّاس أجمعين، فاستطاع أن يقرب بين يديها معظم أنحاء العراق وبلاد الشام وشمال أفريقيا، واستطاع المسلمون الفاتحون أن ينشروا العربيّة في معظم البلاد المفتوحة، ذلك أن التعريب بالقرآن وتحت رايته جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام^(٣). وأصبح تعلم العربيّة ضرورة دينية، فالصلاة لا تكون إلّا باللغة العربيّة وكذلك الأذان فلا بد من قراءة القرآن ورفع الأذان وأداء الصلاة بالعربيّة^(٤).

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (١٢٤/٤).

(٢) العدد في القرآن الكريم، عبد الرحمن سعود، مرجع سابق، ص ٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.



إنَّ كون القرآن جاء بلسان عربي مُبين يقتضي ألاَّ يتعدَّى لفهم القرآن الكريم وتفسيره إلاَّ من كان عالمًا باللغة العربيَّة؛ ففقهها وصرفها وبيانها ومعانيها وبديعها، وأساليبها ودلالاتها، أمَّا غير العرب، فإِما أن يتعلموا اللغة العربيَّة كما فعلوا فسبقوا بضعهم أهلها، وأبدعوا فيها، أو نترجم لهم معاني القرآن الكريم، فتكون المعجزة في معانيه وتشريعاته وما يتضمنه من الإعجاز العلمي والطبي ونحوه^(١).

إنَّ القرآن الكريم منهج حياة، ومعجزة ربانية لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزل باللغة العربيَّة؛ لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيجهر في الدعوة في أمة عربيَّة، وكان لا بد من وجود معجزة تدلُّ على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون ممَّا نبغ فيه العرب؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدي ولا يمكن أن يتحداهم في أمر لا ريادة لهم فيه، ولا لهم به صلة، حتَّى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلَّم هذا ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيانٍ وأدب ونبوغ في الفصاحة والشعر، وكانوا يجتمعون في الأسواق، وتتفاخر كلُّ قبيلة بشعرائها وخطبائها المفوَّهين. وكانت المباريات الأدائيَّة تقام، وكانت التحديات تجري في هذا المجال ويُنصب لها الحكَّام. أي: أنَّ الدربة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة محكوم عليها من النَّاس في الأسواق، فهم أئمة بيان وبلاغة وفصاحة. لذلك شاء الحق سُبحَانَهُ وتعالى أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب، وهم أوَّل قوم نزل فيهم القرآن، وحين يؤمن هؤلاء لن يكون التحدي بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام، بل بالمبادئ التي تطغى على مبادئ الفرس والروم^(٢).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة للمسلمين في غير ديارهم، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٢٥).



إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَل مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي تَمَيَّزَ عَنْ سَائِرِ كُتُبِ الرِّسْلِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ، بِأَنَّهُ كِتَابٌ وَمُعْجَزَةٌ فِي آنٍ وَاحِدٍ، بَيْنَمَا كَانَتْ مُعْجَزَاتُ الرِّسْلِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْفَصِلَةً عَنْ كُتُبِ الْأَحْكَامِ الَّتِي نَزَلَتْ إِلَيْهِمْ، وَيُظَلُّ الْقُرْآنُ مُعْجَزَةٌ تَحْمِلُ مِنْهَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ^(١).

٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

أي: وتدركون أنَّ هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون من صنعة بشر، فلا بد عقلاً أن يكون القرآن وحياً، والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالاتها القاهرة^(٢). وإنَّ من مهام القرآن أن يهدي العقل إلى الطريق السليم للتفكير، وأن يزوده بالمعلومات السليمة التي تمكنه من التفكير السليم، فإنَّ العقل يحتاج إلى منهج كالطريق يسير عليه ويحتاج إلى معلومات تشغله. والقرآن زودنا بكلِّ ذلك، بالمعلومات اللازمة عن الغيبات وعن الكون، وزودنا بالمنهج الذي به نفكر، ووفقه ننظم طاقتنا الفكرية، ونحفظ عقولنا من أن تتبدد في الضلال وتأسرها الأهواء والأحكام الخاطئة والمناهج الفاسدة، من فلسفة ضالة، أو منطق مزيف، وكم اخترع الإنسان من مناهج ضلَّل بها نفسه، والحمد لله على منَّة حفظ عقولنا مع منَّة هداية قلوبنا^(٣).

و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ ما فيه حقٌّ وهدى ونور وخير وسعادة، وتعقلون سموه بما اشتمل عليه من أنواع الإعجاز، وبما اشتمل عليه من جمال اللفظ وجلال المعنى وقوة الأسلوب، وحسن التعليم، وتلازم الكلمات، وأخذ كلِّ كلمة بحُجَز الآخر مما يأخذ بمجامع القلوب ولألباب وما إلى ذلك مما احتواه

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/٦٨٢٦).

(٢) في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٤/١٩٧٠).

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٣٤.



من القياسات الحكيمة والتشريعات الرشيدة، والمعاملات العادلة، مما أخبر به من أحوال الماضي، وما تنبأ به من أحداث المستقبل، كل ذلك من نبي أمي لم يمسك قلمًا، ولم يقرأ في كتاب، ولم يدرس على معلم، ولم يخالط العلماء، ولم يعاشر أحدًا من القسيسين والرهبان. فإذا عقلوا القرآن الذي نزل بلغتهم علموا أنه كلام الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]^(١).

و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] حقائق الوجود وتدركونها وتعرفون الغاية التي من أجلها وجد الخلق، ونهاية المطاف بعد هذه الحياة ومعرفة صفات ربكم ووحدانيته وصدق رسله وتوابع ذلك من الإيمان، فليس بعاقل من أفنى عمره في لذات الطعام والشراب، والجنس والرياسة، والشهرة والمال، وهو يرى الموت يحصد أمامه من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا، وليس بعاقل من رأى عاقبة من سبقه من الكفرة والفسقة والعصاة، ثم هو يسير على سننهم ويكرر غيهم وضلالاتهم، وليس بعاقل من نسي نفسه، وجعل عمره لغيره، فأفسد دينه، وآخrote لإصلاح دنيا غيره، وما أصلحها، بل أفسده وأشقى نفسه وغيره! فالعاقل الحقيقي هو أن يُعدَّ الإنسان لمستقبله بعد رحيله عن هذه الأرض، بعد رحلته القصيرة التي يحياها فوقها^(٢).

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]: تدل الآية على أن الإسلام لا يقوم على مجرد الأوهام والخيالات، بل بحكمة العقل والمنطق الذي يضبط كل عاطفة حتى لا تهبط بصاحبها إلى مهاوي الفتنة والهلكة. نعوذ بالله منها^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٥.

(٢) تأملات إيمانية في سورة يوسف، ياسر برهامي، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣) الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٢٨.



ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

يتحدث الله سبحانه وتعالى عن فعل من أفعاله، ويأتي بضمير الجمع، فسبب ذلك أنّ كل فعل من أفعاله يتطلب وجود صفات متعدّدة، يتطلب، علماً، حكمة، قدرة... ومن غيره سبحانه وتعالى له كلّ الصفات التي تفعل ما شاء وقت ما يشاء؟ لا أحد سواه قادر على ذلك؛ لأنّه سبحانه وتعالى وحده صاحب الصفات التي تقوم بكل مطلوب في الحياة ومقدّر، لكن حين يتكلم سبحانه وتعالى عن الذات فهو يؤكد التوحيد فلا تأتي بصيغة الجمع، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤].

١. ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾:

يتكلم سبحانه وتعالى بأسلوب يُعبّر عن أفعاله، ولا يقدر عليه غيره بالدقة التي شاءها هو سبحانه وتعالى^(١).

والتعبير بـ ﴿ نَحْنُ ﴾ للدلالة على أنّ القصة عظيمة، وهنا تنبيه مهم وهو أنّ إسناده فعل القصة إلى الله تعالى لا يعطي الحقّ في إطلاق الصفة المشتقة منه عليه سبحانه وتعالى، ولذلك لا يجوز إطلاق (القاص) على الله سبحانه وتعالى، فالقاعدة الذهبية في المسألة هي: أنّ ما أثبتّه الله سبحانه وتعالى لذاته بصيغة الصفة، مثل: العالم، والقادر، ونحوهما يجوز إطلاقها وإطلاق فعلها على ذاته العلية^(٢).

يقول العلامة الشعراوي: وفي كلّ ما يتعلق به ذاتاً وصفات وأفعالاً إنّما نلتزم الأدب؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلّا ما أخبرنا الله عن نفسه؛ لذلك لا يصح

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٢٩).

(٢) يوسف عليه السلام، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٧.

أن نقول عن الله أنه: (قصاص)، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به، ولا نشق منه اسماً لله؛ لأنه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنی بذلك، والواجب ما أطلقه اسماً نأخذه اسماً وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً^(١). ونعلم أن كلمة (قص) تعني الاتباع، وقال بعض العلماء: إن القصّة تُسمى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة، ومأخوذة من قصّ الأثر، وهو تتبع أثر السائر على الأرض؛ حتى يعرف الإنسان مصير من يتبعه، ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذي سار فيه من يبحث عنه. وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]؛ قصيه: أي: تتبعي أثره. إذن فالقصّ ليس هو الكلمة التي تتبع كلمة، إنّما القصّ هو تتبع ما حدث بالفعل، فتكون كلمة مصوّرة لواقع، لا لبس فيه أو خيال؛ ولا تزيد. وليس كما يحدث في القصص الفني الحديث، حيث يضيف القصاص لقطات خيالية من أجل الحكمة الفنية والإشارة وجذب الانتباه. وأمّا قصص القرآن فموضعه مختلف تماماً، فكل قصص القرآن إنّما يتبع ما حدث فعلاً؛ لنأخذ منها العبرة والفوائد والدروس؛ لأنّ القصّة نوع من التاريخ^(٢).

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: العظيم يقصّ، والرسول الكريم يستمع نصّاً يفيض نوراً؛ يا الله ما أجمل الموقف، أن يقصّ الخالق على المخلوق! إنّها القصص المؤثرة في كلّ النفوس، وفي نفوس الأنبياء والمرسلين والمصلحين والصالحين والمؤمنين والمسلمين، والإنسان جُبِلَ على حبّ القصص، فهي أسلوب تربوي يجذب المتلقي^(٣).

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣١).

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣٣).

(٣) أيها الصديق، محمد خيرى، مركز آيات لتعليم القرآن الكريم، حقوق الطبع محفوظة، ص ١٣.



﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾: والآية التي قبلها: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، يدل على مرونة اللغة، وقدرتها على تأدية مختلف المعاني بأفصح المباني، وأوضحها، فأحسن القصص أنزلها رَحِمَهُ اللهُ بِهَا، باللغة العربية، وهي في الأصل قصة غير عربية في أشخاصها وأحداثها، فالقصة عبرية، مع ذلك قصها الله علينا في القرآن العربي المبين بأرفع بيان، وأفصح كلام، في سورة واحدة بأداء واقعي كامل، رغم تنوع الشخصيات والمواقف، ورغم كثرة العواطف والمشاعر ودقتها واختلافها، وكل ذلك يدل على فضل اللغة العربية وشرفها، وقدرتها على تأدية مختلف المعاني، سواء كانت تاريخية أو علمية أو غير ذلك^(١).

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾؛ لأنه قص بأبداع أسلوب، ولأنه يبين عجائب النفوس، وفيه أحسن الآداب، وما يهمننا من اتقاء آفات النفوس، وانحرافها؛ ولأن فيه علاج الآفات النفسية التي ينزغ فيها الشيطان نزغه؛ ولأن فيه علاج الأمم في اجتماعها واقتصادها وكافة أمور حياتها^(٢).

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾؛ ومن العلماء من يرى أن قصة يوسف أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعددة؛ عبر في الطفولة، في مواجهة الشيوخة، والحق والحدس بين الإخوة، والتمرد وإلقاءه في الحب، والكيد له، ووضع سجيناً بظلم، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب، والاعتزاز بالحق حتى تم له النصر والتمكين. وكيف ألقى الله على يوسف عليه السلام محبة منه؛ ليجعل كل من يلتقي به يتسابق على خدمته.

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (١٢٤/٤).

(٢) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (١٢٤/٤).



وكيف صان يوسف إرث النبوة بما فيه من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة، فعفا عن إخوته بما روته السورة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقالها سيد البشر محمد لأهله يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١). هكذا تمتلئ سورة يوسف بهذه العبر؛ لذلك فهي أحسن القصص، إمّا لأنها جمعت حادثة ومن دار حولها من أشخاص، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث، أو أنها أحسن القصص، لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطات متعدّدة تسير العمر والزمن، والعمر العقلي، والعمر العاطفي للإنسان في كلّ أطواره؛ ضعيفاً، مغلوباً على أمره، وقوياً مسيطراً ممكناً من كلّ شيء^(٢).

قال البقاعي: ومن ذلك قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد ضمنها سبحانه من النكت والعبر والحكم أمراً عظيماً، وذكر فيها حسن مجاورة يوسف عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته وصبره على أذاهم وحلمه عنهم وإغضائه عند لقائهم عن تبكيتهم وكرمه في العفو، والأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن والتوحيد والنبوة والإعجاز والتعبير والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجميع الفوائد التي تصلح للدين والدنيا، وذكر الحبيب والمحبوب، ولم يدخل فيها شيئاً من غيرها دون سائر القصص، وكان عقابها إلى خير وسلامة واجتماع شمل وعفو من الله وتجاوز عن الكل^(٣).

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١ / ٦٨٣٥).

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١ / ٦٨٣٦).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - مصر، (٦ / ٤).



وهناك من العلماء من قال: ليس المراد بـ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على وجه الخصوص، وأيد ذلك ابن تيمية فقال: وليس المراد بقوله: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] قصة يوسف وحدها، بل كل ما قصه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يدخل في أحسن القصص، واحتج على ذلك بالأدلة الآتية^(١).

- سياق الآيات في السّورة؛ فإنه قال في آخرها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]؛ فبين أن العبرة في قصص المرسلين^(٢).

- أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير، ولهذا فهي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن، بل قصص سائر الأنبياء كنوح، وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم من المرسلين، أعظم من قصة يوسف؛ ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثنِ قصة يوسف^(٣).

- أن الله قال بعدها: ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، ولم يقل بما أوحينا إليك هذه السّورة.

- أن الآثار الواردة في ذلك عن السلف كلّها تدل على ذلك^(٤).

(١) اختيارات ابن تيمية، محمد بن سريع، دار التدمرية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ، (٧٨٨/٢).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٢/٢٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد للطباعة والنشر، السعودية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، (٢١/١٧).

(٤) اختيارات ابن تيمية، مرجع سابق، (٢/٧٩١).

٢. ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾

[يوسف: ٣]:

أي: أن هذا القصص مصدره الوحي الرباني، ولا علم لأحد به حتى يُعلمك إِيَّاه، فلا علاقة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرآن سوى أَنَّهُ تلقاه بواسطة الوحي وبلغه للناس^(١).

وإنَّ القصص الوارد في القرآن الكريم كان أحسن القصص؛ لأنَّه وارد من العليم الحكيم؛ فهو يوحى ما يعلم أَنَّهُ أحسن نفعاً للسامعين في إبداع الألفاظ والتراكيب، فيجعل منه غذاءً للعقل والروح وابتهاج النفس والذوق مما لا تأتي بمثله عقول البشر.

واسم الإشارة: ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾، لزيادة التمييز، فقد تكرر ذكر القرآن بالتصريح والإضمار واسم الإشارة ست مرات، وجمع له طرق التعريف كُلِّها، وهي اللام والإضمار والعلمية والإشارة والإضافة^(٢).

﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾؛ أي بإيحائنا، ولا مصدر له، إلا وحي الله تعالى، فقد أوحى به في ضمن القرآن الكريم ليكون دليلاً على إعجازه وسبباً من أسباب الإعجاز، إذ أخبر بما هو صادق، ولم يكن للعرب علم به عندهم^(٣).

- ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾؛ أي: لمن الغافلين عن تفاصيل ما أوحى الله إليه من الكتاب والإيمان كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٥).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، (٧/ ٣٧٨٧).

(٣) زهرة التفاسير، مرجع سابق، (٧/ ٢٧٩).



لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾، ولقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة مجتنباً لعبادة الأوثان مبتعداً عن مساوئ الأخلاق، متعبداً لله على التوحيد، لكنه لم يكن يعلم تفاصيل الإيمان والعلم الذي امتن الله عليه بإنزال هذا القرآن العظيم على قلبه، وكذلك كل عبد لا يتدبر القرآن ولا يتعلمه يكون من الغافلين، فالقرآن ذِكرٌ لمن يتذكر، يحيي الله به قلوب من اصطفاهم من عباده، فتستيقظ القلوب لنور التنبيه وتعدّ العدة للسير على الصراط المستقيم الموصل إلى رحمة رب العالمين^(١).

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقصود بالغفلة هنا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أمياً، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر، وكل ما عُرف عنه فقط هو الصفات الخُلُقِيَّة العالِيَّة من صدق وأمانة؛ وهي صفات مطلوبة في المُبَلِّغ عن الله؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبَلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض؟

إن الكذب أمر مُستبعد تماماً في رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة وبعدها^(٢). وقال: والغافل هو الذي لا يعلم لا عن جهل، أو قصور عقل، ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله أو أن يكون المقصود بقوله: ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، أي: أنك يا محمد لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب، ولم تجلس إلى مُعَلِّم يروي لك تلك القصة، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك. بل أنت لم تتلقَّ الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة: أسألوه

(١) تأملات إيمانية في سورة يوسف، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣٧).



عن أبناء يعقوب وأخوة يوسف؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر؟ وكان ضَرْباً من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصة، كدليل عملي على أن مُعَلِّم مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الله، وأنه سبحانه هو مَنْ أَوْحَى بها إليه^(١).

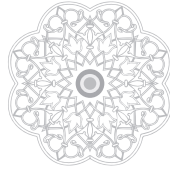
وقال الإمام مُحَمَّد أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعَبَّرَ الله سبحانه بإثبات الغفلة، لا بمجرد نفي العلم؛ للإشارة إلى أن هذا من دقائق العلم وعميقه الذي تغفل عنا، العلماء، إلا من يكون آتاه الله تعالى وحياً من علام الغيوب؛ لأنَّه علم بالنفوس، وخواطرها وما تختلج به الأفتدة، وذلك لا يكون إلا من عليم، وفيه علم كامل بالاقتصاد من غير تعليم أحد من البشر، فعلم يوسف بالاقتصاد الصالح مع النزاهة النبوية علم من الله، فعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا الصادقة، وبها اهتدى ودبر الأمر، وادخر من سني الرخاء للشدة، وكان تدبيره خيراً، وبذلك علم الناس، ألا يسرفوا في رخاء حتَّى لا يقحطوا إذا اشتدت من بعد^(٢). إِنَّ من أعظم دلائل النبوة نزول القرآن بقصص لا عهد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا للعرب بها.

وقال الدكتور أحمد نوفل رَحِمَهُ اللَّهُ: أمَّا وصف الغفلة الذي وصف به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السورة ووصف ﴿صَالاً﴾ في سورة الضحى، فيعنيان عدم تحصيل العلم. أي الأمية، وهذا من باب تقرير الواقع لا من باب الذم - معاذ الله - أمَّا الغفلة المذمومة، فهي ما كانت عن تشاغل ولهو، وإعراض بعد معرفة، وفي هذا يظهر فضل الله على هذا الأمة الأمية، وعلى نبيها ويظهر لنا أيضاً أن العقل يكون في غفلة وإن كان ذكياً ألمعياً حتَّى يتلقى علماً منهجياً ينقله إلى دائرة الحضور والوعي^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٩٨٤٠).

(٢) زهرة التفاسير، مرجع سابق، (٧/ ٣٧٩٧).

(٣) سورة يوسف، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٧.



المبحث الأول: رؤيا يوسف عليه السلام ونصيحة أبيه وكيد إخوته وإلقاؤه في البئر ونجاته منه:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْسَّالِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَبْنَائَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَبْنَائَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقَ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ [يوسف: ٤ - ٢٠].

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤) قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) [يوسف: ٤ - ٦].

١. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾:

كانت هذه الرؤيا محور القصة وبدايتها، وكان تحققها وتأويلها هي نهايتها السعيدة^(١).

أ. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾:

أي: واذكر لقومك يا محمد ﷺ في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه. وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام^(٢).

ومن هذه الآية، تبدأ قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وحتى الآية (١٠١) بالظرف الزماني (إذ)، والذي وظيفته اقتطاع جزء من الزمن الممتد والتركيز عليه ووضعه تحت الأضواء لأخذ العبرة منه والفائدة، ولذلك كثر هذا الظرف في القصص القرآني وكثر أيضاً في المواطن التي يراد لفت نظر العباد إلى ما فيها من آيات الله وإفضاله، وتأمل - إن شئت - آيات الأنفال التي وصفت لنا غزوة بدر.

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/١٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، (٤/٣٦٩).



- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفٍ﴾ [الأنفال: ٩].
- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١].
- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢].
- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣].
- ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤].

وفي اللغة يقدر لهذا الظرف فعل محذوف يتعلق به، كقولنا: (واذكر إذ^(١)).
 إن الآية الكريمة ابتدأت بكلمة: ﴿إِذْ﴾ وهي مفعول لفعل محذوف والتقدير:
 اذكر إذ. أي: زمن يوسف. و﴿إِذْ﴾ لا تحمل إلينا قصة يوسف، وإنما تحملنا
 نحن إلى زمن قصة يوسف، وكأننا صرنا في الحضرة التي كان فيها يوسف يقص
 رؤيته على أبيه يعقوب. وهذا معنى: ﴿إِذْ﴾ الدالة على زمان الحدث^(٢).
 وتأمل كيف أن الآية الأولى في القصة ذكرت لنا اسم الشخصية الأساسية،
 وذكرت لنا أهم الشخصيات الأخرى في القصة، وذكر عاقبة القصة^(٣).
 ب. ﴿يَتَابَتِ إِنْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾:

- ﴿يَتَابَتِ﴾: قال يا أبت، ولم يقل يا أبي وإما وضع التاء مكان ياء المتكلم،
 والتاء لا تأتي بدلاً من ياء المتكلم إلا مع الأب والأم، وهذان في الدنيا هم

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢) من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.



الرحماء، ولها دلالة هي التقرب، والتودد والحب والتدلل أيضاً، وكل معنى يسبق إلى قلبك حين تسمع ولدك يقول لك يا أبت، جاء في المؤتمر العلمي لتفسير سورة يوسف: كأن هذه الكلمة ﴿يَتَأَبَّتْ﴾ من الابن إلى الأب استعطاف واسترحام وتذكير بالأبوة وواجباتها، نحو الشفقة التي تجب مراعاتها والوفاء بها من الطرفين^(١).

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾: وهذا التوكيد لأمرين:

الأول: غرابة الخبر.

الثاني: شدة عناية سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ به وفراط اقتناعه به وحرصه على أن يقصّه على أبيه، ثم كرر ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، وتجاوز في دلالة الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ودل عليهم بضمير جمع العقلاء، وقدم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِي﴾ والأصل أن يقول: رأيتهم ساجدين لي. ولكن لما كان هذا الجار والمجرور هو الأصل في المعنى قدّمه. إِنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ دَقَائِقَ مَا جَرَى فِي قَلْبٍ وَعَقْلٍ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، فأبان عنه باللسان العربي المبين الذي أنزل به كتابه لعلكم تعقلون، وما كان للغة من لغات الأرض أن تتسع طرائقها لبيان هذه الخواطر، إلا هذه اللغة الشريفة، كما قال وقرر خيار علمائنا - رضوان الله عليهم - وسكت يوسف وانقطع صوته ومضت أحداث، وألقي في الجبّ، وخرج منه، وبيع بثمن بخس، ودخل بيت العزيز، ولم نسمع له صوتاً، إلا لما أرادت امرأة العزيز أن ترميه بما هو بريء منه حينئذ نطق، وقال كلمة واحدة: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف، عبد الله العلمي، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١م، (١/ ١٧١).



﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ [يوسف: ٤]: أمّا الأحد عشر كوكباً فهم الإخوة، ووصفهم بهذا الوصف بدل - من أوّل القصّة - أن نهايتهم خيرّة، وأنهم طيبون، غلب على نفوسهم نزعة الخير، لا نزعة الشياطين ونزعات الشر. ومعلوم أن الرؤى رموز في الغالب، ولا تكون مباشرة^(١).

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: القمر تأويله: الأب، والشمس تأويلها: الأم، فانترع بعض الناس في تقديمها وجوب بر الأم، زيادة على بر الأب^(٢).

وهذا موافق لما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رجلاً قال: من أحقّ الناس بصحبتي قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (أبوك)^(٣).

والطفل محتاج لأمّه وعنايتها وحنانها أكثر من حاجته لأبيه، فتعبير الشمس بالأم مستقيم؛ لأنّ الشمس تمدّ الخلق بالحرارة والإشراق، كما تمدّ الأم ولدها بالدفع والحنان^(٤).

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من الارتفاع في الدنيا والآخرة. وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأنّ ذلك لا يكون إلّا بأسباب تتقدمه من اجتناء

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢) المحرر الوجيز، مرجع سابق، (٣/ ١٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: من أحقّ الناس بحسن الصحبة، حديث رقم ٥٦٢٦.

(٤) إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، محمد بن موسى بن نصر، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (١/ ٥٤).

الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض. وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها^(١).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وابتداءً قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هياً نفسه للنبوة، فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة " أن أوّل ما ابتدئ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح". وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصّة وهو تقرير فضل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من طهارة وزكاء نفس وصبر. فذكر هذه الرؤيا في صدر القصّة كالمقدمة والتمهيد للقصّة المقصودة، وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلّت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة^(٢).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِيَّيَ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بيّن في هذه السورة الكريمة في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (١٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠] الآية. ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي^(٣).

وقال الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: وكلنا رأينا الشمس والقمر؛ كل في وقت ظهوره؛ لكن حلم يوسف يُبيّن أنه رآهما معاً، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة في

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص ٥٠٠.

(٢) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٢/ ٢٠٨).

(٣) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ، (٣/ ٥١ - ٥٢).



السماء آلافاً لا حَصَرَ لها، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط؟ لا بُدَّ أنَّهم اتصفوا بصفات خاصة ميّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى؛ وأنه قام بعدهم. إن رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تبيّن أنَّه رآهم شمساً وقمرًا وأحد عشر كوكباً؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين. وهذا يعني أنَّه رآهم أولاً بصفاتهم التي نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود؛ ثم رآهم وهم ساجدون له؛ بملامح الخضوع لأمر من الله، ولذلك تكررت كلمة (رأيت) وهو ليس تكراراً، بل لإيضاح الأمر.

ونجد أنَّ كلمة: ﴿سَجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وهي جمع مذكر سالم؛ ولا يُجمع جَمْعُ المذكر السالم إلّا إذا كان المفرد عاقلاً، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين، وأُسَمِيَ ما في الخضوع للدين هو السجود لله. وَمَنْ سجدوا ليوسف إنّما سجدوا بأمر من الله، فَهُمْ إِذَنْ يعقلون أمر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

مثلهم في ذلك مَثَلُ ما جاء في قول الحق سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١- ٢]، هذه السماء تعقل أمر ربها الذي بناها. وقال عنها أنها بلا فُرُوجٍ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] وهي أيضاً تسمع أمر ربها، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]. أي: أنها امتلكت حاسة السمع؛ لأن «أذنت» من الأذن؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله؛ تنفعل وتنشق. وهكذا نجد أن كُلَّ عَالَمٍ من عوالم الكون أُمَمٌ مثل أمة البشر، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه في اللغة، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة، أو من خلال مُترجم، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها^(٢).

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٤٤).

(٢) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٦٨٤٥).



ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد، أو لغة النبات، أو لغة الحيوان؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد، أو أن يفهم الجماد عنه. والمثل: هو تسبيح الجبال مع داود، ويُشكّل تسبيحه مع تسبيحها «جوقة» من الانسجام مُكوّن من إنسان مُسَبِّح؛ هو أعلى الكائنات، والمُردّد للتسبيح هي الجبال، وهي من الجماد أدنى الكائنات ونحن نعلم أن كلّ الكائنات تُسَبِّح، لكننا لا نفقه تسبيحها، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعَلِّمه مَنْطِق الكائنات الأخرى، مثلما قال سبحانه عن سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ...﴾ [النمل: ١٦] وهكذا عَلِمْنَا أن للطير منطقاً.

وعَلَّمَ الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل؛ لأننا نقرأ قول الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ﴾ (١٨) فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ [النمل: ١٨ - ١٩].

إذن، فلكلّ أمة من الكائنات لغة، وهي تفهم عن خالقها، أو مَنْ أَرَادَ له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يفهم عنها، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدت بأمر ربه ليوسف في رؤياه؛ إنّما فهمت عن أمر ربه^(١).

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: فسجدوا للوالدين رحمة ومحبة وشكر لله على ما أنعم على ابنهما وأما سجود الإخوة فتكريم واحترام وتقدير ليوسف وعرفان له بالفضل. والسجود - هنا - مظهر للاحترام وليس عبادة بطبيعة الحال،

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٤٦).



وهذا المظهر منعه شرعنا سداً للذرائع ومنعاً لأي بارقة من بوارق الشرك أن تتسلل إلى القلب^(١).

وقال الدكتور أحمد نوفل رَحِمَهُ اللهُ: وملخص الرؤيا التي يقصها الفتى يوسف على أبيه أنه رأى أحد عشر كوكباً يسجدون بين يديه، ورأى الشمس والقمر. والذي أرجحه هنا أن الواو ليست للعطف، وإنما هي واو المعية، كما تقول رجعت والغروب، تقصد مع الغروب، وتقول مشيت والساحل، أي: مع الساحل، فهنا يقول يوسف أنه رأى الأحد عشر كوكباً تسجد له، بحضور الشمس والقمر؛ إذ لا يليق أن يسجد الأب والأم للابن، خاصة وأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام نبي قد بلغ من الكبر مبلغاً، ويرجح ما أقول بإذن الله ما ورد في آخر السورة الكريمة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ أي: الإخوة^(٢).

✦ الرؤى؛ ثبوتها وحكمها وأنواعها:

من مواضيع سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام موضوع الرؤيا، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر سبع رؤى في ستة مواضع، ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى، جاءت في سورة يوسف، وهي:

- رؤيا يوسف، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

- ثم الموضع الثاني، وفيه رؤيتا صاحبي السجن اللذين ذكرا له ما رآيا، وكل واحد منهما رأى رؤيا غير التي رآها صاحبه.

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٨.

- ثم جاءت الرؤيا الرابعة في الموضع الثالث من السّورة، وهي رؤيا الملك، فهذه ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى كلّها في سورة يوسف.

- وتجد ذكر الرؤيا في بقية القرآن، مرّة في سورة الأنفال عند قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَلَنَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

- ثم الصافات في قصّة إبراهيم مع إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنِيْٓ إِنِّيْٓ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيْٓ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰٓ قَالَ يَتَأَبَّعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْٓ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

- والموضع السادس والأخير جاءت فيه الرؤيا السابعة وهي رؤيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أخبر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عنها من سورة الفتح، فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

فهذه سبع رؤى في القرآن أكثر من نصفها جاء في سورة يوسف^(١).

❖ ثبوت الرؤى:

إنّ سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تدلّ على ثبوت الرؤى والاعتداد بها سواء كانت من مؤمن أو غيره، وإنّ أوّل ما بدأ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح^(٢).

(١) آيات للسائلين، د. ناصر العمر، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ح رقم ٣.



فصدق الرؤيا المناميّة حقّ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، ويؤيده العقل المتفتح على الواقع وتؤمن به النفوس السويّة، ولم ينكر كون الرؤيا الصالحة من الله تعالى إلاّ الفلاسفة ومن نحا نحوهم في هذا العصر من بعض من يشتغلون بعلم النفس، فجعلوا الرؤى أضغاث أحلام وهؤلاء يفسرون الرؤى بنوع من أنواع مريّيات المنامات، وينكرون الحقّ فيها، ومثل هؤلاء ومن أخذ بقولهم لا يلتفت إليهم، لأنّ الرؤيا الصالحة ثابتة بالكتاب والسنة وهذه الآيات في سورة يوسف دليل عليها. وفي السنة المطهرة عشرات الأحاديث التي تتناول الرؤى وتُظهر العناية بها^(١).

✧ أنواع الرؤى:

هناك أحاديث صحيحة تدلّ على أنواع ما يراه الإنسان، وهي ثلاثة أقسام:

- الرؤيا الصادقة، فهي من الله تعالى، منها قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعون جزءاً من النبوة"^(٢).

- الحلم: وهو من الشيطان، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الحلم من الشيطان"^(٣)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه، فلا يحدث به الناس"^(٤).

- أضغاث أحلام، أو أحاديث النفس: وهي تفاعل للنفس تجاه الواقع والمواقف التي يمر بها الإنسان، فتستخرج هذا المخزون في شكل أحلام،

(١) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب، رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعون جزءاً من النبوة، ح رقم ٦٥٨٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب: الحلم من الشيطان وإذا حلم فليبصق عن يساره، وليستعذ بالله عَزَّوَجَلَّ، ح رقم ٦٦٠٢.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، ح رقم ٢٢٦٨.



يقول النبي ﷺ: "والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بُشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه"^(١).

وقال ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب. وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا. ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله. ورؤيا تحزين من الشيطان. ورؤيا مما يحدث المرء نفسه. فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل. ولا يحدث بها الناس"^(٢). وهذا الحديث أصل عظيم في موضوع الرؤيا، وإثباتها، وأنواعها، وأقسامها، وكيف نتعامل معها"^(٣).

وأما المنهج الشرعي في التعامل مع الرؤى، فتعتمد على الرؤى، وهي ثلاثة أنواع كما مرّ معنا في الحديث السابق:

- الرؤيا الصالحة: لا تحدث بها إلا من تحب وذلك لأسباب، منها: منع الحسد والضغينة.

- حديث النفس: ومن علامته أن يفكر المرء في أمر ما، ثم يرى في نومه ما يتعلق به، كمن يفكر في شراء سيارة ثم ينام فيراها. والموقف منه، الإعراض عنه وعدم الاشتغال به.

- رؤية ما يحزن: وهذا من تهاويل الشيطان، وعلى الرائي:

أولاً: أن يتعوذ بالله من شر ما رأى، ومن شر الشيطان.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الرؤيا، ح رقم: ٢٢٦٣.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الرؤيا، ح رقم: ٢٢٦٣.

(٣) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٦٩.



ثانياً: ينفث عن يساره ثلاثاً.

ثالثاً: ينقلب على جنبه الآخر.

رابعاً: يقوم فيتوضأ، ثم يصلي ما شاء الله.

خامساً: لا يحدث بها أحداً.

ومن عمل بهذا فلن تضربه - بإذن الله - ومن لم يتمكن من عمل هذه الخمس فليعمل بعضها، كأن ينقلب على جنبه، وأن يستعيز بالله من شرها، ومن شر الشيطان، والمهم ألا يحدث بها أحداً، فإنه يخشى إذا حدث بها أن يكون أثر لها عليه، فقد ورد في حديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أن الرؤيا على رجل طائر فإذا عبّرت وقعت»^(١).

وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته ومن بقية الأدلة المعتبرة، ولا تؤخذ من الرؤى لأن اعتمادها سيفتح باباً خطيراً وشرّاً مستطيراً في زيادة الأحكام أو نسخها، فالدين قد اكتمل والإسلام قد تم، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ويدل على ذلك، ما رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قال: قال الرؤيا الصالحة^(٢)، حيث يدل على حصره أنه لا تأخذ الأحكام الشرعية من الرؤيا، وإنما هي دلالات وإشعارات لوقوع شيء^(٣).

(١) رواه الترمذي في السنن، أبواب الرؤيا باب: ما جاء في تعبير الرؤيا، ح رقم: ٢٢٧٨، وقال

حسن صحيح.

(٢) سبق تخريجه .

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القرداغي، مرجع سابق، ص ٣٩.

٢. ﴿قَالَ يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

أدرك يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بحدسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لهذا الغلام، ولم يفصح هو عنه سياق ذلك، وأمام تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة بعد انكشاف العيب المحجوب ولهذا ينصحه بأن لا يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءه لأخيهم الصغير - غير الشقيق - فيجد الشيطان من وراء هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلىء نفوسهم بالحقق فيدبروا له الأمر^(١).

أ. ﴿قَالَ يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾:

- ﴿قَالَ يَبْنَى﴾: وهو خطاب تحنين، ويدل على القرب من القلب، و (بني) تصغير: (ابن)، وفيها كثير من الحنان والرحمة والشفقة والعطف. فقد جاءت كلمة ابن مصغرة وهو تصغير تدليل، وما من نبي نادى ابنه في القرآن كله إلا صغّر الابن:

- قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

- وقال نوح لابنه: ﴿يَبْنَىٰ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وفي هذا النداء دلالة تربوية أيضاً، ذلك أن طلب الأنبياء من آبائهم، أو آبائهم، لا بد أن يسبقه تودد وتحبب، فسيدنا إبراهيم قبل أن يعرض الرؤيا على ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ قدّم النداء بالتصغير، وكذلك فعل سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنه، وهكذا ينبغي أن يفعل الآباء مع آبائهم أن يقدموا جانب المودة والقرب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٤ / ١٩٧١.



قبل الطلب، فقد أتبع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الطلبَ بذكر السبب، وما ذلك إلا احترام لعقل المخاطب^(١).

وقول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿يَبْنَى﴾، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب وغير المناسب.

وحين يفزع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مما يُزعجه أو يُسيء إليه أو أيُّ أمر معضل، فهو يلجأ إلى من يحبه، وهو الأب لأن الأب هو الأقدر في نظر الابن على مواجهة الأمور الصعبة^(٢).

- ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾: نهى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته؛ لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته، فيفهمون تأويلها ويحصل الحسد له^(٣).

وهذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيه؛ فجاء في الحديث كما تقدم: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة^(٤)». "والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محبباً أو ناصحاً^(٥)».

وقيل لمالك رَحِمَهُ اللَّهُ: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل

(١) الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٤٨).

(٣) فتح القدير، مرجع سابق، (٨/٣).

(٤) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد المغراوي، (٦/٢٧).

(٥) سبق تخريجه.



خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة^(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الآية دليل على أنه مباح أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة، لأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له، وفيها ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»^(٢).

وفيها أيضاً دليل واضح على معرفة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بتأويل الرؤى، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل أيضاً على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاء عن قص الرؤيا عليهم خوف أن تغل صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه^(٣).

- ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: علل سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أمره ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بكتمان الرؤيا عن إخوته، لأنهم إن علموا بذلك يدفعهم الحسد والغيرة إلى الكيد والمؤامرة وظاهر الجملة: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ يدل على أنهم يكيدون مجتمعين، وأن كيدهم يتجدد حتى ينالوا مبتغاهم، وأن كيدهم مؤكد مطلق وشامل، ثم بين سبب ذلك بأن ﴿الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، فيوسوس لإغرائهم على الإقدام

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، (٣/ ١٠٧٥).

(٢) السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، (٣/ ١٠٧٥).

(٣) التدبر والبيان، مرجع سابق، (٦/ ٢٧).



على إيذاء يوسف كما فعل ابن آدم من قبل حين استغلَّ غيرته وحسده على قبول قربان أخيه؛ لأنَّ يدفعه إلى قتله، فأصبح من الخاسرين^(١).

والكيد: احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابهته، ولا يكيد إلا الضعيف؛ لأنَّ القوى يقدر على المواجهة، ولذا يقال: إن كيد النساء عظيم؛ لأنَّ ضعفهنَّ أعظم^(٢).
ويحتمل أن تكون ﴿كَيْدًا﴾ للتعظيم أو التحقير، فإن كان للتعظيم فليردع ابنه، وليكون المنع أكد، وإن كان للتهوين والتحقير، فحتى يخفف من أضغان النفوس بين يوسف وإخوته^(٣).

وقال حسين مخلوف رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: فيحتالون في هلاكك احتيالا خفيا، لا قبل لك بدفعه، و (كاد) يتعدى بنفسه فيقال: كاده كيدا، ويتعدى باللام، لتضمنه معنى احتال.

والكيد في اللغة: يكون ممدوحا ومذموما وإن كان يستعمل في المذموم أكثر من مثل:

- ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]. وسميت الحرب كيدا لما

فيها من الاحتيال والخديعة، ومنه حديث ابن عمر: "غزا رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غزوة كذا وكذا ولم يلتق كيدا". أي: حربا^(٤).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٥٣).

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٤) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

- ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: أي: يتكلموا معك بكلام حسن، وهم في أنفسهم يضمرون لك سوء، ويظهرون الفعل الجميل، وهم يرصدون لك الانتقام.

والكيد بهذا المعنى من صفات العاجز الذي يحتال على عدو له قوي، لا يقدر على معارضته بالبطش، ولا مصارحته بالانتقام فيظهر له رفقا ولين جانب، وهو من خلال ذلك ينصب له حائل الشر حتى يرتطم فيها^(١).

ب. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

فالشيطان يؤغر صدور الناس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر^(٢). ولقد أبرزت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ما جرّه الشيطان للإنسان من شر ووبال وما يضمره الشيطان في نفسه للإنسان من كره شديد^(٣).

وهذه العداوة معروفة لنا تماما، لأنه خرج من الجنة ملعونا مطرودا، عكس آدم الذي قبل الله توبته، وقد أقسم الشيطان بعزة الله ليغوين الكل، واستثنى عباد الله المخلصين؛ ولذا يقول الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم»^(٤). ونحن نقرأ القرآن، نجد إحاطة الشيطان بالإنسان فيه يقظة: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ولم يأت كر للمجيء من الفوقية، أو من التحتيّة لأن من يحيا في عبودية تحتية، وعبودية فوقية، لا يأتيه الشيطان أبدا^(٥).

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، (٤/ ١٩٧١).

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٥٣).

(٥) المصدر السابق نفسه، (١١- ٥٨٥٤).



قال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]؛ ظاهرُ العداوة فلا يَأْلُو جهداً في إغواء إخوتك وإضلالهم وحملهم على ما لا خيرَ فيه وهو استئنافٌ، كأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة؟ فقل: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ^(١).

وقال مُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رَضِيَ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهرُ العداوة بَيْنَهَا لَا تَفَوْتُهُ فُرْصَةً لَهَا، فَيُضِيعُهَا. هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلْسَبَبِ النَّفْسِيِّ لِهَذَا الْكَيْدِ، وَهُوَ أَنَّهُ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ فِي التَّرَغُّبِ بَيْنَ النَّاسِ عِنْدَمَا تَعَرَّضُ لَهُ دَاعِيَةٌ مِنْ هَوَى النَّفْسِ، وَشَرُّهَا الْحَسَدُ الْغَرِيزِيُّ فِي الْإِنْسَانِ^(٢).

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَّبِعُ مَنْ يَعْبُدُهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ"^(٣).

بَيَّنَّ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِابْنِهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّ ﴿الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ أَي: أَنَّ أَعْمَالَ الْكَيْدِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا النَّاسُ، قَرِيبُهُمْ وَبَعِيدُهُمْ تَجَاهُ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالتَّقْوَى، إِنَّمَا الشَّيْطَانُ هُوَ بَطْلُهَا الْحَقِيقِيُّ. وَلِذَلِكَ تَجَدُّ الشَّيْطَانُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ حَاضِرًا فِي كُلِّ مَوَاطِنٍ التَّأَزُّمِ وَالْكَيدِ وَالْمَكْرِ، وَفِي تَسْلُسُلِ الْحَوَادِثِ، وَغَيْرِ خَافٍ أَنَّ السَّرَجَ الَّذِي يَرْكَبُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْإِنْسَانِ هُوَ - فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبِ - النَّفْسُ^(٤).

(١) تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ، (٤/ ٥٣).

(٢) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م، (١٢/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، ح رقم ٢٨١٢.

(٤) في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م، ص ٧٢.



وهكذا يبرز الشيطان من وراء الستار في الأدوار الآتية:

- مكر الإخوة.

- كيد النسوة، وعلى رأسهن امرأة العزيز.

- محاولة إبقاء يوسف في السجن.

والأحداث في القصة ستبين ذلك.

٣. ﴿وَكَذَلِكَ يَجْثِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ
يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].
أ. ﴿وَكَذَلِكَ يَجْثِيكَ رَبُّكَ﴾:

والإشارة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية به. أي: ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربك في المستقبل. والاجتباء: الاختيار والاصطفاء^(١).

واختارك سبحانه وتعالى، لتكون خالصاً لله تعالى. والإشارة إلى ما تضمنته الرؤيا، أي كهذه الرؤيا التي سجدت لك فيها الكواكب والشمس والقمر، يختارك الله تعالى لتكون نبيه^(٢).

وقد علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك بتعبير الرؤيا ودلالاتها على رفعة شأنه في المستقبل، فتلك إذا ضُمت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إياه، وذلك يؤذن بنبوءه. وإنما علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن رفعة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مستقبله رفعة إلهية لأنه علم أن نعم الله تعالى متناسبة فلما كان ما ابتدأه

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٦٤١/٥).

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، (٣٧٩٩/٧).



به من النعم اجتناء وكمالاً نفسياً تعين أن يكون ما يلحق بها، من نوعها ثم إن ذلك الارتقاء النفساني الذي هو من الواردات الإلهية غايته أن يبلغ بصاحبه إلى النبوة أو الحكمة، فلذلك علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أن الله سيعلم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من تأويل الأحاديث، لأن مسبب الشيء مسبب عن سبب ذلك الشيء، فتعليم التأويل ناشئ عن التشبيه الذي تضمنه قوله: وكذلك، ولأن اهتمام يوسف عَلَيْهِ السَّلَام برؤياه وعرضها على أبيه دل أباه على أن الله أودع في نفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الاعتناء بتأويل الرؤيا وتعبيرها. وهذه آية عبرة بحال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام مع ابنه إذ أشعره بما توسمه من عناية الله به ليزداد إقبالاً على الكمال بقوله: ﴿وَيَسِّرْهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾^(١).

وفي خطاب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لابنه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦]، التركيز على أن يتعلق ابنه بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿رَبُّكَ﴾: الذي هو مربيك بالتدبير وأصناف النعم وإصلاح قلبك والارتقاء بروحك وأخلاقك، ومدبر أمرك في شؤونك كلها فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رب كل شيء، وخالقه ومليكه والقادر عليه، والمتصرف في جميع أموره وبهذا فإنه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في حقيقته، وتحت قهره فهو المحي والمميت والرزاق الكريم^(٢).

ب. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾:

قال شيخنا الدكتور علي القره داغي في تفسير الآية: إن جماهير المفسرين قد فسروا هذه الآية بتعبير المنام وهذا حق لا شك فيه، ولكن الكلمتين: ﴿تَأْوِيلِ﴾،

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٦٤١/٥).

(٢) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، بدون طبعة، ص ٩١.



﴿الْأَحَادِيثِ﴾، تحملان معنى آخر، وهو استعمال العقل والبصيرة والفطرة السليمة لمعرفة نتائج الأفعال ومآلاتها وآثارها السلبية، أو الإيجابية، وهذا ما يسمى بالتحليل العقلي: الاقتصادي، أو السياسي^(١). ولا مانع من الجمع بين هذين المعنيين، إذ لا تعارض في الجمع بينهما، بل إنَّ كمال النعمة وتمامها بتحقيق النبوة والحكمة، فالنبوة هبة من الله تعالى، وليست مكتسبة، أمَّا الحكمة فهي مكتسبة من حيث المبدأ، وقد أجاز علماؤنا الجمع بين المعاني المشتركة، أو بين الحقيقة والمجاز ما دام ذلك ممكناً^(٢).

فالتأويل لغة: من آل يؤول أولاً، ومآلاً. أي: رجع وصار، وأوّل الشيء إليه: أرجعه. وأوّل الكلام: فسره وردّه إلى الغاية المرجوة منه.

وأما الأحاديث فهي تشمل الحوادث والوقائع والأخبار والرؤى وبالتالي فإن تفسير: ﴿تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، بالمعنيين صحيح، وحينئذ تكون دلالة الآية على التحليل العقلي الحكيم واضحة. يقول ابن عاشور: والتأويل إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله^(٣).

ويصح أن تكون جمع حديث، بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها، بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعنى بالحكمة وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصح أن تكون جمع حديث، بمعنى الخبر المتحدث به، فالتأويل: تعبير الرؤيا، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين، واستدلوا بقوله في آخر القصة: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، مرجع سابق، ص ٣٤.



وقال ابن عاشور: ولعلّ كلا المعنيين مراد، بناءً على صحّة استعمال المشترك في معنييه، وهو الأصح^(١).

وبناءً على ذلك، فإنّ تأويل الأحاديث يشمل ما يسمّى في عصرنا الحاضر بالتحليل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وبذلك يتحقق الاقتداء الكامل؛ لأنّ تأويل يوسف عَلَيْهِ السَّلَام للأحاديث إذا حمل على النبوة فلا قدوة فيها، لأنها غير مكتسبة، ولكن إذا شمل التحليل العقلي القائم على الحكمة فإن ذلك هو محلّ الاقتداء^(٢).

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: وكان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أشار بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، إلى ما سيقع من يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعةً إلى ما يبلغه الله تعالى إياه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة وإنّما عَرَفَ يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك منه من جهة الوحي أو أراد كونَ هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عَلَيْهِ السَّلَامُ على الإطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عَلَيْهِ السَّلَامُ لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لا بد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقيٌّ منها مما هو أنفسيٌّ كيف لا وهي تدل على كمال تمكّن نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ في عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبلَ لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة^(٣).

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٥/٦٤٢).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٣) تفسير أبو السعود، مرجع سابق، (٤/٢٥٤).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: ومعنى تأويل الشيء أي: معرفة ما يؤول إليه الشيء، ونعلم أن الرؤى تأتي كطلاسم، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك؛ فهي ليست علماً له قواعد وأصول؛ لأنها إلهامات من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وبعد ذلك تصوير يا يوسف على خزائن الأرض؛ حين يُوجد الجَدْبُ، ويُعْمُ المنطقة كلّها، وتصبح عزيز مصر^(١).

ج. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾:

الكثير يظنون أن النعمة هي ما تراه العيون من زينة الدنيا، أو ما تتعلق به القلوب من الجاه والملك والسلطان، والحقيقة أن النعم على وجهين:

- نعم مؤقتة زائلة كالصّحة والمال والوقت والسمع والبصر والعافية، حيث إنها تزول بالموت وتنتهي بانتهاء الأجل.

- نعم مؤبّدة، لا ينقطع نفعها في الدنيا ولا في الآخرة، وهذه هي نعمة الإيمان واليقين والطاعة والأعمال الصالحة. وكل النعم من الله وحده: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، المؤقتة منها والمؤبّدة، الظاهرة منها، والباطنة، فالنعم واحد، والجميع متمتعون بنعمه غارقون في فضله وكرمه^(٢).

وفي قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦]، تمام النعمة هنا ليس هو الملك والسلطان؛ لأن الله يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ، وإنّما تمام النعمة تكون بالنعمة الكبرى، وهي الرسالة والدعوة التي خص الله بها أباه من قبل، وذلك أن الله لا يعطي الدين إلا من يحبّ. فالعلم النافع والهداية لطريق الحق، والاستقامة

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٥٦).

(٢) وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ٩٦.



على منهج الله ودعوة عباد الله إلى الله كل ذلك من النعم العظيمة التي لا توازن بها نعم الدنيا الظاهرة كلها، ولا أدل على ذلك من أن كلمة (سبحان الله) تملأ الميزان. و(سبحان الله والحمد لله) تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض. وقد جاءت نصوص كثيرة تعمق هذا المعنى في القلوب، حتى تتبدل رغبات النفوس، وتتطلع إلى النعم الحقيقية الباقية، وتنظر إلى الحياة على أنها فرصة لتحصيل الأجور والمنافسة في الخيرات^(١).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي في الآية الكريمة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦]: فكل ما تمتع به يوسف هو من نعم الدنيا، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتبا رسولا. أو أن: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ...﴾ [يوسف: ٦]، بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً؛ ففي حياة يوسف منصب مهم، هو منصب عزيز مصر، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع. أو أن: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ...﴾ [يوسف: ٦]، بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أخراك^(٢).

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: وهذا يوشك أن يكون نصاً في النبوة، وإن كانت كلمة: ﴿يُجَنِّبُكَ﴾ جعلت سيدنا يوسف كأنه على باب النبوة؛ وألحق يعقوب إتمام النعمة به وبأبويه إبراهيم وإسحاق، وهي لا تكون إلا النبوة.

د. ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾:

أي: وعلى من يصطفاهم ويختارهم للنبوة من آل يعقوب. فكلمة ﴿عَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾، تعمم الأنبياء وغيرهم، وقد تفرع من آل يعقوب: الأسباط - القبائل -

(١) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١-٦٨٥٦).



الاثنا عشر، الَّذِينَ يَكُونُونَ الْيَهُودَ، وقد اختار الله تعالى، منهم من عهد موسى إلى عهد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كثيراً من الأنبياء. ولا دليل في الآية على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، كما رأى بعض المفسرين، فما صدر منهم في حق أبيهم وأخيهم - كما سيأتي - لا يتفق مع أخلاق الأنبياء، قبل النبوة وبعدها، ولو كان إخوة يوسف هم مراد قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَعْقُوبَ﴾، لكان الأظهر أن يقول: وعلى إخوانك.

والقول بأنهم لم يكونوا أنبياء هو قول أكثر المفسرين سلفاً وخلفاً، فلم يُنقل عن أحد من الصحابة ولا عن التابعين أنه قال بنبوتهم، ولكن وُجد بعد ذلك بعض المفسرين القائلين بنبوتهم كابن زيد، وقد بالغ في ردّه البغوي وابن كثير، وذكر ابن تيمية في مؤلف له خاص هذه المسألة وملخصه: الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسوا بأنبياء، واحتج من قال بأنهم أنبياء بقوله تعالى في آيتي البقرة والنساء: ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾، وفُسّر ذلك بأولاد يعقوب، والصواب: أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم: (بنو إسرائيل)، ويقال لسائر الناس: (بنو آدم). وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل. وكل سبط أمة، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وأصل السبط: شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد^(١).

ولو كانوا أنبياء ما وصّاهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما حضره الموت بالثبات على عبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ

(١) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، (١٢/١٨٤).



قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿[البقرة: ١٣٣]﴾^(١).

هـ. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾:

أَتَمَّهَا بِإِكْرَامِهِمَا بِالنَّبُوَّةِ^(٢). والآية الكريمة تبين أفضال الله على آل إبراهيم بما أنعم عليهم فجعل منهم أنبياء آباء وأحفاداً^(٣).

ولقد اجتمع ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام من عراقه النسب الشيء العظيم، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَام»^(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أكرم الناس؟ قال أتقاهم لله، قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله^(٥).

وقال القاسمي: استدل بالآية على أن الجد يطلق عليه اسم الأب^(٦). وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم وكانوا يقولون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا ابن عبد المطلب، بل قاله هو أيضاً^(٧).

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٣).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٢٣).

(٣) إتحاف الإلف بذكر فوائد الألف، مرجع سابق، (١/ ٨٤).

(٤) أخرجه البخاري، رقم: ٣٣٨٢.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، (٦/ ١٩١).

(٧) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، (١٢/ ٢٥٦).

وأراد بالأبوين: الجد وأبا الجد، لأنهم في حكم الأب في الأصالة^(١). وسمي الجد وأبا الجد أبوين، لأنهما في عمود النسب^(٢).

ومن الفوائد التربويّة في الآية، حرص يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على ربط ابنه بآبائه الصالحين: (إبراهيم وإسحاق). ولا شك أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قصّ على أولاده ومن بينهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سيرة إبراهيم وما حدث له من أحداث في العراق وهجرته إلى الشام، وذهابه إلى مصر وبناء البيت الحرام بمكة المكرمة، وكذلك سيرة إسحاق جده، وإسماعيل عمّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما بذلوه من جهاد عظيم في الدعوة إلى الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، ومحاربة الشرك، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والمحافظة على العبادة الرّشيدة، وفهم تصوّرات الوجود عن الكون والحياة، والإنسان والقضاء والقدر، والجنة والنار.

إنّ سيرة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت من عوامل الثبات بعد الله والاستمرار على نهجهم في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

بعدما بين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فضل الله عليه باصطفائه له وتعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه، قام بتعريف ابنه ببعض أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى فعندما تستقر هذه المعاني، في نفس الصغير، فإنه سيتذكر عند كلّ ابتلاء أن الله تعالى الذي أحبه فاصطفاه هو الأعلم والأحكم، وأنّ ما سيصيبه من بلاء إنّما هو بعلمه وحكمته، فيطمئن، ولا يلتجئ لغير العليم الحكيم.

(١) الكشف، مرجع سابق، (٢/٢٤٣).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، (٦/٢٤٠)، إتحاف الإلف بذكر فوائد الألف، (١/٨٤).



وقد بدا جلياً عظيم أثر هذه التربية على يوسف عَلَيْهِ السَّلَام؛ إذ قال لأبيه في نهاية القصة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فرد الفضل إلى الله في تحقيق رؤياه وخروجه من السجن واجتماع شملهم، ثم جعل نزغ الشيطان هو السبب فيما حل بهم من بلاء، فكأنه يقول: إنَّ ما وقع فيه إخوتي بلاء، وما مسني من ضر بلاء، والسبب في البلاءين نزغ الشيطان، ثم كأن تعقيبه الذي جاء به بصيغة التوكيد دالاً على عميق إحساسه بلطف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وعلمه وحكمته، ولذا لم يحدث أباه عما حل به من بلاء، لم يحدثه عن السجن، عن طول مكثه فيه، لكن حدثه عن إحسان الله بإخراجه من السجن، وأبوه يرى ما ترتب على هذا الخروج من عز وسلطان، ولم يحدثه عن غربته على طولها، ووحشتها لكن ذكره بإحسان الله لهم جميعاً بجمع شملهم وإبدالهم حياة أطيّب من حياتهم الأولى قبل أن يأتوا من البدو، وكأن يوسف يقول لأبيه عَلَيْهِمَا السَّلَام: يا أبت ها قد تحققت رؤيتي وأنا مُستمسك بما علمتني، وأنا أقصها عليك. وإذا تأملت قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وقارنته بقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ بدا لك عظيم أثر صفات ذي الجلال والإكرام في نفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَام ولا سيما تلك التي غرسها الأب في نفس ابنه عَلَيْهِمَا السَّلَام. فانظر كيف عملت فيه عملها فتعامل مع الحوادث العظام بمقتضى علمه بها^(١).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وجملته إنَّ ربك عليم حكيم تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة

(١) آيات للسائلين، د. ناصر العمر، ص ١٠٨.



لهذه الفضائل، لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

وتصدير الجملة بـ (إن) للاهتمام، لا للتأكيد إذ لا يشك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتأهله لمثل تلك الفضائل^(١). إن التربية في الصغر لها فوائد لها في الكبر^(٢).

قال الدكتور أحمد نوفل: وتأمل كيف لطفُ الله: أن هذا الفتى ما غادر حجر النبي الكريم يعقوب إلى بلاد الشرك إلّا بعد أن تشرب عقيدة التوحيد، وهذا بحد ذاته أعظم اللطف إذ لو كان القاؤه في الجبّ في سن مبكرة وهجرته إلى بيئة جاهليّة قبل سن التفتح والتمييز والإدراك لكان محتاجاً إلى المربي. وأين يجده؟^(٣). الله أعلم بمن يستحق حمل الرسالة، وهو الحكيم الذي لا يترك شيئاً للعبث؛ فهو المُقدّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً للصواب^(٤). كما أن الآية الكريمة احتوت على ثلاثة من أسماء الله الحسنى: (الرب، العليم، الحكيم).

✧ معنى اسم الرب:

والربّ هو المربي جميع عبادته بالتدبير وأصناف النعم، وأخصّ من هذا: تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا أكثر دعائهم له بهذا الاسم الجليل لأنهم يطلبون منه التربية الخاصة. وهذا واضح وجلي فيما

(١) التحرير والتنوير، (٦٤٣/٥).

(٢) إتحاف الإلف، (٩٣/١).

(٣) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص ٩٤.

(٤) تفسير الشعراوي، (٦٨٥٧/١١).



ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كتابه الكريم عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأوليائه الصالحين حيث صَدَّروا دعاءهم بهذا الاسم الكريم، ومن ذلك:

- دعاء الأبوين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بقولهما: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

- دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

- دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. وهكذا مع الأنبياء وكذلك الصالحين في القرآن الكريم.

إِنَّ حَدِيثَ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قِصَّةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ اسْمِ (الرَّبِّ) هِيَ دَعْوَةٌ لِلتَّأَمُّلِ فِي هَذَا الْاسْمِ الْعَظِيمِ وَأَثَارِهِ فِي خَلْقِهِ. إِنَّ رَبُّوبِيَّتَهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِكَوْنِهِ فَعَالًا مَدِيرًا، مُتَصَرِّفًا فِي خَلْقِهِ بِعِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَأَنَّهُ يَرِيدُ وَيَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَذَلِكَ هُوَ حَقِيقَةُ الْأُلُوهِيَّةِ.

إِنَّ الرَّبَّ هُوَ الْقَادِرُ الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمَصْصُورُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْمَعْطِيُّ، الْمَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، الْمَقْدَمُ، الْمُؤَخَّرُ، الَّذِي يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَسْعُدُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَشْقِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رَبُّوبِيَّتِهِ الَّتِي لَهُ مِنْهَا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى^(١).

- وَمِنْ مَعَانِي رَبُّوبِيَّتِهِ، اخْتِصَاصُهُ سُبْحَانَهُ بِجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، وَتَفْرِيجِ الْكَرُوبِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ، فَإِنَّ الْعِبَادَ -بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي فِطْرِهِمْ

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ، (٢/٢١٢).

من معرفة ربهم بهذه الصفات- يلجؤون إلى ربهم ويتضرعون إليه في الشدائد والملّمات، وينفضون أيديهم من كلّ ما سوى الله عَزَّجَلَّ، وكلما عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته أثر هذا في دعائه وقوة رجائه ولجوهه وتضرّعه لربه سبحانه، والوثوق بكفائته سبحانه، وقدرته على قضاء حوائج عباده، ولذلك سنرى في دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]. وقوله: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

✧ معنى اسم العليم:

إنّ اسم العليم ذُكر بوضوح في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواطن متعددة. وعندما نتدبّر اسم الله العليم نعلم أنّ العلم كلّه بجميع اعتباراته وجوهره لله تعالى، فهو يعلم الأمور المتأخّرة، أزلاً وأبداً، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منه وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات -أو المستحيلات- والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى ويعلم ما فوق السماوات العلى، ويعلم تعالى جزئيات الأمور وخبائيا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة؛ فهو الذي أحاط علمه جميع الأشياء في كلّ الأوقات، ولا يعرض تعالى لعلمه خفاء، ولا نسيان؛ كقوله في غير موضع: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩]^(١).

فالله عَزَّجَلَّ علمه شامل لكلّ شيء في السماوات والأرض، ولكلّ ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وعلمه بمفاتيح

(١) والله الأسماء الحسنی، ص ٣٣٥.



الغيب وما يحدث من صغير أو كبير في البر، أو في البحر، وعلمه بمكنونات القلوب، وما تخفيه الصدور، وما توسوس به النفوس، وعلمه بكل ما يقوله له العباد، ويعملونه سرّاً وعلانية، وعلمه بما في الأرحام لكل أنثى، وعلمه سبحانه لكل الأشياء قبل وقوعها، وأن ذلك في كتاب، وله الحكمة البالغة في تقديرها. وعلمه سبحانه بأحوال عباده تقيهم وفاجرهم، وغنيهم وفقيرهم، وغير ذلك من الفوارق. وذلك قبل أن يخلقهم ويكلفهم، وأن توفيقه لمن يشاء وخذلانه لمن يشاء إنّما يكون عن علم بأحوال عباده، وعن حكمة بالغة، وعلمه سبحانه محيط، ودقيق بكلّ مناجاة بين اثنين فأكثر مهما أسروا النجوى، وعلمه شامل لما ينزل من الشرائع على رسله، وأنه أعلم بما ينزل وبما يصلح لعباده، واختص الله عزَّجَلَّ نفسه بعلوم الغيب^(١).

إنّ الله سبحانه - لكمال علمه - يعلم ما كان ويكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون، أي إنّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمر المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لم تقع لو فرض أنّها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور. ولا شك أنّ يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ آمنوا إيماناً عظيماً باسم العليم وعرفوا عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خِلَالِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى وَأَثَمَرِ يَقِينِهِمْ بِعِلْمِ اللَّهِ الشَّامِلِ وَقُدْرَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ وَمَشِيئَتِهِ النَّافِذَةِ وَحُكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي وَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا.

والإيمان باسم الله تعالى العليم اقتضى محبة يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ للعلم والحرص عليه، وتطوير ملكاتهم وأدواته المعرفية؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَلِيمُ، يحبّ كلّ عليم يسير في طريق التّعلّم والتّعليم والمعرفة التي تدلّ على حقائق

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٢، ٣٥٣.



الأمر وتعمّق الصلّة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ. إِنَّا مُطَالِبُونَ بتعميق الإيمان في نفوسنا، وتحقيق التوحيد في قلوبنا، والسير على منهج الله في حياتنا. وإن التأمل في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأبعادها المتعدّدة وأعماقها المتنوعة والوقوف مع أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا والحرص على حفظها وفهمها والتعبّد به؛ تفتح للإنسان الذي يريد أن يتّصل بموكب الأنبياء والمرسلين آفاقاً رحبة وحياة طيبة.

✧ معنى اسم الله الحكيم:

وقد دلّت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دلّ عليه القرآن والسنة؛ أنّه سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة. وحكمته هي الغاية المقصودة بالفعل بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل. كما أنّها ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دلّ كلامه وكلام رسوله على هذا. وهذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها^(١).

"والحكيم" هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كلّ شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك؛ فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه، والحكمة وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها^(٢).

وقد لاحظت في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتران اسم الله العليم بالحكيم في مقام الصبر وانتظار الفرج ومقام التواضع والتحدث بنعمة الله.

(١) شفاء العليل، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ، (١/ ٩٠).

(٢) قصّة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م،



✧ مقام الصبر وانتظار الفرج:

إن مقام ارتباط الصبر وانتظار الفرج باسم الله "العليم" ارتباطاً قوياً، وذلك أن العبد إذا كان عظيم الإيمان عميق الصلة بربه واستلبت عليه الفرج لم يتزعزع يقينه؛ لأنه معتمد على علم الله عَزَّجَلَّ في اختيار الزمان الأنسب لما يرجوه من الفرج، معوّل على حكمته في تهيئة الأسباب له ليقع على أحسن ما يكون، كما في قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

✧ مقام التواضع والتحدث بنعمة الله:

مثل ذلك يقال في مقام التواضع والتحدث بنعمة الله وفضله؛ لأن قوامه أحداث ترجع إلى علم "العليم" وحكمة "الحكيم"، كما في قوله تعالى عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] ^(١).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلْسَّالِكِينَ ۝٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٨ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: ٧ - ١٠].

١. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلْسَّالِكِينَ﴾:

دارت هذه الآية على الزمان والمكان، في الماضي في مواطنها الجغرافية في بادية الشام ومصر وأبطالها الحقيقيين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾،

(١) قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَام، الصلابي، ص ٣٥٨.



بصيغ التوكيد والتحقيق ﴿لَقَدْ﴾ فالقصة قد وقعت فعلاً وحقاً. وفي الحاضر، قريش في مكة واليهود من ورائهم في يثرب في مناسبة القصة، يسألون محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها. وفي المستقبل في كل زمان ومكان، الكل سائل ينشد الحقيقة والحكمة والعبرة^(١).

✧ ومن دلالات هذا الآية:

- وكلمة: ﴿ءَايَتْ﴾ تدل على كثرتها وتنوعها، وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت إجابة عن سؤال سئل عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأظهر أن الآية أعم من أن تكون مجرد إجابة عن سؤال واحد، بل فيها آيات للسائلين في شتى المجالات الإيمانية والعقدية والسياسية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية، وفيها تبياناً لسبيل الخروج من كثير من الفتن كفتنة النساء والسجن والملك والمال والعلم، وغيرها. وقل أن يسلم الإنسان من الوقوع في فتنة أو أكثر، وقد أشير في المقدمة إلى بعض ما تتضمنه قصة يوسف وإخوته في أهميتها، ومن دلالات هذه الآية، وجود علاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فقد نزلت هذه الآيات في العهد المكي، تسرية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعبرة وهدى ورحمة، وهي كذلك لأولي الألباب والمؤمنين إلى قيام الساعة حيثما كانوا^(٢).

- قال الإمام محمد أبو زهرة: وقد ابتدأ الله سبحانه بالإشارة إلى ما في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من آيات بينات في تكوين النفوس والمجتمعات من أول الأسرة إلى المجتمع الإنساني الأكبر الذي يجمع العناصر المكونة للمجتمع الكبير والمجتمع الصغير، وفي الأسرة والحي.

(١) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص ٦٩.

(٢) آيات للسائلين، ص ١٠٩.



أول هذه الآيات بدءا وظهورا: «الحسد» الذي يعتري أولاد العلات أو أولاد الضرائر، وهو ظاهرة من الظواهر التي تبدو، ويحسب بعض الناس أنه داء لا علاج له، والسورة تشير إلى أنه داء، يمكن توقيه، وإذا وقع يمكن تحسين عواقبه، وأنه لا يصح لإبعاده، منع تعدد الضرائر، أو منع تعدد الزوجات ولكن السورة أشارت إلى أن الوقاية منه هو منع ما يثيره، بإظهار المنزلة العالية، لبعض الأبناء، وإظهار البخس للآخرين أشار إلى ذلك قول يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وإن هذا الحسد ليس حسداً مستمكناً، بحيث يبقى بين الإخوة ما داموا، بل إنه سرعان ما تقضي عليه المحبة التالية التي إن اختفت حيناً، فلن تختفي طوال الحياة، وسرعان ما تكون، وهي الباقية، والأصل، والحسد عارض لا يدوم، ألم تر لقاء يوسف بإخوته ذلك اللقاء الحبيب، وهم يقولون: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].

والثانية: من الآيات النفسية، أنه لا يذهب بقوة الرجل غير الحزن الدفين المستكن في النفس، فهذا يعقوب الإنسان يُمَضُّ نفسه الحزينة، حتى تبيض عيناه من الحزن وهو كظيم.

الثالثة: إن البشر بعد البؤس، والسرور بعد الألم يرد إلى النفس ما أذهبه الحزن، فإنه لما ألقى على وجهه قميص يوسف ارتد بصيراً؛ لأن الحزن قد ذهب إلى غير أوبة، والسرور يفعل فعله في الجسم فيزيل ما فعلته الكآبة فيه.

الرابعة: أنه في وسط ثورة الباطل وحدته في غلمان يعقوب وحسدهم لأخيهم وجد من يدعو إلى الرفق، ويستمع إليه، فقد اتفقوا على قتله، فجاء واحد منهم، وهم في حدة الحسد، وقال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، وهذا يوحى إلى أن كلمة الرفق لها استجابة في أشد الإخوة عنفاً.

الخامسة: إنّ أشد ما يثير الحسد، هو الإيثار بالمحبة، فإن إثارة الحسد، لا تكون بالإيثار بالطعام أو الشراب وإعطاء المال فقط، بل إن الإيثار بالمحبة أفعال وأشد، ألم تر أولئك الغلمان يقولون: إن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا ونحن عصابة.

السادسة: إنّ الصُّبا أقرب إلى حبّ الانتقام من كِبَرٍ في السن، فشدة الصبا، معها شدة الجهالة وحب الانتقام، من غير نظر إلى العواقب، وأنت ترى صبيان يعقوب، وهم يحسدون يوسف قد بدّله الله تعالى منهم رجالا يتحملون التبعات بعد أن أوشكوا أن يكونوا كهؤلاء أو كانواها.

السابعة: لا يطفئ الحسد إلّا المحبة القوية المانعة، ألم تر أن المحبة التي كانت تنبعث من قلب الأب الرقيق الشفيق كانت تنهه من حدة الحسد فيهم؛ وقد بدا ذلك منهم عندما طلب يوسف أخاهم من أبيهم، فقالوا: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف: ٧٨]، فهل كانت هذه حالهم عندما أخذوا يوسف، وألقوه في غيابة الحبّ بعد أن أرادوا قتله.

وإنّ هذا يدلّ على أنّ حسد الإخوة مهما يكن مآله إلى زوال، وعوامل زواله أقوى من عوامل بقاءه.

الثامنة: إنّ الدّعوة إلى الخير لا يصحّ أن يكفّ عنها المؤمن مهما يكن في حال من البؤس والألم، ألم تر يوسف الصديق وهو في السجن، لم تشغله حاله عن الدعوة إلى التوحيد^(١).

التاسعة: أن السّورة تصور النفس الإنسانية في انحرافها، واستقامتها، ألم ترها تصور امرأة العزيز وقد انحرقت عن الجادة نحو فتاها، وأنه شغفها حبا،

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٢٨٠٠).



وإن ذلك يدل على فساد القصور في هذا العهد، ألا ترى أن في هذا دعوة لأن يحتاط أرباب البيوت فلا يجعلون في خدمهم جميلاً؛ فإنهم يفسدون به نساءهم، ويفسدونهم، ويطمعونهم فيهم.

وإن هذه الحال من شغف امرأة العزيز بيوسف، وردّها، ومقاومة دواعي الهوى في شاب قوي فتي، يدل على أن الإرادة القوية الحازمة تكبح جماح الشهوة.

العاشرة: أن السّورة تصور نساء الطبقة المترفة في ذلك العصر لقد كنَّ يُشعن إشاعة السوء وينشرنها، وهنَّ غير ملتفتات إلى عواقب ما يقرن، وما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ذلك لا يزال خلق المترفات من نساء مصر، وخصوصاً أهل القصور.

الحادية عشرة: أن الرؤيا الصادقة سبحة روحانية، وأنها تكون للمشرّكين كما تكون للمؤمنين، والإنسان ولو كان مشركاً له روح، فقد رأى الفتّيان صاحبا يوسف في السجن، رأيا رؤية كانت صادقة، فأولّ لهما يوسف الصديق الرؤيا، ووقعت كما أوّل.

الثانية عشرة: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، كان علمه لديّاً من الله تعالى، فما تعلم على أحد، وما درس، فقد فصل عن أبيه في سن دون سنّ التعلم، وعاش عيش العبيد، وهو «الكريم ابن الكريم»، وقد علمه الله تأويل الأحاديث، وعلمه تدبير السلطان، وخصوصاً وقت أن تعقّد الاقتصاد وتآزمت حلقاته.

الثالثة عشرة: أن مصر كانت مصدر الخير، لأهل الشرق، فكانت مزرعته الذي يقصد إليها في شدائده.

الرابعة عشرة: أن أرض الله يفيض خيرها بعضها على بعض، كما رأيت ما أفاضت به مصر على جيرانها، وكيف كانت تعيرهم، وتمونهم.



الخامسة عشرة: أن الله تعالى له عبرة في خلقه، كيف جعل ذلك الأسير الذي باعوه بثمان بخس لأنهم لا يريدونه - ملكا مسيطرا على مصر، ومن حولها من بقاع الأرض^(١).

السادسة عشرة: أن سيادة العدل تأتي بالخير الوفير، وأن الظلم لا يأتي إلا بالشر المستطير.

السابعة عشرة: أن الصفح الجميل علاج كل الآفات الاجتماعية ما دام الصفح عن قوى.

الثامنة عشرة: أن العز الحقيقي يجب أن يفيض على الأحباب حتى من ظلم، ولا يُبخس لحق غيرهم كما فعل يوسف مع أبيه.

التاسعة عشرة: أنه يجب أن يخضع الكبير في سنه، لحكم الصغير في سنه ما دام عدلا، وقد رأيت خضوع يعقوب ليوسف، كما قال: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي خاضعين؛ لا أنهم سجدوا له سجود الصلاة.

الآية المتممة للعشرين: شكر المنعم، كما فعل يوسف الصديق، فقد قال خاضعا خاشعا: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]^(٢).

هذا ما نراه في معنى الآيات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله الآية المتممة للعشرين: شكر المنعم كما فعل يوسف الصديق فقد قال لله تعالى

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٠٣).

(٢) المصدر السابق، (٧/٣٨٠٤).



خاشعاً خاضعاً: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمّنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبتها من النسوة لما ألقى في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبیر الرؤيا، ولو لم يعلم الساقى منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة، ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له: ﴿وَيْتَرُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦]، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقاً، وباطنها مشرقاً، وبدايتها شراً وخسراً، وعاقبتها خيراً وفوزاً، وصدق قول الله - عَزَّجَلْ: ﴿وَالْعَبَقَةُ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]^(١).

إِنَّ فِي قِصَّةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِخْوَتِهِ عِبْرَ كَثِيرَةٍ وَعِظَاتٌ بَلِيغَةٌ وَأَدَلَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِكُلِّ الَّذِينَ سَأَلُوا عَنْ قِصَّتِهِمْ، أَوْ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَ وَلِلَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ، فَالْقِصَّةُ مَلِيَّةٌ بِالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْحُكْمِ وَالْأَحْكَامِ، وَلَمْ تَذْكُرْ فِي التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ لِمَجْرَدِ الْإِطْلَاعِ عَلَى أَحْوَالِ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَتَنْزَهُ كَلَامُ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ عَنِ اللَّغْوِ وَالْبَاطِلِ وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ؛ وَلِهَذَا كَرَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ دَعْوَةَ النَّاسِ لِيَتَذَبَّرُوا آيَاتِهِ وَيَعْرِفُوا مَا فِيهَا مِنْ حُكْمٍ وَأَحْكَامٍ وَإِعْجَازٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ^(١).

وبعد أن أشارت الآية السابقة إلى ما في السورة من عظات وعبر، نقلتنا الآيات مباشرة إلى إخوة يوسف وبيان سبب هذا الكيد والمكر ^(٢).

٢. ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: من هذا المشهد يتبدى سرد قصة يوسف بالظرف (إذ) مرة أخرى، فهناك اقترنت إذ بالموجد وهنا اقترنت ببدء التفصيل. والغريب أن الإخوة يجتمعون على قضية لا يليق بمثلهم سناً ولا تربية أن يجتمعوا عليها، وتأمل أن رجالاً أشداء، أبناء نبي، بل أنبياء، يعقوب وإسحاق، يعقدون مؤتمراً صاحباً لأجل حب أبيهم لأخيهم يوسف ^(٣).

أ. ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾:

إِنَّ التَّصْرِيحَ بِاسْمِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِخْفَاءِ اسْمِ الْأَخِ الْآخَرِ دَلَالَتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ مَغْتَاطُونَ مِنْ يَوْسُفَ، وَأَمَّا أَخُوهُ فَلَيْسَ بِذِي شَأْنٍ بِالنِّسْبَةِ لِيَوْسُفَ، فَالْحَقْوُهُ إِحْقَاقًا.

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٤).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٣٦).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٤).



وثمة لفظة قد نبّه عليها الدكتور حسن باجودة في كتابه "الوحدة الموضوعية":
عن بروز ضمير المتكلم في هذه الآية والتأكيد على ذواتهم في معرض الحديث
عن تشخيص الواقع الذي يعيشون، فانظر كم مرّة تردد ضمير المتكلم في نصف
سطر: (أبينا)، (منّا)، (ونحن عصبه)، (إنّ أبانا). وهنا نبّه إلى أنّ الوهم قد يسيطر
على الإنسان فيقع الإنسان فريسة له وهذا الذي حدث مع أبناء يعقوب، وهل
كان ثمة شيء من الذي قالوه، أم أنّها خيالاتهم السقيمة، وإلا فإنه لا يعقل من
نبي كريم كي يعقوب أن يقع منه ما يستوجب ثورة هؤلاء الأبناء ولا حقدهم على
أخيهم. ولئن كان مميزاً يحبّ، فهذا لا جريرة ليوسف منه، فإن كان من خطأ
فليس هو مخطئاً.

يدّعي الإخوة أنّهم أحقّ بالحب من يوسف لأنّهم عصبه. والعصبه كما في
الكشاف: العشرة فصاعداً^(١)، وكما في مفردات الراغب: الجماعة المتعصبة
المتعاضدة، وكما في النهاية لابن الأثير: من العشرة إلى الأربعين^(٢). والاثنان لا
يطلق عليهما لغة عصبه، وكأنّ الإخوة يقولون: نحن عصبه وليس هذان بعصبه.
وهذا الذي قالوه من أفضليتهم، عنوان على فساد قياسهم؛ إذ متى كانت الكثرة
عنوان الأفضلية ومعيارها، فمثقال من ذهب خير من مئة من تراب.

إنّ المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة، فإخوة يوسف افترضوا أنّ
أباهم في ضلال مبين وأنّه يحبّ أخاهم أكثر منهم رغم أنّهم عصبه، ثمّ تصرفوا
بناءً على هذا التصور، والنتيجة أنّهم ندموا ندماً عظيماً، فلم يخلّ لهم وجه
أبيهم كما افترضوا، ودفعوا نتيجة فعلهم والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبِيْطٌ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ [يونس: ٨١].

(١) الكشاف، (٢/ ٣٠٤).

(٢) النهاية، ابن الأثير، (٢/ ٢٠٤).

لقد أساءوا الظنّ، وحسدوه على منزلته وأخاه من أبيه، والحسدُ داء عضال قتال، وهو نكد في الدنيا وخسارة في الآخرة؛ لذا جاء النهي عنه صريحاً واضحاً: «ولا تحاسدوا»، وفي الحديث الآخر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "دَبَّ إِلَيْكُمْ داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتّى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم".

ورُوي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «ياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب»، وتكلّم في ثبوته^(١). ومما يحكى عن بعض السلف قوله: «لا تعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»^(٢).

إنّ هذا الذنب العظيم الذي وقع فيه إخوة يوسف ابتداء كان مقدمة فاسدة، ثم كان بدورة مقدمة لفعل أشنع. ومما يحسن التنبيه إليه هنا، هو أنّ حبّ يعقوب ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن سبباً يستحق لأجله يوسف ما فعله به إخوته، وهنا يحسن التنبيه إلى أنّه قد أخطأ من خطأ يعقوب، وشارك بعض من تكلم في الآيات بطريق مباشر أو غير مباشر في تخطئة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في حبّه لابنه، والصواب أنّ حبّ يعقوب ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حبّ طبيعي بشريّ له مسوغاته العقلية والفطرية والشرعية، ومنها:

- كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من أصغر إخوانه وكما هو مسلم به عند كلّ أب وأم أنّ للصغير حباً خاصاً تظهر فيه معاني الحنان والشفقة، والكبير محبوب أيضاً ولكن يعكس هذا الحبّ التقدير والاحترام والاعتزاز بالابن، فمثلاً

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحسد، ح رقم: ٤٩٠٣.

(٢) آيات للسائلين، ص ١١١.



النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحب فاطمة ويحب ابنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن كان أسلوبه في استقبالهم والتعامل معهم مختلفاً، فكان إذا دخلت عليه فاطمة قام إليها وقبلها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه^(١). أما أبناها فقد روي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى طعام دعي له فإذا حسين يلعب مع الغلمان في الطريق، فاستقبله أمام القوم، ثم بسط يده وطفق يمرها هنا مرةً وها هنا مرةً، وجعل رسول الله يضحكه حتى أخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه، ثم أقنع رأسه فوضع فاه على فمه وقبله^(٢).

وورد غيره في هذا المعنى. والشاهد، أن حبَّ يعقوب ليوسف كان حبًّا فطريًّا يلائم سنّه. ويحكى أن أعرابياً سئل: من أحبُّ أبنائك إليك؟ فقال: أصغرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يحضر، ومريضهم حتى يشفى^(٣).

- قال الدكتور عليّ القره داغي: فقد كان تقدير الإخوة للأمر غير صحيح، وحكمهم على أبيهم بأنه يفرّق بينهم حكماً ظالماً؛ لأنَّ أباهم كان يحبُّ يوسف وأخاه بنيامين، لأنَّهما كانا صغيرين توفيت أمُّهما في حين أن إخوتهما العشرة كانوا كباراً، ومن أمٍّ واحدة ما زالت موجودة معهم، فيكون من الطبيعي أن يكون حبَّ يعقوب لهما لصغرهما وفقدان أمهما حتى يعوضهما حنان الأم. وقد اعترف الإخوة بأن يعقوب يحبهم، ولكن حبّه يوسف وأخاه كان أكثر، وهذا يدل على التعبير بكلمة ﴿أَحَبُّ﴾، فهم بينوا استحقاقهم لحب أكبر، لأنهم عصبه قوية، تقوم بواجبات البيت، وهذا باطل لما تقدّم^(٤).

(١) سنن أبي داود، أبواب النوم، باب ما جاء في القيام، ح رقم: ٥٢١٧.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ح رقم ١٤٤.

(٣) آيات للسائلين، ص ١١٤.

(٤) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، د عليّ القره داغي، ص ٤٣.

- ولا جناح على المرء أن يحب أحد أبنائه، أو إحدى زوجاته حباً يفوق حبه لبقية أبنائه أو زوجاته، ما لم يتسبب هذا الحب في ظلم الباقيين. ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لم يظلم بقية أبنائه وحاشاه^(١).

إنَّ الشخص لا يلام على محبته لبعض أبنائه دون بعض، أو بعض الناس دون بعض؛ إذ المحبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الَّذِي يلقِيها في قلوب العباد، فهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل! إن الله يحبَّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل. فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحبَّ فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض"^(٢).

هذا، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقال نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنِّي رَزَقْتُ حَبَّهَا». وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حباً خاصاً، لكنّه كان تامّ العدل. والإنسان بإمكانه أن يقوم بالعدل، لكن ليس بإمكانه التحكم في ميل قلبه؛ ولهذا لما سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح من حديث عمرو بن العاص، قال: أي الناس أحب إليك؟ قال عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب، فعد رجالاً^(٣)، وروي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"^(٤).

وهنا يحسن التنبيه إلى مسألة مهمة: إذا أحبَّ أحد ابنًا له حباً خاصاً فعليه أن يركّز على أن سبب الحب هو الصفة التي تحلّى بها هذا الابن لا شخصه، حتّى

(١) آيات للسائلين، ص ١١٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، ح رقم: ٣٠٣٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، رقم: ٣٤٦٢.

(٤) سنن أبي دود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، ح رقم: ٢١٣٤.



يتنافس الأبناء في تحقيق هذه الصفة كأن يكون باراً بالديه، أو فيه صلاح، أو غير ذلك. مع الحرص على العدل^(١).

كما أنه ينبغي للوالد على ألا يحمل حبه لولد من أولاده على أن يعطيه ويحرم إخوانه، فهذا من الظلم الذي نهى الله عنه. وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "أعطاني أبي عطية، فقالت عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني أعطيت ابني من عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: أعطيت سائر ولدك مثل هذا، قال: لا، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، قال: فرجع فرد عطيته، وفي رواية لمسلم: "فلا تشهدني إذن فأني لا أشهد على جور"^(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»^(٣).

- قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: إنَّ الحبَّ مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين؛ ولا تكليف بها؛ وحينما يتعرض القرآن لها، فالحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُوَضِّح: أَنَّ الحبَّ والبغض انفعالات طبيعية؛ فَأَحِبُّ مَنْ شِئْتَ وَأَبْغِضْ مَنْ شِئْتَ؛ ولكن إياك أن تظلم النَّاسَ لِمَنْ أَحْبَبْتَ؛ أو تظلم مَنْ أَبْغَضْتَ، بل اقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]^(٤).

(١) آيات للسائلين، ص ١١٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب: الإهداء في الهبة، ح رقم: ٢٤٤٧، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ح رقم: ١٦٢٣.

(٣) يوسف الأحلام، محمود المصري، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص ٤٨.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٨٦٦).

ب. ﴿وَمَنْ عَصَبَةٌ إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾:

والعصبة من عدد عشرة فما فوق. والعصبة أيضاً هم المتكاتفون المتعصبون لبعضهم البعض، وهم الذين يقومون بالمصالح، ويقضون الحاجات، وقد تقاعد أبوهم، وترك لهم إدارة أعمال العائلة وقالوا: ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة، فكان من الواجب أن يَخُصَّصْنَا أبونا بالحب ولم يلتفتوا إلى أَنَّهُمْ عَصَبَةٌ، وهذا ما جعل الأب يحبهم، لكنَّه أعطى مَنْ ليسوا بعصبة مزيداً من الرعاية، ولكنهم سدرُوا في غِيَّهِمْ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم: ﴿إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] (١). أي: إِنَّه بعيد عن الصَّواب. وأكّدوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة. و [اللام] في قوله ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، والتعبير: ﴿لَفِي﴾، فيه إشارة إلى أَنَّ الضلال محيط به إحاطة عظيمة. وسيطر الشيطان على نفوسهم فحرَّك الحسد إلى أقصى غاياته (٢).

قال محمّد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: الظاهر أَنَّ مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في هذه الآية الكريمة إنّما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي. ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى في نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] أي لست عالماً بهذه العلوم التي لا تعرف إلّا بالوحي، فهذاك إليها وعلمك بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظنُّ سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيمُ

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/٦٨٦٨).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٠٥).



يعني: أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه ينبغي بها بدلاً وهو لا ينبغي بها بدلاً. وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً، وإنما مرادهم أن أباهم - في زعمهم - في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به، حيث أثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعاً له، وأقدر على القيام بشئونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وهذا أشهر معانيه في القرآن؛ ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات. الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمى العرب الدفن إضلالاً؛ لأنه تغيب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها؛ لأنها تصير رميماً وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] الآية.

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] أي غاب واضمحل^(١).

(١) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ، (٣/ ٥٢ - ٥٣).

٣. ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾

[يوسف: ٩].

أ. ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾:

هكذا كانت مشاورات إخوة يوسف فيما بينهم؛ التفكير بالقتل لأخيهم الصغير الذي لم يرتكب جريمة ولا جريمة، وهذا يذكرنا بقتل ابن آدم لأخيه ويذكرنا بأن الإنسان إذا خضع لوسوسة الشيطان انحطَّ إلى أسفل السافلين ورُدَّ إلى مرتبة أحطَّ من الوحوش، وصار كما توقعت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ وأيِّ دماء؟ إنها دماء بريء، وأي بريء؟ إنه الأخ اللطيف المذهب الذي لم يسيء ولن يسيء.

ب. ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾:

مع التراجع السريع عن القتل إلى الطرح أرضاً، والطرح أرضاً أخف من القتل، وقد يصل إلى حد القتل ولكنه قتل بالتسبب، وهم لا يريدون القتل بالعمد، ولكن لا بأس بالقتل بالتسبب، وقد لا يترتب على الطرح أرضاً موت ولا قتل^(١).

ولفظة: ﴿اطْرَحُوهُ﴾، احتوت دلالات دقيقة كشفت لنا ما في نفوس الإخوة من غلٍّ وحسد حتَّى وصل بهم الأمر أن تقترح نفوسهم الطرح أرضاً، فالكلمة تعبّر عن نوبة صرع جامحة للنفس لا تجد من يروضها ويطفئ نارها إلا بالخلاص من هذا الفتى الصغير، فكان الطرح، والذي يضمن النبذ والإلقاء والرمي بعيداً عن قلب أبيهم وعدم الاعتداد به، وعدم الالتفاف والحاجة له، وهذا النبذ والرمي

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٢٩٧.



وعدم الالتفاف له لا يكون في مكان قريب أو مكان يأمن فيه على نفسه، بل هو مكان بعيد غاية البعد والجهالة، وما هذه المعاني إلا لتدل على مزيد التخلص من يوسف وعلى غض النظر بما يحصل له مكروه، محاولة لإطفاء نار الحسد والغيرة، التي تغلغل في جنباتهم دون النظر إلى أنه الأخ الصغير البريء في طفولته؛ لأنّ البصائر قد عميت والقلوب قد أقفلت فجاءت لفظة: (الطرح) مؤدية للغرض الذي سيق لأجله من بيان ما اعترى في نفوسهم من حسد وغيرة، تحمل في طياتها معاني الإبعاد الحسي الذي يراد منه الإبعاد القلبي والمعنوي بعد ذلك ولا يمكن للفظه أخرى أن تؤدي هذه الرسالة التي اختصّ بها هذا اللفظ.

وفي قوله: ﴿أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، جعلوا طرحه أرضاً مساوياً لقتله وهذا يعني أن يطرحوه أرضاً بعيدة مجهولة منكورة في بوادي بعيدة منكورة، تأكله الذئاب^(١)، ولاحظ ما في كلمة: (اطرحوه) من غلظة وقسوة ورغبة في هلاكه، وما في كلمة (أرضاً) من تنكير تتسع الدلالة فيه وتأخذ أماداً بعيدة ولو حاولت أن تعبّر عن المعاني التي يتسع إليها التنكير في هذه الكلمة لوجدتكم في حاجة إلى كلام طويل.

ج. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾:

صورة بيانية من أرقى صور البيان وكأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان شاغلاً لوجه أبيهم ولم يكن خالياً لهم، يعني كأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان قاطعاً لهم الطريق الذي يصلون منه إلى وجه أبيهم، فإذا قتلتموه، أو طرحتموه أرضاً خلا هذا الطريق وأمكنكم أن تسلكوه إلى وجه أبيكم^(٢). و﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾: أي:

(١) من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى،

٢٠٢١م، ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٦.

يُصَفُّ لَكُمْ وَيَخْلُصْ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ، فَيَقْبِلَ عَلَيْكُمْ وَيَزِدَادَ حُبَّهُ لَكُمْ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُ عِنْدَمَا يَفْقَدُ يُوسُفَ، يَخْرُجُ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهِ وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ عِنْدَمَا يَفْقَدُهُ سِيزِدَادَ حُبًّا لَهُ وَشَوْقًا إِلَيْهِ وَأَنَّ خِيَالَ وَلَدِهِ الْمَفْقُودِ سَيَبْقَى فِي قَلْبِهِ وَأَنَّ قَلْبَهُ لَنْ يَخْلُو لَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ سَبَبُ إِبْعَادِ حَبِيبِهِ عَنْهُ وَمَفَارَقَتِهِ لَهُ.

وقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يدلُّ على غلظة نفوسهم وتبدُّل مشاعرهم، فغياب المحبوب يلهب الشوق ويضاعف المحبة، وآتَى لَهُمْ أَنْ يَسْتَشْعِرُوا هَذِهِ الْمَعَانِي وَقُلُوبُهُمْ مَمْتَلِئَةٌ بِالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالضَّغِينَةِ وَالْبَغْيِ^(١).

د. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾:

لقد علم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مَا عَزَمُوا عَلَى فِعْلِهِ ذَنْبٌ وَأَنَّهُمْ قَدْ عَقَدُوا الْعِزْمَ عَلَى التَّوْبَةِ مِنْهُ بَعْدُ. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مَسْوُغًا لِفَعْلِهِمْ؛ إِنْ مِنْ قَدَمِ الْعِزْمِ عَلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ صُدُورِ الذَّنْبِ تَسْهِيلاً لِفَعْلِهِ وَإِزَالَةً لَشَنَاعَتِهِ، وَتَنْشِيطًا لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يُحْمَدُ لَهُ أَبَدًا هَذَا الْعِزْمُ وَذَلِكَ التَّعْلِيقُ، بَلْ قَدْ يَكُونُ صَنِيعُهُ هَذَا دَالًّا عَلَى اسْتِخْفَافِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ صَدَقَ فِي إِرَادَةِ التَّوْبَةِ وَاجْتِمَاعِ عَمَلِ الْقَلْبِ الَّذِي يَقُومُ بِالتَّائِبِ؛ لَمَّا أَقْدَمَ عَلَى الذَّنْبِ أَصْلًا، فَإِذَا كَانَ تَقْدِيمُ الْعِزْمِ عَلَى ذَنْبٍ مُتَعَلِّقًا بِحَقِّ آدَمِي كَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ، فَإِنْ مِنْ شُرُوطِ التَّوْبَةِ رَدُّ الْحَقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا، فَإِذَا تَعَلَّقَ بِأَكْثَرِ مِنْ مَخْلُوقٍ وَاحِدٍ كَانَ أَعْظَمَ، فَإِنْ كَانَ الْمَخْلُوقُ قَرِيبًا يَجِبُ بَرُّهُ أَوْ يَجِبُ تَعْظِيمُهُ مِنْ نَحْوِ عَالَمٍ وَأَبْ كَانَ ذَلِكَ أَكْبَرَ، وَلَا يَسُوِّغُ ذَلِكَ بِحَالٍ حَسَنٌ النِّيَّةِ وَالْقَصْدِ، فَإِخْوَةُ يُوسُفَ مَا فَعَلُوا فَعَلْتَهُمْ إِلَّا لِيَخْلُوا لَهُمْ وَجْهَ أَبِيهِمْ، فَالْغَايَةُ لَا تَجْعَلُ الْوَسِيلَةَ الْمَحْرُمَةَ حَلَالًا^(٢).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٣٨).

(٢) (٢) آيات للسائلين، ص ١١٦.



﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: هكذا ينزع الشيطان، وهكذا يسوّل للنفس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث، وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا... والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات وليست التوبة هكذا، إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاك، حتّى إذا تذكر ندم وجاشت نفسه بالتوبة. أمّا التوبة الجاهزة التي تُعدّ سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالمها، فليست توبة، وإنّما تبرير لارتكاب الجريمة بزيينة الشيطان^(١).

ولا بدّ من الإشارة أنّ باب التوبة مفتوح للعبد ما لم يغرغر ولم تطلع الشمس من مغربها، فالتوبة والأوبة والإنابة إلى الله، باب مفتوح لم يُغلق في وجه واحد قال لا إله إلا الله. وإن العبد قد يرتفع إلى أعلى عليين بالأوبة والتوبة والإنابة والعمل الصالح وقد كان يوماً في أسفل السافلين^(٢).

إنّ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه السّورة في نهاية المطاف ندموا وطلبوا العفو والسماح من يوسف ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وحسنت توبتهم ورجوعهم إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْنُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

إنّ الإخوة لم يكونوا متوانين عن قتل يوسف، بل اقترح أحدهم حلاً يشفي غليل الإخوة ويبعد مسألة القتل الذي هو أعظم الجرائم بعد الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٣).

(١) في ظلال القرآن، (٤/١٩٧٣).

(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٦٧.

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي القره داغي، ص ٥٣.



أ. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾:

وفي هذه الصيغة جمالية لغوية، تتمثل في انتخاب أفضل أسلوب لغوي، بأفضل الكلمات فيما يتناسب مع موضوع الكلام. فالكلام هنا سُرد لواقعة تتواصل فصولاً مع الآيات في حديث بين عدة أشخاص، والصيغ المطروحة عديدة، كأن تقول: قال أحدهم، أو قال كبيرهم، أو قال فلان منهم. أما أن تقول: قال قائل منهم، فإن الوقع في الأذن أرق، والقبول في النفوس أوفق، والتناسق محقق.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ إشارة أخرى إلى الإعجاز القرآني وتفوقه على كلام البشر، فلو أن الرسول - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - كان يأتي بهذا الكلام من عنده لكان اعتمد على ما فطرت النفس البشرية في خصائصها وسلوكها في تحديد الأشخاص بدقة، كأن يقول: قال روبيل. أو قال: يهوذا. لكنّه ما هو إلاّ مبلغ عن ربّه وشاء الله تعالى ألا يذكر اسم القائل علّوا عن منهج الناس في السرد والكلام، فبلغ الرسول الكريم ما جاءه من ربه بالحرف^(١).

إنّ هذه الكلمة ﴿قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ تشمل واحداً غير متعين منهم، وبالتالي حفظ مقامهم جميعاً، حيث لا يجوز لنا تخصيص واحد منهم بعينه بنية القتل، ووصفه بأنه مجرم بعينه، فهذا إرشاد من الله تعالى إلينا بالاستفادة من القصة بأخذ العبرة، دون الخوض في اتهام أحد بعينه، أو كرهه، ولا سيما أنّهم جميعاً تابوا إلى الله تعالى وغفر لهم، وعفا عنهم والدهم وأخوهم يوسف^(٢).

(١) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م،

ص ٤٦.

(٢) لطائف التفسير في سورة يوسف، المرجع السابق، ص ٤٦.



وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ التحريض على الإخلاص في دفع المفاسد ما أمكن فلم يذكر اسمه ولا صفته مع أهميّة موقفه فإذا علم الله صدقك فليس مهمًّا أن يعرف الناس اسمك^(١).

- ﴿لَا نَقْتُلُكَ يَوْسُفَ﴾: ففي ظاهر السّياق لا حاجة إلى ذكر يوسف لاكتمال المعنى، وقد ذكر اسمه في الآية السابقة إلّا أن إعادة اسمه يحمل فوائد عدة منها: الأولى: لغوية، في انشراح الصدر بعد انقباضه مما ورد في الآية السابقة على الواقع خاصة، فبعد أن سمعنا: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، سمعنا مباشرة: ﴿لَا نَقْتُلُكَ يَوْسُفَ﴾.

الثانية: معنوية، فإن تكرار ذكر اسم يوسف أمام الإخوة، يحملهم على استذكار كلّ ما يحمله الاسم من النواحي الإيجابية في نفوسهم حياله، وقد التصق اسمه في أذهانهم بمواصفاته أنّه أخوهم وصغير فيهم.

الثالثة: رمزية، فكما أنّنا لاحظنا أنّ المتكلم الأوّل في الآية السابقة، أبعد عن نفسه شخصيًّا مسألة قتل يوسف، أو الاشتراك القولي في قوله: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، فهذا هو الأخ الثاني الذي ينتهج المنهج ذاته في إبعاد نفسه قوليًّا عن الاشتراك في التفكير في قتل يوسف عَلَيْهِ السَّلَام. فقال: ﴿لَا نَقْتُلُكَ يَوْسُفَ﴾.

وفي قوله: ﴿لَا نَقْتُلُكَ يَوْسُفَ﴾ دروس، منها:

- إن لم تستطع إزالة الشرّ فخففه ما استطعت.

- محزن أن تبدو الرحمة في شكل رفض القتل، حتّى يظهر أنّ أكثر الموجودين حنانًا ورحمة هو ذلك الذي يرفض القتل ويرضى بما دونه من التعذيب والتنكيل.

(١) لطائف التفسير في سورة يوسف، المرجع نفسه، ص ٤٦ - ٤٧.



ولا شكَّ أنَّ الألفاظ الربانيَّة كانت تحوط بيوسف فمن بين مكائد إخوته ارتفع صوت: ﴿لَا نَقْنُلُوا يُوسُفَ﴾. ومن عمق البئر جاءته صرخة: ﴿يَبْشُرَى﴾. وفي أولى خطوته في القصر سمع همسة: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَهُ﴾، ولحظة إصاقي التهمة به في بيت العزيز ارتفعت شهادة: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧]، وقيل خروجه من السجن جاءته رسالة: ﴿أَتُنُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤] (١).

- ﴿لَا نَقْنُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١٠]، كان مجرد اقتراح، لكنّه أنقذ مصر والشام من المجاعة وغير مسار التاريخ فلا تحقرن فكرة أو رأياً. وسبحان الله! حتّى أصحاب النيّات السيّئة تتفاوت نواياهم في السوء والشرّ والعداوة مراتب ودرجات، والخصوم يتفاوتون ضراوة ونكاية وقد يدفع الله بعضهم شرّ بعض (٢).
ب. ﴿وَأَلْقَوْهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾:

من المعروف في اللغة أنّ الجبّ يختلف عن البئر في مواصفاته: ذاك أنّ البئر هي الحفرة في الأرض التي تضم في قعرها ماء متّصلاً ينبوع يؤمّن استمرار تدفق الماء، أو بشريان مائي يجري تحت سطح الأرض، وقد أقام الناس على حوافّ هذه الحفرة، بناءً محيطاً بها، منعاً من اندراسها. أما الجبّ: البئر الواسعة. وسميت جبّاً لأنها قطعت من الأرض قطعاً، وهي كذلك يتصل قعرها بالماء، ولكن لا حواف لها عند السطح فهي الركيّة التي لم تطوّق. أما غيابة الجبّ، فهي ما غاب عن سطح الأرض داخل الجبّ، ولكنه ارتفع عن سطح الماء ولم يغب فيه. وإنّما ذكرت الغيابة مع الجبّ دلالة على أنّ هذا القائل أشار عليهم بالقائه

(١) يوسفيات، علي جابر الفيّفي، ص ٣٩.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمّد خيرى، ص ٣٣.



في موضع بناحية الجبّ في إحدى أطرافه السفلى، بعيداً عن وسطه الذي فيه الهوة، التي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره، فهذه المشورة خطة ثالثة تحتوي سلامة يوسف، وتضمن حياته، وتكفل بقاءه، وذلك لا يكون إلا بما قلنا وصورنا، فالمراد أن يُلقوه في ناحية من نواحيه إلا في وسطه حتى يكون بعيداً عن الماء؛ لأنهم اتفقوا أخيراً على عدم إهلاكه، وهذا لا يتحقق إلا بهذه الصورة، وأما لو كانوا يريدون إلقاءه في جب مملوء ماء لكانوا يريدون إهلاكه وهو خلاف ما وقع عليه اتفاقهم أخيراً^(١).

إن الوصف القرآني يصور لنا بدقته واقع الخطة بكاملها بكلمتين اثنتين: ﴿غَيَّبَتِ الْجُبَّ﴾، فإذا بنا نفهم أنّ المقترح أراد التخلص من يوسف دون أن يتم قتله بصورة مباشرة، بأن يُقصى عن أبيه، وأن لا يذهبوا به بعيداً جداً لمشقة ذلك عليهم، ولا يتركوه في مكان قريب يمكنه من العودة إلى أبيه، ولا يتركوه في الفلاة في مكان مكشوف. إلا إنه خشي أن يقول: ألقوه في البئر، فيغرق، فإذا به يتحرى الدقة في موضع إلقاءه، فيقول: ﴿وَأَلْقَوْهُ فِي غَيَّبَتِ الْجُبِّ﴾، بما يضمن عدم قتله. وأل هنا ﴿الْجُبِّ﴾ للعهد لا للجنس أي: الجبّ المعهودة المعروفة لكم، والتي ليس فيها ماء مغرق وليست مهجورة بحيث تكون مأوى العناكب والحيات والعقارب، وليست معزولة عن طريق المارة فيموت من الجوع، ولكنها الجبّ التي تعرفون على ممر السيارة حتى يلتقطه هؤلاء ويأخذونه^(٢).

ج. ﴿يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾:

أي: يلتقطه بعض المسافرين السائرين على الطريق.

(١) مؤتمر تفسير يوسف، (١/ ٣٣٤).

(٢) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٠٣.

- والالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق. واستعير لأخذ شيء مضاع^(١). ومنه اللقيط، وهو: الولد الصغير الذي يوجد ملقي على الأرض ولا يعرف أبواه^(٢).

- والسيارة: الجماعة الموصوفة بحال السير وكثرته. والتعريف به تعريف العهد الذهني لأنهم علموا أن الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر^(٣). وبهذا أصبح الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لقيطاً في أيدي الغرباء^(٤).

﴿يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾: قال: يلتقطه بعض السيارة، فالتقطه بعض السيارة بالفعل. هناك نوع من المقادير مرتبط بكلمة تخرج من فم متفائل أو مؤول، أو ظن بالله ظن الخير، فلتكن ألفاظك دائماً تحمل توقعات الخير لعلّ قدراً ما، يوافق ذلك^(٥).

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾: أي: كنتم فاعلين بمشورتي. ويدلّ قوله هذا على أنّه كان مرتاباً من قبولهم لرأيه، بسبب ما يرى من شدة حقدهم وضعيتهم على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن الله غالب على أمره، قدر ليوسف ألا يموت حتّى يبتلي بما ابتلي به، ثمّ يمكنه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الأرض، فانصرفوا عن قتله، وإلقائه في الأرض، إلى إلقائه في الجبّ الواقعة على طريق القوافل، واتّفقوا على هذا الرأي^(٦).

- إنّ هذه الآية الكريمة تدلّ على وجوب درء المفسد بقدر الإمكان، وأنّ من كان قادراً على درء أي مقدار من المفسد فعليه أن يفعله، حيث إنّ هذا القائل لم

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٣٩).

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٣٠٥.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/١٣٩).

(٥) يوسفيات، علي جابر الفيافي، ص ٣٨.

(٦) التفسير الموضوعي، (٤/١٤٠).



يكن مرتاحاً للإجراءات السابقة حتّى في هذا الإجراء فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فاستعمل لفظ: (إن) الدال على التشكيك والتشيط، وفي هذا توجيه إليهم بعدم الفعل، ولكنهم كانوا مصرين على ذلك^(١).

ولقد أشارت الآية الكريمة إلى سنّة من سنن الله تعالى وهي سنة التدافع، وهو الصّراع بين الخير والشر، وبين الحقّ والباطل، فهؤلاء إخوة يوسف عملوا على قتله ظلماً وجوراً وفساداً في الأرض فهيّا الله تعالى واحداً منهم صرفهم عن قتله إلى تركه يقع في يد السيارة ونجح في ذلك.

قال أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللهُ: في الآية دليل على مشروعية التقاط اللقطة وقد أذن فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يأذن في ضالة الإبل إذ قال في اللقطة: «اعرف عقاصها (وعاءها) ووكاءها ثمّ عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها. وقال في ضالة الغنم هي لك أو لأخيك أو للذئب»^(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية فإن بعض الشر أهون من بعض والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل^(٣).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: لفظ اللقيط في الشرع لا يطلق إلا على الطفل الصغير لا على الكبير^(٤).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، د. علي القره داغي، ص ٥٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب المساقاة الشرب، باب: شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار، ح رقم: ٢٩٧٢. أيسر التفاسير، (٢/٥٩٦).

(٣) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٩/١٣٤).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَابْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [يوسف: ١١ - ١٥].

تفسير الآيات الكريمة:

بعدما اتفق إخوة يوسف على أن يلقوه في غيابة الجبّ شرعوا في التنفيذ وارتكاب الجريمة وبدأوا في محاوره أبيهم للوصول إلى هدفهم

١. ﴿قَالُوا يَتَابْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾:

والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كلّ ما بذلوه ليندسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم.

- ﴿يَتَابْنَا﴾ بهذا اللفظ الموحى والمذكر بما بينه وبينهم من أصرة.

- ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾؛ سؤال فيه عتب، وفيه استنكار خفيّ، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه، وهو تسليمهم يوسف، فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات العلوية التي يرتادونها لأنّه يحبه، ويخشى عليه ألاّ يحتمل الجو والجهد الذي يحتملوه وهم كبار، لا لأنّه لا يأمنهم عليه، فمبادرتهم له بأنّه لا يأمنهم على أخيهم وهو أبوهم، المقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثمّ يفقد إصراره على احتجاز يوسف، فهي مبادرة مأكرة منهم خبيثة^(١).

(١) في ظلال القرآن، (٤/١٩٧٤).



- ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾: قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء، وذكر النصح هنا - وهو الصفاء والإخلاص - يظهر عكس ما كانوا يخفونه من الدغل المريب^(١).

- قال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي قولهم: ما لك لا تأمنا، دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم، وذكروا سبب الأمان وهو النصح أي: لم لا تأمنا عليه وحالتنا هذه؟ والنصح دليل على الأمانة، ولهذا قرأنا في قوله: ﴿تَاجِعْ أَمِينَ﴾، وكان قد أحس منهم قبل ما أوجب ألا يأمنهم عليه^(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي؛ لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ [و] الحال ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأمنه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم^(٣). وقال البغوي في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾: النصح هو القيام بالمصلحة وقيل: البر والعطف، إنا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، ونحفظه حتى نرده إليك^(٤).

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿يَتَأَبَّأْنَا﴾ خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف عَلَيْهِ السَّلَام ليتسببوا

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٩٧٤).

(٢) البحر المحيط، (٦/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) تفسير السعدي، (ص ٥٠١).

(٤) مختصر معالم التنزيل، (١/ ٤٣٢).

بذلك إلى استنزاله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رأيه في حفظه منهم لَمَّا أَحَسَّ مِنْهُمْ بِأَمَارَاتِ الحسد والبغي فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا ﴿مَا لَكَ﴾ أَيُّ شَيْءٍ لَكَ ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ أَيُّ لَا تَجْعَلُنَا أَمْنَاءَ ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ مَعَ أَنَّكَ أَبُونَا وَنَحْنُ بَنُوكَ وَهُوَ أَخُونَا ﴿وَأِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ مَرِيدُونَ لَهُ الْخَيْرَ وَمَشْفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْسَ فِينَا مَا يُخِلُّ بِالنَّصِيحَةِ^(١). قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا جَوَابَ أَبِيهِمْ عَلَى سُؤَالِهِمْ وَعَتَابِهِمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَرْسِلَهُ غَدًا مَعَهُمْ إِلَى الْمَرَاعِي وَالْقَفَارِ كَأَنَّ كَلَامَهُمْ أَمْرَ مُحَقِّقٍ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا ارْتِيَابَ^(٢).

٢. ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾:

- ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا﴾: فِي لَفْظَةٍ: ﴿أَرْسَلَهُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُمْسِكُهُ وَيَصْحَبُهُ دَائِمًا^(٣).

- ﴿غَدًا﴾: يُطْلَقُ عَلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَلِي يَوْمَكَ، وَعَلَى الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ^(٤).

- ﴿يَرْتَعُ﴾: الرَّتْعُ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ فِي الرَّبِيعِ رَغْدًا. وَالرَّتْعُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَصْبِ. وَرَتَعَ فُلَانٌ فِي الْمَالِ إِذَا تَقَلَّبَ فِيهِ أَكَلًا وَشَرَبًا^(٥). وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ قَدْ احْتَوَتْ عَلَى دَلَالَاتٍ دَقِيقَةٍ كَشَفَتْ لَنَا أَيْضًا مَا فِي نَفُوسِ الْإِخْوَةِ مِنْ مَكْرٍ وَحِيلَةٍ وَتَمْوِيهِ تَجَاهَ أَخِيهِمْ لِتَحْقِيقِ خَطَّتِهِمُ الَّتِي اتَّفَقُوا عَلَيْهَا لِإِلْقَائِهِ فِي الْبُئْرِ. وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ الَّتِي فِيهَا مِنَ التَّقَلُّبِ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالسَّعَةِ، لِتُوحِيَ عِنْدَ سَمَاعِهَا بِالِاسْتِقْرَارِ وَالرَّاحَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَالنَّعِيمِ وَالْإِنْبِسَاطِ الَّذِي سَيَلْحَقُ بِأَخِيهِمُ الصَّغِيرِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِلتَّمْوِيهِ وَالتَّغْطِيَةِ عَلَى مَجْرِيَّاتِ الْخَطَّةِ بِطَمَأْنَانَةِ أَبِيهِمْ عَلَى يُوسُفَ

(١) تفسير أبي السَّعُود، (٤/٢٥٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٤٠).

(٣) البحر المحيط، (٦/٢٤٥).

(٤) إتحاف الإلف بذكر الفوائد الإلف، (١/١٥٦).

(٥) دلالات الألفاظ التي انفردت بها سورة يوسف، ص ٨.



حَتَّى يَصْلُوا إِلَى مَرَادِهِمْ مِنَ الْإِنْفِرَادِ بِيُوسُفَ، وَإِلْقَائِهِ فِي الْبُئْرِ وَعَلَّلُوا طَلِبَهُمْ والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط^(١).
 - ﴿وَيَلْعَبُ﴾: والمراد اللعب المباح بقصد الاستجمام ورفع السَّامة^(٢).
 وهذا اللعب من شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده. قال ابن عاشور: وهو مباح في الشرائع كلها إذا لم يصِرْ دأباً^(٣).

وهو يتفق مع فطرة الإنسان وحاجة جسمه إليه، وهو مقرر في جميع الشرائع، ويقتضيه العقل والفطرة، للكبار والصغار خاصة، ولذا قيل: من كان له صبي فليَتَصَابَ معه، وليلعب معه، وجاء في الأثر: لآعب ابنك سبعاً، وصاحبه سبعاً.
 وجاءت شريعة الإسلام لتقرر اللعب والرياضة المفيدة النافعة للجسم للصغار والكبار، وسيأتي المزيد بإذن الله في السِّياق، وبأنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سابق عائشة وقالت: سابقني رسول الله فسبقته^(٤)، وقالت: "كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبٌ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ، فَيَسْرِبُهُنَّ إِلَيَّ فِيلْعَبْنَ مَعِي"^(٥). والأدلة على ذلك كثيرة.

وهذا ما استمر مع البشرية، وظهر اللعب في المدارس من الروضة إلى الجامعة، مع فتح النوادي الرياضية، والملاعب، والمسابقات في ذلك، استمراراً لشرعة الله تعالى^(٦).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٩.

(٢) تفسير القرطبي، (١١/٢٧٢). التحرير والتنوير، (٥/٦٥٠).

(٣) التحرير والتنوير، (٥/٦٥٠).

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء، ح رقم: ١٩٧٩.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: الانبساط إلى الناس، ح رقم ٥٧٧٩.

(٦) شرعة الله للأنبياء، د. محمد الزحيلي، ص ٢٥٧.



وَيُفَضِّلُ الشَّرْعَ أَنْ يَكُونَ اللَّعِبُ فِي مَجَالٍ قَدْ يَطْلُبُهُ الْجَدُّ مُسْتَقْبَلًا؛ كَأَنْ يَتَعَلَّمَ
الطِّفْلُ السَّابَحَةَ، أَوْ الْمَصَارِعَةَ، أَوْ إِصَابَةَ الْهَدَفِ؛ وَهِيَ الرَّمَايَةُ وَهَكَذَا نَفْهَمُ
مَعْنَى اللَّعِبِ: أَنَّهُ شُغْلٌ لَا يُلْهِي عَنْ وَاجِبٍ، أَمَّا اللَّهْوُ فَهُوَ شُغْلٌ يُلْهِي عَنْ وَاجِبٍ
وَهُنَاكَ بَعْضٌ مِنَ الْأَلْعَابِ يَمَارِسُهَا النَّاسُ؛ وَيَجْلِسُونَ مَعًا؛ ثُمَّ يُؤَذِّنُ الْمُؤَذِّنُ؛
وَيَأْخُذُهُمُ الْحَدِيثُ؛ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي مِيعَادِهَا؛ وَهَكَذَا يَأْخُذُهُمُ
اللَّهُوُ عَنِ الضَّرُورَةِ؛ أَمَا لَوْ التَّفَتُوا إِلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ: لَصَارَ الْأَمْرُ مَجْرَدَ تَسْلِيَةٍ لَا
ضَرَرَ مِنْهَا^(١).

- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: مِنْ أَنْ يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ وَأَكَّدُوا مَقَالَتَهُمْ بِأَصْنَافِ التَّأْكِيدِ مِنْ
إِيرَادِ الْجُمْلَةِ إِسْمِيَّةٍ، وَتَحْلِيلِهَا بِأَنَّ وَاللَّامَ، وَإِسْنَادَ الْحَفْظِ إِلَى كُلِّهِمْ، وَتَقْدِيمَهُ لَهُ
عَلَى الْخَبَرِ احْتِيَالًا فِي تَحْصِيلِ مَقْصَدِهِمْ^(٢).

- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَيَّ: نَسْتَرَعِيهِ، وَنَحْفَظُهُ مِنْ أَذَى يَرِيدُهُ^(٣).

لَقَدْ أَكَّدُوا لِأَيِّهِمْ أَنَّهُمْ سَيَقُومُونَ عَلَى حَفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَقَابَلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مَكْرَ أَوْلَادِهِ وَكَيْدَهُمْ بِصَدْرِ سَلِيمٍ وَنَفْسٍ بَرِيَّةٍ صَافِيَةٍ، فَهُوَ نَبِيٌّ كَرِيمٌ، لَا يَحْمِلُ
فِي صَدْرِهِ شَيْئًا عَلَى أَحَدٍ، فَضْلًا عَنْ أَوْلَادِهِ، وَهُوَ أَيْضًا أَبٌ عَظِيمٌ رَحِيمٌ مَمْتَلِئٌ
الْقَلْبَ بِعَاطِفَةِ الْأَبَوَّةِ الصَّادِقَةِ، وَلِهَذَا صَارَحَ أَوْلَادَهُ بِمَا يَحْمِلُهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ
الشَّدِيدَةِ لَوْلَدِهِ يُوسُفَ، وَمَا دَرَى أَنَّهُ بِهَذِهِ الْمَصَارِحَةِ وَالْمَكَاشِفَةِ قَدْ سَعَّرَ أَحْقَادَ
أَوْلَادِهِ عَلَى أَخِيهِمْ، وَأَلْهَبَ مَشَاعِرَ الْحَقْدِ وَالْغَضَبِ فِي نَفُوسِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ أَكْثَرَ
تَصْمِيمًا عَلَى تَنْفِيزِ جَرِيمَتِهِمْ^(٤).

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٥٨٧٧).

(٢) تفسير أبي السَّعُودِ، (٤/٢٥٧).

(٣) تفسير السَّعْدِيِّ، ص ٥٠١.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/١٤١).



٣. ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

[يوسف: ١٣].

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾: أي: إنَّ ذهابكم به يُدخل عليَّ حزنًا، فأنا شديد المحبة له، لا صبر لي على مفارقتة، ولو لبعض يوم، وشدة المحبة تؤدِّي إلى مشاعر الخوف والقلق على المحبوب^(١).

- ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾: فقد كانت أرضهم كثيرة الذئاب، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام صغيراً لا يستطيع الامتناع منها بنفسه.

- ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: وأنتم عنه في غفلة وانشغال^(٢).

جمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام في هذه الآية بين الخوف والحزن وهو ما يعبر عن مكونات النفس البشريّة. والحزن له تأثير سلبيّ على النفس البشريّة ويساهم في إضراره، وهو يتولد من مكروه ماضي أو حاضر. والخوف كذلك له تأثير سلبيّ على الإنسان وهو يتولّد من مكروه مستقبلي، فإذا اجتمعا على شخص ما، تنغصت حياته ولم ينتفع بعيشه^(٣) إلا إذا التجأ إلى الله عَزَّجَلَّ.

إنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام عمل على إبقاء الثقة بينه وبين أولاده، واعتذر عن دعوتهم لأخيهم بعذرين: الحزن على يوسف وذهابه من عنده. ثانيًا: بخوفه أن يأكله الذئب في ساعة غفلة منهم. وتأمل الحكمة وأسلوب التربية العظيمة، فإنّه ليس من الحكمة أن يهدم جسر الثقة بينه وبين أبنائه، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يعلم منهم يقينًا ما هم عليه من سوء طويّة، لكنّه لا يفتحهم بذلك حرصًا على بقاء خيط

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٤١).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤١).

(٣) عجائب فريدة من سورة يوسف، عادل أكتوف، دار طليطلة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

الحياء في نفوس الأبناء موصولاً، فإذا انقطع تجرأوا على المعصية أكثر. فليتنبه الآباء والأمهات والمدرسون إلى هذه النقطة: أن انقطاع حبل الحياء بين الكبير والصغير يجعل الحياة لا تطاق^(١). واستمر أبناء يعقوب في جدالهم وحوارهم مع أبيهم لإقناعه بذهاب يوسف معهم فقالوا:

٤. ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾:

- ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة فينا قوة ومنعة، وحالهم أنهم عشرة رجال يمثلهم تعصب الأمور وتكفي الخطوب^(٢).

- ﴿إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾: أي: لضعفاء عاجزون مستحقون للهلاك، لأنه لا نفع في حياتنا. فإذا ضيعنا أماننا، وأكله الذئب، فنحن لما سواه أشد تضييعاً^(٣).

قال أبو حيان: هالكون ضعفاء وجوراً وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا، لأنهم لا غنى عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسار والدمار، وأن يقال: خسّرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون^(٤). وهكذا استسلم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لهذا التوكيد ولذلك الإجراء، ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته.

الآن ولقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَلْقَى فِي رُوحِ الْغُلَامِ أَنَّهَا مَحْنَةٌ وَتَنْتَهِي، وأنه سيعيش وسيُذكر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو^(٥).

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٠٩.

(٢) البحر المحيط، (٦/٢٤٧). الكشف، (٢/١٤٥).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٤١).

(٤) البحر المحيط: (٦/٢٤٧). اتحاف الإلف: (١/١٧٩).

(٥) في ظلال القرآن، (٤/١٩٧٥).



٥. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾: إنَّ التعبير بلفظ (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ مشعر باستعجال الإخوة في التنفيذ، فالفاء للتعقيب المباشر دون التراخي، أي: إنَّهم أخذوا يوسف بمجرد الموافقة التي قد تكون صريحة، أو ضمنية، لأنَّ القرآن الكريم قد طوى ذلك. وقد طوى جواب الشرط (فلما) لأنَّ جوابه هو جميع نتائج القصة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم وقد حُذف لأجل هذا التعميم، ولا مانع لغويًّا من أن يكون جزاء وجواب: (فلما)، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ في الآية التي بعدها، وفي ذلك دلالة على سرعة التنفيذ والإيقاع.

وإنَّ منهج القرآن الكريم يقبل هذا التنوع العظيم. والتعبير بلفظ: ﴿ذَهَبُوا بِهِ﴾ أي: بتعدية الفعل بالياء ولم يقل: ذهبوا معه، أو ذهب معهم، وذلك مشعر بالإسراع بالأخذ به بصورة غير ودّية. إنَّ إيقاع هذه الجملة الشرطيّة يدلُّ على أنَّهم بمجرد الموافقة أخذوا بيد يوسف وذهبوا به، ثمَّ إنَّ وضع جملة: ﴿ذَهَبُوا بِهِ﴾ مع: [أجمعوا] مؤذن بالعجلة خوفاً من تراجع الوالد من موافقته التي لم يكن مرتاحاً إليها، ولكنَّهم حاصروه من كلّ جانب، وأخرجوه بجميع الوسائل، وأعطوه كلّ الضمانات، حتّى استسلم لهذه التوكيدات، فوافق على ذهاب يوسف معهم، لبيدوا تنفيذ مراحل هذه الخطة.

إنَّ يوسف عليه السلام في هذه الحالة: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾، مغلوب على أمره. يكفي أن نتأمل الصيغة في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ حتّى ندرك أنَّهم لم يذهبوا معه، ولم يصطحبونه بمودّة، ولم يرافقوه برفق، بل أخذوه أخذاً قسريًّا بعد جهود كثيفة وكذب كثير.

ونعرف أن علينا أن ننتظر حدثاً بعد الذهاب به، لورود الآية بصيغة تعليق الذهاب على نتيجة لاحقة، مما يشد المستمع لمتابعة أحداث المشهد^(١).

- ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ أي: اتفقوا كلهم على إلقائه في ظلمة الجبّ، وحكى الله تعالى إجماعهم على جريمتهم هذه، لأنّها جريمة فظيعة منكّرة، فكلّهم اشتركوا بها وتحملوا وزرها، وقاموا بتنفيذها بلا رادع ولا مانع، فلم يهتزّ ضمير واحد منهم في أثناء تنفيذ الجريمة وهو يرى أخاه الصغير خائفاً زائغ البصر، يستجير بصراخه ودموعه، فلا يتحرّك قلب واحد منهم ولا يهتزّ ضميره ووجدانه.

ولا بدّ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قد فوجئ بعد ابتعادهم عن أيّهم بانفجار أحقادهم المكبوتة في صدورهم، فقد ظهرت فجأة في عيونهم التي تنظر إليه، شرراً وتقذح في وجهه ناراً، وفي أيديهم التي انهالت عليه ضرباً ولكماً ألا ما أقسى قلوبهم التي لم تتأثر باستغاثات أخيهم الصغير ودموعه وهم يدفعونه دفعاً إلى مكان الجريمة، ثمّ وهم يشتركون جميعاً كلهم في إلقائه في ظلمة قعر الجبّ^(٢).

وأدركت رحمة الله الغلام الصغير وهو في قعر الجبّ وظلمته، بتحسّس موطئاً لقدميه وموضعاً يستند إليه، وهو يرتعش من برودة الماء ويرتجف من هول الجريمة التي فاجأته على غير توقّع وانتظار. خرج مع إخوته طلباً للأنس والانشراح، فإذا به يُلقى في قعر بئر مظلمة، ويتنقل من حجر والده وعطفه عليه وحنانه إلى وحشة الجبّ وظلمتها ورطوبتها، وتداركه الله برحمته ولطفه^(٣).

(١) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ص ٦١.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٣).

(٣) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤٣).



كانت عناية الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام فوق كل عناية، وحفظه فوق كل حفظ، قال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلّها أمان
فيوسف عَلَيْهِ السَّلَام نزل في الجبّ وهو بحالة الذلّ ولم يغادره إلّا وهو
موحى إليه^(١).

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾: اختلف فيه المفسرون فذهب بعضهم إلى أنّ المراد بالوحي هنا وحي النبوة والرسالة، ولكن يعكّر صفوه أن يوسف لم يكن بالغاً، بل كان صغيراً^(٢). قال الضحاك: كان عمره ستّ سنين، وقال الحسن: ألقي يوسف في الجبّ وهو ابن اثني عشرة سنة، ولقي أباه بعد ثلاثين سنة^(٣)، والله أعلم. ولذلك أجابوا عنه بأنّ الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة. وذهب جماعة أخرى إلى أنّ هذا الوحي هنا هو الإلهام، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مِّنْ مَّوْسَىٰ أَن أَضْمَعْ إِلَيْكَ الْعَصَىٰ﴾ [القصص: ٧]^(٤).

وأياً ما كان، سواء بوحي إلهام، أو بوحي النبوة، الله سبحانه هو أعلم بذلك، المهم أن الله سبحانه تداركه برحمته ولطفه، بما سكّن نفسه المضطربة، وأزال وحشته وخوفه، فشعر أنّ الله معه يرعاه ويرحمه، ويلطف به، وأنّه سينجيه من محنّه، ويظهره أيضاً على إخوته، حتّى يأتي الوقت الذي يذكرهم فيه بجريمتهم هذه^(٥).

(١) يوسف وقصته العجيبة، عlish متولي، شركة مكتبة المعارف المتحدة، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص ٩٠.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٥٧.

(٣) البكاء والقيم الجمالية له بصيغة الجمع في النصوص القرآنية، د. قاسم صالح العالي، دار المقتبس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، ص ٢٥٦.

(٤) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٥٨.

(٥) التفسير الموضوعي، (١٤٣/٤).



- ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

إعلام غيبي من الله تعالى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ زاهر بالمعاني، غني بالإشارات، منها ما يلي:

- لقد أعلم الله تعالى نبيه أنه سيعود ليلتقي بإخوته لاحقاً، مما يشير إلى أن دورة الحياة مهما ذهبت به بعيداً، فإنه سيلتئم شمل عائلته من جديد مما يهدي نفسه وهو في أشد أوقات محنته.

- وفيه إعلام بأنه يجتمع بهم مجدداً، ويكون قد مرّ وقت طويل تتغير ملامحه فيكون قد أصبح رجلاً، يعرفهم ولا يعرفونه، يختار هو الوقت والمناسبة لتعريفهم بنفسه.

- وفيه إعلام بأنه حين يجتمع بهم مجدداً، تكون له الغلبة في الموقف فيكون هو الطرف القوي، ويكونون هم في موضع الضعف ويستشعر الإمداد بالقوة، من قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾، ففيها التوكيد على حصول اللقاء، وفيها التوكيد على العلوّ ساعة اللقاء^(١).

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آنَسَهُ وَهُوَ فِي قَعْرِ الْجَبِّ وَظَلَمَتَهَا، فَأَزَالَ وَحْشَتَهُ، وَنَفْسَ كَرْبَتِهِ، بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِ، فَتَحَوَّلَ قَعْرِ الْجَبِّ الْمَظْلَمَةُ الْمَوْحِشَةُ إِلَى أُنْسٍ وَنُورٍ، وَلَا يَتَخَلَّى سَبْحَانَهُ عَنْ أَصْفِيائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ أَبَدًا، يَمُدُّهُمْ وَيُرْعَاهُمْ، وَيَكْلُؤُهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ، وَهُمْ فِي ذُرْوَةِ مَعَانَتِهِمْ، فَعِنْدَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَار ثَوْرٍ، وَالْمُشْرِكُونَ مُحَدِّقُونَ بِالْغَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالسِّيُوفُ بِأَيْدِيهِمْ مَشْرَعَةٌ وَقُلُوبُهُمْ مَمْتَلِئَةٌ بِالْحَقْدِ وَالْغَضَبِ، وَأَبُو بَكْرٍ يَذْرِفُ الدَّمْعَ بِصَمْتٍ، وَهُوَ دَاخِلُ الْغَارِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَوْفًا عَلَيْهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ الْكَرِيمَ: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ

(١) لطائف التفسير في سورة يوسف، ص ٦٥.



نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظَرْنَا اللَّهُ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

وعندما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة، ونظر إليها نظرة مودّع أنزل الله عليه قوله الكريم مثبتاً له ومبشراً بإياه بالعودة إليها: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥]. ولما خافت أم موسى على ولدها من فرعون ووحشيته وذبحه للأطفال وقتلهم، أوحى الله إليها أن تلقيه في اليم، وهو أمر كبير وخطير على كل أم في مثل موقف أم موسى، فثبَّتْها الله سبحانه وسكَّن قلبها وأزال حزنها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلَيْهِ فِي السَّيِّئِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وانتظر إخوة يوسف بعد ارتكاب جريمتهم حلول الظلام ليستتروا به وجاؤوا بالكذب الشنيع لإخبار والدهم المبتلى.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكَبْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [يوسف: ١٦ - ١٨].

١. ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾:

جاء إخوة يوسف عشاء، حتى لا تظهر ملامح وجوههم، عند بكائهم لدى والدهم، فيتبين له أن بكاءهم، أو بكاء بعضهم ليس حقيقة، وهو ذو فراسة

وبصيرة؛ لأنّ من المعلوم أنّ النائحة المستأجرة ليست كالشكلي، بالإضافة إلى إشعار والدهم بأنهم تأخروا للاهتمام بالحادثة^(١).

- يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداءً دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية، فها هم إخوة يوسف خدعوا أباهم ومكروا بأخيهم، وأخذوه وألقوه في الجبّ مع أنّهم يعلمون أنّ أباه يحبه، وكان ضنيناً أن يأتنيهم عليه، فكيف يواجهون هذا الأب؟ هذا هو الانفعال النفسي الذي لا تستطيع فطرة أن تثبته؛ فقالوا: نؤخر اللقاء لأيننا إلى العشاء: والعشاء محلّ الظلمة، وهو ستر للانفعالات التي توجد على الوجوه من الاضطراب؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذي حدث؛ بل بحديث مُختلق.

وقد تخدعهم حركاتهم، ويفضحهم تلجلجهم، وتكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم؛ فقالوا: الليل أخفى للوجه من النهار، وأستر للفضائح؛ وحين ندخل على أبينا عشاءً؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا. وبذلك اختاروا الظرف الزمني الذي يتوارون فيه من أحداثهم: ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]^(٢).

- قال الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ: أي أنّهم قضوا النهار غائبين عن أبيهم، ثمّ عادوا في العشية، يقول المفسرون: أنّهم كانوا يتباكون، ولا يكون. ونحن نميل إلى أنّه كان ثمة بكاء حقيقي من بعضهم على الأقلّ، وهو بعض من الندم على ما ارتكبوا وقد أحسّوا بفظاعته، وخصوصاً عندما لقوا أباهم، فإنّ لم يكن لأجل يوسف، فلاجل أبيهم الثاكل^(٣).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٥٨.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١ / ٣٨١).

(٣) زهرة التفاسير، (٧ / ٣٨١٠).



- قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والعشاء: وقت غيوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها. والبكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر. وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنما اصطنعوا البكاء تمويهاً على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف - عَلَيْهِ السَّلَام -، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد. ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحركاته فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة. وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكماً، وإنما يناط الحكم بالبيئة. جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبجلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقليل له: أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام أباهم عشاء ييكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق. قال ابن العربي: قال علماؤنا: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال أن يكون تصنعاً. ومن الخلق من لا يقدر على ذلك ومنهم من يقدر^(١). ومن الأمثال: «دموع الفاجر بيديه».

- قال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: جملة ييكون، جملة حالية، وفعل المضارع يفيد إحضار صورتهم، وكأنك الآن وأنت تقرأ تراهم ييكون، وهكذا تفعل اللغة، تحيي الموتى، وتطوي الزمان، وتريك الميت حياً ييكي، وكل هذا لتنفيذ المعاني في قلبك وعقلك، ولاحظ أن الجملة الحالية أيضاً وقعت فاصلة، والجملة كلها صورة تمثيلية تصوّر زورهم وكذبهم، ومكرهم الساذج الغبي^(٢).

(١) التحرير والتنوير، (٦٥٥/٥).

(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٣.

٢. ﴿قَالُوا يَا بَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾:

- ﴿قَالُوا يَا بَانَا﴾: نادوه باسم: (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم فيترك غضبه عليهم، الداعي إلى تكذيبهم، فهم يحاولون تلطيف الجو الممتلئ بالمخاوف بهذا النداء، ثم قدّموا بين يدي النبأ السبب الذي من أجله أكل الذئب يوسف، هذا السبب يبدو من قولهم:

- ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: قال د. محمد مصطفى الزحيلي: وقوله: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ افتعال من السبق، وهو بمعنى التسابق، والمراد: الاستباق بالجري على الأرجل، وذلك من مرح الشباب ولعبهم^(١).

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: المسابقة شرعة من الشريعة وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه وبخيله^(٢). وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: "سابقني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسبقته، فلبشنا حتى إذا أرهقني اللحم، سابقني فسبقني، فقال: هذه بتلك"^(٣). والأمثلة على السباق والمسابقة كثيرة في السيرة النبوية، والأحاديث الشريفة، ومن الصحابة رضوان الله عليهم، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا سبق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو نصل»^(٤).

(١) شرعة الله للأنبياء، د. محمد الزحيلي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ٢٥٧.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، (٣/ ١٠٧٥).

(٣) رواه ابن حبان صحيحه، باب السبق، ذكر إباحة المسابقة بالأقدام إذا لم يكن بين المتسابقين رهان، ح رقم ٤٦٩١.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في السبق، ح رقم ٢٥٧٤.



واستمر السِّباق والمسابقة طوال التاريخ، وظهر في العصر الحاضر الأندية الرياضية، وحلبات السباق، والملاعب، وتبنّت الدول في المدارس والجامعات، وغيرها. ويألفه الناس بكثرة، ويتفق مع حاجات الإنسان والجسم، ولكن ظهر فيه المبالغات الكثيرة، والإفراط، والبذخ الشديد، بل أصبح ملهًا للشعب في كثير من الأحيان^(١).

- ﴿وَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا﴾ [يوسف: ١٧]: أي: تركناه عند متاعنا من فضل ثيابنا وطعامنا وشرابنا ليحفظه لنا. وقولهم هذا نقض لشرط يعقوب عليهم لخروج يوسف معهم، فأين فعلهم هذا من قولهم لأبيهم: ﴿وَأِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، هل هم الذين سيحفظونه، أم هو الذي سيحفظ لهم المتاع، وكيف يتسابقون، جميعاً وهم عشرة دون أن يتركوا واحداً مع أخيهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، وقد تعهّدوا لأبيهم بالحفظ والرعاية والحماية لأخيهم^(٢).

هذا، ولعلم قصدوا بقولهم: ﴿وَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا﴾ [يوسف: ١٧]، إيهام أبيهم عَلَيْهِ السَّلَام أنّهم لم يقصّروا في المحافظة على يوسف ومراقبته، بل تركوه في مأمن حيث لا يكاد يُطرح المتاع إلا في مكان يؤمن فيه الغوائل وأنّهم يتسابقون قريباً منه، وما فارقوه إلا ساعة يسيرة حدث أثناءها ما لم يتوقع حسب زعمهم^(٣).

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]: أي عقّب تركنا له عند متاعنا من غير مضيّ زمان يعتاد فيه التفقّد والتعهّد، وهكذا لم يجدوا عذراً يقدّمونه لأبيهم خيراً

(١) شرعة الله للأنبياء، ص ٢٥٧.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، عlish متولي، ص ٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٨.

من العذر الذي نبَّههم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الحذر من الالتجاء إليه ونكثوا في عهودهم بالمحافظة عليه من الذنب حيث قالوا لأبيهم جواباً بالمحافظة عليه من الذنب حيث قالوا لأبيهم جواباً لقوله لهم: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]، قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]، وحكمهم هذا على أنفسهم بالخسران قد تحقق فيهم الآن بلا شك، فقد خانوا وكذبوا ولفقوا وارتكبوا جريمة منكرة في حق أبيهم فلم يرعوا فيه أبوة ولا نبوة ولا في حق أخيهام قرابة ولا أخوة^(١).

- ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]: قولهم هذا يدل على أن أباهم غير مصدق ولا واثق منهم، حيث إن التعبير بالجملة الإسمية يدل على الثبات والاستقرار في عدم التصديق، كما أن وقوع كلمة: ﴿مُؤْمِنٍ﴾ نكرة في سياق النفي يدل على نفي إيمانه لهم مطلقاً وعدم وجود أي تصديق لهم. وقولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، حيث أثبتوا الشك في صدقهم من خلال هذه الجملة المبدوءة بـ: (لو)^(٢).

- ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]: فيها تأكيد شديد يؤكد أن أباهم لن يصدقهم، ولو كانوا صادقين، وتوشك هذه الجملة أن تكشف كذبهم^(٣).

قال ابن كثير: نحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنّا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

(١) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٥٨.

(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٤.



قال العلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: يقولون: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط، فإنهم ما كانوا صادقين في بكائهم، ولا في قولهم، أنهم ذهبوا يستبقون، وقد تركوا يوسف عند متاعهم، ولا في قولهم: إن الذئب أكله، فكل ذلك كذب، كما أن الدم الذي جاؤوا به على قميصه كان كذباً، فروايتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع. الصادق عند الإطلاق، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة، فلا ينطوي قلبه على كذب، ولا يعمل أعمال كذب، بل يكون في كل أفعاله وأقواله ظاهراً وباطناً على حق، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هذا، فالقلب واللسان ليسا بصادقين، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ليس بصادق، وهم يقولون لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وهم إنما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم^(١). وهم يعرفون أنفسهم أنهم كاذبون وعلموا من فراسة أبيهم وذكائه وفطنته أنه لن يصدقهم.

٣. ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]:

- ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]: نلاحظ فيها غضباً شديداً من وصف الدم بأنه كذب والدم مكذوب به، ولو بالغت قلت: دم كاذب، لأن الدم لا يكذب، وإنما أسند إليه الكذب للمبالغة، والتعبير في الآية لم يقل بدم كاذب، وإنما جعل الدم نفسه كذباً. ومن غباء أهل الباطل أن القميص الذي جاءوا به، وعليه الدم الكذب، ليكون دليل صدقهم في أن الذئب أكل يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان هو دليل كذبهم، لسبب ظاهر لا يخفى، على من عنده قدر ضئيل من الفكر، وهو

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٣٧٥).

أن هذا الدم لو كان دم يوسف وأكله الذئب لكان القميص ممزقاً، ويستحيل أن يأكله الذئب، ويبقى القميص غير ممزق، ولذلك لم يلتفت يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا وضرب عنه صفحاً، ولم يناقش، ولم يبين الكذب وإنما قال^(١):

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨]: وهذا القول من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إضراب عن تكذيب صريح، تقديره: إن الذئب لم يأكله، بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم أمراً. ومعنى: ﴿سَوَّلَتْ﴾ [يوسف: ١٨] أي: زينت وسهّلت. والتسويل: تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن. وجاء لفظ: ﴿أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨] منكرّاً فهو أمر عظيم منكر اقترفه في حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢). فكأنه كان يرى أنهم عملوا معه مكيدة ولا بدّ، ولكن كان لا يراها إلّا إجمالاً؛ لأنها لم تتعين عنده صورتها، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط، وغمّ عليه أمرها واستعظم. والتنكير في ﴿أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨] إمّا للتعظيم والتفخيم، كأنه يقول: أمراً عظيماً ارتكبتموه في يوسف وهوّنته عليكم نفوسكم، أمراً ذا بال، أمراً من نوع الدهاء، أمراً فيه دسيّة ومكر أو للإيهام فكأنه يقول: أمراً لا يعلمه إلّا أنتم ويوسف^(٣).

- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]: وهذه الجملة الثانية في رده على بنيه، وخاطب بها نفسه، أي: فصبري صبر جميل لا يشوّه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله ولا الشكوى إلى غير الله^(٤).

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٧٥.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٠٥.

(٣) إتحاف الإلف، (١/ ٢٤٨).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٠٦.



﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] أي: فشأنني وحالي صبر لا جزع منه ولا شكوى فيه للخلق، مع الرضا بقدر الله تعالى وقضائه^(١). فالشكوى لغير الله مذلة وكلما ارتفع مستوى الإيمان، وجدت المؤمن يستحي أن يشكو مصيبته لغير الله^(٢).
إنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قرر أن يصبر صبراً جميلاً، لأنَّه من أعلى درجات الصبر وهذا يحتاج العون من الله تعالى؛ ولذا قال:

- ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]: وهو في صبره الجميل يتجه إلى الله ويقول: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] أي: لا يستعان إلا بالله وحده في الصبر على ما يصفون من قول ولم يقل على ما وقع، بل قال على ما وصفتم، وللا إحساس بأن ما وصفوا غير ما وقع^(٣).

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]: فما لم تحصل للعبد من الله إعانة على التحلي بالصبر الجميل، لم تحصل له الغلبة على مشقات الحياة وكدرها، ولهذا جُمِلَ بمقتضى ذلك أن تختتم هذه الآية بما ختمت به، وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] أي: وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب، ولا يستطيع الإنسان تحمّل مثل هذا الاختلال والتمويه إلا بعون الله، وتجميله بالصبر الجميل^(٤).

هكذا استقبل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف، ومصيبته أيضاً بعقوق أولاده، واحتياهم وكذبهم وحقدهم على أخيهم وحسده له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليواجه كذبهم وتزويرهم وما كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يستطيع

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٦).

(٢) تفسير النابلسي، د. محمد راتب النابلسي، (٦/ ١٥٩).

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١١).

(٤) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ١٣١.

أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى. استعان بالله تعالى وحده ولم يطلب معونة أولاده لأنه يعلم أنهم هم سبب بلائه ومصيبته، فكيف يستعين بهم؟ ولم يقيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يبحث بنفسه عن ولده، ويتفحص عنه، لمعرفة بشدة حقدهم على يوسف، فقد خشي إن بالغ في الطلب والبحث عنه أن يُقدموا على إيذائه وقتله؛ ولهذا لم يجد سوى الصبر الجميل، وتفويض الأمر بالكلية لله تعالى، لا سيما إن قلنا: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عالماً بأن ما وقع لا يمكن تلافيه حتى يبلغ الكتاب أجله^(١). وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] غاية البلاغة، لأنه كان متأكداً من كذبهم ووثاقاً أنهم ألحقوا بأخيهم الضرر، وأنهم ضخموا الحدث وقلّبوا الأمور ليصدقهم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

وتركت الآيات الكريمة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد طوى جوانحه على آلامه وأحزانه وانتقلت إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في قعر الجبّ تقصّ أخباره، وتحكي أحواله^(٣).

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَلِلَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) وَشَرُّهُ بِشْرِبٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩ - ٢٠].

تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى مشهد جديد من مشاهد قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ ستنتقع عنا من الآن وحتى جزء متقدم من السورة، أخبار يعقوب وبنيه. ولنتابع معها، ما قدّر الله تعالى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن تركه إخوته في غيابة الجبّ وانصرفوا عنه غير عابئين بمصيره^(٤). وجاء فرج الله تعالى:

(١) روح المعاني، (٢/ ٢٠٢).

(٢) إتحاف الإلف، (١/ ٢٥٩).

(٣) إتحاف الإلف، (١/ ٢٦٠).

(٤) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٧٥.



١. ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ وَلَّاهُ عَلَيْهِمْ يَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]:

كانت القوافل قديماً تأتي من الشام إلى مصر، فمرت إحدى القوافل من المكان الذي كان فيه يوسف عليه السلام وحيداً في غيابة الجب مقطوعاً عن كل الخلق ينتظر فرجاً من الله تعالى، الذي لطف به وأنسه وبشّره بما يؤول إليه حاله في المستقبل؛ من مكان كريم، ومكانة شريفة عالية^(١).

- ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩]: وهذا شروع فيما جرى ليوسف عليه السلام في الجب بعد الفراغ عن ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه، أي: وجاء إلى الجب سيارة. والتعبير بالمجيء وإيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما؛ إيماء إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند ملك مقتدر، وفي عثور السيارة على الجب الذي فيه، آية من لطف الله به. وقال: ﴿سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩] مبالغة في السير، يعني أنهم أنس يسرون دائماً بين البلدان البعيدة، وكانوا في طرقهم من جهة مدين إلى مصر باعتبار سيرهم المعتاد، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى على لسان قائلهم: ﴿يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، والظاهر أن الجب كان في طريق سيرهم المعتاد^(٢). والمقصود بالسيارة القوم المحترفون للسير، مثل من كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف، بهدف التجارة وجلب البضائع.

- ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩]: والوارد هو الذي يرد الماء ليأتي به إلى بقية القوم، وربما يعين في القافلة لتكون هذه مهمته فيها بناء على معرفته

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٢.

بالأماكن التي توجد فيها^(١). وكانت السيارة لا تتنقل بكامل أفرادها إلى البئر بل يذهب واحد منهم إلى البئر ليأتي لهم بالمياه.

﴿فَأَذَلَّى دَلْوُهُ﴾ [يوسف: ١٩]: أي: أرسل دلوه في البئر فرأى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فيها سَلَمَ النِّجَاةِ وسبيل الصعود من قاع الجبِّ، فتعلق بها^(٢). ونلاحظ من التعبير بفاء السرعة أول الجملتين: ﴿فَأَرْسَلُوهُ﴾ [يوسف: ١٩]، ﴿فَأَذَلَّى﴾ [يوسف: ١٩] أن الوقت بين مجيء السيارة وبين عثور المدلي على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يستغرق إلا زمناً قليلاً، بمعنى أنهم جاءوا وتوَّأَ أرسلوا واردهم، ولم يتأخروا، وهذا لطف من الله تعالى بعبده يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣). وفوجئ الوارد بغلام متشبهاً بدلو الماء فصاح مستبشراً^(٤):

- ﴿قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ [يوسف: ١٩] أي: يا بشرى أقبلي هذا أوانك، نزل البشري منزلة شخص ينادي، مما يدل على شدة وقع المفاجأة على نفسه عندما رأى يوسف^(٥). والعجب كيف صاح واردهم حين وجد يوسف، فقال: يا بشرى، وصدق والله بالبشري، فكيف لو علم بحقيقة البشري؟ فقد كان يريد ماء لقافلة سيارة، فإذا به يجد الذي به تكون النجاة لمصر كلها عند فقدان الماء سبع سنين^(٦). إن طلائع النجاة تبدأ بالتفاؤل في بدايات المحنة^(٧).

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٥٨٩٥).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٧).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٣.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٧).

(٥) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤٧).

(٦) يوسف أيها الصديق، ص ٥١.

(٧) يوسف أيها الصديق، ص ٥١.



﴿هَذَا غُلْمٌ﴾ [يوسف: ١٩]: والغلام: من سنه بين العشر والعشرين^(١). واختلف العلماء في تقدير يوسف عَلَيْهِ السَّلَام حين أخرج من الجب ثم اشتراه العزيز، فمنهم من قدره بثلاث عشرة سنة، وآخرون بسبع عشرة، وذهب البعض أن عمره كان ثلاث سنوات، وغيرهم إلى أنه كان ابن ثلاث عشرة سنة، أو أقل بقليل^(٢). وقد رجحت أنه كان ابن اثني عشرة سنة كما مر معنا.

- ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ﴾ [يوسف: ١٩] أي: جعلوه بضاعة سراً، وعزموا على بيعه رقيقاً، وبما أنه لم يظهر لهم أنه رقيق، تعاملوا معه بمقتضى السرية، وباعوه بسرعة خوفاً من أن تنكشف حقيقة أمره. وفي هذا الجزء من الآية دلالة واضحة على أن الرقّ مكروه ومنبوذ حيث يفقد الإنسان آدميته، فيصبح بضاعة تباع وتشتري ولذلك كان علماؤنا على حقّ حينما فضّلوا دعوى كافر يدّعي بنوّة لقيط له على دعوى مسلم يدّعي أنه عبده^(٣).

- ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]: من استرقاق من ليس لهم حقّ في استرقاقه، ومن كان حقّه أن يسألوا عن قومه ويبلغوه إليهم؛ لأنّهم قد علموا خيره، أو كان من حقهم أن يسألوه لأنّه كان مستطيعاً أن يخبرهم بخبره^(٤). والله عليم بما عمله إخوة يوسف وأمرهم مع أخيه يوسف وأبيهم في إخفائه وتغريبه وادّعائهم أن الذئب أكله. وحكمة الله فوق كلّ ذلك، والله عليم بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من الأسرار والفوائد المطوية تحت باطنه فكلّ ما

(١) التحرير والتنوير، (٥/٦٥٩).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٤.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٤.

(٤) التحرير والتنوير، (٥/٦٦٠).

فعله الإخوة مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنِيَّةُ القافلة من استرقاقه وبيعه فيما بعد يجري كَلْ ذلك بعلم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وإرادته، وذلك لِيَسِّرَ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في بحر من الأقدار إلى تظهر حكمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فيها ويمتحنه الله بالسراء والضراء ليستعد لما يريد منه من حمل الرسالة^(١).

- ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]: ولا يخفى ما فيها من تهديد ووعيد لأولئك الذين استعبدوا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو حرّ كريم، واستعباد الحر واسترقاقه من كبائر الذنوب في الإسلام.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكَل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره^(٢). فالإسلام دين الحرية، فهو يسعى في تحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ولهذا شَنَعَ على تحرير الأرقاء، وجعل ذلك عبادة من أفضل العبادات التي يُتَقَرَّبُ بها إلى الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ ۖ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ ۝﴾ فَكَ رَقَبَةٍ [البلد: ١١ - ١٣].

وشرع الإسلام صرف مال الزكاة في فك الرقاب من أسْر العبودية ورقّها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، كما جعل تحرير الرقبة كفارة لكثير من الذنوب والآثام كالقتل خطأ والإفطار في نهار رمضان بغير عذر وعدم الوفاء باليمين المتعمدة، وغيرها...^(٣)

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب: إثم من باع حراً، ح رقم: ٢١١٤.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٤٨).



وهكذا أصبح الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام عبداً مسترقاً، وحُمِل بضاعة إلى سوق الرقيق في مصر، وعُرض كأَيِّ سلعة للبيع^(١).

٢. ﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]:

- ﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]: وشروه هنا معناها: باعوه لأنَّ (شَرَى) تستعمل بمعنى البيع، وبمعنى الشراء، وعندما تكون بمعنى البيع يكون التعبير بلفظ الشراء، فتكون دلالة على الزهد فيه وتركه^(٢). فالقافلة هي التي باعته، وما قيل في التوراة ونقله بعض المفسرين أن الذي باع يوسف هم إخوته، فهذا أولاً مما لا ينسجم مع النص واستبشار الوارد بقلها الغلام، ثم إنَّ إخوة يوسف حين خطَّطوا قالوا: ﴿يَلْقَظُهَا﴾ [يوسف: ١٠]، ولم يكن وارداً بيعه. ثم ثالثاً: إنَّ كانوا يريدون بيعه، فلماذا يلقونه في الجب^(٣). إنَّ كثيراً من الأقوال تتقبلها كتب التفاسير اعتماداً على روايات واهية وضعيفة ولا وزن لها في الميزان العلمي الرصين.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] أي: بثمن مبخوس غير مرغوب فيه^(٤). والثمن البخس: القليل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أي: لا تنقصوا^(٥). فهم باعوه بثمن يسير تافه^(٦).

قال ابن كثير: وقيل: المراد بقوله: بخس، الحرام. وقيل: الظلم، هذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا، لأنَّ هذا معلوم يعرفه كلُّ أحد أن ثمنه حرام على

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤٨).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١٣).

(٣) سورة يوسف، د. نوفل، ص ٣٢٥.

(٤) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١٣).

(٥) سورة يوسف، دأحمد نوفل، ص ٣٢٥.

(٦) سورة يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٨.

كُلَّ حال وعلى كُلِّ أحدٍ لَّأنَّه نبي ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وإنَّما المراد هنا بالبُخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما^(١).

- ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]: ثم ذكر القرآن هذا الثمن البُخس أنَّه دراهم معدودة قليلة^(٢). بحيث تعد عدداً، ولا توزن وزناً، فقد كان هناك في عصر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ (نقود) معدودة، ودراهم موزونة، وقد كانوا إذا كانت الدراهم قليلة عدوها عدداً، ولا يزنوها وزناً إلا إذا بلغت من الكثرة حداً معيناً^(٣).

- ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]: إِنَّ الَّذِي أخرجوه من البرِّ وأسروه بضاعة هم الَّذِينَ باعوه بثمن بَخس لأنهم لا يجهلون قيمته، ولَمَّا لم يكن من بضاعتهم فعلاً، أرادوا التخلص منه فباعوه بثمن بَخس، ناقص لا يساوي قيمته، والسارق والكاذب يحاول دائماً التخلص مما معه خشية أن ينكشف حاله^(٤). فزهدهم فيه لأنهم التقطوه، والمُلتقط للشيء متهاون به لا يبالي بما باعه لأنه لم يدفع فلساً واحداً، قال الشاعر:

وَمَنْ أَخَذَ الْبِلَادَ بِغَيْرِ حَرْبٍ يَهُونُ عَلَيْهِ تَسْلِيمُ الْبِلَادِ

وحيث إنَّهم لم يدفعوا فيه شيئاً بل إنَّهم قد وجدوه مصادفة، فقد كان همهم محصوراً في التخلص منه بأي ثمن قبل أن يحدث لهم ما لا تُحمد عقباه^(٥).

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٣٧٧).

(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٣٢٥.

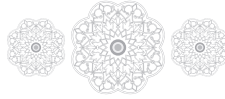
(٣) التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، رفيق المصري، دار القلم، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص ١٣٣.

(٤) آيات للسائلين، ص ١٣٩.

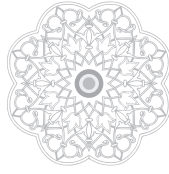
(٥) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٩.



وربما أُصيبوا بالقلق والهم والغم من عند الله تعالى فعملوا على الخلاص منه، وفقدوا الحرص عليه والرغبة فيه، وسارعوا ببيعه، ليمضي قدر الله في يوسف، ويتنقل لمرحلة جديدة، وظلت عين الله تعالى ترعى يوسف وتكلؤه في جميع تقلباته ومراحل حياته، وقدّر سبحانه أن يشتري يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رجلاً تفرس في وجهه الخير والنبل وكرم المَحْتَد، كان هذا الرجل هو عزيز مصر، كما صرّحت الآيات بعد ذلك وألقى الله محبة يوسف في قلبه، والرغبة في شرائه، فاشتراه وأخذه إلى بيته معزّزاً مكرّماً وأوصى امرأته به^(١).



(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٤٩).



المبحث الثاني: بداية التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وفتنة امرأة العزيز ومكر نسوة المدينة ودعاؤه بالخلاص من كيدهن:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَنَ رَبِّيَ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَأَلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ ۖ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ۖ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا ۖ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ۖ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ۖ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ۖ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ ۖ لَيُسْجَنَ ۖ وَلَيَكُونَا مِنَ

الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَايَتِ لَيْسَ جُذُنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿يوسف: ٢١ - ٣٥﴾.

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَانَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿يوسف: ٢١ - ٢٢﴾.

١. ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٢١﴾:

هذه المرحلة في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من أكثر المراحل خطراً وأشدّها صعوبة وأقساها امتحاناً، فلئن ابتلي مع إخوته بتشريده الأسري فلقد كان ابتلاؤه في هذه المرحلة من حياته للجانب الروحي والخلقي نتيجة الجمال الخلقي والخلقي^(١).

وقد اشتمل هذا النصّ على تحديد مكان القصة (من مصر)، وأنّ المشتري له من ذوي المكانة بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٢١﴾، وأنّ يوسف كان إذ ذاك صبيّاً بدليل قوله تعالى: ﴿نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ ﴿يوسف: ٢١﴾، ففي

(١) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٣٨٧.



ذكر قول المشتري، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ [يوسف: ٢١] عناية بإظهار ما تحدث به لنعرف وندرك ما نتفوه به، لأنّ لذلك شأنًا في تفسير الأحداث ومعرفة بعض ما يمكن أن يخص تعريف هذا القائل بالاسم الموصول مع صلته: ﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ [يوسف: ٢١] لا يظهر فيها تحديد دقيق لشخصية هذا المشتري ولا لمكانته، وإن كان ذلك سيظهر من خلال إشارة أخرى في النص، وكل ما دلت عليه الجملة هو أن هذا القول هو ممن اشتراه وهذا يشعر بحاجه لمثل هذا الصبي، وعنايته بأمره كما تنبئ عنه مقالته^(١).

وإن في التقييد لهذا المشتري بكونه: ﴿مِصْرَ﴾ [يوسف: ٢١] تحديد أكثر دقة؛ لأنّه عيّن المكان، وبما أنّ الكلمة ممنوعة من الصرف، فهذا يعني أنها العلم على مكان محدد، ولكن هذا التحديد لم يوقفنا على مكانة هذا المشتري بعد. وتعريف الزوجة بلفظ المرأة، وإضافتها إلى ضميره، فيه إشارة إلى أن هناك ما يمنع إطلاق الزوجة عليها؛ لأنّ لفظ الزوجة يشعر بالمزاوجة الدال بصورة أوضح على كمال العلاقة بين الزوجين، وفي ذكر ﴿أَمْرَأَةً﴾ [النساء: ١٢٨] هنا إلماح إلى وجود ما لا تتم به العلاقة الزوجية على أكمل وجوها، ويفسر ذلك ما بعده من كلمات تشعر بأنهم لم ينجبوا حتّى وقت هذه المقالة، وفي توجيه الكلام إليها في صورة الأمر: ﴿أَكْرِمِي﴾ [يوسف: ٢١] يدل على عناية بأمر هذا الصبي، خصوصاً أن مادة الكرم تدل على العناية بأفضل ما عند الإنسان؛ لأنّ الكرم هو تخير أنفس ما عند الإنسان وقد يكون في ذكر الكرم هنا ما يشعر بمكانة هذا القائل وأنه ممن يصح أن يوسف بالكرم، وغالباً ما يكون ذلك من ملك المال، أو المنصب. وانتفاء كلمة المثوى: ﴿مَثْوًى﴾ [يوسف: ٢١] دون غيرها،

(١) جماليات النظم القرآني، د. عويض العطوي، مركز تدبر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ١٦.



لما فيها من دلالة البقاء والراحة والاستقرار، وذلك أن الثواء يدل على النهاية والمصير، وكأنما هو يصطفيه لنفسه ويريد أن تكون نهايته له وإليه، لا يرى بد من يوسف أن يصير إلى غيره، وكأن في ذلك ما يلح إلى أمرها بفعل كل ما يضمن بقاءه وذلك لحاجتهم إليه. وإسناد الإكرام إلى المثنوى دون صاحبه بأن يقال: (أكرمي)، كناية عن إكرام الذات، وهذا الأسلوب أدل على العناية بشأنه، فإذا كان المثنوى سيكرم، فمن باب أولى صاحبه، وهذا هو أحد أسباب تأثير الكناية، وهو ذكر الشيء بدليله^(١).

يقول صاحب الظلال: والمقصود بالإكرام لا لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته وهي مبالغة في الإكرام في مقابل مثواه في الجب وما حوله من مخاوف وآلام^(٢). كما أن في هذه النسبة ما يشعر بعموم الإكرام لكل ما يتعلق به، من حيث المكان والملبس والمأكل والمشرب، وغير ذلك. وقد لا يكون ذلك ظاهراً لو قال: (أكرمي). وقد يكون في هذا الأمر المشعر بتلك العناية ما يثير الاستغراب والعجب عند الزوجة فقال معللاً لها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْخِذَهُ وَلَكِنَّ﴾ [يوسف: ٢١].

ومجيء (عسى) دون (لعل) مثلاً لما فيها من دلالة الرغبة في المطلوب أكثر من (لعل). يقول أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ اللهُ: ويستعمل في المتوقع فيه: (لعل) وفي المطموع فيه: (عسى). وعسى: هي لمقاربة الأمر على سبيل الرجاء والطمع، أي لتوقع حصول ما لم يحصل، سواء يرجى حصوله عن قريب أو بعيد مدة مديدة^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/١٩٧٨).

(٣) جماليات النظم القرآني، ص ١٢.



وقال أبو البقاء أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: عسى: هي موضوعة لرجاء دنو الخير، بل لطمع حصول مضمون الخير مطلقاً سواء يرجى حصوله عن قريب أو بعد مدة مديدة تقول: عسى الله أن يدخلني الجنة، وعسى النبي أن يشفع لي، وإذا قلت: (عسى زيد أن يخرج) فهي بمعنى (لعله يخرج) ولا دنو في (لعل) اتفاقاً^(١).

ثم إن تعليل مطلبه بقوله: ﴿أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [يوسف: ٢١]، فيه كشف لحجم الحاجة إلى الولد عنده وعند زوجه، ذلك أن كلمة: (النفع) لا تعني النفع المادي المعهود من الولد، لأن القائل من ذوي الهيئات والمكانة على ما تدل عليه أحداث القصة القادمة، فعلم من هذا أن النفع هنا خاص، وهو ما تتعلق نفوس الزوجين من الولد، وهذه فطرة جعلها الله سبحانه سبباً للتناسل والبقاء، إلا أن هذه الدلالة تراحمها دلالة التعليل الآخر: ﴿أَوْ نَنْخِذْهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] علة ثانية، قد تكون هي المقصودة؛ لأنها المناسبة لوصفها الاجتماعي والأسري خصوصاً أن ﴿نَنْخِذْهُ﴾ [يوسف: ٢١]، فيها من دلالة الاتخاذ والاصطفاء والاختيار والاهتمام ما ليس في غيرها، ذلك أن مادة الاتخاذ في القرآن تشعر بهذا^(٢).

وفي تحديد صفة المتخذ بـ (ولداً) كشف أوسع لذلك الاصطفاء وتلك الحاجة واختيار لفظة الولد على الابن مثلاً، لأن الولد أشمل وأعم من حيث الجنس ومن حيث العدد، يقول الراغب: الولد: المولود. يقال للواحد والجمع والصغير والكبير، ويقال للمتبني ولد، قال أبو الحسن: الولد: الابن، والابنة. والوُلْدُ هم: الأهل والولد^(٣).

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، دار الرسالة، بيروت - لبنان، ص ٦٥٧.

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٢.

(٣) مفردات غريب القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ص ٨٨٣.

- ﴿أَوْ نَخِذْهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]: أي: نتبناه ونجعله ولدًا لنا. ويبدو أن عزيز مصر كان لا يولد له. كما يظهر أن التبني واستلحاق إنسان بنسب إنسان آخر كان أمراً شائعاً في المجتمعات القديمة وعند العرب قبل الإسلام حتى إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنى زيد بن حارثة، وألحقه بنسبه الشريف قبل مبعثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكان يُدعى: زيد بن محمد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه تحريم ذلك بقوله الكريم: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۚ﴾ ٤ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥]، فرجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك وحرّم أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه، وقال: «ليس من رجل ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»^(١).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يبيّن القرآن اسم الذي اشتراه من السيّارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته؛ لأنّ القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ، وإنّما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب، ولكن وصفه النسوة فيما يأتي بلقب العزيز - وهو اللقب الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى إدارة الملك في مصر - فالظاهر أنّه لقب أكبر وزراء الملك. وللمفسرين أقوال في اسمه واسم ملك مصر ليس للقرآن شأن فيها. وفي سفر التكوين أنّه كان رئيس الشرط وحاشية الملك وناظر السجون، وأن اسمه فوطيفار، ووصف فيه بالخصي، ولكن الخصيان لا يكون لهم أزواج. فقليل في تصحيحه: لعله لقب لا

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: نسبة اليمن إلى إسماعيل، ح رقم: ٣٣١٧.



يقصد به هذا المعنى. وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة إذ وصى امرأته بإكرام مثواه، والمثوى: مصدر واسم مكان من ثوى بالمكان يثوي، كرمى يرمي. ثواء أي: أقام، فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص بإقامته، بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [يوسف: ٢١] بالقيام ببعض شؤوننا الخاصة أو شؤون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿أَوْ نَخْذُهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] فيكون قرة عين لنا ووارثا لمجدنا ومالنا، إذا تم رشده وصدقت فراستي في نجابته، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو أن يكون له، وروي أنه كان عقيما. وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده، وكانت صالحة ملهمة، وأما العزيز فكان ذكيا صادق الفراسة فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقته، وذكائه وحسن خلاله، على أن حسن عشرته وكرمه وفادته وشرف تربيته، خير متمم لحسن استعداده الفطري، إذ لا يفسد أخلاق الأذكاء إلا البيئة الفاسدة وسوء القدوة، وما كان إلا صادق الفراسة^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "أُفْرَسَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ: الْعَزِيزُ حَيْثُ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، والتي قالت: ﴿يَتَأْتِيَ اسْتَعْجَرُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرَ الْأَقْوَى الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وأبو بكر الصديق حين تفرس في عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"^(٢).

(١) تفسير المنار، (١٢/٢٧٢).

(٢) صححه الحاكم، كتاب التفسير «بسم الله الرحمن الرحيم قد بدأنا في هذا الكتاب بنزول القرآن، في ما روي في المسند من القراءات، وذكر الصحابة الذين جمعوا القرآن وحفظوه، هذا قبل تفسير السور"، تفسير سورة يوسف بسم الله الرحمن الرحيم، ح رقم ٣٣٢٠، ووافقه الذهبي.



وقد جرت العادة أن يُهان الرقيق ولا يُكرم، ولكن الله تعالى هياً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعيش مكرماً معزراً في أرفع بيوت مصر وأعلاها، ممّا يدل على عناية الله تعالى ورعايته له في محنته وغربته وحرمانه من أبيه وأهله، ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]: وبعد انتهاء عزيز مصر من كلامه جاء حكم الله سبحانه المبين حكمته جلّت قدرته من هذه الأحداث وتسلسلها. وقد جاء هذا الحكم الإلهي بأسلوب مختلف عما كان عليه حال يوسف من قبل، فمحتوى هذا الحكم هو التمكين والتعليم والغلبة وهذه مرحلة جديدة في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإذا تأملنا النص وجدنا في أول الآية أسلوب التشبيه بما هو معتاد في القرآن.

- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [يوسف: ٥٦]: والكاف للتشبيه. والمشبّه به هو تمكين يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتعلمه وهذا أسلوب عجيب يراد منه الاستدلال على الحكم الجديد المغاير والمناقض لحالته الأولى، بحكم واقع حاصل، وهو شراؤه واستقراره والاهتمام بأمره. يقول ابن عاشور: إن أجرينا اسم الإشارة على قياس كثير من أمثاله في القرآن كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] في سورة البقرة، كانت الإشارة إلى التمكين المستفاد من مكّنّا ليوسف تنويعاً بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتم منه لما كان إلّا أن يشبه بنفسه^(١).

ومما يلفت النظر: الحالة الجديدة والحقبة المتحددة من حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيء مادة التمكين: ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦]، وما فيها من دلائل النصر، إذ

(١) التحرير والتنوير، (٥/٦٦٢).



إن التمكين مأخوذ من المكان ومعنى ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦]: جعلناه في المكان، وهذا يؤول إلى الاستقرار والبقاء مع قوة وقدرة، ولعل هذا تعويض لحالة التنقل والبيع التي مرّ بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

وإن دخول اللام على يوسف في قوله: ﴿لِيُؤَسِّفَ﴾ [يوسف: ٥٦] دون تعديّة الفعل إلى مفعوله بأن يقال: (مكنّا يوسف)، يشير إلى التعليل، أي: لأجله، وإن كانت هناك دلالة أوضح من ذلك وأنسب بالسياق وهي التمكين، لما في اللام من دلالة الحيازة والملك ويؤيد هذا المعنى تحديد مكان التمكين، بقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]، وفي سعة مدلول ﴿الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] ما يشعر بعظم ذلك التمكين، فالأمر ليس متعلقاً بمدينة أو قرية أو مملكة بل بالأرض كلّها وحتى لو كان المراد بالأرض أرضاً خاصة إلا أن ظلال الشمولية في لفظة: ﴿الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] تبقى مشيرة إلى دلالة السعة وعظم التمكين وهو ما دلت عليه الأحداث بعد ذلك، ولا يمكن أن تتجاوز دلالة الظرفية في حرف الجر: (في) المشعرة بالعمق مما يزيد معنى التمكين رسوخاً^(٢).

- ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُؤَسِّفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]: ما كان شراً في البداية أصبح تمكيناً في النهاية وسبحان من جعل الرق سبباً للتمكين^(٣). وقد ذكر التمكين في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام مرتين، المرّة الأولى هنا وذلك بعد أن أراد إخوته أن يزيلوه عن ظاهر هذه الأرض فألقوه غيابة الجبّ. والمرّة الثانية بعد أن بدا لذوي المرأة أن يحولوا بينه وبين رحابة الحياة وسعة الأرض في غيابة السجن، فانظروا

(١) جماليات النظم القرآني، ص ١٤.

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٥.

(٣) أيها الصديق، محمد خيرى، ص ٥٥.

أرشدني الله وإياكم إلى التدبير الرباني والإحكام القرآني حيث كان التعقيب على هاتين كليتهما؛ أعني إخراج يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من غيبة الجب وإخراجه من غياهب السجن بهذه العبارة القرآنية: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] ^(١).

وقال الدكتور ناصر العمر: والتمكين نوعان: تمكين خاص وتمكين عام، ولتحصّلا ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام مكنه الله تعالى في أول الأمر من قلب العزيز، فبعد أن حجب الشيطان في قلوب إخوته معاني الأخوة، قذف الله في قلب عزيز مصر معاني الأبوة فتعاهده بالرعاية والإحسان وفي الآية إشارة إلى أن دخوله بيت العزيز وما لقيه فيه من إكرام كان مبدءاً تمكينه في أرض مصر، فقد أصبح بذلك من أهل الشأن الذين لهم كلمة. كيف لا وهو من أفراد بيت العزيز، ثم بعد السجن والتمحيص جاء أفراد بيت العزيز، ثم بعد السجن والتمحيص جاء التمكين العام بالولاية العامة عندما قال الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ^(٥٤) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ^(٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٦]، فأصبح هو عزيز مصر الأمر الناهي ^(٢).

- ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]: كتعبير الرؤى ومعرفة حقائق الأمور ^(٣). ويأتي العطاء الثاني بعد التمكين معطوفاً بالواو: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ [يوسف: ٢١] والنص على التعليم لأنه أحد صور التمكين، خصوصاً إذا ارتبط بعلم خفي يحتاجه الناس، مثل تأويل الأحاديث، ومما يدل على خفاء العلم

(١) قصص القرآن الكريم، ص ٣٨٨.

(٢) آيات للسائلين، ص ١٤١.

(٣) تفسير المنار: (١٢/٢٧٢-٢٧٣).



ودقته هنا كلمة: ﴿تَأْوِيلِ﴾ [يوسف: ٢١] دون: (تفسير) مثلاً ذلك أنّ تعبير الرؤيا أمر يحتاج إلى علم خاص، وفيه إلهام من الله للمعبّر، وهو علم لأن الله سبحانه قال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وفي دخول: (من) في قوله تعالى: ﴿مِن تَأْوِيلِ﴾ [يوسف: ٢١] دلالة على أنّه علم عظيم واسع وما أعطيه يوسف؛ هو بعض هذا العلم. ومجيء كلمة: ﴿الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١] دون كلمة: (الرؤيا) قد يكون فيه إشارة إلى أنّ الرؤيا في ذلك العهد مما يهتم به الناس ويتحدثون به ويتناقلون به. ومن الملحوظ أن هذا المعنى ذكر أولاً في السّورة بلفظ الرؤيا: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، ثم ذكر بلفظ الفتوى: في قوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، ثم ذكر في لفظ الأضغاث في قوله: ﴿قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤] وهذا التنوع له دلالة بحسب الموقع الذي ذكر فيه والقائل الذي صدر عنه وهو ما ينبغي العناية به^(١).

إن جماهير المفسرين قد فسروا: ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١] في السّورة بتعبير المنام وهذا حق لا شك فيه، ولكن الكلمتين: ﴿تَأْوِيلِ﴾ [يوسف: ٢١]، و﴿الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]، تحتملان معنى آخر، وهو استعمال العقل والبصيرة والفطرة السليمة لمعرفة نتائج الأفعال ومآلاتها وآثارها السلبية أو الإيجابية بالتحليل العقلي: الاقتصادي والسياسي^(٢). ولا مانع من الجمع بين هذين المعنيين، إذ لا تعارض في الجمع بينهما، بل إنّ كمال النعمة وتامها يتحقق بالنبوة والحكمة، فالنبوة هبة من الله تعالى وليست مكتسبة، أمّا الحكمة فهي مكتسبة من حيث المبدأ.

(١) جماليات النظم القرآني، ص ١٦.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، علي القره داغي، ص ٣٢.

وقد أجاز علماؤنا الجمع بين المعاني المشتركة، أو بين الحقيقة والمجاز ما دام ذلك ممكناً. فالتأويل لغة: من آل يؤول أولاً ومآلاً أي: رجع وصار. وأوّل الشيء إليه: أرجعه. وأرجع الكلام: فسّره وردّه إلى الغاية المرجوة منه، وأمّا الأحاديث فهي تشمل الحوادث والوقائع والأخبار والرؤى، وبالتالي فإن تفسير: ﴿تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١] بالمعنيين صحيح، وحينئذ تكون دلالة الآية على التحليل العقلي الحكيم واضحة. ويصحّ أن تكون جمع حديث، بمعنى الشيء الحادث، قال ابن عاشور: فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام. وهو المعنى بالحكمة، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصحّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدّث به، فالتأويل: تعبير الرؤيا. سميت أحاديث لأن الرائي يتحدثون بها، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين. واستدلوا بقوله في آخر القصة: ﴿وَقَالَ يَكْتُبُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقال ابن عاشور: ولعلّ كلا المعنيين مراد، بناء على صحة استعمال المشترك في معنیه وهو الأصح^(١). ومما لا شك فيه، أن تمام النعمة بنعمة النبوة ونعمة الحكمة الدنيوية، والاجتباء الأخروي مع المجد الدنيوي، وبناء على ذلك، فإن تأويل الأحاديث يشمل ما يسمى في عصرنا الحاضر بالتحليل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وبذلك يتحقق الاقتداء الكامل؛ لأنّ تأويل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للأحاديث إذا حمل على النبوة فلا قدوة فيها، لأنها غير مكتسبة، ولكن إذا شمل التحليل العقلي القائم على الحكمة فإن ذلك هو محلّ الاقتداء^(٢).

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٤١). يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٣٢.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٣٣.



لقد أصبح يوسف في بيت العزيز ممكناً له وتوفرت له فيه أسباب الراحة والرغد وهناءة العيش والنعيم، ثمّ كلّ أسباب التعليم، وصار قريباً من مراكز صناعة القرار في مصر وتعلّم الشيء الكثير من أحوال البلد وعقليّة الإدارة والتركيبية السياسية، والاجتماعية والإمكانات الاقتصادية واطّلع على تفاصيل المجتمع المصري، والمملكة المصرية في ذلك الوقت، مما ساعده بعد توفيق الله فيما بعد على اتخاذ القرارات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية الصحيحة التي ساهمت في انقاذ مصر ومن حولها من كوارث شديدة الخطورة.

- ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]: لها هنا معنى خاص في هذا السياق وهو أن الناس يدبرون ويمكرون، ويتآمرون ويفعلون كلّ ما يبدو لهم، والأمر في الأول وفي النهاية في يد الله وهو جلّ وتقدّس غالب كلّ مكر، وكل ظلم، وكل استبداد، وكل قهر، حتّى إنك أيها الظالم لا تدري ما في أمر الله، وربما كان في أمره أن هذا المظلوم الذي أنت قاهر عليه سيأتي اليوم الذي يكون فيه قاهراً عليك، فافعلوا ما شئتم أيها المجرمون، وتأكدوا أنّ تدابير القدر ليس في أيديكم منها شيء، وإنّما هي في يد واحد، في يد الغالب على أمره، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون، ولو علمت أيها الإنسان المتعالي أنّه لا تسقط ورقة إلا وهو يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس، لو علمت ذلك لعرفت حجمك، ولو عرفت حجمك لسهرت ليلك تدعوه تضرّعاً ورجاء وخيفة^(١).

- ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١] وفيه ملمح آخر من ملامح التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام وإن كان النظم في هذا الحكم جاء مغيراً عمّا سبقه فقد جاء بالسياق الاسميّ، ولم يرد بالسياق الفعلّي، وإلا لقل: (ويغلب الله). وذلك لكون

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٩.

هذا الحكم كالقانون الذي لا يتبدّل مع يوسف ومع غيره، والجملة الاسميّة أكثر دلالة على الثبات من الجملة الفعلية، خصوصاً إذا كان الخبر اسماً، كما هو الحال.

وفي بدء الجملة بلفظ الجلالة: ﴿وَاللَّهُ﴾ [يوسف: ٢١]، ما يشعر بالهيبة والعظمة، إضافة إلى ما في مادة الغلبة في قوله - جلت قدرته - : ﴿غَالِبٌ﴾ [يوسف: ٢١] من دلالة القوّة كما لا يخفي، ويؤيّد ذلك حرف الجر: (على) الدال على الاستعلاء بأصل وضعه. قال ابن عاشور مشيراً إلى هذه الدلالة: وحرف: (على) بعد مادة الغلب ونحوها يدخل على الشيء الذي توقع فيه النزاع، كقولهم: غلبناهم على الماء^(١). وهذا التركيب: - ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١] يعني: والله متم ما قدره ولا راد لحكمه وتدبيره، وهذا يشير إلى أن إخوة يوسف أرادوا شيئاً، وأراد له ربه خلافه فكان ما أراد الله سبحانه، وفي ذلك إلماح إلى برهان واقعي للتمكين، وليكون أكثر تظميناً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(٢).

- ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١] أي: على كلّ أمر يريد ويقدّره، فلا يغلب على شيء منه، بل يقع كما أراد، فكلّ ما وقع ليوسف من إخوته، ومن مسترقّيه وبائعيه، ومن توصية من اشتراه لامرأته بإكرام مثواه، ومما وقع له مع هذه المرأة، وفي السجن قد كان من أسباب ما أراده الله تعالى له من تمكينه في الأرض، وإن كان ظاهراً على خلاف ذلك، ويجوز أن يكون المعنى: والله غالب على أمر يوسف، فهو يدبره ويعلمه الخير ولا يكله إلى تدبير نفسه، واتباع هواه^(٣).

(١) التحرير والتنوير، (٥/٦٦٣).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٦.

(٣) تفسير المنار، (١٢/٢٧٢-٢٧٣).



- ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]: فلا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء، وهو القائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. أو: والله متول على يوسف لا يكله إلى غيره، وقد أرادوا هلاكه، وأراد الله تعالى سلامته ونجاته، فكان ما أَرَادَهُ سبحانه. فلا راد لقضائه، ولا غالب لمشيئته^(١). ولما كان هذا الأمر وهو غلبة الله على أمره ووقوع ما قدره سبحانه، مما يغفل عنه الناس، أو يعقلون ضد مقتضاه جاء الاستدراك المبين لحال الناس المخالف لذلك^(٢):

- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]: لا يعلمون أنه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الأمور، كما استدلل إخوة يوسف بإبعاده على أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكون من بعده قوماً صالحين، ويقابل الأكثر في هذا المقام يعقوب عليه السلام فقد كان يعلم أن الله غالب على أمره، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصة، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط بتفصيل الجزئيات المخبوءة في مطاوي الأقدار^(٣).

٢. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾ [يوسف: ٢٢] أي: وصل إلى غايته من النضج والاستواء ومن كلمة (بَلَغَ) [يوسف: ٢٢] أخذ مصطلح البلوغ، فتكليف الإنسان يبدأ فور أن يبلغ أشده، ويصير في قدرة على أن ينجب إنساناً مثله^(٤).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥١).

(٢) تفسير أبي السعود، (٤/ ٢٦٣).

(٣) تفسير المنار، (١٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٠١).

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: ٢٢] أي: بلغ الغاية من اشتداد جسمه وقوته ويكون هذا عادة ما بين الثلاثين إلى الأربعين من عمر الإنسان، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [١٥]

[الأحقاف: ١٥].

- ﴿ءَايَنْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]: أي: آتيناه علم النبوة وحكمتها. أو: آتيناه حكمة في أقواله وأفعاله، وعلمنا علومًا كثيرة، كما أشرنا سابقًا، ولعله الأرجح؛ لأن الله تعالى قال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَنْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، وما كان حينئذ نبيًا، فما نبأه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَتَّىٰ عَادَ مِنْ مَدِينٍ إِلَىٰ مِصْرَ، إذ أُوْحِيَ إِلَيْهِ وهو في طريق عودته^(١).

قال الدكتور علي القره داغي: وهذه الآية تدل على أن الله تعالى جعله نبيًا ورسولاً بعد بلوغه الرشد، وذهب بعض أهل العلم، منهم الحسن البصري إلى أن النبوة بدأت في الحبّ عندما أُوْحِيَ الله إليه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، ثم جاءت الرسالة بعد بلوغ الرشد، وهناك أقوال أخرى^(٢). والمراد بالحكم في الآية: الحكمة العملية. والمراد بـ (العلم): الحكمة النظرية، وقدم الله تعالى الحكمة العملية على النظرية للاستشعار بأهميتها وأنها الثمرة والنتائج. قال بعض المفسرين: الحكم هو النبوة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥١).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٦٣. التفسير الكبير، أبو عبد الله فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ، (٤/ ٨٩).



يكون حاكماً على الخلق، ومبيناً لأحكام الله في تصرفات عباده. وقال بعض آخر: إنّ المراد بالحكم هو القدرة على حكم نفسه وضبطها أمام الشهوات، ويكون حينئذ بمعنى التحكّم^(١).

وقال الدكتور أحمد نوفل: والحكم بمعنى نفاذ الكلمة والتأثير في الناس، قال الحسن: من أحسن عبادة ربّه في شبابه آتاه الله الحكمة في اكتهاله: أخذاً لهذه الفائدة من هذه الآية الكريمة. وأصل الحكم: الإلزام والمنعة، والحكم: ملكة في النفس بها يقدر الإنسان أن يحكم نفسه بحيث يلزمها بالطاعات ويمنعها من المعاصي.

وهو كذلك القدرة على وضع الشيء في نصابه، وصواب الفهم ودقته، والرأي السديد الصائب والحلّ الموفق للمعضلات، كلّ ذلك - والله أعلم - من معاني الحكم والحكمة. والحكمة عملية وفكرية، وقد ورد الحكم والعلم في قصّة داود وسليمان، وفي قصّة موسى، وفي قصّة لوط بالإضافة إلى ما هاهنا^(٢).

والحكمة شيء، والمعلومات شيء آخر، وإن كانت الحكمة تُستقي من كلّ معرفة ومعلومات يحصّلها الإنسان، وإن كانت الحكمة في الأساس تنبع من الدين، وقُدمت الحكمة على العلم لأنها التي تجعل الانتفاع بالعلم ممكناً، ورُبّ عالم محتاج للحكمة، ورُبّ عارف بالحكم تنقصه معرفة الحكمة، ولقد كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قلة المعلومات في عصرهم كانوا قُمماً في العلم والفقه في الدين؛ لأنهم اتوا الحكمة^(٣).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٦٣.

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣٤-٣٣٥.

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالأحكام المشتمل على المعرفة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى المصحوب بنفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق والعمل به والصد عن اتباع الهوى والباطل والحكيم من له ذلك^(١).

- ﴿وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]: والإشارة إلى تعليم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في أكثر من موطن يدلنا على أهمية العلم والجد في تحصيله، وأنَّ العلم أساس الملك، فقبل أن يسلمه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى مقاليد الخلافة في الأرض رَوَّده بالعلم. ولاحظ العلاقة بين تأويل الأحاديث التي تعني استشفاف المستقبل واستشراف الآتي، وعلاقة هذا بالسياسة التي تحتاج إلى بعد نظر^(٢). ولقد أوتي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ (العلم) الذي هو نور العقول وحياة النفوس، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم النبيين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. والعلم خير من المال، لأنك أنت تحرس المال، ولكن العلم يحرسك. والمال بلا علم صائر للزوال: إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ يُزَانُ بِهِ الْفَتَى فَمَالُ الْفَتَى جَهْلٌ عَظِيمٌ يَشِينُهُ لَعْمَرِكَ إِنَّ الْمَالَ دَاعِيَةُ الْهَوَى إِذَا هُوَ لَمْ يُصَحَّبْ بِعِلْمٍ يَصُونُهُ ويظهر لنا أن إيتاء الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في بدء سن الرشد: الحكمة والعلم هو من قبل الإرهاب لنبوته المزمعة أن تصير، فهو بإتيانه: (الحكم) يكون قد ملك نفسه وهواه، وإبتيانه: (العلم) يكون قد انتقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي^(٣).

(١) موسوعة الأخلاق، إشراف الشيخ علوي عبد القادر السقاف، الدرر السنية، السعودية، الطبعة

الثالثة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، (١/ ٤١٨). شرح النووي على مسلم، (٢/ ٣٣).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٤٩٧).



في عبادة الخالق ببذل الجهد والنّصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النّفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علماً نافعاً. ودلّ هذا، على أنّ يوسف وفيّ مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين النّاس والعلم الكثير والنّبوة^(١).

- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]: الذين بلغوا رتبة الإحسان في طاعة الله تعالى، وهي المرتبة التي قال فيها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

والآية الكريمة تكشف لنا عن سنّة الله في المحسنين بأن يكرمهم الله بالحكمة والعلم. وأركان الإحسان ثلاثة: الإيمان الصحيح، والأعمال الصحيحة، والآداب والأخلاق الفاضلة^(٣).

وإن الإحسان ليس له جزاء إلا الإحسان: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، والجزاء في الدنيا والآخرة^(٤).

وهذا الجزاء عام في كلّ مؤمن أحسن، فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الربّ له فالخطاب يتناول يوسف ومحمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتناول غيرهما لأنّ القرآن كتاب هداية فعمومه لا يخصّص بالواحد والاثنين^(٥). ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام أحسن في أقواله وأعماله ونواياه وسرائره، فمن الله عليه بالحكم والعلم، وكان الجزاء على

(١) تفسير السعدي، ص ٥٠٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ح رقم: ٥٠.

(٣) سورة يوسف، ص ٣٣٦.

(٤) إتحاف الإلف، (١/٢٩٦).

(٥) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٣م، (٢/٦٠٣).

السبب لا عن النسب، فلم يقل: (وكذلك نجزي أولاد الأنبياء) أو يقل: (وكذلك نجزي ذوي البيوتات العريقة)، بل جعل هذه المجازاة أثراً من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيرته؛ لأن الله تعالى لا ينظر للأنسب والأحساب ولكنه ينظر إلى الأعمال والنوايا، فالمرء بأعماله لا بآماله، وبسببه لا بنسبه^(١).

لقد تردّد وصف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإحسان كثيراً، والطريف أن هذه الآية سبقت الآية المتحدثة عن المراودة مباشرة حتّى يتهيأ الذهن إلى أنّه لن يكون من يوسف إلّا ما يتفق مع هذه الأوصاف التي وصف بها: العلم، والحكمة والإحسان.

إن العلم والحكمة التي أفاضها الله على يوسف إنّما هي جزاء إحسانه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن سنة الله في الخلق أن يجزي المحسنين بهذا الجزاء: العلم والحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. والمرّة الثانية التي وصفه بها ربه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]؛ إن ثمرة الإحسان في الدنيا، التمكن للمحسنين في الأرض مع ادّخار أجرهم كاملاً يوم القيامة. وفي مرّة ثالثة وصف يوسف بالإحسان على لسان السّجينين: ﴿نَبْنِئُكَ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، ولقد أنبأ السّجينين عن إحسان يوسف، مسلكه في السّجن وخلقه الرفيع في المعاملة وتهذيبه العالي. واعتقد السّجينان - صواباً وحقاً - أنّ الإحسان من مؤهلات تعبير الرّؤى: التي هي من عالم الروح، فلا بد لمعبرها من أن يكون ذا روحانيّة عالية، وإحسان. ومرّة وصف بالإحسان ولكن على لسان إخوته وهم لا يشعرون من يمدحون حين رجوه قائلين: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].



ومرّة يأتي الحديث عن الإحسان على لسان يوسف نفسه في حديثه عن سنة الله التي أكرم يوسف بمقتضاها، يقول: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، والإحسان في هذه الآية هو التقوى والصبر، وقد أكدت هذه الآية ما جاء في سابقها من حفظ أجور المحسنين وثوابهم^(١).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٤].

١. ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]:

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها، أعظم أجراً لأنه صبر اختياراً، مع وجود الدواعي الكثيرة لوجود الفعل، فقدّم محبة الله عليها، وأمّا محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكّاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها، وذلك أنّ يوسف عليه عَلَيْهِ السَّلَام بقي مكرّماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك^(٢).

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣]: إذ أعجبت سيدة البيت زوجة العزيز بجمال يوسف وشبابه ووسامته، وكمال رجولته، ففتنت به، وأحبته

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص ١٤٨.

(٢) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

وعشيقته، وشجعها على ذلك كونه عَلَيْهِ السَّلَامُ يعيش قريباً منها في قصرها، فهو في بيتها، يغدو ويروح، أمام ناظرَيْها وهو في ريعان شبابه، وقد حباه الله تعالى نضرة وجمالاً وبهاء، لا نظير له في زمانه، حتّى وصفه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما رآه ليلة الإسراء والمعراج بقوله: « فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن »^(١). ولا شك أن دخول الرجل على المرأة واختلاطه بها من أكبر أسباب الافتتان التي تؤدي إلى الفواحش والزنى ولهذا حرّم الإسلام اختلاط الرجل بالمرأة وخلوته بها، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لا يخلون أحدكم بامرأة إلّا مع ذي محرم »^(٢).

وحذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دخول الرجال على النساء، فقال: « إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمى؟ فقال: الحمى الموت »^(٣)، والحمى: القريب من جهة الزوج. وأراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول هذا أن يبين أن شأن القريب إذا دخل على المرأة أخطر من غيره؛ لأنّ النساء عادةً يتساهلن في الاحتجاب والتستر عن الأقارب، ولأنّه يدخل دون أن يخشى إنكار الناس عليه، وقد شرط الله تعالى في الخادم الذي يدخل على النساء، لخدمتهن، أن يكون طفلاً لا يعرف شيئاً عن أمور العلاقات الجنسية مع النساء، أو كبيراً لا شهوة له في النساء، فقال: ﴿أَوِ التَّبَعِيبِ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الذِّي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

وأمر الله سبحانه أيضاً الرجال والنساء جميعاً أن يَغْضُوا من أبصارهم عن النظر إلى العورات والمحرمات، وأن يحفظوا عورتاهم بسترها، والبعد عن

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماوات وفرض الصلوات، ح رقم: ١٦٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، ح رقم: ٤٩٣٥.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٢).



الفواحش والآثام، فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ ﴿النور: ٣٠ - ٣١﴾.

وعندما تفتن امرأة برجل وتشتهي تدنو منه بلطف، وهي تعرض عليه حسناتها وجمالها، وتغريه بنفسها، ليكون هو المفتون بها والطالب لها، ولا بد أن تكون امرأة العزيز قد فعلت ذلك وحاولت أن تلفت نظر يوسف إلى جمالها ومواضع الفتنة في جسدها. والفرص المواتية لغرضها هذا كثيرة وكبيرة، فقد كانا يعيشان في بيت واحد، وتحت سقف واحد، وهي السيدة الآمرة في البيت، مما يدل على طول المحنة التي مرّ بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

ومدلول كلمة: ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ [يوسف: ٢٣] يدل على طول المحنة وشدتها، إذ معناها دارت عليه بالحيل، فهو كناية عن المخادعة التي هي لازم معنى: (راود يراد)، إذا جاء وذهب، فقد دارت عليه بكل حيلة ونصبت له أشراك الخداع، ويلزم منه القصد والإتيان والإقبال والإدبار، والرفق والمهلة، وإعمال الحلية^(٢).

ولا بد أن يكون عَلَيْهِ السَّلَام قد عرف قصدها، وفهم مرادها، فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام من أذكى الناس، وأكثرهم فطنة ونباهة، فكان عَلَيْهِ السَّلَام يسعى ما استطاع أن يغض بصره عنها، ويتجاهل نظراتها وحرركاتها، ويسعى أيضاً أن يكون بعيداً عنها، ولكن مشكلته عَلَيْهِ السَّلَام أنه كان يعيش في قصرها، وتحت سلطانها وأمرها، وهو المعنى البارز في قوله: ﴿أَلَيْسَ هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ [يوسف: ٢٣]، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَام مضطر أن يكون

(١) التفسير الموضوعي لسورة يوسف، (٤/١٥٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - مصر، (١٠/٥٦).

في بيتها، وأن يكون أحياناً موجوداً في مخدعها، المخصص لها وحدها، والذي تنام فيه مع زوجها، وهذا يبين لنا مدى المعاناة النفسية الشديدة التي كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يعاني منها والإحراج الشديد الذي كان يشعر به وهو يواجه تبرجها وتهتكها. والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أظهر الناس نفوساً، وأتقاهم قلوباً، وأكثرهم حياءً. ومَرَّتْ الأيام ولعلها شهور وأعوام على هذه المعركة الصامتة الرهيبة بين:

- الطهر والعفاف، والحياء المسلح بسلاح الإيمان بالله تعالى من جهة، وبين الشهوات المسعورة المسلّحة بسلاح الفتنة والإغراء، والتمكّن والسلطان من جهة أخرى، وكلّما ازداد عَلَيْهِ السَّلَامُ إغراضاً وإباءً، ازدادت إقبالاً عليه وشغفاً به، وازدادت تهتكاً وإغراءً^(١). واستمرت تراوده بخداع رهيب عسى أن توقعه في أسر عبودية الشهوة، ووحل ذلّ الهوى. ثم قال تعالى مصوراً هدفها الأساسي من هذه المرادة:

- ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، ليدلّ على أنّها لا تطمع في سموّ دينه وطهارة أخلاقه. هي لا ترغب في رقيّ تعامله، وجاذبية صدقه، بل تطمع في إشباع غريزتها؛ لذا كانت كلّ هذه المحاولات لتراوده عن نفسه، إنها لا تريد إلّا نفسه لتملاً بها نزواتها الحيوانية، فهي تعرّض لهذه الغاية وحدها، وترى الآية تصرّح بذلك، ولكن في أدب سام كلّ السمو، منزّه غاية التنزيه، مرتفع أعلى الارتفاع، عال أجمل العلو^(٢). وأخيراً فاض - بالمرأة - الكيل وانتقلت من التلميح إلى التصريح، وقذفت إلى ميدان المعركة كلّ ما تملك من أسباب الفتنة والإغراء، وأسباب التمكّن والسلطان، أمرته بالحضور إلى مخدعها، وضربت

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٤).

(٢) يوسف في بيت العزيز، عبد السلام المجيدي، مكتبة عالم الثقافة، بدون طبعة وتاريخ، ص ٥٠.



عليه الحصار، وطوّقته بكلّ ما عند المرأة الأثنى الغنيّة المترفة من أطواق الإغراء والفتنة، ومن وراء كلّ ذلك طوّقته أيضاً بطوق الحصار الماديّ عندما غلّقت الأبواب^(١).

- ﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣]: والأبواب هذه كما جرت العادة من القديم، إلى الآن، أن يكون لقصور الأمراء والكبراء عدّة أبواب ونوافذ من الجهات الأربع، أو أن يكون لكلّ قصر أبواب متتابعة بعضها، وراء بعض، خارجة وداخلة ووسطى وقد جرى أبو حيان في البحر على الاحتمال الأول؛ إذ قال: هي أبواب ليست على الترتيب، بل هي جهات مختلفة، وكلها منافذ البيت الذي كانا فيه، وشأن بيوت الأمراء والكبراء أن يكون القصر الواحد له عدّة أبواب من عدة نواح للدخول والخروج، كما يكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور^(٢). والإغلاق: إطباق الباب بما يعسر معه فتحه. وقوله: ﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣] هو تضعيف تكثير لإفادة شدة الفعل وقوّته، أي أغلقت كلّ باب إغلاقاً محكمًا والمعنى المفهوم من قوله: ﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: أحكم إغلاق باب المخدع الذي كانا فيه، وباب الهواء الذي يكون، أمام الغرف في بيوت العظماء، وباب الدار الخارجي، وروي أنّ الأبواب كانت سبعة، ولا دليل على ذلك، فقد تكون سبعة أو أكثر، أو أقل، والمراد أنّها قد أحكمت إغلاق كلّ الأبواب التي يحتمل أن يأتي منها أيّ قادم، سواء من داخل القصر أو من خارجه^(٣).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٥٤).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/٩٥).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٥١.

إِنَّ مجيء الأبواب جمعاً، للدلالة على الكثرة التي أغلقت وأحكمت بقوة وشدة لتكون امرأة العزيز في أمان من فعلها، وهذه اللقطة أوحى بما هو مكنون في نفس امرأة العزيز من حرص شديد على فعل الفاحشة في تكتم شديد وأن إظهار ذلك يضرّ بها، والغلق المستحكم يسهل عليها قنص الفريسة، خاصة مع ما وجدته من ممانعة يوسف منها في كل مرادة.

ومجيء الفعل: ﴿غَلَقْتُ﴾ ماضياً يدلّ على تحقق وقوع إحكام الأبواب كلّها بشدة وإيثاق، وفي هذا دلالة على عنف المحنة والكربة التي وقعت بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد إذ سدّت الأبواب في وجهه إلا باب الله الذي كان منجاة له من هذا الجوّ الخائق. من ثمّ إن مجيء التعليق بالفعل وليس بالاسم، ليدلّ على الحدوث والتجديد وفي ذلك دلالة على طغيان الفتنة شيئاً فشيئاً، وهذا يُضفي على الموقف الخوف والضنك والضيق والتأهب والاستعداد لمكابدة المشقة والكرب والعنت، فحدوث الإغلاق، وتجده في كلّ باب مع إحكامه، ليصوّر ويخيّل لنا موقفاً عصيباً يلقيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ جرّاء التعلّق للأبواب مما يجعل النفس تترقب ماذا سيحل بيوسف بعد هذا الظلام.

وهكذا نجد كيف أنّ هذا اللفظ على بساطته وإيجازه قد عبر عن هذه المعاني الجسام التي أحاطت بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من كلّ صوب، لتدلنا على مدى البلاء، الذي وقع به النبي الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

- ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]: هذه أوّل كلمة قالتها ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي كلمة جاءت على نمط تعددت فيه الأقوال والدلالات وكأنها هي تحكي هذا النمط الغريب الذي كانت عليه امرأة العزيز في ذلك الموقف.

(١) دلالة الألفاظ التي انفردت بها سورة يوسف، ص ١٤.



- ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] هما كلمتان فقط اختصرت بهما المراد، وأوضحت فيهما مقصودها بكل صراحة، فالموقف وملابساته ومشاهداته يغني عن الخطاب، فكأنه المقصود هو لفت النظر إلى أن الاعتماد لم يكن على الخطاب، بل على الملابس المحيطة به.

﴿هَيْتَ﴾ [يوسف: ٢٣]: اسم فعل بمعنى هلم، وأقبل وأسرع^(١). ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] هو صوت استدعاء لهذا الأمر الذي يكون بين الرجل والمرأة وقد جاء القرآن الكريم على هذه الصورة التي لم تعرفها اللغة في لسانها قبل نزول القرآن؛ لأنه يحدث عن حال من شأنه أن يكون سراً بين الرجل والمرأة، ولغة مخصوصة لهما ولا يعرفها غيرهما، وذلك إعجاز من إعجاز القرآن. ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكلمة: (هيت) وخذاها على أنها حكاية صوت لا على أنها كلمة استدعاء وكفى^(٢).

وإن هناك من يرى أن هذه الكلمة كانت صريحة واضحة، تحكي حاجة كبيرة وصلت إليها هذه المرأة، لا أنها لغة خاصة، فهي بمعنى: أقبل، وتعال، وأسرع، وهي لم تكن المحاولة الأولى بل سبقها المراودة وتغليق الأبواب. يقول مصطفى صادق الرافعي: وأعجب من هذا كلمة: (راودته) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لون بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَّان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٢٧.

(٢) تفسير القرآن بالقرآن، (٦/١٥٥٣).



في حبها؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها؛ كما يصور كبرياء الأنثى إذ تحتال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها^(١).

وبعد هاتين المحاولتين بلغ هذا الأمر مبلغه وهذا ما يصوره الرافعي بقوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]: ومعناها في هذا الموقف أنّ اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهدت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة مصرحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد احتياجاتها وغليانها^(٢). ويؤيد هذا الرأي الدكتور فضل حسن عباس رَحِمَهُ اللهُ: وماذا بعد هاتين المحاولتين؟ لم يبق إلاّ تلکم الصراحة المكشوفة التي تشبه الجنون إن لم تكنه، وهي قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] هلم فلم يكن هناك مجال بعد الآن وما تشكُّ أنها ما كانت تنتظر من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلاّ أن يُقْبَلَ نهماً، كما يُقْبَل السبع الجائع على فريسته^(٣).

وهذا لا شك راجع إلى نظرتها إلى مثل هذا العمل. وبيئة القصور والترف مختلفة عن غيرها، ويظهر أنها طلبت منه أمراً غير بدع في قصورهم؛ وهو أن تستمتع المرأة بعندها كما يستمتع الرجل بأتمته، ولذلك لم تتقدم إليه من قبل بترغيب، بل ابتدأته بالتمكين من نفسها^(٤).

إنّ هذه الدّعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أوّل دعوة من المرأة إنّما تكون هي الدّعوة الأخيرة^(٥). وقولها: (لك): اللام لزيادة بيان المقصود بالخطاب،

(١) وحي القلم، (١/ ٨٦). جماليات النظم القرآني، ص ٢٨.

(٢) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ، (١/ ٨٧).

(٣) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٣٨١.

(٤) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٦٥).

(٥) في ظلال القرآن، (٧/ ١٩٨٠).



كما في قولهم: سقيا لك. وشكراً لك^(١). وعلى كلّ فزيادة اللام والكاف تدلّ على حرصها عليها، سواء بدعوتها له بالإقبال، أم بتهيئتها له، فكأنها تقول: (لك) خاصة فأقبل إليّ وامثل أمري^(٢). وأصوات الكلمتين الموجزتين في ﴿هَيَّتْ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] صوّرتا شدة رغبتها وخضوعها أمام يوسف رغم مكانتها وجمالها وسيادتها^(٣).

- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رِجِي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]: في إظهار قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: (قال) عناية بإبراز ما تفوّه به في تلك اللحظة مقابل ما تفوّهت به، ليتّضح الفرق بين لغة الشهوة والخيانة، ولغة العفة والوفاء، وذكر القول دون أيّ تصرف فعليّ كما في حالها هي، لأنّه السلوك الأسرع في مثل هذه الحالات، ولأنّ التصرف الفعليّ قد لا يكون محموداً إلّا بعد تؤدة وفي سبق كلمة التعوّذ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] إلى لسانه دليل على عظم صلته بربه وقربه منه، وإلّا فإنه لا يوفّق لمثل هذا كلّ أحد، كما أنّ في ذلك إشارة إلى عظم هذا السوء في نظره^(٤).

- ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] كلمة مصدر، وفعّلها محذوف، أي: أعوذ بالله معاذاً. وتأمّل كلمة معاذ الله، لتدرك قوة الداعي الذي دعاه عَلَيْهِ السَّلَام إلّا يجد عاصماً ولا حامياً ولا ملجأ إلّا الله سبحانه، وهو في بيتها ولها عليه سلطان. وراجع كلمة معاذ الله، تجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَام رمى نفسه وحاله كلّ على باب الله، وكأنّه يستغيث

(١) التحرير والتنوير، (٦٦٥/٥).

(٢) نظم الدرر، (٦٠/١٠).

(٣) جماليات النظم القرآني، ص ٣١.

(٤) جماليات النظم القرآني، ص ٣٢.

من ويل ألم به^(١). إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أجاب دعوة المرأة بالالتجاء إلى الله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ أعوذ بالله تعالى معاذاً وألتجئ إليه التجاءً أن يحفظني من أن أستجيب لهذا المحذور، وهذا دعاء من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا به ربه أن يحفظه من هذا الذنب العظيم وفي هذا الدعاء إعلام بالإباء والترفع عن هذه المعصية الفظيعة بانصرافه التام عنها، فكلمة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] أعطت مفهوماً: الأول: أنه أبقى إباء تاماً ولم يوافق.

الثاني: أنه أقبل على الله تعالى بطلب العون منه، ويستعيد به من ذلك الأمر الذي تريده المرأة منه^(٢). إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى أن الوقوع في الزنا شقاء ورأى في الزنى بعداً عن الله، ويجلب سخطه وغضبه، ورأى دناءة الزاني، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولو ملك الناس رؤية كروية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأعرضوا عن الزنى فما من تحرّك للإنسان، إلا وراءه رؤية؛ فطوبى لمن كانت رؤيته مطابقة للحق^(٣). إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عاذ بمعاذ فانتصر، وعزّ من اعتزّ بالله وانتصر من استنصر بالله، فانتصرت البراءة والطهر على الرذيلة والدناءة والسفاهة^(٤).

وفي قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]: لفتّ لنظرها إلى أن البيت، وإن خلا من الرقباء، فإنّ عليها رقيباً لا يغيّب، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي يجب أن تخافه وتخشى غضبه وعقابه، لأنّه هو العليم السميع البصير^(٥).

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٨٢.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصته العجيبة، ص ١٥٣.

(٣) تفسير النابلسي، (١٦٩/٦).

(٤) التفسير الموضوعي، (١٥٤/٤).

(٥) نظرات في التفسير، عبد الحميد كحيل، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ص ٣٣٨.



- ﴿إِنَّهُ رَفِيعُ أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ [يوسف: ٢٣]: كيف أعصي ربي الذي أحسن مثواي؟ أكرمني ورحمني وكان معي في كل محنة، ومن علي بكل نعمة، وكأنني بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في تلك اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات يعيش حقيقتها، تذكر حاله عندما ألقاه إخوته في الحب، وكيف أدركته رحمة الله تعالى، فأنسه، وبشره وهو في ظلمة قعر الحب، وأنس وحشته: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وتذكر حاله وهو في سوق العبيد معروضاً للبيع بأيدي النحّاسين، والزبائن يطوفون به، يتأملونه ويقلبونه، كما يُقلب المتاع، ثم يعرضون عنه زاهدين به، حجبهم الله بقدرته ومشيتته عن رؤية ملامح الجمال والبهاء في مُحياءه، وجعله الله بضاعة كاسدة في نظرهم حتى جاء عزيز مصر إلى السوق فتنفّس فيه معاني النبل والطهر، وألقى الله محبته في قلبه، وأخذه إلى بيتها معززاً مكرماً، وأوصى به زوجته قائلاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَكِنْ﴾ [يوسف: ٢١]، ولهذا رأى كثير من المفسرين أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد بقوله: ﴿إِنَّهُ رَفِيعُ أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ [يوسف: ٢٣] عزيز مصر؛ لأنه كان سيده ومالكه، في نظر الناس، وقد أحسن إليه وأكرمه وأكرم مثواه، وأوصى زوجته به، فلا أقابل إحسانه بالإساءة إليه وخيانته^(١).

وفي ذكر الإحسان: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ [يوسف: ٢٣] إيجاز لكل صور المعروف التي نالها من زوج هذه المرأة^(٢). قال شيخنا الدكتور علي القره داغي: في قوله: ﴿إِنَّهُ رَفِيعُ أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ [يوسف: ٢٣]: الظاهر أن الضمير راجع إلى الأقرب المذكور وهو لفظ: (الله) أي: رباني، وأبلغني إلى هذه المنزلة وحماني في

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٥).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٣٣.

غيابات الحبّ، وأكرم مثواي، فهو الذي هيا لي أسباب وجودي في هذا المكان. وذهب جماعة من المفسرين إلى التوقّف عند لفظة الجلالة في: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، وبالتالي تكون الجملة التالية: ﴿إِنَّهُ رَفِيعٌ﴾ [يوسف: ٢٣] مستأنفة وحينئذ يعود الضمير إلى زوج المرأة المراودة، وذلك بدليل أنّه هو الذي قال لها: ﴿أَكْرِمِي مَوْنَهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وبالتالي فذكرها بهذا الموقف النبيل، وبناءً على هذا، فإنّ الجملة المستأنفة جوابٌ: كيف اقترف هذه الجريمة، والله عليم بصير شديد العقاب وإن زوجك أكرمني، فكيف أخونه في زوجته وعرضه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

وبناءً على ذلك فالمراد بالرب هنا: عزيز مصر، ومن المعلوم أنّه لا مانع لغة وشرعاً في إطلاق الربّ على السيّد والكبير^(١). ثمّ ختم ذلك بفقّه المآلات الذي علمه الله تعالى إياه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، كلا المعنيين مقبول أيضاً ومطلوب، وهذا من خصوصيّة المنهج القرآني العظيم^(٢).

قال الشيخ محمّد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله: ﴿إِنَّهُ رَفِيعٌ﴾ [يوسف: ٢٣]: يعود الضمير على الله سبحانه، وقد يعود على عزيز مصر، تلك ميّزة أسلوب القرآن، فهو يأتي بعبارة تتسع لكلّ مناطات الفهم^(٣).

- ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]: وهذه قاعدة ربانيّة ماضيه إلى قيام الساعة ومهما اعتقد الظالم أنّه سيكسب من وراء الظلم منفعة عاجلة أو لذة فانية تافهة، فإنّ مآله هو الخسران المبين، وما أفلح ظالم أبداً في تاريخ البشريّة

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، د. علي القره داغي، ص ٦٥. ذكر ذلك الطبري وابن كثير.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥.

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩١٠).



ويدخل في سلك الظلمة كل من سلك سبيلهم لمن أحسن إليه، فما بالك لو جازى من أحسن إليه بأسوأ الإساءة^(١). وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، دليل على أن من الظلم هضم حق من أحسن إليك ومقابلة إحسانه بالإساءة والخيانة، فكيف إذا كان ذلك في عرضه؟!

وقد يكون نفي الفلاح مع وصف الظلم ما يصلح أن يكون واعظاً لهذه المرأة التي عرضت عليه خيانة زوجها، فكأنه يقول لها بطريق التعريض: أنا امتنع من ذلك وإحسانه إليّ يسيرٌ بالنسبة لإحسانه إليك، فكيف تخونينه؟!

أما علمت أن من يفعل ذلك لا يفلح. ومما يلفت النظر في لغة رده عَلَيْهِ السَّلَامُ النصاعة والنظافة والرقى، والبعد عن الأذى والمهاجمة والسبّ والقذف، كما هو حال كثير من الناس لو تعرّض لمثل هذا الموقف، بل على العكس من ذلك لا نجد كلاماً مباشراً ضدها، بل تعريضاً لطيفاً يفهم منه الرد^(٢).

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]: الذين يضعون الشيء في غير موضعه، فإذا وضعت الخيانة في موضع الأمانة كنت ظالماً، ولا فلاح للظالم ولا نجاح^(٣).

وجاءت كلمات يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بغاية التناسق والحسن. ذكر أولاً: حقّ الله تعالى ووجوب رعايته، ثم ذكر حقّ الرجل الذي أحسن إليه، وقبح خيانتة، ثم ذكر نفسه وأنّ عليه أن يحفظها ويصونها عمّا يشينها ويؤذيها فهذه اللذة القليلة يتبعها ضرر كبير في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، وبهذا يكون ظالماً لنفسه ولا فلاح للظالمين^(٤).

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٥٣.

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٣٣.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٥).

(٤) التفسير الكبير، (١٨/ ١١٧).



- إنَّ مآل الظلم والاعتداء والخيانة وكلَّ تصرف غير أخلاقيٍّ، هو الخسران في الدنيا والآخرة.

- من أدب القرآن العظيم أنه لم يذكر اسم المرأة التي راودته ولا أشار إلى زوجها وهو عزيز مصر، وفي ذلك توجيه للتحلي بهذا الأدب الرفيع، وألا يذكر في مثل هذا المقام إلا ما يظهر الحقيقة فقط دون الخوض في التفاصيل.

- إنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة للشباب في التقوى والخوف من الله وألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقدوة في الوفاء والأخلاق العظيمة، وفي التفكير في المآلات، وفي تحمّل النتائج مهما كانت مؤلمة^(١).

٢. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّهٖءَ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهٗ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّهٖءَ﴾ [يوسف: ٢٤]: أثبتت الآية همَّ امرأة العزيز وقصدها الفاحشة، وعزمها عليها، ونفت همَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فما همَّ بالفاحشة، ولا قصد إليها ولا عزم عليها.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ﴾ [يوسف: ٢٤]: أكدت الآية همَّ المرأة باللام الموطئة للقسم، وبـ: (قد) الدالة على التحقيق والتوكيد، وعندما تحدّثت الآية عن يوسف نفث همّه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّهٖءَ﴾ [يوسف: ٢٤] فلم يهَمَّ بها عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يقع منه أيّ قصد للفاحشة والمعصية؛ لأنّه رأى برهان ربه، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ حاضر القلب والنفس، مع الله وكان في مرتبة الإحسان التي أشرنا سابقاً إليها عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] والتي وصفها

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٦٦.



سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١). والآية بينت فضله سبحانه على يوسف، وتثبيتته له في محنته فلولاً أن رأى برهان ربه لهم بها. و (لولا) حرف يدلّ على امتناع شيء لوجود غيره، وهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لم يقع، ولم يوجد، لوجود برهان الله تعالى، وجواب (لولا): هنا مقدم، أو مقدر محذوف دلّ عليه ما قبلها كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا أن فلاناً خلّصك. وما زعمه بعض علماء اللغة من أن تقدّم جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح، غير صحيح، فالقرآن الكريم هو أفصح كلام عربي، كما مرّ معنا في أوّل السّورة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهو الكلام الذي يُحتجّ به على غيره، ولا يُحتجّ بغيره عليه أبداً. وقد تكرّر مثل هذا في القرآن الكريم في قوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، فلولاً تثبت الله لأمّ موسى وربطه على قلبها، لكادت أن تكشف أمره، وكذلك هنا لولا تثبت الله تعالى ليوسف لهم بها، فالأمر خطير والمحنة شديدة، وعناية الله تعالى ورعايته كانت مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَام تثبته وتحفظه، فما همّ وما عزم. ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

والهمّ والعزم من أعمال القلب، وقلب يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان ممتلئاً بذكر الله تعالى، فلا يجتمع فيه النقيضان، دلّ عليه ما حكاه سبحانه عنه فيما سبق: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَفِئَ أَحْسَنَ مَوَاقٍ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن»^(٢). فلا يلتفت

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، ح رقم: ٥٧.

إلى بعض الروايات المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، والتي ذكرها بعض المفسرين، فهي واضحة البطلان، ظاهرة الفساد، بعضها يقول:

- جلس يوسف منها مجلس الرجل من المرأة.

- بعضها شطح بخياله إلى شيء من التفصيل فقال: استلقت وجلس بين جليها، ينزع ثيابه ويحل التُّكَّة - رباط السروال - كأنهم كانوا حاضرين معهما، وغفلوا عن الكلمة الصريحة المعلنة التي هتف بها لسانُ يوسف وقلبه: ﴿قَالَ مَعَاذَ﴾ [يوسف: ٢٣]^(١). ولقد قامت الأستاذة رحمة بن سعد - بالجزائر في كلية جامعة أبي بكر بقايد بتلمسان في كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - بتقديم رسالة ماجستير في (قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام دراسة استقرائية نقدية)، أفادت وأجادت وبيّنت بطلان الكثير من الروايات الإسرائيلية التي سار خلفها بعض المفسرين والرواة الذين تأثروا بالأساطير الملفقة والموضوعة والمدسوسة والخطيرة؛ المناقضة للشرع في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وما نسب له في الهمم والبرهان الذي رآه، فقد كانت اعتداء صريحاً على عصمته عَلَيْهِ السَّلَام^(٢).

فالتحذير من تلك الأكاذيب واجب كالتي صوّرت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على إصبعه بفمه، وصوّرت له لوحات كتب عليها آيات من القرآن الكريم - أي نعم من القرآن - تنهى عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي حتّى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبي. فجاء فضربه في صدره... إلى آخر هذه التصوّرات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع^(٣).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٧).

(٢) الروايات الإسرائيلية في قصة يوسف، رحمة سعد، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، ص ١٧.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٨١).



إنَّ الروايات الإسرائيلية حول البرهان الذي رآه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والردُّ عليها، لا يقل شأنًا عن مثيلاتها التي حكت زوراً وبهتاناً عن همَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان الردُّ عليها من الأوجه التالية:

- الاضطراب الفاحش في هذه الروايات من حيث السند، والتناقض من حيث المتن حيث يتعذر الجمع بينهما فضلاً عن قبولهما، فكيف نوفّق بين نداء جبريل ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتوبيخه له، مع ما رآه من صورة أبيه عاضاً على إصبه؟! وما زعموه من رؤية الآيات القرآنية الناهية عن الزنا، يؤكد أنَّ الجمع بين هذه الروايات مستحيلاً.

- بل إنَّ الرواية الواحدة في حدِّ ذاتها تفوح كذباً واختلاقاً لما فيها من ركافة في التعبير فضلاً عن معناها الذي تحويه، فهل يعقل أن يكون الأنبياء وهم صفوة الخلق الذين اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلنُّبُوَّةِ، هل يعقل أن يسوى بينهم وبين سائر الخلق ويكونوا عرضة للتوبيخ من الملائكة؟ فما فائدة الاصطفاء؟ بل كيف نتوقع امتناع يوسف عن الزنا - على حسب مروياتهم المفتراة - زجراً من أبيه، فأَيُّ فضل ليوسف إذا وهو النبيُّ من سلالة الأنبياء وهم المعصومون بعصمة الله لهم^(١).

وذكر صاحب زاد المسير مستنكراً هذه الروايات على أنَّها من أعمال القصاص بقوله: وقد أشرت إلى فسادها في كتاب: (المغني في التفسير)، وكيف بنبي كريم أن يخوَّف ويُرعب ويضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مصرٌّ؟ هذا في غاية القبح^(٢).

(١) كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، ص ٥٧.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، (٢/٢١٠).



وعلق الماوردي على الأقوال في (البرهان) بأن أغلبها من الإسرائيليات، التي لم يعرف لها سند ثابت صحيح، ولم يعرف بين الروايات التي ذكرت رواية مرفوعة يمكن الركون إليها^(١). بل هذه روايات المنحرفين من علماء بني إسرائيل التي فيها مطاعن على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأما ما يخص ما ذكر من آيات قرآنية كانت زاجرة له، فإن المسلم به والمقطوع به أن الآيات بذلك اللفظ العربي والأسلوب القرآني لم تنزل على نبي قط قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم^(٢).

ولقد كان العلامة الرازي في تفسيره من خير المدافعين عن النبي يوسف عليه السلام؛ دفع عنه هذه التهمة الظالمة التي لا تليق بكمال الأنبياء عليهم السلام الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى واصطفاهم ليكونوا الإسوة الحسنة للناس. ننقل من كلامه ما يلي مع بعض التصرف والاختصار:

- فيوسف عليه السلام قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقال أيضاً: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، والمرأة اعترفت وقالت: ﴿أَكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١].

- والنسوة قلن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

- وزوج المرأة عرف الحقيقة، فقال لزوجته: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

- وقال لها أيضاً: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

(١) الروايات الإسرائيلية في قصة يوسف، ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥٨.



- وكذلك أظهر الشاهد من أهلها براءة يوسف.

- وحتى إبليس شهد بطهارتها بقوله: ﴿ قَالَ فِعْرَنُكَ لَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ [ص: ٨٢ - ٨٣]، ويوسف منهم وفوق كل ذلك شهادة العليم الخبير: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] ^(١). وهذه الأدلة كلها تدل على قوة الرأي الذي ذهبنا إليه من أقوال العلماء بأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لم يهّم بها لرؤية برهان ربه، والأدلة كثيرة، منها شهادة المرأة نفسها: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. ومنها جواب يوسف مباشرة لما قالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]. بالإضافة إلى الآيات التي دلت على أن الله تعالى أوحى إليه، ومنحه العلم والحكم، وأنه من المخلصين والمحسنين، فساحة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام نزيهة والله الحمد ^(٢).

- ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]: والحكمة من ذكر الآية، أن الله تعالى يبين أن عدم همّه بالفاحشة لا يعود إلى أنه غير قادر، أو غير راغب بطبعه، وإنما الذي منعه هو براهين الله في القلب من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن عصمة النبوة، وحبّه لرضاه ومحبتة، وعدم إغضابه بمعصية يمنع من أيّ لذة محرمة مهما كانت مرغوباً فيها.

ومن الجانب اللغوي فإن كلمة: (همّ) أقوى من نوى وقصد وعزم في لغة العرب، لأنها تعني العزم على الشيء مع البدء بمقدماته، وهكذا استعملت في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أَوْ يَمَّا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، حيث نوى المشركون وأرادوا قتله وحبسه مع البدء بالتنفيذ ولذلك لا يجوز إثبات الهمّ

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٥٨).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٦٨، ٦٩.



ليوسف. يقول السيد محمد رشيد رضا: إنَّ الهم لا يكون إلَّا بفعل الهم، وهذا لا يتناسب مع نبي كريم للأسباب التي ذكرناها هنا، ولا يصحّ بلاغياً أن نحمل هم المرأة ليوسف على معناه الحقيقي، وهم يوسف على معنى آخر، حيث لا يستقيم مع الإعجاز البياني.

قال ابن قتيبة: لا يجوز في اللغة أن تقول هممت بفلان وهم بي، وأنت تريد اختلاف المعنيين. ثم قال: وهذا مذهب الأكثر من السلف، والعلماء الأكابر، ولذلك فالصواب هو أن: ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] جواب لـ (لولا) حيث يدلّ بوضوح على امتناع الهم وعدم تحققه أصلاً لتحقيق رؤية البرهان وقد جاءت الصيغة فعلاً ماضياً: ﴿رَأَىٰ بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، للدلالة على وجوده وتحقيقه، وحينئذ تكون الحكمة في هذه الصياغة القرآنية هي الإشارة إلى أن هذا الامتناع لم يكن بسبب عجز يوسف وعدم وجود الشهوة فيه، وإنّما لأجل وجود هذا البرهان، وهو برهان الخوف من الله تعالى، برهان النبوة، برهان الحكمة، برهان الوفاء: ﴿إِنَّهُ رَفِئَ أَحْسَنَ مَوَآئٍ﴾ [يوسف: ٢٣] برهان معرفته تأويل الأحاديث، وفقه المآلات: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]^(١).

قال العلامة أبو السعود رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ أي حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كما إيقانه بها ومشاهدته لها واصله إلى مرتبة عين اليقين^(٢). ونقله الألوسي في روح المعاني وأقرّه^(٣).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٧٠.

(٢) تفسير أبي السعود، (٢/ ٢٦٦).

(٣) روح المعاني، (١٢/ ٢١٣).



وقال البقاعي: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى﴾ [يوسف: ٢٤] أي بعين قلبه ﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] الذي آتاه إياه من الحكم والعلم، أي لهم بها، لكنّه لما كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين، لم يؤثر به وفور شهوة ولا غلبة هوى^(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: والحاصل أنّه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حقّ سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كلّ أنّ الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنّه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه^(٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فأخبر أنّه صرف عنه السوء والفحشاء وهذا يدل على أنّه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء. وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالهم اسم جنس تحته «نوعان» كما قال الإمام أحمد: الهمّ همّان: همّ خطرات وهمّ إصرار وقد ثبت في الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة". ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام همّ همّاً تركه الله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنّما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله.

(١) نظم الدرر، (١٢/١٦٣)

(٢) تفسير السعدي، ص ٥٠٤.



فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وأما ما ينقل: من أنه حلّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده، وأمثال ذلك فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله؛ لم ينقل من ذلك أحد عن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرفاً واحداً^(١).

- ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]:

بين الله تعالى الحكمة من جعل يوسف يرى برهان ربّه وسياق الكلام بما فيه من التشبيه في الحالة في قوله: (كذلك) يدلّ على أنّ ما قبلها قد صرف عنه السوء فيه بإيجاد البرهان فيكون المعنى مثلما حفظناه من الهم بالسوء، كذلك نصرف عنه السوء، فالمصروف هو السوء والفحشاء، وهذا يعني أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتوجّه إلى السوء ليصرف عنه وإلا قيل: كذلك لنصرفه عن السوء.

وإذا كانت مادّة الصرف تدلّ على رجوع الشيء، فإنّ ذلك يدلّ على وجود مصدر للسوء هنا، وهو المرأة، ولكن الله ردّ كيدها عليها ولم تؤثر في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمكرها^(٢).

- ﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]: والسوء: الضر، من ساءه سوءاً، مصدر

بفتح السين. وأما السُّوء بضم السين فاسم للمصدر. الفحشاء: اسم مشتق من فحش إذا تجاوز الحدّ المعروف في فعله أو قوله واختصّ في كلام العرب بما

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/٢٩٦، ٢٩٧).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٣٧.



تجاوز حدّ الآداب وعظم إنكاره؛ لأنّ وساوس النفس تؤول إلى مضرّة كشرب الخمر والقتل المقتضي للثأر، أو سوءة أو عار كالزنا والكذب، فالعطف هنا عطف لمتغيرين بالمفهوم والذات، لا محالة بشهادة اللغة وإن كانا متحدين في الحكم الشرعي لدخول كليهما تحت وصف الحرام أو الكبيرة، وأما تصادفهما معاً في بعض الذنوب كالسرقة فلا التفات إليه كسائر الكليات المتصادفة^(١).

وقال المعلمي رَحِمَهُ اللهُ: والسوء: كلّ ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسيّة والبدنيّة والخارجيّة، من فوات مال، وفقد حميم، وفعل قبيح، وهو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] بمعنى الغم، وفي قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، بمعنى القبيح. فالسوء كلّ عمل قبيح يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس، أو يسوء النَّاس. والفحشاء: هي الفحش والفاحشة ألفاظ ثلاثة معناها واحد، وهو كلّ ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، فإذا تقرر هذا فحاصل المعنى لنصرف عنه ما يهمله ويحزنه، وكل أمر قبيح وكل ما يتجاوز الحد في القبح. ولنصرف عنه الصغيرة والكبيرة، أو لنصرف عنه الكبيرة والكبرى، من المعاصي، أو لعله أراد لنصرف عنه ما يسوءه وهو خيانتة لسيدته. والفحشاء، وهو: قتله لسيدته. أو السوء ما لا حدّ فيه، وهو قتله لسيدته دفاعاً عن عرضه، والفحشاء ما فيه حد وهو الزنى، أو نصرف عنه السوء، وهو: مقدمات الفاحشة من التقبيل، والضم، ونحو ذلك. والفحشاء، وهي: الزنى أو القتل، أو السوء، وهو: الزنى، والفحشاء هي القتل، وهذا الأخير هو الأقرب عندنا بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أي: زنى. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] أي: الزنى،



فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاثة في هذه السورة مستعملة في الزنى، فليكن لفظ: (السوء) في قوله: ﴿لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ [يوسف: ٢٤] مراداً منه الزنى، وإذا ثبت هذا فالفحشاء هي القتل الذي كان حاوله يوسف، ثم رأى غيره أحسن منه وهو الفرار، ومع كل هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الزنى والقتل سوءاً أو فاحشة^(١).

- ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]: اختلف القراء في قراءة ذلك؛ فقرأ قراء المدينة والكوفة (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) بفتح اللام من «المخلصين»، وذلك بتأويل: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوتنا ورسالتنا وقرأ بعض قراء مدينة البصرة: "إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" بكسر اللام = بمعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصوا توحيدنا وعبادتنا، فلم يشركوا بنا شيئاً، ولم يعبدوا شيئاً غيرنا وهما متفقتا المعنى. وذلك أن من أخلصه الله لنفسه فاختره، فهو مُخْلِصٌ لله التوحيد والعبادة، ومن أخلص توحيد الله وعبادته فلم يشرك بالله شيئاً، فهو ممن أخلصه الله^(٢).

وإن الجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عبادتهم الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه وأسدى عليهم من النعم وصرف عنهم من المكروه ما كانوا به من خيار خلقه^(٣).

وهذا التعليل في قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فيه ترغيب في الإخلاص وحث عليه ودعوة للإنصاف به وإغراء للدخول في ركب

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٥١٥-٥١٧).

(٢) جامع البيان، (١٦/ ٥٠).

(٣) الإخلاص في القرآن الكريم، محمد بن محمد الوهيبي، دار التوحيد، السعودية، الطبعة الأولى،

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، ص ٣١٠.



المخلصين لينجو بإذن الله من السوء والفحشاء ويصرف عن الحرام، ويخلص من الفتنة. ولهذا كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله^(١). فالذي منعه من الانسياق وراء هذا الإغراء والمرادة خوف الله تعالى الناشئ عن الإخلاص لله تعالى، فخلصه الله من هذه الفتنة والتي هي أضر فتنة على الرجال^(٢).

وقال السعدي: إنَّ من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]^(٣)، فما أعظم الإخلاص في الخلاص من الفتن^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : وأما يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ بِإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ، فَقَدْ عَلَّلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ صَرْفَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ بِأَنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فَمَنْ كَانَ مُخْلِصًا لِلَّهِ حَقَّ الْإِخْلَاصِ لَمْ يَزِنْ وَإِنَّمَا يَزْنِي لَخْلُوهُ مِنْ ذَلِكَ؛ وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي يَنْزِعُ مِنْهُ، لَمْ يَنْزِعْ مِنْهُ نَفْسُ التَّصَدِيقِ^(٥). إِنَّ الْإِخْلَاصَ يَمْنَعُ مِنْ تَسْلِيطِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْعَبْدِ، فَقَدْ

(١) الإخلاص في القرآن الكريم، ص ٣١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣١١.

(٥) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ، (٤/ ٣٤-٣٦).

استثناهم الله من إغوائه في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وفي هذا دليل ظاهر على أثر الإخلاص لله تعالى^(١).

والإخلاص: أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده لا يريد بها تعظيماً من الناس ولا توقيراً، ولا جلب نفع ديني ولا دفع ضرر دنيوي^(٢). قال سهل بن عبد الله التستري: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحر كاته لله تعالى خالصة^(٣). وقد جاءت هذه الشهادة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] قبل الاستباق نحو الباب ومواجهة العزيز لتؤسس في النفوس براءته عَلَيْهِ السَّلَام من أي شيء نسب إليه.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَاذِبِينَ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٥ - ٢٩].

ثم بادر عَلَيْهِ السَّلَام ففر من ميدان المعركة، واتجه مسرعاً نحو أول الأبواب المغلقة، كذلك تشعر الآية؛ لأن بقاءه معها وراء الأبواب المغلقة والستائر المنسدلة؛ يعرضه للشبهة والتهمة، والعاقل يسعى لدرء الشبهات عن نفسه، ويتجنب مواطن التهمة والريبة. وهو درس عملي علّمه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لكل

(١) الإخلاص في القرآن الكريم، ص ٣١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢١.



عاقِل يتدبر معاني كلمات الله في تنزيله الحكيم، ورسم لنا عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً في سلوكه هذا أمراً آخر، وهو أنَّ على الإنسان في مثل هذه المواقف أن يتَّهم نفسه فيفِرّ ولا يقَرّ مغترّاً بنفسه، زاعماً أنَّه متمكن منها، ومسيطر عليها، فقد يضعف الإنسان أمام نفسه، ويرمي لها بالزمام، فتقوده إلى المهالك، وما أكثر الذين انخدعوا بأنفسهم في مثل هذه المواطن فضعفوا وسقطوا. درسان كبيران وعبرتان بليغتان كبيرتان فيما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يحتاج إليهم كل فتى وفتاة في هذا العصر، أولهما: اتهام النفس وعدم الركون إليها والثقة بها. ثانيهما: تجنب مواطن الريبة واتقاؤها فإذا ما ابتليت ففر ولا تَقِر، وتذكر نبيَّ الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فأنت معهما كنت لست أقوى منه، ولا أتقى منه، ويجب أن يضم إلى فرار الجسد عن مواطن التهمة والريبة وابتعاده عن مواضع الفتنة، فراراً آخر بالروح والقلب إلى الله تعالى الذي قال: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمٌ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقد فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا أيضاً كما سيأتي وهو خلاصة التوجيه الكريم الذي توجه به نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلاً: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١).

١. ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

- ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]: الاستباق طلب السبق إلى الشيء، قال العلماء: هذا من اختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني^(٢). بادر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، ح رقم: ٢٥١٦.

(٢) تفسير القرطبي، (٩/ ١٧٠).

كما قلنا إلى ترك موضع الفتنة واتجه مسرعاً إلى الباب واستبدت الشهوة بالمرأة، وطغت على جميع مشاعرها، واندفعت وراءها متهاكة عليه^(١).

- ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥]: أي: شقت قميصه طولاً من جهة ظهره^(٢). والقدر: القطع والشق وأكثر استعماله فيما كان طولاً، والقط: يستعمل فيما كان عرضاً، والقميص معروف وقد يطلق على الجلباب، ولعله المراد هنا، و﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: من خلف. ومعنى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: جذبته من خلفه من طوقه، فانخرق إلى أسفله^(٣).

وجملة: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] جاءت عقب ﴿وَأَسْبَقَ أَبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]، وكشفت عن السرعة التي كان عليها يوسف، وكانت عليها امرأة العزيز، وقد القميص من دبر فيه دلالة واضحة على شدة يوسف، وقوته في عزمه على أن يخرج من الباب، ودلالة واضحة أيضاً على قوة المرأة وشدة عزمها في ألا يخرج يوسف، وأن يعود إليها، وهذه الصورة يظهر فيها الصراع واستعمال القوة، وهي غير الصورة السابقة التي فيها مراودة، ومخادعة ليوسف في نفسه، حتى كأنها تريد أن تخطفه لرغبتها التي غطت على كل شيء فيها، وراجع لتدرك الفرق بين حالة دعائها له بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] أعني أريدك أنت، كما هو دلالة اللام التي هي أخت اللام في: سقيا لك، وأنها كانت تهيأت له قبل أن تقول له هلم^(٤).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٢).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٦٢).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٧٩.

(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٨٦.



كان واضحاً بأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سابقها في الاستباق وواضح أنها لم تتمكن من تخطيه، بل إنها لم يكن بإمكانها أن تلحق بقميصه لولا امتداد يدها، ولولا أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يستغرق بعض الوقت في فتح الأبواب المغلقة لما استطاعت المرأة أن تلحق به بحال، إذ هو أقوى منها وأسرع بكثير ولكن كان ذلك لحكمة قدرها العليم الحكيم^(١).

- ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ﴾ [يوسف: ٢٥]: أي: وجدا زوجها عند الباب، فهو (سيدها) وليس سيداً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن ملكيته ليوسف في الأصل ليست مشروعاً، والإسلام لا يعترف باستعباد الحر ولا يقر كأمر واقع ويبقى الإنسان حراً في شرع الله تعالى، والحرام يبقى حراماً، ولا يحل مهما طال عليه الزمن وشاع بين الناس^(٢). وإطلاق السيد على الزوج، قيل: إن القرآن الكريم حكى به عادة القبط حينئذ، كانوا يدعون الزوج سيداً. والظاهر أن ذلك لم يكن مستعملاً في عادة العرب، فالتعبير هنا من دقائق التاريخ، وإلا إطلاق كلمة: (سيد) على الزوج هي لغة المصريين وشائعة بينهم إلى اليوم، حكاه القرآن الكريم جرياً على اصطلاحاتهم^(٣).

- ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ﴾ [يوسف: ٢٥]: أي حدثت لهما المفاجأة وهي ظهور عزيز مصر أمامهما وصار المشهد ثلاثياً امرأة العزيز، ويوسف، وزوجها^(٤). وجملة: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ﴾ [يوسف: ٢٥]: تطوي وراءها معنى أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سبق وفتح الباب، وفوجئت المرأة بسيدها لدى الباب الذي

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٧٩.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٢).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٧٩.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٢١).



كانت قد أغلقتة، فتسارعت بذكاء عجيب، وثقة واقتدار؛ فقلبت كل الحقائق والمرادة وما تعلق بها. وقول يوسف: معاذ الله.. وهما به إلى آخره، طوت بذكاء عجيب كل هذا وطرحته ولم تتهم يوسف اتهاماً مباشراً^(١)، بل قالت:

- ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]: فبادرت تدفع التهمة عن نفسها، وتتهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(٢). وقولها هذا من كيدها العظيم الذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، واستنبط منه أنها لا تحبه، فثمة فرق بين الشهوة الجنسية والحب الشريف فلو أنها أحبته، ما أوقعته في هذه الورطة الكبيرة، فكانت تحبه لشكله ولا تحبه لنفسيته، وهذا حب شهواني، لا حب رוחي، والدليل على أنه حينما امتنع منها، وكادت تفضح، أرادت أن تسحقه وأن تجعله أمام زوجها خائناً^(٣).

وهكذا وضعت نفسها في موضع المدعي والقاضي وأصدرت الحكم بسجن المتهم أو بمعاقبته، بعذاب أليم، وهذا يدل على أنها أرادت الانتقام من يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وتبرئة نفسها أيضاً^(٤). ومن عادة أكثر الناس في مثل هذه المواقف أن تستبد بهم الغيرة فتثور ثائرتهم وتغلي مراجل الغضب في صدورهم، ويندفعون دون أدنى تبصّر وروية إلى تصديق التهمة. وكم أدى مثل هذا الاندفاع والتهور إلى اتهام البراء وحدوث المظالم، وسفك دماء بريئة، ولهذا شرع الله تعالى لإثبات جريمة الزنى شهادة أربعة شهود عدول من ذوي الديانة والأمانة، كما توعّد الذين

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٨٧.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٢).

(٣) تفسير النابلسي، (٦/ ١٧٣).

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٣).



يرمون غيرهم بتهمة الزنى بعقوبة القذف فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

وقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، بأسلوب الاستفهام يدل على أنها أرادت استفزاز مشاعر زوجها وإثارة غضبه وغيرته، فتنتقم من يوسف قبل أن يحقق الأمر ويكشف حقيقته، ولكن الله سبحانه أراد أمراً آخر، وهو غالب على أمره أراد جَلَّ وَعَلَا إظهار براءة نبيه يوسف عليه السلام من التهمة التي حاولت هذه المرأة إلصاقها به، وهو سبحانه يدافع عن الذين آمنوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، وهو عزَّجَلَّ يدافع عن أنبيائه وأصفياه الذي اختارهم لحكمته وعلمه، ورفعهم إلى مقام الأسوة الحسنة للناس، فلا يمكن الفجار والفساق من تشويه سمعتهم وتنفير الناس عنهم. ولما حاول بعض بني إسرائيل أن يفعلوا مثل هذا بنبي الله موسى عليه السلام وأشاعوا عليه قالة السوء، أظهر الله تعالى براءته، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

- ألهم سبحانه زوج المرأة أن يقابل استفزازها له بهدوء وروية، ويبدو أنه لم يصدق ادعاءها بسبب ما علمه من أخلاق يوسف ونبله وصدقه وأمانته وبادر عليه السلام إلى الدفاع عن نفسه قائلاً بثبات قلب ورباطة جأش^(١):

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٤).

٢. ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]:

- ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]: واضطر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يوجه التهمة إليها ليدافع عن نفسه ولولا ذلك لكتّم عليها ولم يفضحها^(١)، فالستر أولى في مثل هذه الحالات، وهو ما ندب إليه الإسلام، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة»^(٢). وتدل قرائن الحال كلّها على صدق يوسف وبراءته، فتغلق أبواب القصر لا يتم إلّا بأمرها وإرادتها ووجودها عند الباب، كلّ ذلك يدل على كذبها، ولو كان عَلَيْهِ السَّلَامُ طالباً لها لحاصرها في الداخل لا عند الباب^(٣).

- ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] أي: هي التي أرادتني. والمرادة من الرود بمعنى الإرادة والطلب باللين^(٤). حيث كان تعبيره صادقاً ودقيقاً، وأنه لم يتهمها أيضاً بفعل الفاحشة^(٥). ومن الملحوظ هنا أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال في رده عن كلامها: ﴿هِيَ رَوَدَتْنِي﴾ [يوسف: ٢٦] ضمير الغائبة، المفردة، ولكنه هنا عبر به عن الحاضر والمقتضي أن يقول: هذه راودتني. فما سرّ ذلك؟

قد يكون هذا الخروج عن المقتضى سببه انصرافه عنها، وعدم اهتمامه بشأنها، لأنها لا تستحق التقدير، بعدما فعلته من خيانة زوجها، ومحاولتها بيع

(١) تفسير النسفي، (٣/٣٩٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ح رقم: ٢٦٩٩.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٤).

(٤) يوسف، القره داغي، ص ٧٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٤.



عرضها واتهامها لبريء، ويضاف إلى ذلك سبب آخر هو ما جبل الله عليه الأنبياء من حسن الأدب ولطف القول، فهي لما كنت عن نفسها بذلك. أي: (بأهلك) ولم تقل: (بي) بدل: (بأهلك) كنى هو عنها بضمير الغيبة، فقال: ﴿هِيَ رَوَدَتْنِي﴾ [يوسف: ٢٦]، ولم يخاطبها بـ: (أنت راودتني)، وكل ذلك على سبيل الأدب في الألفاظ، والاستحياء في الخطاب الذي يليق بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام، فأبرز الضمير في صورة ضمير الغائب تأدباً مع العزيز وحياء منه^(١). وهذا من الأدب والحشمة لأن في المواجهة بالقبيح من السوء ما ليس في الغيبة^(٢). وما ذكره عَلَيْهِ السَّلَام كاف في المقصود وكان واضحاً مختصراً دون تطويل، أو زيادة، لأن مقصوده في الخطاب مختلف عن مقصودها، لذا كنى عنها بضمير الغيبة: (هي)، ورددعواها وكذبها ونسب المراودة إليها، أي أنه صرح بالسوء الذي أخفته هو من خطابها لأنه لا مجال لإخفاء ذلك، وهكذا يختلف نمط الخطاب عندما يختلف هدفه^(٣).

لقد وصلت الحقيقة إلى العزيز، وأصبحت واضحة المعالم ولا ينفعها إلا الشهود ولا شك أن وقع هذه الحادثة كان شديداً على نفس العزيز وكيف لا، وأرادت خيانتها مع ألصق الناس به، ويوسف أحب الخلق إليه، وبعد أن استمع إليهما صمت ولم يتكلم، ولعله تركهما وخلا بنفسه يفكر في أمر هذه القضية، ثم اهتدى إلى قرار حكيم مؤداه أنه لن يستأثر بالحكم في هذه القضية بنفسه، بل سيجعل هذا الأمر لشاهد آخر^(٤).

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٥١.

(٢) البحر المحيط، (٦/ ٢٦٠). جماليات النظم القرآني، ص ٥١.

(٣) جماليات النظم القرآني، ص ٥١.

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٨٥.



- ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]: قيض الله ليوسف رجلاً عاقلاً حكيماً مجرباً، لا يقبل الكلام على علاقته، بل لا بد أن يزينه بميزان العقل والحكمة، فيعاین ويستنتج ثم يحكم بالحق، ومع أنه كان من أقارب هذه المرأة في صحبة العزيز، إلا أنه لم يحاب قريبتة، بل كان هدفه هو الوصول إلى الحق من حيث إنه الحق^(١). واختلف المفسرون في الشاهد، هل كان كبيراً أو صغيراً، فقال بعضهم: كان صبيّاً في المهد أنطقه الله عَزَّوَجَلَّ^(٢). ورجح الإمام القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى: أن يكون الشاهد رجلاً لا صبيّاً، وقال: لو كان صبيّاً تكلم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى استدلال بالقميص ويكون ذلك خرق للعادة، ونوع معجزة^(٣). وكذلك الإمام الرازي رجح أنه كان رجلاً لوجوه:

الأول: أن الله تعالى لو أنطق الطفل بذلك الكلام، لكان مجرد قوله: إنها كاذبة برهاناً على كذبها، أما الاستدلال بما في قوله من المنطق من قدّ القميص من قبل ومن دبر، فلم يكن محتاجاً إليه.

الثاني: قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]، فإنها سيقّت لتقوية الشهادة، ولا يصار إلى هذه التقوية إلا حيث كان الشاهد رجلاً، ولو كان صبيّاً في المهد لكان قوله حجة، ولم يبق لهذا القيد فائدة.

الثالث: أن لفظ الشاهد لا يقع إلا لمن تقدمت له معرفة بالواقعة، وإحاطة بها، وذلك لا يكون إلا من رجل. أما الحديث الذي استدل به القائلون بأن الشاهد كان صبيّاً هو: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف،

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٧٢. قصتا آدم ويوسف، د. عبد الكريم الخطيب، ص ٨٤، ٨٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٥).

(٣) تفسير القرطبي، (٩/ ٤٩٦-٤٩٧).



وصاحب جريح، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَام^(١). وصححه الحاكم، وعند المحدثين إذا انفرد به الحاكم لا يوثق، فإن من عادته أن يتساهل في التصحيح فيصحح الضعيف^(٢). ولقد ذهبت أكثر المفسرين إلى أنه كان رجلاً من خاصة العزيز، وكان ابن عم لزوجته، وهذا هو الراجح^(٣). قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: ثم إن ظاهر القرآن في قصة الشاهد أنه كان رجلاً لا صبيّاً في المهد، إذ لو كان طفلاً لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافياً وبرهاناً قاطعاً، لأنه من المعجزات، ولما احتيج أن يقول: «من أهلها»، ولا أن يأتي بدليل حي على براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وهو قوله: (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من الدبر) الآية، وقد روى ابن جرير بإسناد رجاله ثقات عن ابن عباس أن الشاهد كان رجلاً ذا لحية، وهذا هو الأرجح، والله أعلم^(٤).

- ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]: وللمرة الثانية يذكر قميص يوسف عَلَيْهِ السَّلَام في القصة وهو في هذه المرة غير القميص الذي حمله إخوانه إلى أبيهم وجاؤوا عليه بدم كذب وقد قدر تعالى أن يجعل في هذا القميص الدليل القاطع على براءته عَلَيْهِ السَّلَام وصدقه، وأن يجيء ذلك على لسان شاهد من أهل امرأة العزيز الذي قال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] أي: من جهة صدره. ﴿فَصَدَقَتْ﴾ [يوسف: ٢٦] في ادّعائها. ﴿وَهُوَ

(١) أخرجه الحاكم، كتاب التفسير «بسم الله الرحمن الرحيم قد بدأنا في هذا الكتاب بنزول القرآن، في ما روي في المسند من القراءات، وذكر الصحابة الذين جمعوا القرآن وحفظوه، هذا قبل تفسير. السور"، تفسير سورة التحريم بسم الله الرحمن الرحيم، ح رقم ٣٨٣٥.

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد المغراوي، (١٦/ ١٢٧).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، د. علي القره داغي، ص ٧٥.

(٤) السلسلة الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ م، (٢/ ٢٧٣).

مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿يوسف: ٢٦﴾: لأن تمزيق القميص في هذه الحالة يدل على أنه هو الطالب لها وأنها كانت تدفعه عنها^(١).

٣. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧]:

أي: أن قميص يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إن كان قد من الخلف، فيوسف صادق وامرأة العزيز كاذبة. ونلاحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأي قبل أن يشاهد القميص، بل وضع في كلماته الأساس الذي سينظر به الامر وهو إطار دليل الإثبات^(٢).

- ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٧] من جهة ظهره: ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧] لأنه يدل على أنها كانت تطلبه وهو معرض عنها^(٣).

ثم كان الحكم في الآية التالية على القضية:

٣. ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]:

من معاني اسم الله: اللطيف، الذي ظهر جلياً في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ينجي عبده بأخفى الأمور. من كان يظن أن قميصاً ممزقاً سينجّي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من تهمة كبيرة؟ وأن انحراف مسير قافلة في الطريق سيكون السبب في خروج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من البئر؟ وأن رؤيا منامية يراها الملك ستكون السبب في خروج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن، فسبحان اللطيف الخبير.

- ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف: ٢٨]: من أعظم الكرامات: قميص مشقوق، يستر الله به سمعة يوسف. إذا لبست التقوى أغناك الله بها عن كل لباس: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٢٦]^(٤).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٦).

(٢) تفسير الشعراوي، (٤/١٦٦).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٦).

(٤) يوسفیات، ص ٦٢-٦٣.



ولمّا تأكد زوجها من صدق يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وأمانته وبراءته وعرف كذبها وخيانتها، ومع ذلك لم يفعل شيئاً سوى أن قال - على وجه العموم دون أن يوجه كلامه إليها -: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، والكيد: هو الاحتيال لإيقاع السوء بخفاء، ويقوم به من لا يملك القدرة على المواجهة - في الغالب - وكيد المرأة عظيم لأن ضعفها أعظم^(١). قال السيوطي: الكيد: إرادة متضمنة؛ لاستتار ما يراد عمن يراد به^(٢). وقال الجرجاني: الكيد إرادة مضرة الغير بخفية، وهو من الخلق: الحيلة السيئة. ومن الله: التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق^(٣).

وينقسم الكيد إلى محمود وهو ما قصد به الخير، ومذموم وهو ما قصد به الشر^(٤). وأكثر ما يستعمل ذلك في البشر، ومتى قصد به الشر فمذموم، ومتى قصد به خير فمحمود.

وعلى الوجه المحمود قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]^(٥).

- ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]: إن ما حدث هو من مكركن واحتيالكن وهو مكر واحتيال كبير، فالمرأة تملك من وسائل المكر والكيد

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٦٩٢٥).

(٢) معجم تقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ص ٢٠٧.

(٣) التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ص ٢٢٧.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م. ص ٢٥٥.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ٢٥٥.

بالرجل شيئاً كثيراً؛ ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء»^(١).

ولقد وصف العزيز أو الشاهد هذا الكيد بأنه عظيم. والضعيف يعرض ضعفه بحيلته وذكائه وكيدته حتى يغدو قوياً وقد ورد في القرآن الكريم أن كيد الشيطان ضعيف. قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

ومن هنا يردد على كثير من الألسنة أن كيد المرأة أعظم من كيد الشيطان، طانين أن ذلك هو حكم القرآن وتقريره. وليس كذلك؛ فإن كيد الشيطان ضعيف نسبياً، فكيد الشيطان إلى كيد الله وتدبيره وإلى قوة أولياء الله وجنده كيد ضعيف. وكيد المرأة هذه بالنسبة إلى شاب يافع بريء ليس متمرساً بأساليب الختل والدوران فهذا كيد بالنسبة له عظيم. فكيد الشيطان ولا شك أعظم من كيد المرأة، كيف لا وهو الذي خدعها وزوجها في أول الخليقة حتى ذاقا الشجرة وبدت لهما سواتهما. ثم إن كيدته يجري من آدم مجرى الدم، ثم إنه يستغرق البشرية، فأين ذلك من كيد المرأة؟

ولما تيقن العزيز والشاهد كل اليقين من براءة يوسف مما حاولت ظلماً أن تلصقه به تلك المرأة، صدر هذا الكلام من عزيز مصر، يرد الاعتبار ليوسف، ويطلب منه ستر الأمر وكتمانه وتجاوزه^(٢).

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]: بعدما واجه العزيز من امرأته أعلمها بأن ما جرى هو من كيد النساء، وأن يوسف بريء، التفت إليه وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩]: أي

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة، ح رقم: ٤٨٠٨.

(٢) سورة يوسف، ص ٣٧٥.



عن هذا الحدث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع واجعله كأن لم يكن، ولا تهتم به ولا تلتفت إليه، وابق في البيت محترماً مكرماً، لم يدخل في قلبنا ريب منك فإنك عندنا شريف أمين. لقد كان أخشى ما يخشاه العزيز أن يطلع الناس على هذا الحدث بين يوسف وامرأته؛ ولذلك كان طلبه المباشر والصريح ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام أن يستر هذا الأمر حتى لا يعلم به أحد من قريب أو بعيد، ذلك أن أصحاب الجاه والسلطان يسيئهم أن يروا أهلهم على خطيئة وسيئهم أشد الإساءة أن يعلم غيرهم أن أهلهم على خطيئة، ثم إن مثل هذه الأمور يجب فيها الستر والتحرز عن إشاعتها درءاً للمفاسد^(١).

وذكر العزيز يوسف عَلَيْهِ السَّلَام باسمه ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩] احتراماً وتقديراً وتكريماً له، ولم يذكر اسم زوجته غضباً منها وبغضاً لفعلها، وضيقة من تصرفاتها المنحرفة.

- ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكِ﴾ [يوسف: ٢٩]: وهو في قوله هذا يقرّ بأنّ ذنباً قد وقع وهو لن يقرّ بذلك إلّا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً وهو موقف لا يسعه فيه إلّا أن يطلب منها أن تستغفر^(٢). وهذا القول من العزيز ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكِ﴾ [يوسف: ٢٩] يشير إلى أنّهم كانوا يؤمنون بالربّ أو الأرباب في زعمهم، كما كانوا يؤمنون بالبعث والحساب، كما هو مسجل على آثارهم إلى الآن^(٣).

- ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]: وهذا التعبير في قول العزيز يدلّ على ما يأتي: كثرة التأكيدات في هذه الجملة، تدلّ على قناعة كاملة بأنّها

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٩٤.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/٦٩٢٦).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٩٤.



من الخاطئين. وإضافة (كنت) يدل على الماضي والاستمرار إشارة إلى أن مثل هذه الجرائم لا تكون آنية بنت وقتها، بل هي متأصلة دبّرت من وقت سابق، وهذا تأكيد لإثبات الكيد لها وللمن عاونتها من نساء القصر. والمقصود بالخطئين هنا: أي المذنبين من الخطيئة وليس من الخطأ بمعنى الغلط^(١). ولم يقل من: (الخطائت) مع أن هذا هو مقتضى السياق. قال بعض النحاة: إن ما فعلت في القصر لا يليق بحياء النساء العاديات، فكيف بالزوجات، بل لا يليق بالرجال المحترمين، وإنّما فعل الرجال العصاة، إذن حوّلتك شهوتك من جنس النساء إلى جنس الرجال الفجرة^(٢). ويستفاد من هذه الآيات جواز صحّة الاعتماد على القرائن الدالة على الجريمة وأنّها من وسائل الإثبات، وهذا ما اعتمده جمهور الفقهاء^(٣).

✦ شخصية العزيز:

من أهل التفسير من يرى أن عزيز مصر قد تصرّف مع امرأته بعد ثبوت إدانتها ومرادته ليوسف تصرّفًا باردًا لا يتناسب مع فعلتها الآثمة؛ حيث إنّه لم يؤخذها بأكثر من العظة. وكان عليه أن ينزل بها العقاب الرادع، وأن يقوم بإبعاد يوسف عن القصر، ولكنّه لم يفعل هذا ولا ذاك، مما يدل على ضعفه ودنائه وقلة غيرته، حتّى إن بعضه قد وصفهم بـ (الديوث)، الذي لا يغار على أهله ولا يخجل من ارتكابهم الفاحشة^(٤). وحين نظر في الآيات الكريمة التي تتحدث عن العزيز نجدها تتحدث عنه كشخصية حكيمة وقورة، فالآية الواحدة والعشرين من السّورة تطلّعنا على العزيز وهو يقول لامرأته بشأن يوسف ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، ص ٧٧.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٧٧.



أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا» [يوسف: ٢١]. يقول الدكتور حسن محمد باجودة: يبدو لنا العزيز من هذه الآية رجلاً نبيلاً طيب القلب رحيماً بعيد النظر ألعياً، فقد تبين في الغلام يوسف - بفراسته وألمعيته - أنه من معدن متميز، ولهذا خصه دون سواه بهذا الاهتمام الفائق، وهو رجل متزن، لذا فهو يقدم فعل الرجاء: (عسى) بين يدي قوله: ﴿أَكْرِمِ مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا» [يوسف: ٢١]، إنه يرجو أن يكون واقع هذا الغلام مستقبلاً موافقاً لفراسته فيه، وواضح أن الرجل منطقي في رجائه، ولا ننسى قول أهل التأويل في العزيز "إنه من أصدق الناس فراسة"، كما مر معنا في تفسير الآية الكريم: ﴿أَكْرِمِ مَثْوَاهُ» [يوسف: ٢١]، وهنا نجد أن العزيز فوجئ بالحادثة المفجعة له بين زوجه ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام ولا شك أنه اعتبرها نكبة من أفدح النكبات التي حلت به وبأسرته وبأسرة زوجه أيضاً، ومع هذا فلم تخرجه هذه الحادثة عن عقله واتزانة وعدالته ليرتكب حماقة من الحماقات في حق يوسف وامرأته، بل صمت وصبر وتماسك، ثم استشار أحد الحكماء الفطناء من أهل المرأة واقتنع ورضي بحكمه، ورأيناه يتحرى العدالة بكل دقة، حتى إنه جعل يوسف وامرأته أمامه سواء فلمّا تبين له صدق يوسف وبراءته أعلن ذلك وأمر يوسف بكتمان الأمر ونسيانه كأنه لم يكن، ثم عزّر امرأته بما يليق بمكانتها وهي من أرباب البيوتات الكبيرة، فوبّخها وسمّى فعلتها الشنيعة كيداً ومكراً عظيماً، ثم زاد فواجهها بالحكم عليها أنها مذنبه ومخطئة وأن عليها أن تستغفر الله وتوب إليه مما فعلت، ولو كان أمر العزيز كما اتهموه لما اهتم بموضوع المراودة، ولترك الجبل على الغارب (كما يقولون) وهذا من أقوى الأدلة على عدالته^(١). وقد أبقي العزيز يوسف عَلَيْهِ السَّلَام في القصر مع وجود المرأة فيه لعدة أسباب:

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٩٨.



- ظهور كمال براءته عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ما كان يعتقد فيه دائماً.
- علمه أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ على درجة عالية من الكمال الخلفي فلا تؤثر فيه دواعي المحرمات، ولا خوف منه أبداً على شرفه وعرضه.
- لا يوجد أفضل منه عَلَيْهِ السَّلَامُ يطمئن إليه بغيبته ويأتمنه على أهله.
- الستر على الفضيحة باستمرار بقائه عَلَيْهِ السَّلَامُ في القصر، إذ لو أخرجه منه لأدى ذلك إلى تساؤلات الناس عن السبب، وقد يصلون إلى معرفة ما وقع. وهذا أشد وأقسى ما يخافه العزيز وهو على ما هو عليه من مكانة عالية، وجاه عريض بين الناس.
- ليس من السهل على العزيز أن يتخلص من يوسف بهذه البساطة، بعد أن ثبتت براءته، فبين يديه من الأعمال الهامة ما لديه، سواء بالنسبة للدولة، أو العزيز نفسه، يقوم بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بطريقة فريدة غاية في الحكمة والسداد بتوفيق الله وإلهام منه إليه.
- كان على العزيز أن ينتظر الوقت الكافي حتى تمر تلك الحادثة بسلا، أو تظل في الخفاء والكتمان ثم يقرر قراره بعد ذلك، في المكان الذي يجب أن يكون فيه يوسف، بعيداً عن زوجه دون أن يبخسه حقّه أو يقلل من شأنه^(١).
- إلا أن هناك من العلماء كان نقدهم لشخصية العزيز لاذع وشديد، منهم:
- د. صلاح الدين الخالدي رَحِمَهُ اللهُ: لكنّ العزيز المسؤول الأول في مصر، الذي يمثل ما يسمونه بالطبقة الراقية الحاكمة، تفاعل مع الموضوع بأعصاب متجمدة ودم بارد فلا قيمة عنده للعرض والشرف ولهذا خاطب زوجه

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٠.



بعتاب بارد: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. هذه الجملة الباردة الصادرة عن إنسان بارد ديوث يتأكد من وجود الفاحشة في زوجته، فمنحها ما يشبه الوسام ويقدم لها الثناء، ويشهد لها بأنّها امرأة فاتنة ماهرة، تقدر على الإغواء والفتنة والكيد والتآمر^(١).

- وقال الدكتور علي محيي الدين القره داغي: ولكن تصرف العزيز كان تصرفاً ضعيفاً نابعاً من قلة الغيرة، وضعفه أمامها، ومن مجتمع الفسق والفجور ورفاهية القصور^(٢).

- وقال الشيخ عبد الحميد محمود طهماز: وتعطينا الآيات صورة لما يحدث في المجتمعات الغنية المترفة المنحلة البعيدة عن الإيمان بالله تعالى، فالانهماء في السرف والترف قد جمّد مشاعرهم البشرية، وأضعف الإحساس الفطري الطبيعي في غيرتهم على أعراضهم وشرفهم وهذا ما نشاهده في القصر الحاضر في المجتمعات المادية الغريبة من تلبّد في المشاعر، يصل في كثير من الحالات إلى حدّ الدياثة^(٣).

ويقول الدكتور عبد السلام المجيدي: إنّ عزيز مصر يغلب على شخصيته الرّياء، وستر الظاهر، وفيه تتمثل كلّ خصائص بيئته المتكسبة الفطرة^(٤).

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح بن عبد الفتاح الخالدي، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، (٢/١٢٧).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، علي القره داغي، ص ٧٦.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٧). الدياثة: فقد الغيرة والخجل. والديوث: من يرى الخبث في أهله وخاصته ويقرهم عليه.

(٤) يوسف في بيت العزيز، ص ٩٢.



وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وذلك أنَّ زوجها كان قليل الغيرة أو عديمها وكان يحبَّ امرأته ويطيعها؛ ولهذا لما اطلع على مراودتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، فلم يعاقبها ولم يفرق بينها وبين يوسف حتى لا تتمكن من مراودته، وأمر يوسف ألا يذكر ما جرى لأحد محبة منه لامرأته، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة^(١).

وقال الدكتور أحمد نوفل: وقد يجمع إنسان في شخصية واحدة عقلاً واثراً وحباً للناس ورحمة وإكراماً للآخرين، ولكن من الضعف في الشخصية بحيث يعجز عن اتخاذ الإجراء اللازم والعلاج الحاسم للمشكلات لعدم القدرة على المواجهة والتّحدّي، وهذا الذي كان من العزيز^(٢).

وقال الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: هذا وبعد أن كان المشهد رباعياً: فيه يوسف، وامرأة العزيز، والعزيز نفسه، ثمّ الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعت فيه القضية. يدل على أن القصور لا أسرار لها؛ لأنّ لأسرار القصور عيوناً تتعسس عليها، وألسنة تتكلم بها؛ حتى لا يظن ظان أنّه يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة؛ لأنّ هناك مَنْ سوف يكشفها مهما بلغت قدرة صاحبها على التسترّ والكتمان. وقد تلصص البعض من خدم القصر؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النسوة^(٣).

(١) مجموع الفتاوى، (١٥/١١٩).

(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٢١٥.

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/٢٩٢٦).



رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُفَّنَ لِيَصْغَرُنَّ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٠ - ٣٢].

تفسير الآيات الكريمة:

١. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]:

وهو كلام أشبه ما تقوله النسوة في كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون، ولأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز وأن الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر، أي كبير وزرائها، ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة^(١). وأما كيف انتقل خبر حادثة السوء وشاع بين النسوة؟ فهناك عدّة احتمالات:

- إما أن يكون عن طريق العاملين بالقصر من خدم وحشم وخاصة المتجسسين منهم.

- أو يكون انتقال الخبر عن طريق زوجة الشاهد، فلعله أخبرها بالأمر فأفشته.

- أو أن امرأة العزيز نفسها قد أرادت أن تنفّس عن نفسها فباحث بالسرّ إلى المقربات منها فأفشينه^(٢). وكما يقال في مثل هذه المواقف: (الحيطان لها أذان)

(١) في ظلال القرآن، (٤/١٩٨٣).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٢.



فلا يظن ظان أنّ ما يكتمه يخفى بعد أن يفلته لسانه أو تتحرك به أركانه. وأبلغ من ذلك ما ذكره بعضهم من قول عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أُنْشِدَ قول زهير:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فقال: أحسن زهير وصدق، ولو أنّ رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به الناس^(١). وهكذا أخبار الفاحشة تنشط النفوس المريضة لإذاعتها بل اختلاقها، فلا عجب أن يأتي هذا التعقيب نتيجة متوقعة في واقع الذين يحبون أن تشيع الفاحشة إذ لا وازع ديني ولا رادع شرعي^(٢). ومن المحال أن يتنقل الخبر عن طريق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن أدبه الرفيع وخلقه الحميد واصطفاه الرباني لا يتصور معه ذلك^(٣).

- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]: الظاهر أنّ هؤلاء النسوة كنّ من نساء الأمراء أو الوزراء، فقرينة الحال تدلّ على أنّهم من بيوتات كبار الدولة، ومن معارف امرأة العزيز ومثيلاتها، لأن المنافسة والمراقبة إنّما تكون من المثلثات في القدر والمكانة، فمثلهن يصغى لقولهن ولا ريب أنها تتأثر ببلوغ الحادثة لهم ثمّ بانتقادهن.

وتُشعر كلمة (المدينة) أنّ النسوة كنّ مدنيّات من سيدات مصر، ويقمن في عاصمة المملكة الهكسوسية آنذاك (صوعى) أو (منفيس) وكنّ متفرقات في المدينة^(٤).

(١) آيات للسائلين، ص ١٧٥.

(٢) آيات للسائلين، ص ١٧٥.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٣.



وكلمة (نسوة) وكلمة (نساء) تدل على الجماعة، لكن مفرد كل منهما ساقط في اللغة، فمفرد نسوة: امرأة. ومفرد نساء أيضاً هو: امرأة. ومن العجيب أنَّ المفرد، هو كلمة: (امرأة) له مثني هو: (امرأتان) لكن في صيغة الجمع لا توجد (امراءات)، وتوجد كلمة (نسوة) اسم لجماعة الإناث. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]: لبيان شيوع القول بين أهل المدينة.

- ﴿أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠]: لم يذكر اسمها ليرفعنها بذكر منصب زوجها قبل أن يهوين بها، ثم صَعَّرْنَ من شأنها فقلن: (فتاها) يوبخنها بصغره، وقلة شأنه، فالفتى تُستعمل للدلالة على الخادم أو العبد. والفتى: هو الذي بسنّ الشباب، ويكنى به عن المملوك وعن الخادم وقد شاع إطلاقه عرفاً في المملوك. وهذه التسمية، من قدماء المصريين بإطلاق لفظ (الفتى) على العبد أدباً ومما يلفت النظر حقاً أنَّ ذلك هو ما أمر به الإسلام فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يقل أحدكم عبي وأمتي، وليقل فتاتي فتاتي»^(١).

ومعنى: ﴿تُرَوِّدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠]: أي تطلبه للوصال، وإشارتهن بصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة، كأنها صارت سجية لها^(٢). فكأنهن قلن: أهكذا تنزل السيِّدة عن مقامها لتراود خادمها؟ أهذا مما يليق بالحرائر أن تراود سيِّدة خادمها عن نفسه؟ فضلاً عن أن تكون هذه السيِّدة امرأة العزيز، ذلك أمر منكر شنيع^(٣).

(١) رواه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى

والسيد، ح رقم: ٢٢٤٩. يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٨).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

- ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] أي: غلبها حبه حتى شق شغاف قلبها وهو حجابها أو وسطه^(١). حتى وصل إلى الفؤاد وذلك أشد أنواع الحب^(٢). ومرادهن، تأكيد لومها، وذلك في حبها له وهي امرأة العزيز، بينما هو فتى من فتيانها ومملوك من ممالكها، فلومهن غير متجه إلى تقبيح الزنى، فكأنهن لا يرئن به شيئاً قبيحاً وإنما لومهن متجه إلى كونها لم تراعى في اختيارها ما يناسبها في مكانتها الاجتماعية المرموقة^(٣).

- ﴿إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]: ثم انتقلن للمرحلة الثانية من الشّماتة، وهي بيت القصيد المراد لهن، فرفعن من أقدارهنّ وقلن: (إنّا) بالتعظيم (لنراها) فذكرن الرؤية ليبيّن أن علمهن ضروري متيقن. واستعملن لام التوكيد ليفضين على كلامهن مزيد أهمية. ثم ذكرن النتيجة التي تنبني على ما قدمنه من مقدمات: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ [يوسف: ٣٠] والتنوين للتفخيم. وأردفن: ﴿مُيْنٍ﴾ [يوسف: ٣٠] زيادة في التشنيع وإبعاداً لتهمة حسدها عنهن^(٤).

٢. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]:

تنصيب على سماعها لكلامهنّ، والتعبير بالفاء يدلّ على أنّ كلامهنّ نقل إليها بسرعة^(٥). وذكر مادة السماع يشير إلى تناهي ذلك القول إلى أذنها، وأنها

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٨).

(٢) دعوة الرسل، مصطفى العدوي، ص ١٩٨.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٨).

(٤) آيات للسائلين، ص ١٧٦.

(٥) نظم الدرر، (١٠/١٦٩). جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.



باشرت سماعه، وذلك أوقع في التأثر به^(١). وسمي الاغتيال مكرًا لأنه في خفية وحال غيبة يُخفي الماكر مكره، وقيل: استكتمتهن سرها فأشينه عليها^(٢). وقيل: إنهن قلن ذلك لإغضاها ل تريهن يوسف^(٣).

- ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١]: وهذا يدل على اهتمامها بمقالتهن فقد خصتهن بالدعوة والتعبير بـ: (إليه) دون (لهن) للإشعار بأن الرسالة وصلت إليهن حتى بلغت الغاية كما تدل عليه: (إلى) وهذه هي أولى خطوات مكرها، فقابلت مكرهن القولِي بهذا المكر الفعلي وكان هذا من النساء غاية المكر^(٤).

- ﴿وَأَعَدَّتْ لهنَّ مَكْئَلًا﴾ [يوسف: ٣١]: أي يسّرت لهن ما يتكنن عليه من النمارق والمخاد والوسائد وغير ذلك مما يكون في مجلس أعدّ للكرامة^(٥). ويبدو لي، أنّ التعبير بـ: (أعدت) بدلاً من (أعدت) التي هي بمعناها، للإشعار بحجم الاستعداد الذي بذلته لهذه الوليمة لأن أمرها يعينها عناية خاصة فالزيادة في اللفظ، اقتضت زيادة في المعنى، وسعة في المدلول^(٦). والمتكأ هو الشيء الذي يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به فيملّ من كيفية جلسته. والمقصود بالقول هو أنّ الجلسة سيطول وقتها وقد خطّطت لتكشف وقع رؤية يوسف عليهن^(٧).

وعلى كلّ حال فكلّمة: (متكأ) كلمة قرآنية تصوّر لك من الطّعام ذلك النوع الذي لا يقدم إلا ترفاً وتفكها وتجيلاً للمجلس وتوقيراً لمظاهر المتعة فيه،

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.

(٢) الكافي، (٢/٤٩٣). جماليات النص القرآني، ص ٧٢.

(٣) روح المعاني، (١٢/٢٢٧).. جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.

(٤) بدائع التفسير، (٢/٤٧٢).

(٥) البحر المحيط، (٦/٢٦٧).

(٦) جماليات النظم القرآني، ص ٧٣.

(٧) تفسير الشعراوي، (١١/٦٩٣٤).



حتّى إنّ الشّأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والالتّكاء. إنّ كلمة (متكأ) تعني للوهلة الأولى تلك النمارة المعدة للجلوس، ولكنّها بعد التّمحيص تتكشف عن ترفّع محقّق لتصوير انبساطهنّ وكيفية الجلوس، والحديث الفكه مع الراحة^(١). لقد وضعت امرأة العزيز لكلّ واحدة منهنّ متكأ ليأخذن راحتهنّ ويجلسن كما يحلوّ لهنّ، حتّى تتمّ المفاجأة وكأنّها بغير تدبير، فيكون وقعها أعظم في النفوس وأكثر أثراً في القلوب^(٢).

- ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١]: أمرت جواريتها بإحضار الطّعام بين أيديهنّ والظاهر أنّه كان طعامها معيناً انتقته، لا يؤكل حتّى يُحمل في يد ويجزّ بالسكين باليد الأخرى جزءاً، وأعطت هي بيدها كلّ واحدة من هؤلاء المدعوات سكيناً لتأكل بها، مبالغة في الاحترام، ويحتمل أنّها أمرت الجوّاري - جرياً على العادة -.

كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكين وهذا يدلّ على أنّ الحضارة الماديّة في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً وأنّ التّرف في القصور كان عظيماً، فإنّ استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة الماديّة، وإعطاء السّكين لكلّ واحدة من النّسوة تخطيط من جانب المرأة لتستعمله كلّ واحدة في قطع ما يعهد قطعه مما قدم إليهن من طعام.

وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن لإقامة الحجة عليهن، وتبكيتهن. وهذا هو الذي يظهر من النص، وإلا فقد كان يكفي قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢١١.



هُنَّ مُتَّكَا ﴿[يوسف: ٣١] تعبيراً عن مجلس الطعام وما يشمل عليه من أطعمة وفاكهة وأشربة وما يلزم ذلك من سكّين ونحوه^(١).

وأخذ النسوة راحتهن على المتكأ الذي أعدته المضيضة، ووضع الطعام بين أيدهن، فأخذن يأكلن ويشربن ويمرحن ويحكين كعادة الناس في مثل هذه الجلسات وفي اللحظة التي كان وضع النسوة فيها هكذا، مشغولات بمعالجة قطع ما قدم إليهن رأت امرأة العزيز أنّ اللحظة المناسبة التي أرادت أن تخطط لها قد حانت، فقد كان نجاح خطتها متوقفاً على خروج يوسف على النسوة في هذه الحالة، فهو أهم ما في الأمر، هنالك أطلقت المرأة سهمها الجمالي اليوسفي الخارق، لتصيب به النسوة في مقتل، فكان أمرها ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّ﴾ [يوسف: ٣١]: هذا هو خطابها في هذا المقطع: ﴿أَخْرِجْ عَلَيَّ﴾ [يوسف: ٣١] كلمتان فحسب كان الأمر وقت انشغالهن بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بين أيديهن. والتعبير بالفعل: (أخرج) يدلّ على سلطتها عليه فهو فعل أمر، وهذا النمط من الخطاب مختلف عن قولها له من قبل: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. والتعبير بالخروج دون الدخول كما هو متوقع: (ادخل) يقتضي أنّه كان في بيت آخر، وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها^(٢). وما كان يستطيع مخالفة أمرها، فإنه ما زال يعيش في قصرها^(٣).

- ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَّ﴾ [يوسف: ٣١]: الفاء عاطفة على محذوف تقديره (فراينه)^(٤)، وهي مشعرة بسرعة النتيجة بعد الفعل وتداخل الحدثين واندماجهما،

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٢.

(٢) التحرير والتنوير، (٥/٦٧٤).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٦٩).

(٤) تفسير أبي السعود، (٤/٢٧٢). روح المعاني، (١٢/٢٢٩).

بينما توحى: (لَمَّا) بعدها بالتوقف والاندهاش والترقب، بما يتناسب مع دهشة الموقف وغرابته ومفاجأته^(١).

لقد رأين منظرًا فائقًا لم يشاهدن مثله، جمعَ بين الهيبة والجمال، والنور والبهاء، والصِّفاء الباطني، والحسن الظاهري، جمال فائق وحسن رائع.

- ﴿وَقَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]: ولَمَّا أبهرهن جماله نسينَ أيدهن وسكاكينهن، وصارت السكاكين تتحرك في أيدهن حركة لا إرادية، حيث فقدن السيطرة على الأيدي والسكاكين، وانهمكن في النظر إلى جمال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فعملت السكاكين عملها في أيديهن، وحزتها وقطعتها، ونزفت الدماء لأنهن مخدرات الأعصاب والمشاعر، مشغولات بالجمال الباهر^(٢).

يقول ابن عاشور: وأريد بالقطع: الجرح. أطلق عليه القطع مجازاً للمبالغة في شدته حتى كأنه قطع قطعة من لحم اليد^(٣).

- ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]: هذا أوّل خطابهن بعد خروج يوسف عليهن، والملحوظ في هذا الخطاب أنّه يحمل سمة الإعجاب والدهشة والتنزيه من أوّل كلمة: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا مختلف تمامًا عن خطاب الكيد السابق الذي يبرز شدة مكرهن ويوضّحه. وإسناد القول لهن جميعاً: (قلن) دون بعضهن لبيان أنّ التأثير كان عاماً والاندهاش كان جماعياً. فكأنهن قلن بلسان واحد: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وكأنّه مكنون القلوب لا حديث

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٧.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصته العجيبة، ص ٢١٣.

(٣) التحرير والتنوير، (٦٧٤/٥).



اللسان، وهذا يحدث عندما يفعل الناس بحديث معين يؤثر فيهم جميعاً، فتجدهم ربما ينطقون جميعاً بكلمة واحدة من غير ترتيب سابق بينهم^(١).

بدأ النسوة بكلمة التنزيه: ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١]، على اعتبار أن الله هو الذي خلق هذا الفتى الجميل، وهو قادر على خلقه بهذا الجمال، حكيم في منحه هذا الجمال الساحر الباهر الفتان^(٢).

﴿وَقُلْنَ حَسَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١]: أي يتنزه الله خالق هذا الجمال ومبدعه، فمن قدر على خلق هذا الجمال يتنزه عن كل صفات النقصان ويتصف بكل صفات الكمال^(٣).

﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]: لأنه فاق البشر بالحسن والجمال، وفاقهم أيضاً بصفته وأمانته، مع أنه في غاية شبابه ورجولته.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]: في جماله وأخلاقه. وتنزيه النسوة الكافرات لله في قولهن: ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وتشبيههن يوسف بالملائكة بقولهم: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، دليل على أنهم كانوا يعرفون الله، ويعرفون الملائكة ويعرفون جمال الملائكة، رغم كفرهم، وأنهم عرفوا ذلك إما بالفطرة، وإما بما وصل إليهم من مسائل الإيمان عن طريق رسالة الأنبياء المقيمين في مصر أو المترددين عليها^(٤).

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٩.

(٢) القصص القرآني، الخالدي، (١٣٣/٢).

(٣) التفسير الموضوعي، (١٦٩/٤).

(٤) القصص القرآني، (١٣٣/٢).



فهنّ في خطابهن هذا يقررن بوجود الله خالق المكونات وبوجود عالم الملائكة، فما من أمة إلا أرسل الله تعالى إليها رسولا كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

والمصريّون من أقدم الأمم حضارة ومدنيّة، ولا بدّ أنّ الله تعالى أرسل إليهم رسلا وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام واحدًا منهم. وقد يشبّهن النسوة يوسف بالملائكة في الجمال، لأن الملائكة هي مضرب الأمثال في الجمال، فإذا أريد تشبيه إنسان بآخر في جماله شبهوه بالملائكة^(١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: ثمّ لما نفين عنه البشريّة لهذه العلة أثبتن له الملكيّة وإن كن لا يعرفن الملائكة لكنّه قد تقرر في الطباع أنّهم على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات، وأنهم فائقون في كلّ شيء، كما تقرر أنّ الشياطين على العكس من ذلك^(٢).

ومن المعلوم أنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان باهر الجمال، وأنّ الله قد خصه من الجمال ما لم يهبه لأحد من قبل. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «..... فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ»^(٣). ولما رأت امرأة العزيز أنّ موقف النسوة تغير وتبدل بعد رؤية يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وشاهدت الانبهار والاندھاش وظهور الصدمة على وجوههن، قالت:

(١) القصص القرآني، (١٣٣/٢).

(٢) فتح القدير، (١٣٣/٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماوات وفرض الصلوات، ح رقم: ١٦٢.



٣. ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصِمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]:

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول فقالت قولة المرأة المنتصرة التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها والتي تفتخر عليهن بأن هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصى قياده مرة، فهي تملك هذا القياد مرة أخرى.

- ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]: قالت وهي تشير إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بإشارة التفخيم. ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ [يوسف: ٣٢] تعريف بالإشارة، ويلجأ للتعريف به لبيان حالة المعرف به في القرب أو البعد أو التوسط، وقد يراد من ذلك التحقير أو التعظيم أو غير ذلك^(١). وهي هنا اختارت تعريفه بالإشارة وذلك ربّما يكون لتمييزه أكمل تمييز؛ لأن الحديث ما زال حوله^(٢).

قال الطاهر بن عاشور: والإشارة بذلك لتمييز يوسف عَلَيْهِ السَّلَام إذ كن لم يرينه قبل^(٣). ثم إن اسم الإشارة هذا قد يتضمن الأوصاف السابقة فيه، كأنه قيل: الذي قطعن أيديكن بسببه، وأكبرتته، وقلتن فيه ما قلتن من نفي البشريّة عنه وإثبات الملكيّة له، هو الذي لمتنني فيه^(٤). وهذا من الاختزال حيث يحمل اسم الإشارة كلّ هذه المعاني دون الحاجة إلى إعادتها مع فضيلة الاختصار^(٥).

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، دار الجيل، الطبعة الثالثة، ١٤٣١هـ، (١١٨/١).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٨٥.

(٣) التحرير والتنوير، (٦٧٥/٥).

(٤) البحر المحيط، (٢٧٢/٦).

(٥) جماليات النظم القرآني، ص ٨٦.

وهناك من العلماء من قال: اسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف. أي: فهو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن وقلتن فيه وفي ما قلتن، فليس المقصود طلب إغذارها كما يرى الزمخشري^(١)، بل المراد لومهنّ وتبكيتهنّ وتنديمهنّ وغير ذلك^(٢). ولعلّ هذا النظم يشمل المعنيين جميعاً وهو من الإعجاز اللائق بالقرآن العظيم، فالإشارة منهنّ تصلح للأمرين جميعاً؛ الحاضر والغائب. وإنّما قيل ذلك، لأنّه يحتمل أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَأَى دهشتهم وما أصابهن من التقطيع، ترك المجلس، وابتعد عنهنّ، فأشارت إليه بما يناسب ذلك^(٣).

- ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]: أي في حبه وعشقه ثم اعترفت لهنّ بكل صراحة ووقاحة عن شغفها وعن غريزتها وعن حاجتها إليه أمام نسوة عليّة القوم^(٤).

- ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]: تأمل الصراحة الشديدة والاعتراف الصارخ بأهواء هذه النفس^(٥).

قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ ولما علمت أنهن عذرنها قالت مؤكدة استلذاذاً بالتهتك في حبه ﴿وَلَقَدْ﴾ [يوسف: ٣٢]؛ أي أقول هذا والحال أنني والله لقد تحققت أنني ﴿زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٢] وهكذا جمعت ألوان التوكيد لتُشعر السامعات بأنّها بتأكيد ذلك لا تخشاهن ولا تخشاه هو، لتبعث في قلبه وقلوبهن الرعب^(٦).

(١) الكشف، (٢/ ٤٦٧).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٨٧.

(٤) تفسير النابلسي، (٦/ ١٧٩).

(٥) من حديث يوسف وموسى، ص ٩٦.

(٦) جماليات النظم القرآني، ص ٨٩.



من هذا المقطع نجد خطاب القوّة ولغة الفوقيّة والتهتك الذي يعكس حياة تلك الطبقة المترفة وواضح أنّها لا تخشى لومهنّ، أو لعلّ هذا النوع جارٍ في خطابهنّ فهي لا تستحي منه، بل تفخر به وتستعلي به عليهنّ، والقسم يشير إلى ذلك^(١).
قال الألوسي: وتأكيد الجملة بالقسم مع أنّ مضمونها من مرادتها له عن نفسه مما تحدّث به النّسوة لإظهار ابتهاجها بذلك^(٢).

- ﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]: هذا وصف معبرٍ من امرأة العزيز لحال يوسف عَلَيْهِ السَّلَام عند المراودة ﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] يقول الزمخشري: الاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنّه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها. ونحوه: استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي، واستفحل الخطب. وهذا بيان لما كان من يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنّه بريء^(٣).

استمسك يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بحبل الله وامتنع عن الخنا ولازم تقوى الله^(٤).
﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]: إنّها برهان العظمة، ودليل القوّة، وكان أقوى من كلّ شيء، أقوى من الشهوة العارمة، ولم يعبأ بكلّ مظاهر الأبّهة والسلطان والترّف^(٥). وبعد أن تراجع عن لومها وعذّلها، لم تجد غضاضة أن تصارحهنّ بأنّها ما زالت عاشقة له، مشغوفة به، مصمّمة على أن تنال مرادها منه، ولو بالتهديد والوعيد فقالت^(٦):

(١) المصدر السابق نفسه، ٨٩.

(٢) روح المعاني، (١٢/٤٦٧).

(٣) الكشف، (٢/٢٣٣).

(٤) جماليات النظم القرآني، ص ٨٩.

(٥) قصص القرآن الكريم، ص ٣٩٧.

(٦) قصص القرآن الكريم، ص ٣٩٧.



- ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَاَ امْرُؤُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهنا كشفت القناع على أنها صاحبة الأمر، وأن أمر السجن والتعذيب في يدها وتحت سلطانها، فأقسمت للنسوة إن لم يفعل ما تريده منه، لا بد أن يسجن، أو ليكون من الصاغرين. وتحول الأمر إلى إكراه بالسجن أو تصغير أمره وشأنه في القصر^(١). ويدل قولها هذا على أن الفضيحة لم تؤثر في مكانتها ولم تضعف سلطانها وتسلطها، فالمجتمعات التي استشرى فيهن الفساد والاستبداد لا تؤثر فيها الفضائح بسبب إدمانها عليها وكثرتها فيها، فلا زالت امرأة العزيز تستطيع سجن نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، وتعريضه لصنوف من الأذى والعذاب^(٢).

عرف تاريخ البشرية وواقعها المعاصر كثيراً من أمثال هذا المجتمع المنحل الهابط، الذي يتحكم بمصير أبنائه من الرجال الضعفاء، المنحلون الذين سيطرت عليهم شهواتهم ونزواتهم، فأسلموا أمورهم إلى نسائهم وخليلاتهم، حتى أصبحن الحاكومات الحقيقيات لهذه المجتمعات، وأصبحت أكبر الشؤون وأخطرها تدار من مخادعهن وأماكن لهوهن وفجورهن، وهذا ما يفسر لنا بقاء يوسف في قصرها رغم الفضيحة التي حدثت^(٣).

﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَاَ امْرُؤُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: إن المترفين من أهل الفسق، حتى شهواتهم ينجزونها بالأوامر^(٤).

﴿وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: يعتقد الظالم أن السجن يقلل من قدر المظلوم، والله يثبت له عكس ذلك ولكن دون جدوى^(٥). وظنت امرأة العزيز

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٠).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧١).

(٣) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٧١).

(٤) يوسفیات، ص ٦٩.

(٥) يوسفیات، ص ٦٩.



أنَّ الثوابت تزعزعها كلمات، كما بيّن موقفها أنَّ التهديد بضاعة المتسلطين^(١). وضحت بيوسف لأنها تريد الشهوة وإشباع غرائزها وهوها^(٢).

- ﴿وَلَيْنَ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: جاءت نون التوكيد المثقلة في: ﴿لَيُسْجَنَ﴾ [يوسف: ٣٢]، لكن في الحكم عليه بالصغار جاء التنوين بالنون المخففة ﴿وَلَيَكُونَا﴾ [يوسف: ٣٢]، ولم تقل ليكونن، والسر - والله أعلم -: أنها تستطيع أن تدخله السجن فلذلك أتت بنون التوكيد المثقلة لكنها لا تملك مطلقاً أن تجعله ذليلاً أو صاعراً، فلذلك - والله أعلم - جاءت مخففة في: ﴿وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] فعلاً: إنه لا يذل من واليت^(٣).

قال الدكتور أحمد نوفل: وغاب عنها أشياء كثيرة وقيم أساسية مهمة: إنَّ الصغار والذلَّ كلّه في المعصية.

وإنَّ العزّة كلّها والحرية بتمامها في تمام العبودية له سبحانه ولو كان صاحب هذه العبودية ملقى به في قعر سحيق، أو سجن بعيد.

والآية فيها قسمان: (ولقد)، (ولئن)، واجتماعهما في قول امرأة العزيز ينبيء عن تصميمها على ما هي ماضية فيه من نيّة فاسدة ومكر سيئ^(٤). ولم تستطع هذه المرأة بكلّ سلطانها وجمالها وأنوثتها أن تنتصر على نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الذي لا يزال يعيش قريباً منها في قصرها وتحت أمرها وسلطانها وانضم إليها جميع من تعرف من المترفات، يعرضن معها كلّ ما يملكن من أسباب الفتنة

(١) أيها الصديق، ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨١.

(٣) المصدر السابق، ص ٨١.

(٤) سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، ص ٣٨٢.

والإغراء وأسباب الوعيد والتهديد^(١). فقد التجأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رَبِّهِ ومعاذه وملجئه يدعوه متضرعاً إليه، وهو واقف بينهنّ وهنّ يراودنه عن نفسه، بالقول والحركات واللفتات ويتبارين في عرض فتنتهنّ وجمالهنّ عليه^(٢). وإذا هو يستنجد ربّه أن يصرف عنه محاولتهنّ لإيقاعه في حبالهنّ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه ويدعو الله أن ينقذه منه^(٣).

خامساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۖ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٤ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لَيْسَ جُنَّتْهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٥].

أصبح أمام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ طريقان لا ثالث لهما إما أن يتجاوب مع رغبات امرأة العزيز، ويستجيب لها، ويقبل إغراءها وإغواءها ويعاشرها ويستمتع بها، وعندها تُفتح له أبواب الدنيا ومتعها وملذاتها وخيراتها، فيعيش مرفها منعماً، لأنّها امرأة المسؤول الأول في البلاد، وهي قادرة على تقديم كلّ الخيرات له. وإما أن يصبر على ترفعه، واستعصامه، ويثبت على موقفه ويرفع عن معاشرتها ويحافظ على عفّته وطهارته، وعندها سيدفع الثمن غالياً، حيث سيفقد كلّ المزايا والمنافع، وسيحلّ به البلاء والعذاب والذلّ والصغار والهوان، حيث ستأمر بسجنه، وهي قادرة على ذلك وعلى تليفيق آية تهمة له. ويبدو هذان الخياران في قول امرأة العزيز للنساء على مسمع من يوسف: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيْسَ جَنًّا وَلَيَكُونُ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. ولحظ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ انبهار النسوة وإعجابهنّ وفتنتهنّ به، ورأى انحيازهنّ إلى جانب امرأة العزيز وإقرارهنّ على عشقها له،

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧١).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧١).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٨٥).



وموافقتهم على تصميمها على معاشرته، وإلا فالعقاب والسجن والعذاب، ووجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المَرَّةَ نفسه أمام مؤامرة كبيرة ليست من امرأة العزيز وحده، بل من نساء المسؤولين الحاكمين في مصر، فكلهن شاركن امرأة العزيز في العشق والافتتان والإغراء والمرادة، وكلهنَّ يدعونهُ إلى المعاشرة وارتكاب الفاحشة، وكلهنَّ يهددنهُ بالعقاب والسجن إن رفض دعوتهنَّ. فماذا يفعل يوسف؟ وأيَّ السبيلين يختار؟ سبيل الشهوات والفواحش والملذات والمتع، أو سبيل العقَّة والطهارة فالسجن والعقاب؟ إنَّه لن يختار إلا السبيل الثاني وهذا من أسرار عظمتة ولهذا دعا ربه قائلاً^(١):

١. ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]:

- ﴿قَالَ رَبِّ﴾ [يوسف: ٣٣]: قوله (رَبِّ) بحذف حرف النداء (يا) يدلُّ ذلك على مزيد قربهِ من ربه في هذا الموقف الأصعب والأحرج^(٢). ومعلوم ما في معاني الربوبية المشتملة عليها كلمة: (رَبِّ)، من معاني الحماية والعناية والتربية والرحمة^(٣). ودعوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: (رَبِّ)، أراد بذلك اعترافاً بفضلهِ سبحانه؛ لأنَّه رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ من رباه وتعهده، وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألا يتركه عنه في هذا الموقف^(٤).

- ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]: وبدأ بكلمة السجن الذي هددته به لأنَّه هو الحاضر في نفسه في هذا الموقف وأنَّه أحبُّ إليه مما يدعونه إليه، ثم قال:

(١) القصص القرآني، (٢/١٣٦).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ٩٨.

(٣) جماليات النظم القرآني، ص ١٠١.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/٦٩٤٤).

(أحبّ) ولم يقل أهون، ولا أسهل، وإنّما كان فرط بغضه لما تدعوه إليه هو الذي جعل السجن أحبّ إليه، واسم التفضيل في قوله: (أحبّ) على غير باب، لأنّ المعنى ليس أنّه يحبّ هذا وذاك، ولكن السجن أحبّ. وإنّما المعنى أن الحبّ كلّ الحبّ والحالة هذه للسجن^(١).

- ﴿مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]: بعدما عفّ بدنه بالتّمتّع، لم يقل: ربّ السجن أحبّ إليّ من الزنا، ولكن قال: ﴿مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، فعفّ لسانه أيضاً. ولا غرابة من عفّة هذا الطاهر، فهو الكريم ابن الكريم ابن الخليل^(٢)، لم يجب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المنكر الذي دعوه إليه لأنّه عفّ قلبه فعفّ لسانه^(٣). يقول الدكتور فضل حسن عباس رَحِمَهُ اللهُ: في قوله تعالى: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]: وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أدرك أنه لن يقف عند امرأة العزيز وحدها، لذلك قال هنا: ﴿مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، ولم يقل: (مما تدعوني إليه). و(يدعوني) فعل مضارع لجماعة النّسوة فهو فعل لمضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النّسوة ونون النّسوة فاعل، فيوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أدرك أنّ الدعوة ليست من امرأة العزيز نفسها، بل من النّساء كلهن يشهد لهذا، وهو ما ذكره القرآن الكريم فيما بعد: ﴿خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١].

إنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا ربه أن يصرف عنه كيدهن، ولم يسأل الله أن يسجن، وكأنه يقول: إنّ السجن أحبّ إليّ من دعوتهن حينما أرغم على شيء ولا أوده. وأما إذا ترك الأمر لاختياري فأنا لن ألبيّ لهن دعوة أبداً^(٤).

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٩٨.

(٢) أيها الصديق، ص ٨٣.

(٣) يوسفيات، ص ٦٩.

(٤) قصص القرآن الكريم، ص ٣٩٩.



اختار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أخفّ الضررين، وأهون الشرين، فالسجن فيه إضرار ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرار بدينه وخلقه، وهو أشدّ ضرراً وأعظم من الأول. ورسم عَلَيْهِ السَّلَامُ سلوكه هذا، القاعدة الشرعية الفقهية: (يُختار أهون الشرّين، وأخفّ الضررين).

والسجن بلاء لا ينبغي لأحد أن يتمناه، ولكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أثر ما يدعونه إليه فهو معنى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ثم تواضع لله عَزَّجَلَّ، وأظهر افتقاره لمعونته سبحانه، فجرد نفسه عن كل حول وقوة، فلا حول له إلا بالله تعالى ولا ثبات له في محنته إلا بتبتيته سبحانه فأقبل إلى الله يناجيه بضراعة وخشوع^(١):

قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]:

يدعو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ قائلاً: يا رب لا يهمني من هذه الفتنة إلا أنت ولا ينجيني من كيد هؤلاء النسوة إلا أنت، فإنك إن لم تتداركني بحفظك وإن لم تصرف عني كيدهن وإغراءهن وفتنتهن فإني لن أثبت وسوف أصبو إليهن وأميل إلى فتنتهن وأستجيب لدعوتهن؛ وبذلك أقع في الفاحشة، ويصيبني الرجس، وإن فعلت ذلك سأكون من الجاهلين المنحرفين الساقطين^(٢).

وفي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، تبرأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من حوله وقوته. وأخبر أن ذلك ليس إلا

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٢).

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٣٧).

بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه^(١)، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته؛ ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان^(٢). وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألستهن وأعمالهن.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] عبرتان:

- إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

- الثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب صبا إلى الذنوب والخطايا، وصار من الجاهلين. ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة^(٣).

وقال أيضاً: ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثورراً، فيوسف خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل أثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات، ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز لنال الشهوة وأكرمتها المرأة بالمال والرياسة، فاختر يوسف الذل والحبس وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة، على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة والمعصية، بل قدم

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م، ص ٣٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

(٣) مجموع الفتاوى، (١٥/١٣٠).



الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه، فزعمت انه راودها ثم حبسته بعد ذلك^(١).

- وفي قوله ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ أي: أميل بسبب ضعفي وطبعي إليهن^(٢). ويجب أن يكون إيمانك كالجبال في أن الذي يصرف عنك الفتن ويحميك من الوقوع في حماتها هو الله وحده ليس العلم الذي في قلبك ولا الذكاء الذي في عقلك. وفي الآية: أنه لا تعتد بطاعتك ولا بنزاهتك عن المعصية فوالله لولا الله لكنت مثل غيرك في مقارفة الذنوب فاحمده وادع لغيرك^(٣).

لقد استقبل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اللقاء في البئر بالصبر، واستقبل العبودية بالصبر، واستقبل السجن بالصبر، ولكنه شكا بهذه الدعوة الحارة عندما تعرض لفتنة النساء^(٤).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]: الذين لا يعملون بما يعلمون، أو من السفاء الطائشين. فلا يغتر إنسان بنفسه ويُعرض عن ربه، فلا يمتنع أحد عن معصية الله تعالى إلا بعونه ومده. ودلّ دعاؤه عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن الزنى لا يحلّ بالإكراه مهما كان شديداً، ولو هدد رجل بالسجن على الزنا ما جاز له إجماعاً^(٥). وقد قال الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: الجهل بالله تعالى وبأسمائه وصفاته ووعدته ووعيده وشرعه هو سبب كل الجرائم في الأرض^(٦).

(١) مجموع الفتاوى، (١٥/١٣٤، ١٣٠).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٧٢).

(٣) يوسفیات، ص ٧٠.

(٤) أيها الصديق، ص ٨٤.

(٥) تفسير القرطبي، (٩/١٨٧).

(٦) أيسر التفاسير (٢/٦١٠).



إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ انتفع بعلمه وكمال عقله، وحكمته فعرف أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فحصل له الإيمان الكامل والتوكل العظيم واليقين المطلق بالله عَزَّجَلَّ، فنزلت عليه السكينة والطمأنينة فأوجبت له الثبات في مواقفه ومراحل حياته فكان بالله وحياته لله وفي سبيل الله. وفي هذا الموقف نرصد شدة تضرعه وانكساره واستجابة الله السريعة له قال تعالى:

٢- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]:

أُجِيبَتْ استغاثة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سريعاً، وعبر عن الاسراع بنجدته بالفاء الدالة على التعقيب وهذا هو قانون الله تعالى وسنته في أصفائه؛ أن يسارع في إجابة مطلبهم لأنهم يسارعون في عبادته وطاعته وفعل الخيرات والإحسان. ولا يفهم من السياق القرآني أن الاستجابة كانت بإدخال يوسف السجن. ولكن الاستجابة كانت لصرف سوء وكيد ومحاولات الاستمالة؛ ولذلك فإن النص الكريم فصل بين هذه الآية وتاليتها ب (ثم) المفيدة للتراخي لا من الزمن فقط وإنما التراخي المهم لسلامة فهمنا للنصوص حتى لا نقع في الخلط^(١).

وفي ذكر الاستجابة وكون المجيب هو الرب سبحانه، ما يدل على عناية الله بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحفظه، وذلك من دلالة (الفاء): (فاستجاب) المشعرة بالترتيب والتعقيب، ودخول السين لأن استجاب: مبالغة في أجاب^(٢). ومجئ اللام: (له) المشعرة بالاختصاص، وذكر الربوبية الدالة على الاحتياط والحماية والنفع، مع ما في إضافة (رب) إلى ضميره الهاء من التشريف كما يؤيد ذلك تكرير الفاء مع مطلب يوسف نصاً وهو الصرف (فصرف) وورود الفعلين: (استجاب

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦١٠).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٠٤.



وصرف) بصيغةٍ من تأكيد وقوعهما ما لا يخفى حتى لكأنهما وقعا ومضيا، رغم قرب زمن الطلب. ويتناسب مع طلبه وقوع الإجابة كما طلب: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٤]، وفي هذا من تحقيق مطلبه كما أراد ما لا يخفى^(١).

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]: من الفواصل القرآنية التي تُعدّ معانيها ولا تُحدّد، وإن كان القرآن كله كذلك، وراجع التوكيد ب (إن) ثم توكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، ثم تعريف السميع بالألف واللام، وكذلك تعريف العليم، ثم تقديم السميع على العليم، والمقام مقام السنة تتحدث ولا شك أن هذه الفاصلة تتجاوز الكلام الذي سبق إلى ما تدل عليه هاتان الكلمتان الجليلتان وأنه سبحانه عليم بعلم كل ما كان، وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون^(٢).

- اسم الله (السميع):

قال السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: ومن أسمائه الحسنی السميع الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. فالسر عنده علانية والبعيد عنده قريب^(٣). وسمعه نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية وإحاطته بها.

(١) جماليات النظم القرآني، ص ١٠٤

(٢) من وحي يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٠٢.

(٣) وضیح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ١١٨.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهن ويشبههم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقول المصلي: سمع الله لمن حمده؛ أي: استجاب^(١).

واعلم أن اسم الله (السميع) لم يقترن في القرآن الكريم إلا باسمه تعالى: (العليم)، و (البصير)، و (القريب). وقد تقدم عليها جميعاً وهذا لا يعني التغير أو التفاضل في أسماء الله وصفاته بأن يكون اسم أولى من اسم أو صفة أولى من صفة، بل هو من أجل المعاني التي تختلف بسياق الكلام فقط، فصفت الله سبحانه قائمة بذاته دون ترتيب وألويات لأنه سبحانه هو (المتين)، الذي ليس في كمالات أسمائه وصفاته من تفاوت، إذن هو (سميع عليم) في آن واحد فلا يسبق معه علمه ولا يسبق علمه سمعه. و تقدم السميع على القريب لنفي التشابه بين صفات الله تعالى وصفات المخلوق، فإن القريب هو الذي يسمع عادة أكثر من البعيد لكن الله تعالى قدم السميع على القريب ليُعلم أن سمع الله وقربه واحد سبحانه أو أن سمعه لم يتحقق بسبب قربه، وفي جملة الآيات التي اقترن اسم الله (السميع) بدعاء أو مناجاة أو تهديد أو طاعة للمؤمن أو معاملة من المعاملات بين الناس كالطلاق مثلاً، أو حديث الله عن الكون وآياته في الآفاق أو ابتلائه للمؤمنين أو غير ذلك أقول مجيء هذا الاسم العظيم عند هذه الأحداث كلها يعني حضور الله عند كل شيء ووجوده بسمعه عند كل حدث، بل هو بصير أيضاً؛ لا بل هو عليم وخبير بما هو مخفي فلا يشغله صوت عن صوت فهو في الوقت الذي يسمع كفر الكافرين وشركهم، يستجيب دعاء الصالحين، والذي

(١) الحق الواضح المبين، السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص ٣٥.



يسمع حديث الزوجين، يسمع في الوقت نفسه ديبب النمل في ليلة ظلماء على صخرة صماء^(١).

وقد اقترن اسمه سبحانه (السميع) باسمه العليم، وجاء هذا الاقتران في القرآن الكريم (٣٢) مرة.

والسميع: المدرك لكل مسموع. فهو اسم ينبئ عن كمال السمع بلا تكييف ولا تشبيه^(٢) وفي هذه الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]، ورد اقتران هذين الاسمين الكريمين فيها^(٣) وهذا الاقتران يمنحها مزيد كمال، فإذا كانت صفة (السميع) تنبئ بإحاطة السمع بكل المسموعات فلا يندر عنه عَرَجَلٌ شيء ولا تعزب عنه كبيرة ولا صغيرة فإن صفة (العلم) تنبئ بتجاوز (السمع).

والملاحظ أن اسم (السميع) حيثما ورد مع اسم (العليم) قدّم عليه فالنسق دائماً: السميع العليم، ولا عكس. فلا بد أن يكون من وراء ذلك حكم ذكر منها: أن السمع يتعلق بالأصوات، ومن سمع صوتك فهذا أقرب إليك في العادة ممن يقال لك أنه يعلم مهما بلغت درجة علمه - فذكر السميع أوقع في النفس. وفي مقام الدعاء أثره في انطلاق اللسان بالدعاء فالطلب والشكوى تكون أقوى حين يستشعر الداعي أنه يخاطب من يسمعه ويصغي إلى نجواه^(٤).

(١) اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمه، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، (١/٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) والله الأسماء الحسنى، ص ٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

- اسم الله (العليم):

هو العليم - من غير تعلم - بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون جميع خلقه^(١). وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأسرار والإعلان وبالواجبات والمستحيلات والممكنات. وبالعالم العلوي والعالم السفلي وبالماضي والحاضر والمستقبل فلا يخفى عليه شيء من الأشياء^(٢). ولقد تعلق يوسف بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه الحسنی وكان على يقين بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سميع لدعاء الملتجئين إليه وعلیم بأحوالهم^(٣).

إن تعلق العبد بهذا الاسم (العليم) من كمال نعمة الإيمان فقد علمنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ندعو باسمه العليم، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب"^(٤).

وأما عن تخلق العبد به، فهو أن يحرص العبد على أن لا يراه الله حيث لا يريد، ويراقب نفسه في السر والعلن ماذا يقول وماذا يفعل، ومن جهة أخرى يحرص على العلم الذي ينفع دينه^(٥).

(١) تفسير الطبري، (١/ ١٧٥)

(٢) والله الأسماء الحسنی، ص ٣٣٣.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٣)

(٤) رواه البخاري، أبواب التطوع، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى، ح رقم ١١٠٩.

(٥) اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنی، (١/ ٢١٤)



هذا وقد نفذت امرأة العزيز تهديدها ووعيدها بعد أن يئست من نيل مرادها ودخل يوسف عليه السلام السجن:

٣- ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُؤْثُهُ حَقَّ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]:

وتبين هذه الآية أن القوم الظالمين أدخلوا يوسف السجن مظلوماً. لقد رأى القوم الآيات والأدلة والبراهين على إدانة امرأة العزيز وبراءة يوسف وكان ذلك بالأدلة التالية:

- شهادة الشاهد من أهلها.

- ونتيجة تحقيق زوجها.

- مكان شق القميص.

- واعتراف المرأة أمام النسوة بصراحة.

وكان حديث امرأة العزيز مع فتاها قد ملأ المدينة وتناقشته السنة رجالها ونسائها، وانتشرت فضيحة العزيز مسؤول مصر، ولا بد من إنهاء الموضوع ومعالجة القصة، ولكن على أساس حفظ سمعة بيت العزيز وامراته، فلا بد من تقديم ضحية، وتحميلها المسؤولية، ولو كانت هذه الضحية ليست مجرمة.

كانت الضحية فتى المرأة؛ لأنه عبد رقيق، ليست له قوة مادية تحميه، ولا طائفة تتبناه، كما أن سجنه لا يؤثر في أوساط الطبقة الحاكمة. إنه بريء وقد ثبت للقوم براءته، لكن هذا لا يهم، فمنذ متى كانت قوانين وأعراف وتشريعات الجاهلية حريصة على العدل؟ وعلى معاقبة المذنب وتبرئة البريء؟ المهم عند تشريعات الجاهلية - في القديم والحديث - حماية (الملا) المتحكمين. المسألة في قصة يوسف مع امرأة العزيز هكذا: يثبت بالأدلة القاطعة أن امرأة

العزیز هی التي راودته عن نفسه وقامت بإغرائه وفتنته وهي التي اعتدت علیه، وهمت به وهجمت علیه، لإجباره على معاشرتها ولما هرب لحقت به، وقدت قميصه من دبر.

وثبت بالأدلة القاطعة أن يوسف لم يراود امرأة العزیز، ولم يعتد عليها ولم يهم بها، وإنما أبي وترفع واستعصم، وحافظ على عفته وطهارته. وكان حكم القوم الجاهلين يتناقض مع هذه القناعة القانونية عندهم: تبرئة امرأة العزیز ومنحها وسام العفة والشرف، وإدانة فتاها، وإثبات المراودة والاعتداء له هو؛ ولذلك لا بد أن يسجن لهذه الجريمة، وهكذا كان، فقد سيق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ البريء من بيت العزیز الذي أمضى فيه سنوات وسنوات إلى سجنهم المظلم، ليقتضي فيه بضع سنين ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُؤْثُهُ حَتَّىٰ جِئَ﴾ [يوسف: ٣٥]. وتوحي جملة: ﴿لَيْسَ جُؤْثُهُ حَتَّىٰ جِئَ﴾ [يوسف: ٣٥]، بأن القوم الظالمين لم يصدرُوا عليه حكماً بالسجن مدة محددة. أي: لم يحددوا السنوات التي يسجن فيها وإنما أرادوا وضعه في السجن مدة مفتوحة تنتهي بانتهاء القضية عند الناس، فطالما أن الألسنة تتحدث بقضية امرأة العزیز مع فتاها فلا بد أن يبقى يوسف في السجن، فإذا نسي الناس القضية فلا مانع أن يخرج من السجن بعد ذلك^(١).

- ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ [يوسف: ٣٥]: مجتمع ظالم يعرف المظلوم والظالم ثم يكون الحكم نفوذ داعي الشهوة وامتنال أوامر النساء، والمحافظة على ظاهر وجاهة الوجهاء، ولو على حساب أعراض المظلومين.

- ﴿لَيْسَ جُؤْثُهُ حَتَّىٰ جِئَ﴾ [يوسف: ٣٥]: عرفوا براءته لكن بدا لهم سجنه إلى أن يروا فيه رأياً. جعلوه كبش فداء لحفظ ماء الوجه وإيهام العامة بخلاف الواقع.

(١) القصص القرآني (١٤٢/٢).



ومن العبر المستفادة:

- مسألة الحبس لمدة غير معلومة من الطاغية هي قضية قديمة وليست وليدة اليوم فلا تبتئس.

- لا أحد يعرف الآن اسم السجان ولكن كلنا نعرف من هو يوسف منذ القدم والصالحون بين مسجون (يوسف عَلَيْهِ السَّلَام) ومهدد (موسى عَلَيْهِ السَّلَام): ﴿لَا جَعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]^(١) في خطاب فرعون له.

- أين عزيز مصر من تلك الأحداث؟

رجح الشيخ عlish متولي بدوي: أن العزيز قد توفي بعد حادثة المراودة بزمان قليل، وقبل أن تدعو زوجته النسوة إلى القصر لمشاهدة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، واستطرد قليلاً ثم قال: والمؤكد أن العزيز قد غاب إلى الأبد قبل أن تدعو المرأة النسوة إلى القصر ليشهدن الجمال اليوسفي واستدل بأمور منها:

- لم يرد ذكر العزيز في حادثة المراودة من قريب ولا من بعيد، رغم تعدد الحوادث التي كانت تتطلب ظهوره لو كان حياً، خاصة وهو كرئيس وزراء مصر وعزيزها علاوة على أن من اتصلت بهم الأحداث هم أقرب الناس إليه: زوجته ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام.

- ما كانت امرأة العزيز لتتجرأ على دعوة النسوة في بيتها والتصريح أمامهن بهيامها بفتاها وإصرارها على أن ينفذ مرادها باللين أو بالقوة وهي التي كانت تقول للعزيز عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

(١) أيها الصديق، ص ٨٦.

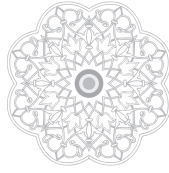
- إن العزيز الذي أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كتمان أمر حادثة المراودة حتى لا يعلم بها أحد، ثم عزّر زوجته وحكم عليها بأنها خاطئة، وأمرها بالاستغفار لذنبتها؛ ما كان ليسكت أبداً أمام دعوة امرأته للنسوة لتعرض أمامهن جمال يوسف وتفضح زوجها باعترافها أمامهن أنها المراودة ليوسف.

- أن القرآن الكريم أتى بموضوع التهديد بالسجن والصغار ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إن لم يفعل ما تريده المرأة منه على لسانها هي، ولم يكن على لسان زوجها صاحب النفوذ والسطوة في المملكة الفرعونية الهكسوسية.

- أن العزيز لم يكن من بين الذين بدا لهم سجن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو كان موجوداً بينهم لُنُسب إليه ذلك الأمر وحده فهو مالكة وصاحب السلطة العليا في البلاد بعد الملك.

- إن الملك لما ولّى يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من بعدُ وجعله على خزائن الأرض وأصبح هو بجدارة عزيز مصر لم يصدر أمراً بعزل العزيز وإقامة يوسف مكانه مما يؤكد عدم وجود العزيز.

ومما تقدم يتأكد لنا أن العزيز رحل عن مسرح الأحداث قبل دعوة امرأته النسوة إلى القصر لمشاهدة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن امرأة العزيز هي التي صارت لها السلطة على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعده فقد كانت تقول للعزيز وهو حي ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، أما الآن فهي تملك وتحكم وتهدد وتقول: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرْتُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وفعلًا، نفذت تهديدها بمساعدة أهل الحل والعقد، وحكم على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسجن رغم براءته من كل سوء. والله أعلم^(١).



المبحث الثالث: دخول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّجْنَ ودعوته لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتفسيره لرؤيا صاحبيه:

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِ بِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨ يَصْحَبِي السَّجْنَ ٣٩ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٤٠ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤١ يَصْحَبِي السَّجْنَ ٤٢ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤٣ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ٤٤﴾ [يوسف: ٣٦ - ٤٢].

ودخل نبي الله الكريم ابن الكريم ابن الكريم السجين بعد أن خرج من محنته الكبرى في قصر العزيز تقياً نقياً ليواحه محنة أخرى: ضيق السجين وظلمته ووحشته والشعور بالظلم والاضطهاد، وهو سجن آخر للنفس يزيد هماً وألماً وحسرة. ومن رحمة الله تعالى بيوسف أنه هياً له سبب خروجه عند دخوله^(١).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٣)

أولاً: قوله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

١ - ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ [يوسف: ٣٦]:

وهكذا دخل الكريم ابن الكريم ابن الكريم السجن والابتلاء سنة في عباده سبحانه وتعالى الصالحين وفي الحديث: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل" (١). وعندما أدخل يوسف السجن دخل معه فتیان آخران سجينان قادهما قدرهما إلى الانتقال من خدمة الملك مع حاشيته إلى السجن ولعله غضب الملك عليهما في نزوة من نزوات مزاجه المتقلب (٢). وتوحي كلمة (فتیان) بأنهما خادمان من الخدم الذين يعملون في حاشية الملك لأن كلمة (فتی) و(فتیان) و(فتیان)، وردت في السورة هنا بمعنى الخادم العبد الرقيق. ولم يذكر القرآن الكريم تفاصيل أعمال الفتيين واسمهما ولا وظيفتهما عند الملك قبل سجنهم (٣).

وقد ذكر أهل التفسير أن أحدهما: كان طبّاخ الملك، والمسؤول الأول عن طعامه. وثانيهما: كان ساقی الملك، والمسؤول الأول عن شرابه. وقد نُمي إلى الملك أن مؤامرة تحاك لقتله بواسطة دس السم في طعامه أو شرابه، فأمر بسجن الساقی والطباخ للتحقيق معهما في الأمر (٤). وتعامل يوسف مع صاحبيه السجينين بأخلاقه السمحة النبيلة فأحباّه وأعجبا به ونشأ بينه وبينهما صلة وصحبة،

(١) صحيح ابن حبان، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض، ذكر البيان بأن البلاء يكون بالأنبياء أكثر ثم الأمثل فالأمثل في الدين، ح رقم ٢٩٢١.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٩٠).

(٣) المصدر نفسه، (٢/ ١٩١).

(٤) التفسير الموضوعي، (٢١/ ١٧٤).



وأنسابه وصار موضع ثقتهما. وكثيراً ما يجمع السجن بين السجناء وكثيراً ما تنشأ بينهم صلات قوية لأنهم يعيشون معاً طيلة اليوم منقطعين عن عالم ما وراء السجن ويقضون في ذلك سنوات وسنوات^(١). كما أن للرؤى والأحلام تأثير كبير على المسجونين إذ هي صلتهم الوحيدة بالحرية والحياة خارج أسوار السجن وتمنيهم بالأمان في العذبة تبعث آمالهم وتنعش قلوبهم ونفوسهم:

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَعَذَبَ الْمُنَى وَإِلَّا فَقَدْ عَشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغَدًا
فهي محور حديثهم عندما يستيقظون من نومهم^(٢). وقدّر الله أن يرى كل واحد من السجينين رؤيا، فقام يقصها على صاحبه وصديقه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام طالباً منه تأويلها^(٣).

٢- ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

- ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]؛ أي: رأيت. وعبر بالمضارع لاستحضار صورة الرؤيا.

- ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]؛ أي: أعصر عنبا. وسماه خمرًا باعتبار ما يؤول إليه، فلا يعصرون العنب إلا ليصنعوا من عصيره الخمر. ويبدو أن الساقى هو صاحب هذه الرؤيا^(٤).

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٤٢).

(٢) التفسير الموضوعي، (٢/ ١٤٣).

(٣) القصص القرآني، (٢/ ١٤٣).

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٤).



- ﴿وَقَالَ الْأَخْرُ إِني أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف: ٣٦]: إني رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراه في اليقظة الآن؛ وهي أنني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل منه الطير، يعني من الخبز^(١). ويبدو أنها رؤيا الطباخ، فرؤيا كل واحد منهما متعلقة بطبيعة عمله في قصر الملك^(٢).

- ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦]؛ أي: أخبرنا بتعبير ما رأينا وبين لنا مآلها، فأول ما يهجس في خاطر السجين إذا رأى رؤيا أنها رؤيا تنبئه وأنه يمكن أن يرى من خلال تعبيرها مصيره ومستقبله^(٣).

﴿إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]: شهد الفتيان ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإحسان، وهذه الشهادة لها وزن وقيمة لاعتبارات عدة منها:

- أنهما ملازمان له، يعيشان معه ليلاً ونهاراً مما يعني أن الشهادة لم تكن نتيجة موقف عارض، أو انطباع عاجل، فهما مصاحبان له عَلَيْهِ السَّلَامُ في كل أحواله.

- أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في حال من الضيق والمعاناة إذ فقد والده وأهله، وابتلى في عرضه الشريف واجتمع عليه كيد إخوته وامرأة العزيز والنسوة وأخيراً السجن ظلماً، فحين تظهر عليه سجية الإحسان في هذه الحال فكيف في سائر أحواله.

- أنهما لم يكونا على ملته ودينه فإذا كان هذا حاله مع هؤلاء فكيف بإخوة الدين والإيمان؟

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٥٦.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٤).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٤).



والشهادة ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإحسان ليس مصدرها الوحيد صاحباه في السجن بل شهد له إخوته، كما سيأتي بإذن الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۚ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨].

وأعظم من تلك الشهادات، شهادة الله عَزَّوَجَلَّ فقد وصفه بالإحسان عند بلوغه الأشد، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۚ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]. كما وصفه سبحانه بالإحسان بعد خروجه من السجن وتمكينه في الأرض، قال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦].

لزم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الإحسان في شتى شؤونه في سرائه وضرائه في خاصة نفسه ومع والديه ومع إخوته وفي حال الفتنة وفي حال الانتصار وفي حال عبادته لربه وليس بعد هذه الشهادة والتزكية الربانية شهادة أو وصف وأي قلم بشري يمكنه وصف إحسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هذا الوصف الرباني؟^(١)

كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعبر للسجناء رؤاهم وأحلامهم، وكان يحسن إليهم في معاملته؛ يواسيهم ويساعدهم، فهو من المحسنين حقاً، وأحسن في طاعة الله تعالى وعبادته كما مر معنا، وأحسن في معاملته مع الناس في سعة القصور وضيق السجون، بقي محافظاً على جوهره الأصيل المضيء، ثابتاً في مقام الإحسان رغم ما طرأ على حياته من تغيير وتبديل. ولم ينسَ مهمته التي كلفه الله تعالى بها، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فهو نبي مرسل

(١) أخلاق الأنبياء، د. محمد درويش، ص ٤٢، ٤١.

كريم بحمل دعوة ورسالة، وعليه أن يبلغها للناس في كل مكان في القصور أو في السجون وفي أي زمان.

وما علّمه الله تعالى علم تأويل الرؤيا إلا ليسخره في دعوته وتبليغ رسالته فهو وسيلة لجذب الناس إليه والتفافهم عليه، وهو أيضاً وسيلة لتعريف الناس بصدقه وصحة نبوته وتقريب معنى الوحي وحقيقته من قلوبهم وعقولهم.

قام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك خير قيام؛ عرض على الفتيين أولاً الأمر المعجز الخارق لعادات الناس الذي أجراه الله تعالى على يده كدليل على صدقه وصحة نبوته، وهو قدرته على رؤية الحوادث المستقبلية القريبة الحدوث فذكر لهم أمثلة عملية على ذلك^(١).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]:

١ - ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ﴾ [يوسف: ٣٧]:

المقصود من خارج السجن بواسطة الزائرين من الأهل والأقارب والأصحاب. وما أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ طعام السجن الذي يقدم عادة للسجناء والذي ألفوه واعتادوا عليه، وعلموا أنواعه وأوقاته، فنفس السجناء تنتظر بشوق ولهفة زيارة صديق أو قريب وتفرح كثيراً بما يحمله الزائرون لهم من هدايا أو طعام.

إن الزيارة تنعش آمالهم وتبعث فيهم الحيوية والنشاط وتجعلهم يشعرون أنه يوجد في العالم الثاني خارج أسوار السجن من يهتم بهم ويشاركهم همومهم وحزنهم.

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٥).



وإخبار السجين بزيارة قريبة الوقوع وبما يحمل الزائر معه من طعام، بشرى سارة له تنزل على قلبه نزول المطر على الأرض العطشى التي طال عطشها واشتد ظمؤها. وعُرف عَلَيْهِ السَّلَام بين السجناء بهذا الأمر ولهذا ذكرهم به وحدثهم عنه حديث الواثق من نفسه^(١). وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ المعنى: لا يأتیکما طعام ترزقانه في المنام - لما قال أحدهما إني أراني أعصر خمرًا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً - إلا نبأكما بتأويله في اليقظة قبل أن يأتیکما الطعام. وهذا قول أكثر المفسرين، وهو الصواب^(٢).

٢- ﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]:

أي: أخبرتكما بحقيقته قبل أن يصل إليكما^(٣).

والتأويل هنا: معرفة حقيقة الطعام ومآله. وقال ليس ذلك بإعلام أحد إنما هو تعليم الله تعالى^(٤).

٣- ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧]:

بالغيب بتعليم الله تعالى وليس من ذاته. وإنه لا يعلم الغيب إلا الله وما يعطيه الله تعالى كما أعطى عيسى ابن مريم إذ كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكان ذلك بعد يوسف بعشرات القرون^(٥). فهو علم لدني من الله تعالى، الذي هو مصدر كل علم يلقيه إلى من يشاء من عباده بواسطة الوحي،

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).

(٢) اختيارات ابن تيمية، (٢/ ٨٠٩).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).

(٤) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٢٨٣).

(٥) المصدر نفسه، (٧/ ٣٢٨٣).



وعلوم الوحي حق وصدق لا يلحقها أي خطأ. وبهذا تمكن عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يدخل إلى نفسيهما بلطف وذكاء وأن يشدّ انتباههما إلى الله تعالى، فعرض عليهما عقيدة التوحيد من خلال حديثه معهما عن نفسه فقد كانا يثقان به ثقة كبيرة^(١).

٤ - ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ [يوسف: ٣٧]:

الذين كان يعيش معهم خارج السجن، فهم قوم الفتيين الذين يتحدث إليهما فهو أسلوب لطيف يبين فيه خطأ ما كانا فيه من ملة واعتقاد^(٢).

٥ - ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]:

حق الإيمان لأنهم لا يعبدونه سبحانه وحده ولا ينزهونه عن صفات النقص فمعرفة وجود الله تعالى غير كافية للإيمان به، وقد كانوا - كما مر معنا - يعرفون بوجود الله تعالى ويجري على ألسنتهم ذكره، ولكنهم ما كانوا يتجهون إليه وحده بالعبادة والطاعة.

ثم وصفهم بصفة أخرى تجعلهم غير مؤمنين بالله تعالى:

- ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]؛ أي: لا يصدقون بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء وهو ركن هام من أركان الإيمان يدل على كمال قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته^(٣). وقال الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد وصفهم بحالتين سلبيتين إحداهما: أنهم لا يؤمنون بالله بل يعبدون الأوثان، والثانية: أنهم يكفرون بالبعث وأكد كفرهم بالبعث بتقديم (الآخرة) على الكفر وذلك لمزيد

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١١٧٧).



الاهتمام بالآخرة. وكان التأكيد لغرابته عند أهل العقول المدركة فالعقل يوجب الإيمان بالآخرة لأن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى ولأن فيه سلوان لمن لا يدرك حظه في الدنيا ولأنه يتفق مع العلو الإنساني^(١).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]:

بعد أن عرف يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الفتيين - في الآية السابقة - أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب؛ ذكر في هذه الآية آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله^(٢).

١ - ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]:

أي: أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيده الخالص. ويبيّن أسماءهم بقوله ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا ويبيّن أساس ملتهم التي اتبعها وراثتها وتلقيناً فكانت يقيناً له ولهم.

٢ - ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]:

أي: ما كان من شأننا معشر الأنبياء ولا مما يقع منا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، نتخذه رباً أو إلهاً معبوداً معه، لا من الملائكة ولا من البشر فضلاً عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس)، أو من الشمس والقمر، أو ما يتخذ لها من التماثيل والصور^(٣).

(١) زهرة التفاسير، (٣٨٢٤).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٦٤.

(٣) تفسير المنار، (١٢/ ٣٠٤-٣٠٧).

٣- ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]:

الإشارة إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غير الله تعالى أيا كان، فهو فضل الله إذ هداهم إلى عبادة المنعم وحده^(١).

- ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٣٨]: بهدائنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته وخلقه.

- ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]: بإرسالنا إليهم نشر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حاجته ونبين لهم هدايته^(٢).

نرى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يبين لصاحبيه في السجن معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه، فهي ملة التوحيد الخالص، فضل من الله على المهتدي، وهو فضل في متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه، ففي فطرتهم أصوله، وفي الوجود من حولهم موجباته ودلائله، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره، ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه^(٣).

- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]: تلك هي النتيجة الطبيعية للغفلة عن معنى الحياة، لأن قضية الشكر هي قضية وعي وانفتاح وإيمان لتعرف أن الله لم يخلقك عبثاً ولم يخلق الحياة دون هدف ولم يترك الإنسان دون نظام^(٤).

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٥).

(٢) تفسير المنار، (١/ ٣٠٤-٣٠٧).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٨٩).

(٤) تفسير من وحي القرآن، فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ هـ، (٧/ ٣٠).



والشكر: هو صرف العبد كل ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله^(١)، من نعم ظاهرة وباطنة في النفس والمال فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما يليق به جارية على الوجه الأكمل، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه وأدى واجب شكرها^(٢). ويعتبر الشكر من أجل الأخلاق السلوكية الإيمانية التي يجب على المؤمن أن يتجلى بها في كل أحواله، لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها، ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية أمراً به، وحثاً عليه، وثناء على أهله ووعداً لهم بحسن جزائه، ونهيًا عن ضده مما يدل على أن أمر هذا الخلق عظيم الشأن^(٣).

قال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]؛ أي: لا يشكرون فضل الله ولا ينتبهون. وقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٣٨]؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدل بها، وقد نصب مثل ذلك لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يشكرون اتباعاً لأهوائهم فيقتون كافرين غير شاكرين^(٤).

وقال ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]؛ أي: لا يوحّدون. فإن التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر الله عزّ وجلّ على النعمة وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى ﴿النَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨] لزيادة توضيح وبيان، ولقطع توهم رجوعه إلى المجموع الموهوم لعدم اختصاص غير

(١) المرجع السابق، (٧/ ٣٠).

(٢) أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ، (١/ ١٨٥).

(٣) المرجع السابق، (١/ ١٨٦).

(٤) البحر المحيط، ص ٢٧٧-٢٧٨.



الشاكرين بالناس. وقيل: ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضاً ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها، اتباعاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين، ولك أن تقول: ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي معهدا في الأنفس والآفاق، وقد أعطى سائر الناس -أيضاً- مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أي: لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملوها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والآنفسية والعملية والنقلية^(١).

وبعد هذه المقدمة اليوسفية - على صاحبها السلام - أشعرهما أنه لم يُرد بذكر آبائه التفاخر وإن كانوا أنبياء وإن كان أحدهم خليل الله، فذكر لهما أن ما به وآبائه من نعمة فمن الله وحده وهذه النعمة - أي نعمة التوحيد - هي أسبغ النعم عليّ وعلى آبائي وعلى الناس كافة كذلك.

وإن الفرق بيننا وبين الناس أن الناس لا يشكرونها، وشكر نعمة الهداية للتوحيد يكون بالقيام بحق كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها وما من شك أن الأنبياء هم أكثر الناس قياماً بحقها وعملاً بمقتضاها وكل ذلك خرج على سبيل الترغيب لهم فيها وتأکید الدعوة بالفعل فإن رد النعمة إلى موليها والأفضال إلى مُسديها - سبحانه - من جملة توحيد الربوبية ومقتضاها.

والمقصود، أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام استهل بتلك المقدمة قبل تأويل الرؤيا ليخلص منها إلى دعوتها^(٢)، فقد استطاع أن يدخل عَلَيْهِ السَّلَام إلى نفسيهما هذا

(١) تفسير أبي مسعود، (٤/٢٧٨).

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٠٢.



المدخل اللطيف وأخذ يتوغل أكثر وأكثر في حذر ولين حتى أفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً وصارحهما بفساد عقيدتهما وبطلانها بأسلوب يقوم على التفكير والموازنة العقلية المؤدبة إلى ظهور الحقيقة ورجحان كفته^(١).

رابعاً: قال تعالى: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]:

لقد رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات القليلة الناصحة الحاسمة المنيرة كلَّ معالم هذا الدين وكل مقومات هذه العقيدة كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً.

١ - ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ﴾ [يوسف: ٣٩]:

أن يتخذ منهما صاحبين ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجوهر العقيدة.

٢ - ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]:

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً. إن الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً ففيم إذا تعدد الأرباب؟

إن الذي يستحق أن يكون رباً يُعبد ويطاع أمره، ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار ومتى توحد الإله وتقرر سلطان القهر في حياة الناس وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد وأنه هو القاهر ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ويتخذوا من دون الله رباً.

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٧).



إنَّ الرب لا بد أن يكون إلهاً يملك أمر الكون ويسيره ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله رباً للناس يقهرهم بحكمته وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره.

إن الله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته، من أن يدينوا للأرباب المتفرقة والأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء - المنظور القريب - كالشأن في كل الأرباب إلا الله.

وما شقيت البشرية بشيء قط ما شقيت شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم فهذه الأرباب الأرضية التي تعتصب سلطان الله وربوبيته أو يعطيها الجاهلون هذه السلطان، هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرغبة الملحة في استبقاء سلطانها وتقويتها، وفي تدمير كل القوى التي تهدد السلطان من قريب أو من بعيد وفي تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطلب حولها والزمزيم والنفخ فيها كي لا تدبل.

وإن الإله الواحد القهار في غنى عن العالمين فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة وفق منهجه، فيُعد هذا كله عبادةً، وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريد بها لإصلاح قلوبهم ومشاعرهم ولإصلاح حياتهم وواقعهم... وإلا فما أغناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ أَجْمَعِينَ^(١).

اسم الله (الواحد):

ورد اسم الله الواحد في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن ومن ذلك:

- قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩٠).



- وقوله تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وإن في الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى يأتي الحديث عن أسماء الله (الواحد) (الأحد). ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الواحد الأحد) هو الذي توحد بجميع الكمالات وتفرد بكل كمال وجلال وجمال وحمد وحكمة ورحمة وغيرها من صفات الكمال، فليس له فيها مثل ولا نظير ولا مناسب بوجه من الوجوه فهو الأحد في حياته وقيوميته وعلمه وقدرته وعظمته وجلاله وجماله وحمده وحكمته وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته من كل صفة من هذه الصفات فيجب على كل العبيد توحيد عقله وقولاً وعملاً بأن يعترفوا بكماله المطلق وتفرد بالوحدانية وبفروده بأنواع العبادة^(١).

- اسم الله (القهار):

ورد ذكر اسم الله (القهار) في القرآن الكريم ست مرات اقترن فيها باسمه (الواحد) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وغيرها من الآيات..

وقال الخطابي: (القهار) هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة وقهر الخلق بالموت^(٢).

والقهار: اسم مبالغة (للقاهر) وهو الذي خضع له كل شيء وذل لعظمته وقوته كل شيء لا يخرج شيء عن قدرته وتدبيره وملكه. وقهر كل الخلق بالموت، وهذا يفسر - والله أعلم - شيئاً من سر اقتران اسمه (الواحد) باسمه (القهار)

(١) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز، ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١٥.



حيث إن من موجبات اسمه الواحد في ربوبيته وملكه وألوهيته وأسمائه وصفاته أن يكون قاهراً قهاراً غالباً لكل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وما من دابة إلا هو سبحانه أخذ بناصيتها ماض فيها حكمة عدل فيها قضاؤه: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وكونه تعالى (الواحد) يقتضي كونه (القهار). ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشرك من كل وجه^(١). إن القهر ملازم للوحدة فلا يكون اثنان قهارين، متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده كما كان قاهراً وحده^(٢)، كما يشير هذا الاقتران إلى معنى بديع، وهو أن الغلبة والإذلال من ملوك الدنيا إنما يكون بأعوانهم وجندهم وعددهم، والله تعالى يقهر كل الخلق وهو واحد أحد فرد صمد مستغن عن الظهير والمعين، فاقتران الاسمين يشير إلى كماله سبحانه في تفردّه وكماله في قهره^(٣).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان يدعو إلى توحيد الله من خلال التعريف بأسمائه الحسنی وفي دعوته لصاحبيه في السجن كان حديثه عن (الواحد القهار) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

خامساً قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ لِلَّذِينَ الْفَقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]:

(١) تفسير السعدي، (٤/٣٠٨).

(٢) تفسير السعدي، (٤/١٩٩).

(٣) مطابقة أسماء الله الحسنى مقتضى المقام، نجلاء الكردي، ص ٤٩٢.



رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة كما هزّ بها كل قوائد الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً^(١).

١ - ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: ما تعبدون إلا أسماء لا مسميات لها، لأنها في الأصل لا تستحق أن تعبد وتعظم، فكانها معدومة غير موجودة^(٢).

٢ - ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: ما أنزل الله حجة ولا برهانا على عبادتها^(٣)، ولا عقل يسلم بذلك. إن العبادة لا تكون إلا بسند شرعي، فلا يعبد بآرَكَ وَتَعَالَى إلا بما شرعه وبينه ونزل به الوحي، فمعبوداتكم ليس لها في عالم الحق مكان، فلم تأتكم بها دعوة من رسول من رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَام، ولم يحملها إليكم كتاب من كتب الله تعال، إنها نابعة ومولدة من الوهم والضلال^(٤).

كان يوسف صريحاً في بيان ما هم عليه من شرك بالله، ليعرفهما حقيقة ما هما عليه ويميزا بين الحق والباطل؛ ليكون هذا دافعاً لهما إلى ترك الباطل الذي عليه القوم واتباع الحق الذي هو عليه^(٥). وقد بين يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لمن ينبغي أن تكون الطاعة، أو بمعنى آخر لمن ينبغي أن تكون العبادة^(٦).

(١) في ظلال القرآن، (٤/١٩٩).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٧٨).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤١٧٨).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٧٧.

(٥) القصص القرآني، الخالدي، (٢/١٤٧).

(٦) في ظلال القرآن، (٤/١٩٩٠).

٣- ﴿إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: ما الحكم الحق في الربوبية، والعقائد والعبادات الدينية؛ إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، ولا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلّاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على السنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

٤- ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: بل إياه وحده فادعوه واعبدوه وله وحده فاركعوا واسجدوا، وإليه وحده فتهجدوا، حنفاء لله غير مشركين به، ملكا من الملائكة الروحانيين، ولا ملكا من الملوك الحاكمين، ولا كاهناً من المتعبدين، ولا شمساً ولا قمراً، ولا نجماً، ولا شجراً ولا نهراً مقدساً كالكنج والنيل، ولا حيواناً كالعجل أبيس. فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره، إلا بإيمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء وأن كل ما عداه خاضع لإرادته وسننه في أسباب المنافع والمضار، ولا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام حسنة، ومادة حياة شخصية: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب وإليه المصير للجزاء على الأعمال يوم الحساب^(١). ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلل القول بأن الحكم لله وحده، فيقول: ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وإن العبادة لا تكون إلا لله، والعبادة بمفهومها الواسع الشامل التي تعني الخضوع المطلق وإفراد الله بالحكم صورة من صور إفراده بالعبادة^(٢).

(١) تفسير المنار، (١٢/٣٠٧-٣١١).

(٢) القصص القرآني، (٢/١٤٧).



والخضوع له وحده، واتباع أمره وحده، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية، أو تعلق بتوجيه أخلاقي، أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العادة التي خص الله سبحانه بها نفسه، ولم يجعلها لأحد من خلقه. وهذا الفهم في مفهوم العبادة يبين لنا تعليلاً لا اختصاصه بالحكم. فالعبادة - أي: الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود، وحكمه الشرعي الإداري في حياة الناس خاصة، فكله حكم تتحقق به الدينونة.

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقرر لصاحبيه في السجن، ولكل الناس - أن اختصاص الله سبحانه - بالحكم - تحقيقاً لا اختصاصه بالعبادة - هو وحده الدين القيم^(١).

٥ - ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]:

الإسلام وحده هو الدين القيم، الدين المستقيم الصحيح المقبول عند الله. الدين الذي يقوم على معادلة ذات طرفين: أفراد الله بالعبادة يعني إفراده وحده بالحكم، وهذه يعني أن من فعل ذلك كان على دين قَيِّم، ومن لم يفعله فليس على دين قيم، فهو جاهل غير عالم. والمقصود أن الدين الموصل لرضوان الله هو الدين الذي لا يعبد فيه إلا الله ويكون فيه الحكم لله. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠] أي: الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين، الذي دعا إليه جميع رسل الله أقوامهم، ومنهم آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ^(٢).

(١) في ظلال القرآن، (٤/١٩٩١).

(٢) تفسير المنار، (١٢/٣٠٧ - ٣١١).



٦- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: ليس لهم علم بالحقائق، بل تسيطر عليهم الأوهام الباطلة، التي تخدع العقول فلا تعلم، والمصريون القدماء كانوا خاضعين للأوهام ولا تزال بقية منهم خاضعة للأوهام وهم الذي لم يدخلوا في دين التوحيد، دين الله القيم.

وهكذا نرى نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتداءً بإثبات معجزته ثم نهى عن الشرك، ووجههم إلى الاقتداء بشخصه وقد صاروا له أصحابين ثم وازن بين الوجدانية وتعدد الآلهة، ثم بين لهم أنه لا وجود لما يسمونه آلهة، وأن الدين القويم الحق الذي يوافق قضية العقل البديهية هو الوجدانية^(١). وإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وضع سلسلة من الحقائق المنطقية المتسلسلة المتتابعة بتناسق موضوعي متدرج وصل به إلى هدفه المنشود في دعوة صاحبيه إلى دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقد يقال: إن دعوته إلى الوجدانية، كانت بين اثنين. وإنَّ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتداءً دعوته بين زوجه وصديقه أبي بكر وابن عمه علي ومولاه زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعاً، وبقي مستخفياً بالدعوة بضع سنين، فليست العبرة بكثرة العدد ولكن بقوة الإيمان^(٢). وبعد أن وجه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوته الصريحة إلى دين التوحيد وعبادة الله وحده عبر لكل واحد منهما رؤياه التي يخبر عن كل واحد منهم مصيره ومستقبله^(٣).

سادساً: ﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ فَضَيَّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٢٦).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٢٦).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٤٨).



وبعد أن أنهى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بيانه الدعوة، وقبل موعد حلول تقديم الطعام لهما، عبر لكل منهما رؤياه، كما وعدهما من قبل^(١).

١ - ﴿يَصْحَجِي السِّجْنَ﴾ [يوسف: ٤١]:

خاطبهما يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿يَصْحَجِي السِّجْنَ﴾ [يوسف: ٤١] مرتين عندما أراد دعوتهما إلى التوحيد، في حين لم يذكر هذا الأسلوب في البداية عندما تحدث عن نفسه وعن دينه وأسرته لما يأتي:

- أن الحديث عن النفس وعن الأسرة ونحوها لا يحتاج إلى مزيد من محاولة صيغ التحبيب والتشويق لأنها لا تحمل طلباً ولا تكليفاً، وإنما مجرد عرض وبيان وأما الحديث عن دعوة الآخر للتوحيد والإيمان فهذا هو الذي يحتاج إلى مزيد من السعي ببذل الجهد الفكري لاختيار كلمات مناسبة جميلة وصيغ مؤثرة وأساليب مشوقة. واستعمل حرف النداء البعيد: (يا) لاسترعاء الانتباه وللتعظيم والوقار، ثم استعمل لفظ: (صاحب) للدلالة على القرب والصحة والمحبة وجعله مثني للإشارة إلى الرعاية لكل واحد منهما، وأن كل واحد منهما صاحبه على الاستقلال، وهذا أسلوب رائع في التشويق لدعوة التوحيد التي دعا إليها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

٢ - ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾

[يوسف: ٤١]:

أي: سيصبح ساقى الملك وصاحب شرابه وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، ولم يعينه لئلا يدخل الحزن على الآخر.

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٤٨).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٨٣.



- ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١] أي: يقتل ويصلب وتأكل الطير من لحم رأسه^(١). وقد كان الأول ساقياً للملك بعد ذلك وروي أنه كان من قبل كان ساقياً، فاستمر في عمله بعد أن اتهم بأنه دس في الشراب سمّاً فتبين بطلان التهمة، فعاد إلى عمله بعد أن سجن. والثاني اتهم بأنه دس في الطعام سمّاً وثبتت التهمة فقتل وصلب. والله أعلم^(٢).

٣- ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

قضي الأمر: أي تم وانتهى حكمه. والاستفتاء: الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة. وبعد أن أوّل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رؤيا الفتيتين، أخبرهما عن غيب علمه من قبل الله تعالى، أن الأمر قد قضي ووافق قضاء الله تعالى^(٣).

كما أن الآية تدل على ثقة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بربه، فهو ينظر بعين النبوة التي لا تخطئ أبداً لأنها تنظر بوحى الله تعالى علام الغيوب. ولم يترك عَلَيْهِ السَّلَامُ الأخذ بأسباب السلامة والخروج من السجن مع توكله على الله تعالى وتفويض أمره إليه. ولما أمر الملك بإخراج الساقى من السجن، وجاء يودّع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ويعرض عليه مساعدته طلب منه أن يذكر أمره للملك، لعله أن ينصفه ويخرجه من سجنه:

سابعاً- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٧٨).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٦).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٨٤.



١ - ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

التفت يوسف إلى السجين الذي سيفرج عنه وسيعود إلى خدمة ربه الملك ويعمل في حاشيته فطلب منه أن يذكره عند الملك^(١).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ أي: علم وتيقن، فالظن يأتي بمعنى اليقين والعلم كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءَ﴾ [الحاقة: ٢٠]^(٢). وهذه الالتفاتة من يوسف عَلَيْهِ السَّلَام طبيعية منطقية فهو مسجون ظلماً وقد لُفّق له الملاء تهمة كاذبة وتآمروا عليه مؤامرة خبيثة وأدخل السجن دون محاكمة أو محكمة أو حكم وها هو الآن في السجن ولا يدري كم سيمرّ عليه من السنوات وهو موقوف ظلماً ويخشى أن ينساه المتآمرون في السجن وأن يتركوه فيه سنوات وسنوات.

ولعل الملك لم يكن يعلم تفاصيل قصة يوسف، ولعله لم تصله الحقيقة ولعل الملاء المتنفذين المتآمرين أخفوا الحقيقة عنه فصوّروا يوسف بأنه هو المعتدي على امرأة العزيز وهي العزيزة الشريفة المعتدى عليها، فأراد يوسف أن يوصل الحقيقة إلى الملك وأن يطلعه على تفاصيل القضية كما وقعت فعلاً، وأن يبين له أنه مظلوم وأنه سجن ظلماً وأن المعتدية هي امرأة العزيز.

ومن هو الذي سيصل إلى الملك؟ إنه صاحبه السجين الذي سيفرج عنه، والذي عرف عنه تفاصيل القضية كما حصلت ومعلوم أن ساقى الملك سيكون أقرب الناس إليه لأنه صاحب خمره وشرابه، يقدمه له متى يشاء وبهذا يكون قادراً على مناجاته وعلى الكلام معه ومحادثته بما يريد، لهذه الأسباب والاعتبارات

(١) القصص القرآني، (٢/١٤٩).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٧٩).

طلب يوسف من صاحبه أن يذكره عند الملك^(١): ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: سيدك ومتولي أمرك^(٢).

وطلبه من الذي ظن أنه ناج أن يذكره عند ربه نوع من الأخذ بالأسباب. وقد أخطأ بعض المفسرين في تخطئة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في طلبه هذا وقالوا: إن الله تعالى عاقبه على ذلك فأنسى الساقى ذكره عند الملك، فلبث يوسف في السجن بضع سنين ومثل هذا الكلام قدح في توحيد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، واتهام له بعدم التوكل على الله حق التوكل، وهذا لا يليق بنبي من أنبياء الله، تعالى بل فعله هذا عدم تسليم بالظلم وهو من جملة إنكاره وترك إقراره وهذا مقتضى كمال التوحيد كما أنه طلب من الساقى أمراً يجب عليه وتذكيره بواجبه من جملة الدعوة، ثم إن تبرئة النفس من التهمة ودفعها عنها مطلب شرعي، وبالأخص إذا تعلق الأمر بمقام النبوة، وبهذا نعلم أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بذل ما في وسعه من الأسباب التي تجعل تلك المحنة منحة تحمد عاقبتها ومن كان هذا شأنه حري به أن يتم له مقصوده وأن تكون العاقبة له^(٣).

٢- ﴿فَأَنسَنُہُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّہٖ فَلَبِثَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

أي: ولكن الساقى بعد خروجه من السجن وعودته إلى العمل في القصر انشغل بما فيه من زخرف ومتاع وأنساه الشيطان قضية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى مرت سنوات ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السجن^(٤).

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٠).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٩).

(٣) آيات للسائلين، ص ٢١١.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٥).



قال الدكتور القره داغي: والضمير في (فأنساه) راجع إلى الفتى الذي ظن أنه ناج وبالتالي فيكون معناه: أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر قصة يوسف عند الملك وهذا من قدر الله تعالى، ويتسق نسيانه مع الجو الذي يعيشه، وهو تقديم الخمر التي يسقيها للملك وضيوفه. وذهب بعضهم إلى أن الضمير راجع إلى يوسف أي: أن الشيطان أنسى يوسف من أن يذكر ربه - هو الله - أي: أنه لم يطلب ذلك من الله تعالى وإنما طلبه من الملك. وهذا القول من الإسرائيليات الكاذبة التي تمس عقيدة يوسف. حتى إن هؤلاء ذكروا في ذلك حديثاً قدسياً موضوعاً، وهو أن الله تعالى قال ليوسف: أما استحييت حيث استعنت بغيري^(١).

إن هذا القول متعارض تماماً لكل الآيات التي تتحدث على نبوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وإخلاصه لله وتوحيده وقوله للفتيين نفسيهما، فعلمهما التوحيد الخالص وأكد على أن الأمر (التشريع والحكم) (القضاء والقدر) جميعها لله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، كما علمهما خطورة الشرك وبين لهما أنه اتبع ملة آبائه في التوحيد الخالص فهل يعقل أن يعلمهما يوسف التوحيد الخالص وتفويض الحكم والأمر لله وحده، ثم يستعين هو بغير الله؟ بالإضافة إلى سياق الآية ومقتضيات اللغة وذلك لأنه لو كان المقصود غير ما ذكرنا لاقتضى الكلام أن تكون الصياغة (فأنساه الشيطان ذكره لربه)، وقد وردت بعض الآثار لكنها لم تثبت صحتها أو حسنها والحمد لله بل كلها ضعيفة واهية^(٢).

لكن الشيخ الألباني صحح حديث ابن عباس، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عَزَّ وَجَلَّ"^(٣).

(١) حديث موضوع ليس له أصل، علي القره داغي، ص ٨٥.

(٢) يوسف، للقره داغي، ص ٨٦.

(٣) صحيح الجامع، حرف العين، رقم الحديث: ٣٩٨٤.

غير أن في تصحيحه نظراً لدى أهل الحديث أنفسهم حيث إن في إسناده إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك - كما قال علماء الجرح والتعديل -^(١). وقال ابن كثير: إن آخر الحديث (هو الذي ذكرته فقط أعلاه)؛ منكر جداً^(٢). وقال أيضاً: وفيه سفيان بن وكيع الذي رواه عنه ابن جرير ضعيف وإبراهيم بن يزيد أضعف منه أيضاً^(٣). وبالإضافة إلى ذلك فكيف بالشيطان أن يسيطر عليه فينسيه ذكر الله تعالى ويجعله يستعين بغيره؟ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، ودلت الآيات القرآنية نفسها بأن الشيطان ليس له هيمنة على عباد الله المخلصين حيث استثنوا في القرآن الكريم في أربعة مواضع من هيمنة الشيطان عليهم فقال تعالى حكاية عن الشيطان في إغوائاته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٢] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿[ص: ٨٢ - ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

إذن: فإن طلب يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من الفتى أن يذكره عند ملكه في مظلمة طلب مقبول، وليس فيه أي مخالفة شرعية، فهو من الأخذ بالأسباب المشروعة، فلا يحتاج إلى تبرير ولا تأويل^(٥).

٣- ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

والبضع: من ثلاث إلى تسع سنين، والتعبير بالسنة يشعر بتلك الأعوام، وأقوال العلماء في المسألة متباينة فمنهم من قال: كانت مدة سجنه كلها سبع سنوات،

(١) مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي، مكتبة القدسي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، (٧/ ٤٢).
(٢) جامع المسانيد والسنن، ابن كثير، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ، (٣٣٩/ ٨).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، للقره داغي، ص ٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٧.



وبعضهم قال: بل مكث فيه سبع سنوات بعد خروج الساقى منه وخمس سنوات قبل ذلك؛ أي أنه قضى في السجن اثني عشرة سنة، لكن لا دليل على صحة أي من القولين. والقول الوحيد الذي يمكن أن نقطع به هو أنه لبث فيه بضع سنين ولو كان في التفصيل فائدة لفصل القرآن الكريم، ولو لم يكن في السجن إلا الحبس والوحشة والغربة لكفى به ابتلاء^(١)، كما أن نسيان الساقى أن يبلغ الملك وصية يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان ابتلاء آخر لأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام أدخل السجن ونُسي أمره فلم يكن ينتظر محاكمة تحدد مدة بقاءه ولم يكن له أهل يتابعون قضيته، وضياح مثل هذه الفرصة بمقاييس أهل الأرض المقطوعين عن أسباب السماء تقطع حبل الأمل الذي تعلق به وتوصد أمامه باباً كان يرجو أن يخرج منه لكن لعل ربه تعالى بعلمه وحكمته لم يشأ أن يجعل لعبد من عبيد الملك على عبد من عباده تعالى فضلاً.

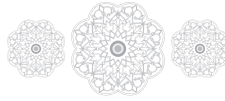
إن هذا النبي الكريم وإن اتخذ ما بين يديه من أسباب - لأن الله تعالى تعبد به بذلك - ما تعلق قلبه بالسبب قط لأنه يوقن بأن الأمر كله بيدي ربه، ربه الذي نجاه من عمق الجب، وسخر له قلب العزيز واجتباؤه وعلمه من تأويل الأحاديث. كان يوقن أن الذي برّاه في بيت العزيز لما كان محل التهمة سيظهر براءته وقد اعترفت بها من كانت سبباً في سجنه وأن الذي أنقذه وقد أحاطت به الفتنة وحاصرته النسوة سينقذه من بين هذه الجدران، أليس هو ربه ورب آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب - رب العالمين - ألم يغير ناموس الكون ويجعل النار برداً وسلاماً على أبيه من قبل؟ إذاً فليطمئن قلبه ولتقر عينه وليمض في تعريف هؤلاء المسجونين من حوله بهذا الرب العظيم فلعلها فرصة لا تتكرر، لعله يستطيع أن

(١) آيات للسائلين، ص ٢١١.



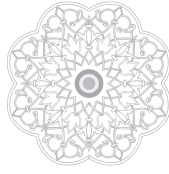
يخرج ولو واحداً من هؤلاء المساكين الذين يضيقون بمثل هذه الجدران من ضيق الدنيا كلها إلى سعة الدنيا والآخرة. أما متى؟ وإلى أين تذهب؟ فيكفي لتطمئن نفسه إدراكه أن كل ذلك سيكون بتقدير ربه تعالى ربه الذي يحس بلطفه في كل ما قدره عليه، ويجد أثر علمه وحكمته في عاقبة كل بلاء ابتلي به^(١).

لا عليه إن نسيه هذا الساقى فربه لا ينساه أبداً ولا عليه إن حاول بعض الطغاة إذلاله فحبسوه مع المجرمين، فإن عند ربه لمكانة وإذا صح له الود مع الكبير المتعال، فأمر من سواه يهون، وقد أبى الله تعالى اللطيف الخبير العليم الحكيم أن يجعل فكاك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن بالتماس يقدمه أحد السقاة للملك. كلا لن يخرج صفيه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بالتماس من الملك نفسه يُقدمه له بعد أن ينفذ كل شروطه ثم يمكنه من خزائن الأرض يفعل بها ما يشاء، وفق مقتضى حفظه وعلمه، ويمكنه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وتلك عاجل بشره أما في أخراه فلا تدري نفس ما أخفي له من قرة أعين جزاء إحسانه وتقواه. هذه سنة الله تعالى التي لا تبدل وهذا وعده للمؤمنين الصادقين الذي لا يُخلف^(٢).



(١) آيات للسائلين، ص ٢١٦.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢١٧.



المبحث الرابع: رؤية الملك وتفسير يوسف لها

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَايَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ - ٤٩]

بقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السجن حتى جاء الفرج من الله تعالى مباشرة وكان ذلك بسبب ما قدر سبحانه لملك مصر أن يرى في نومه رؤيا تنبئه، كانت بتقدير العليم الحكيم سبباً لخروج يوسف من السجن، ونهاية لمحتته وآلامه^(١).

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَايَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]:

إذا أراد الله أمراً هياً له أسبابه وأراد الله أن يخرج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن معزراً مكرماً فكانت رؤيا الملك بداية الفرج الرباني.

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٩).



١ - ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ [يوسف: ٤٣]:

إن المراد بالملك هنا وبما بعده هو غير العزيز الذي كان بمثابة رئيس الوزراء، والملك يبدو أنه كان دستورياً. والقرآن الكريم من خلال مصطلح الملك والعزيز في سورة يوسف يشير إلى ذلك العصر لم يكن عصر الفراعنة الذين ذكرهم القرآن الكريم في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإنما عصر الهكسوس وقد أثبت التاريخ ذلك^(١).

قال الطاهر عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: والتعريف في (الملك) للعهد أي: ملك مصر. وسماه القرآن ملكاً لمصر أيام حكمها (الهكسوس) وهم العمالقة وهم من الكنعانيين أو من العرب. ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة أي: البدو وقد ملكوا بمصر عام ١٩٠٠ إلى ١٥٢٥ قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط؛ إذ كانت عائلات القبط قد بقيت في حكم في مصر العليا في مدينة (طيبة) كما تقدر عند قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأُمْرَأَتِهِ ﴾ [يوسف: ٢١]، وكان ملكهم في تلك المدة ضعيفاً لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى.

ويقدر المؤرخون أن ملك مصر السفلي في زمن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في مدة العائلة السابعة عشرة فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي. وقد وقع في التوراة إذا عبر فيها عن ملك مصر في زمن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بفرعون وما هو بفرعون فأتمته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنما

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ٨٨.



كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية فيكون زمن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر أزمان ملوك الرعاة على اختلاف شديد في ذلك^(١).

٢- ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]:

هذه الرؤيا خلد الله ذكرها في كتابه العزيز وذكر تفاصيلها لأنها من أعظم الرؤى التي عرفتها البشرية لقد تعلق بها حياة شعوب بأكملها، لقد رآها ملك مصر^(٢). وعبر عنها بصيغة التأكيد (إني) والفعل المضارع (أرى) ولم يقل (رأيت) والفعل المضارع يفيد الدوام والاستمرار فكأنها لكثرة تكرارها يراها الآن ماثلة أو لأنها أقلقته حتى إنه لم يستطع نسيانها أو إزالتها من مخيلته وربما أنه أيقن أن لا سبيل لزوالها إلا بتعبيرها والله أعلم^(٣).

لقد كانت الرؤيا عجيبة لسبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف مهازيل ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، وقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليهن، فحالهن كحال البقرات.

اهتم الملك لهذه الرؤيا التي يظهر منها أن الضعيف يغلب القوي. ولعله خشي أن يكون له صلة بحكمه وسلطانه ولذلك اهتم بها^(٤). إن عدد السبع في البقرات السمان والبقرات العجاف والسنبلات الخضر والأخر اليابسات مما يشغل لأن العدد السبع فيه عبق من الغيب وهو موغل في تاريخ البشر، ونحن نطوف حول

(١) تفسير التحرير والتنوير، (٥/ ٦٨٦).

(٢) آيات للسائلين، ص ٢١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٠).



البيت سبعاً ونرمي الجمار سبعاً ونسعى بين الصفا والمروة سبعاً وجهنم لها سبعة أبواب إلى آخره... ثم إن العجب أن السبع العجاف، أي المهزولات يأكلن السبع السمان يعني المريضة تأكل القوية، ثم بجانب هذا سبع سنبلات خضر وأخرى يابسات يعني الرؤية فيها الضرع والزرع، وتردّدت على الملك الذي ينام ويصحو بهمّ البلاد والعباد^(١).

وعلقت الأستاذ علي جابر الفيافي على الرؤيا فقال: هنا رمزان منفصلان في الرؤيا.. متشابهان ومختلفان، فاستفاد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ منهما في التأويل: فالتشابه هو في العدد فعلم أن العدد مقصود في الرؤيا، والتشابه في كون السّمن والعجف يشبه الخضرة واليبس فاستنبط حالين أحدهما يسر والآخر عسر، ولتشابههما في البداءة باليسر كان التفسير وفق ذلك. ثم هناك اختلاف في كون الأولى (بقر يأكل بقر)، بعدها السنابل المذكورة، فاستفاد من الأكل في رؤيا البقر كون التأويل يدل على مجاعة بدلالة العكس، واستنبط في السنابل كون فرج تلك المجاعة مخبوءاً في كيفية زرع وتحصين سنابل القمح والله أعلم^(٢).

٣- ﴿يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]:

والملا هم القوم الحاكمون، وهم رجال النظام من الموظفين والإداريين والسياسيين والإعلاميين والكهنة والسحرة. وسُمّوا بـ (الملا) لأنهم يشاركون في القيادة والقرار والحكم، ولأنهم يملؤون عيون الجماهير مهابة وإجلالاً بسبب مراكزهم ووظائفهم العليا، ونعلم أن ظاهرة (الملا) ظاهرة بارزة ملحوظة في القصص القرآني موجودة عند كل قوم من أصحاب الباطل يواجهون أصحاب الحق.

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١١٨.

(٢) يوسفيات، ص ٨٤.



قال الملك للملأ: أفتوني أيها الملأ في رؤياي الخطيرة وعبروها لي واذكروا بعدها الواقعي وتأويلها العملي إن كنتم تقدرُونَ على تعبیر الرؤيا، وتعبرون صورتها المنامية إلى نهايتها العملية الواقعية الحسية. وسمي تأويل الرؤيا عبوراً لأن المؤول عندما يؤولها فإنه يعبر المنام إلى الواقع الذي يشير إليه وبذلك يصل ما بين الإشارة المنامية وما بين النهاية الواقعية لها، وكأنه ينتقل من المنام إلى الواقع في المستقبل ليحدده^(١). وكلمة (تعبرون) مأخوذة من (عبر النهر) أي: انتقل من شاطئ إلى شاطئ وكأنه يطلب منهم المراد المطوى في الرؤيا.

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة (العبرة) وهي التجربة التي نستفيد منها ومنه أيضاً (العبرة) وهو أن يكون هناك شيء مكتوم في النفس وتؤديه وتظهره بالعبرة ومنه (العبرة): وهي الدمعة التي تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما سواء كانت مشاعر حزن أو مشاعر فرح. والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم وهكذا يفعل مفسر الرؤيا حين يعبر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة.

ولم يعرف الملأ الذين حول الملك تفسيراً للرؤيا التي رآها الملك في منامه. قال تعالى ما جاء عن الستتهم:

ثانياً: ﴿قَالُوا أَضَعَتْ أَحْلَامُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ۖ﴾ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۖ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿[يوسف: ٤٤ - ٤٦]:

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٤).



تفسير الآيات الكريمة:

١ - قال تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]:

أ- ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمٌ﴾ [يوسف: ٤٤]:

رد الملاء ورجال الحاشية على تأويل رؤيا الملك الخطيرة، أو لم يريدوا تأويلها لأنها مزعجة وتتحدث عن خطر قادم وسوف يقود تأويلها إلى انزعاج الملك وهم لا يريدون إقلاقه وإزعاجه ولو كان فيه الحق، والحل عندهم أن يخفوا الحقائق عنه ولو كان فيها مصلحة البلاد.

أليست هذه طريقة البطانة والحاشية التي عند الحكام في إخفاء الحقائق عنهم حتى لا يُزعجهم. وصف الملاء رؤيا الملك بأنها أضغات أحلام ولا علم لهم بتأويل الأحلام ولهذا لا تأويل لها عندهم والأضغات جمع ضغت وأساس معنى الضغت هو مجموعة من العيدان والحطب مع بعضها البعض كما قال الله لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَحُذِّبِكَ ضُغْتًا فَأُضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] أي: خذ بيدك غصن شجر فيه مجموعة من الأوراق والأغصان الصغيرة فاضرب امرأتك به ضربة خفيفة كي تبرّ بيمينك ولا تحنث فيه.

وأضغات الأحلام هي الأحلام المتداخلة المتجمعة التي تجاوزت واختلطت فيها بعض الحقائق ببعض الأباطيل ودخلت فيها بعض الأوهام على بعض الرؤى فاختلطت بها وامتزجت معها وألفت ما فيها من حقائق. وسموا رؤيا الملك (أضغات أحلام) لأن الأحلام تطلق على ما يراه النائم في منامه من منامات وأوهام وأضغات وكوابيس مما لا رصيد له في عالم الواقع ولا دلالة له



على مستقبل ما يحدث له، وهم بهذا يدعون الملك على أن يصرف النظر عن هذه الأحلام فلا دلالة لها ولا تعبير أو تأويل لها^(١).

ب- ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]:

لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان أو من حديث النفس فإننا لا نعبرها فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس بحيث إنهم لم يقولوا لا نعلم تأويلها وهذه من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه لو عبرها ابتداءً قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب وكان الملك مهتماً لها غاية الاهتمام فعبرها يوسف وقعت عندهم موقعاً عظيماً. وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء فحصل بذلك زيادة فضله وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القيامة أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيعتذرون عنها ثم يأتون محمداً فيقول: «أنا لها أنا لها»^(٢) فيشفع في جميع الخلق ويسأل ذلك المقام المحمود الذي يغطه به الأولون والآخرين، فسبحان من خفيت ألطافه ودقت في إيصاله البر والإحسان إلى خواص أصفیائه وأوليائه^(٣)، كما أننا نلاحظ من خلال الآية الكريمة أن الملك شكك منذ البداية في قدرتهم على تعبير الرؤيا فقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، حيث عبر بكلمة (إن) الدالة على التردد والشك^(٤).

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٥).

(٢) تفسير السعدي، ص ٥٠٩.

(٣) تفسير السعدي، ص ٥٠٩.

(٤) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ٨٩.

كان الفتى الساقى صاحب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السجن حاضراً مجلس الملك فعند سماع رؤيا الملك ورأى عجز المعبرين والمنجمين والسحرة عن تأويلها تذكر صاحب سجنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

٢- وقال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]:

عندما أذن الله بالفرج هياً الأسباب حيث حركت رؤيا الملك ذاكرة الساقى وما كان لموضوع مثل هذا الموضوع ولا لحادثة مثل حادثة الساقى مع يوسف ما كان لها أن تنسى لولا الحكمة العظيمة، وإذا كان نسي والعهد قريب أفيذكر الآن والعهد بعيد أيضاً؟.. إنها الحكمة! لقد أثارت الرؤيا ما كان دفن من عهد بيوسف فهتف الساقى كمن دبّت فيه حياة بعد موت: أنا أنبئكم بتأويله. وتأمل الثقة: أنا أنبئكم، فهو قاطع جازم بأنه سيعود بالتفسير، فقط أرسلوه ويطوى السياق بالزمن والمسافة وإذ بنا من بلاط الملك نتقل إلى حيث يوسف يقبع في السجن كل هذه السنين وما نالت السنون من معنوياته شيئاً^(٢).

أ- ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]:

معنى (ادكر): تذكر بعد نسيان، تذكر يوسف في السجن، وعلمه الصادق بتأويل الرؤى ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، بعد مجموعة من السنين وسميت مجموعة السنين أمة لأنها مجتمعة بعضها مع بعض، يجمع بينهما نسيان ذاك السجين لقضية يوسف، كما تجتمع مجموعة من الأفراد على أمور مشتركة بينها لتكون أمة موحدة فأمة السنوات التي يجمعها جامع واحد - هو النسيان هنا -

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨١).

(٢) تفسير يوسف، أحمد نوفل، ص ٤٠٦.



كأمة الناس التي تجمعها قواسم مشتركة فيما بينها^(١)، فالأمة يراد بها فترة من الزمن ويراد بها الجماعة من الناس ويراد بها الرجل الجامع لكل صفات الخير كما قال سبحانه في وصف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: كل خصال الخير مجموعة في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلى نبينا الصلاة والسلام^(٢).

ب- ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]:

وبذلك استأذن ليذهب إلى من يؤول رؤيا الملك.

- وقوله ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]: يعني أن التأويل ليس من عنده بل هو يعرف من يستطيع تأويل الرؤى، ونلاحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل إلى من سوف يذهب؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا، نحن الذين نقرأ السورة. وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك^(٣):

٣- قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرِ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]:

ويهدف به الساقى لهفًا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، ولاحظ أولاً أنه سماه باسمه وفي الرؤيا الأولى لم يصرح باسمه لقد غدا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعلمه وتأويله اسم في المجتمع ثم لاحظ وصف الصديق وما يحمل من مبالغة في

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٥).

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٧١).

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٧٢).

وصفه بالصدق هو لها أهل، ثم يعرض عليه حاجته بعد هذا المدخل الموفق، والأدب الرفيع في الخطاب، وحسن التآني: أفتنا في سبع بقرات، ويعيد عليه الرؤيا بحروفها وحذافيرها وترتيبها مما يدل أن كان يعطيها اهتماماً وعناية ويتوقع شأنًا وخطراً. ثم لاحظ مشاعره ونفسيته من خلال تذييل الآية: لعلي أرجع إلى الناس، ثم أداة الترجي لعل فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]، وترداد الترجي منه ينبئك عن حالته النفسية وتعلقه بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ووضع الآمال عليه في تعبير هذه الرؤيا. ولم يكن الساقى يتوقع من يوسف المحسن أن ينتقم لنفسه فيكتم علماً أكرمه الله به، أو يرد ملهوفاً وقت حاجة انتقاماً للذات أو تفضية حسابات.

إن الأمر يتعلق بحياة شعب، ولا يجوز أن تظغى الأمور الشخصية على القضايا التي تمس المصالح العامة^(١)، والساقى يلقب يوسف (بالصديق) أي الصادق الكثير الصدق وهذا ما جربه في شأنه من قبل. ونقل الساقى ألفاظ الملك التي قالها كاملة، لأنه يطلب تأويلها فكان دقيقاً في نقلها، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولاً، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها^(٢).

وعندما نتأمل في الآية الكريمة نلاحظ:

- ذكر يوسف باسمه هنا، ولم يذكر في المرة الأولى باسمه عندما طلب منه السجينان تفسير رؤيتهما أول مرة وفي هذا لفتة أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد شق لنفسه بذلك التأويل، وب عقله السديد ورأيه الراجح، شق له طريقاً إلى قلوب الناس واحترامهم^(٣).

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٤٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٧.



- وصف يوسف بالصديق الذي انطلق من لسان الساقى صار من الأوصاف اللازمة لاسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا يترجم له في الغالب إلا مقترنا الاسم والوصف: يوسف الصديق. وإنما جاز هذا الوصف من صدقه البالغ وتأويله الصحيح لرؤيا السجينين.

- عبر الساقى هنا بقوله: ﴿أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦]، وأول مرة قال له الفتيان: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦]، وفي قوله ﴿أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦] مزيد من التكریم والاحترام ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ فيه نعت له بوصف الافتاء الذي هو يتضمن الإنباء وزيادة نعت للمتصف به بالكرم، إذ مادة الفتيا والفتوة تلتقيان، والفتوة النجدة والكرم، ووصف في المرة الأولى بمجرد الإنباء دون الإفتاء، لأنهم ظنوا فيه العلم وتوسموه فيه الصدق، وصدق ما توسموه وزيادة، فزادوا على وصفه بالإنباء فوصفوه بالإفتاء.

- قوله ﴿أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦] وفي آخر الطلب ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ [يوسف: ٤٦]، ولم يقل أفت الملك، ولعلي أرجع إلى الملك، يحتمل أكثر من تفسير، فهي تحتمل أن قضية الرؤيا التي قصها على يوسف أكبر من أن تكون مسألة شخصية، تخص الملك وإنما هي كما تنبأ الساقى تعم الشعب، وتتعلق بمستقبله ومصالحه، ولذلك عمم فقال: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ [يوسف: ٤٦]، وعلى تقدير أن الساقى يخطط لمآربه الخاصة، أي على عدم إحسان الظن فإن إخفاء شخصية الرائي يتعلق بنية الساقى أن ينال الخطوة عند الملك حين يكون هو الذي يفسر الرؤيا أو ينقل تفسيرها إلى الملك دون سواه ومن هنا قال: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٤٥].

- تبدو الرؤيا سهلة واضحة لا تحتاج إلى شديد إعمال ذهن ولكن الله عَزَّجَلَّ ادخر تفهيمها لعبده يوسف حتى تكون هذه المسألة ظاهرة في خروج يوسف^(١).

- ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]؛ أي: يعلمون تأويلها، ويعلمون أيضاً فضلك وعلمك ومكانتك، وكأنه بهذا أراد أن يعتذر ليوسف عن تقصيره في حقه ونسيانه لقضيته ودون أن يستفسر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الرائي وصفاته وأحواله ومهنته واسمه وكنيته والوقت الذي رأى فيه الرؤيا كما يفعل المعبرون، قالها عَلَيْهِ السَّلَامُ بلسان الواثق من نفسه وعلمه، لأنه نبي يرى بعين الوحي والنبوة، ولا يحتاج إلى تفكير ومقارنة واستنباط واستدلال بالأسماء والأفعال والأوقات والإرشادات لمعرفة تأويلها^(٢).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾^(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ^(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ - ٤٩]:

ونلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يطلب لقاء الملك ليخبره بالتأويل وهذا يدل على نبل نفسه وترفعه رغم السجن وهو يعلم أنهم لم يأتوا إليه إلا لما عجز غيره عن تعبيرها، يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]، ومع ذلك لم يطلب مقابلاً لتعبيره، ولو كان هذا المقابل رفع ظلم حل به، أو خلع ثوب التهمة الذي ألبسوه إياه ولو أراد مجرد التزلف للسلطان لاستغل هذه الفرصة واحتال مقابلة الملك، فقد كان بإمكانه أن يدعي ضرورة سؤال الملك بعض الأسئلة ليتمكن من تعبير رؤياه، أو ليشق أنها على ما حكاها

(١) سورة يوسف، ص ٤٠٨.

(٢) التفسير وضوعي، (٤/ ١٨٢).



الساقى، لكنه لم يكُ ينتظر الفرج إلا ممن بيده الأمر كله، ربه ورب هذا الملك. وأما وصيته الأولى فمن باب قول الناصح أبلغ الملك أن في سجنك أناساً محبوسين جوراً.

ولا شك أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ علم في استشارة الملك له فرصة ذهبية يجب استثمارها، ولكنه لم يفكر في مصالحه الشخصية، وفكر فيما يكفل مقام النبوة العزة والكرامة. ولعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أدرك جهل المستشارين وذلك الملاء وقدّر أنهم لم يحسنوا إدارة الأزمة القادمة لذلك كان لابد من تقديم تقرير واف ليتضمن الرد على السؤال، والتدبير التي ينبغي اتخاذها لمنع الكارثة الاقتصادية من الوقوع فلم يعبر الرؤيا بأن قال: تأتيكم سنوات شديدة تتلوها سنوات رخاء، بل أخبرهم كيف السبيل للنجاة من تلك السنوات المهلكات ريثما تتغير الحال، فيها للأحسن. لقد استحوز هذا الخلق الكريم على نبي الله يوسف، فلم يطق إلا أن يكون محسناً، لم يكن يملك أحد ممن رآه إلا أن يصفه بذلك، وفي هذا الموقف دليل على أن الإحسان إلى عامة الخلق مندوب.

إن حال نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك الموقف أفصحت عن إحسانه وأفصحت أيضاً عن خلق كريم آخر، ألا وهو العزة بالله... وإلا فمتى كان الملوك يسعون إلى السجناء سعيًا ويلتمسون عندهم المشورة التماساً ولكن حقيق على العزيز الجبار أن يعز عبده الذي فوض إليه أمره، وألجأ إليه ظهره، واكتفى به حسيباً^(١).

(١) آيات للسائلين، ص ٢٢٧.



١ - قوله تعالى ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]:

بادر يوسف ليس ليفسر الرؤيا وحسب، ولكن ليرسم خطة عملية تستغرق القطر كله ﴿تَزْرَعُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، وتستغرق الشعب المصري كله وتستغرق سنين بطولها: ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٧].

والسؤال الذي قد ينشأ عند سماع كلامه: أليس الشعب المصري يزرع، فما الجديد في كلام يوسف؟

إن الجديد في مقدار التعبئة وتجنيد الطاقات وحشد القوى، ثم فرق آخر في تشغيل طاقة كل فرد^(١).

أ- ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧]:

- ﴿تَزْرَعُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] يعني التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة وهذا الذي كان يخطط له يوسف وعبر عنه بكلمة تزرعون^(٢).

- ﴿دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧] معناه: المواظبة: فكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأب وبدون كسل^(٣).

ب- ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ [يوسف: ٤٧]؛ فعندما تجنون ما زرعتم وتحصدون الحبوب ذوات السنابل كالقمح والشعير، فلا تدرسوها ولا تخرجوا الحب من السنابل بل أبقوه فيها: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ [يوسف: ٤٧].

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ٤٠٩.

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/٦٩٧٦).



إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقدم من هذه الجملة معلومة عملية رائعة ويرشد إلى أحسن طريقة لحفظ الحبوب، وهي إبقاء الحبوب في السنابل لحين الحاجة إليها، فهذا ليحفظها من التسوس، لأن السوس لا يكون في الحب الذي في السنابل اليابسة، فكل حبة محفوظة في وعائها من السنبلة لوحدها، وهذا الوعاء في السنبلة يحفظها من باقي المؤثرات الجوية كالرطوبة والحرارة والرياح، وكأن يوسف في هذه النصيحة التخزينية يقدم لنا خطة بما يسمى الآن بصوامع الغلال في المستودعات التموينية^(١).

ج- ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] أي: لا تخرجوا من السنابل المخزونة في المستودعات إلا مقدار حاجتكم للأكل، فتدرسون هذه السنابل بالتقسيط على شكل دفعات^(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]:

أ- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨]:

أي: سبع سنين مجدية ممحلة شديدة على الناس.

ب- ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ [يوسف: ٤٨]: تستهلكون فيهن كل ما ادخرتم في سنوات الخصب السابقة.

ج- ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨] أي: قليلاً تحفظونه لزراعته وبذره^(٣).

(١) القصص القرآني، (١٦١/٢).

(٢) المصدر نفسه، (١٦١/٢).

(٣) التفسير الموضوعي، (١٨٢/٤).

- قال القرطبي: في هذه الآية أصل صحة رؤيا الكافر وأنها تخرج على حسب ما رأى، لاسيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول وتصديقاً لمصطفى للتبليغ، وحجة للواسطة بين الله جَلَّ جَلَالُهُ وبين العباد^(١).

- قال أبو بكر الجزائري: وفي هذا دليل على رؤيا الكافر وأنه قد يرى ما هو الحق، وذلك بتدبير الله تعالى^(٢).

- وقال العلمي رَحِمَهُ اللهُ: أجابهم يوسف على الفور ولم يشترط أن يخرجوه لقاء ذلك، لأنه كريم وشأن الكريم عدم الإبطاء، والإخلاص في الإعطاء. أفتاه يوسف مع أنه كان عهد إليه بتوسطه عند ملك مصر ولم يفعل، وإنما بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي ستحل بالمصريين، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلماً، لأن النصيحة من الإيمان وكاتم العلم ملعون، ولأن الذي سجنه إنما أفراد، وكذلك الذي نسي أن يذكر حال يوسف ومظلمته عند الملك إنما هو أيضاً واحد منهم فكيف، يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير بذنب رجل أو رجلين^(٣).

٣- قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]:

أ- ﴿ثُمَّ﴾ [يوسف: ٤٩]: كسابقتها أفادت التراخي في الزمن أي: بعد تلك السنين الشداد. وأفادت الانتقال الشاسع من حال إلى حال.

ب- ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [يوسف: ٤٩]: أي من بعد الأمر الذي كان وما فيه من الشدة والمعاناة والتقنين والحرمان الذي أتى على المخزن والمدخر وما أبقى غير محصّن لخصب مأمول وفرج موعود وغيث مرحوم.

(١) تفسير القرطبي، (٩/ ٢٠٤).

(٢) أيسر التفاسير، (٢/ ٦١٩).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (٢/ ٨١٩-٨٢٠).



ج- ﴿عَامٌ﴾ [يوسف: ٤٩] يعم حدثه العظيم في زمانه فرداً وجماعة (طولاً وعرضاً) وتأثيره الكبير من الأشياء والعمق من الأحوال (كمّاً وكيفاً)^(١). والفرق بين (سنة وعام) أن السنة يغلب استخدامها في الأزمة والقحط والجذب. والعام يغلب استخدامها في الرخاء والعطاء والخصب^(٢).

فلفظ السنين يستعمل لسنوات الجذب والقحط، ولفظ (الأعوام) يستعمل في أعوام الخصب والخير^(٣).

هـ- ﴿يُعَاثُ النَّاسُ﴾ [يوسف: ٤٩]: جاء باللفظ للدلالة على وجود مستغيث استغاث فأغيث من مُغيث^(٤) المطر؛ إذ الغيث غالباً ما يدل في اللغة على المطر ومن ثم جريان الأنهار وتفجر ينابيع وإحياء الأرض بالزرع والمرعى وإمداد الأحياء بالغذاء والرزق.

- ﴿يُعَاثُ﴾ [يوسف: ٤٩] جاءت بصيغة مالم يُسمّ فاعله، ذلك لأنه لا أحد من الخلق يدّعي بأنه هو الذي أغاث الناس بل هو الربّ القدير الرحيم^(٥).

و- ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] وجاء بلفظ العصر إيجازاً بليغاً دل على كل ما قبله من فعل الحرث والبذر والسقي والزرع والحصاد والدّرس... الخ.

وأخيراً العصر، ولا يكون العصر إلا من بعد إشباع الجائع وإطعام الطعام وفيض الأرزاق، فهو يحمل ويدل على الرفاهية في المطعم واللذة في المشرب

(١) يوسف أيها الصديق، محمد السقا، ص ٢٥٨.

(٢) غرر البيان من سورة يوسف، أحمد الشوابكة، دار الفاروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، ص ١٠٩.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣١٢.

(٤) يوسف أيها الصديق، محمد السقا، ص ٢٥٨.

(٥) يوسف أيها الصديق، محمد السقا، ص ٢٥٨.



والاستفادة مما زاد على الحاجة وفاض عن الخزانة أي: لم يُغاثوا على قدر حاجتهم وطعامهم، بل على قدر المغيث الكريم الغني الوهاب وفي هذا دليل على أن فرج الله إذا جاء وغيثه إذا أغاث لا يُعطي الناس على قدر كفايتهم فقط، بل ويفيض عليهم من خيره وكرمه وخزائن رحمته التي لا تنفذ^(١).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكتف بتعبير الرؤيا، بل بادر فوضع لهم خطة عمل لمواجهة سنوات القحط والجفاف، خطة اقتصادية تتناول الحياة الزراعية والتنمية للأمة خلال خمس عشر سنة مقبلة، وخطط التنمية في مختلف مجالات حياة الأمم والشعوب من تعليم وزراعة وصناعة وعمران، والتي عرفها الناس في العصور الحديثة، ليست حديثة ولا مبتكرة، إنها قديمة ذكرها القرآن الكريم ووضع أصولها وطبقها النبي الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رسم هذه الخطة لأحوال الشعب المصري المعيشية لمستقبل يمتد خمسة عشر عاماً وهو نبي كريم مؤمن بقضاء الله وقدره، ويعلم أن كل شيء خلقه الله بقدر سبق به علمه سبحانه وتعلقت به مشيئته في الأزل، ويعلم أيضاً أن الإنسان لا يستطيع أن يخترق أسوار القدر، ولكن القدر غيب عن الإنسان وقد أمر بأن يسعى في تحصيل أسباب ما يراه نافعا، واجتناب أسباب ما يراه ضاراً ثم يرضى بما قدر الله تعالى له. ولم يكتف عَلَيْهِ السَّلَامُ بتعبير رؤيا الملك، بل قدم لهم نُصْحَه وإرشاده وخيرته وعلمه في شؤون الزراعة والادخار والتموين، وهذا يدل على أن العلوم التي علمها الله تعالى يوسف لم تكن محصورة في علوم العقيدة والعبادة وتعبير الرؤيا، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) لمصدر نفسه، ص ٢٥٨.

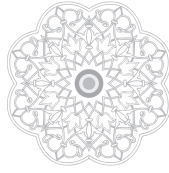
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٣).



يعلم علومًا كثيرة تتعلق بشؤون الزراعة والادخار والتموين، تعلمها دون أن يدخل مدرسة وجامعة، علمه الله إياها بواسطة الوحي الذي كما مر معنا في قوله ﴿ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي﴾ [يوسف: ٣٧] ولم يخل عليه بعلومه وخبرته، كما يفعل الآن الخبراء الذين تستقدمهم الدول المختلفة من الدول المتقدمة في مجال العلوم، فلا يقدمون مشورتهم وخبرتهم للمحتاجين إليها حتى يأخذوا عليها ثمنًا باهظًا وامتيازات كبيرة. قدمها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للمحتاجين إليها قبل أن تطلب منه قدمها لمن أساءوا إليه وظلموه وأدخلوه السجن بسبب عفته وأمانه، قدمها لهم، وهو لا يزال في سجنهم قبل أن يخرجوه منه، وعرف الملك فضل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلمه، فأمر بإخراجه من السجن وإحضاره إليه، ولكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أبى أن يخرج من السجن حتى تثبت براءته، فقد رأى أن دخوله السجن عرضة للشبهة ولهذا أصر أن ينفيها عنه قبل خروجه^(١).



(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٤-١٨٥).



المبحث الخامس: مطالبة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتحقيق وثبوت براءته

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اكْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣].

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]:

١ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ﴾ [يوسف: ٥٠]:

بعد أن رجع الساقى وقص تفسير الرؤيا على الملك تتابعت الأحداث، وكانى بالملك قال من فوره مخاطباً جملة من الملاء: ﴿أَتُؤْنِي بِهِ﴾ [يوسف: ٥٠]، وهذا الانفعال السريع مع الحدث بعد التعبير يشعر بأن حدس الملك كان يميل إلى نحو قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو أن نفسه انشاحت له، وإلا فما تبين الناس صواب

التعبير بعد، فلما وافق هذا شيئاً مما في نفس الملك مع ما رآه من سرعة فهمه وكريم أخلاقه، لم يملك الملك أن يترث في طلب يوسف^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ﴾ [يوسف: ٥٠]؛ في هذه الجملة كم غني من المعاني:

- فالملوك يخاطبون الناس على قدر ما يُعطونهم من الأهمية والقدر، وهم يتحسّسون سلطتهم ويستعملون بدرائتهم في أساليب الحكم:

- فإذا ما خاطبوا الوزراء والمقربين مثلاً، خاطبوهم بلين ورفق.

- وإذا ما خاطبوا الأنداد، خاطبوهم بسياسة وحنكة.

- وإذا ما خاطبوا العصاة، خاطبوهم بقسوة وشدة.

- وإذا ما خاطبوا الخدم، خاطبوهم بعلو وترف.

أما في هذه الحال فإن المعني بالخطاب هو إنسان مجهول لديه، سجين في أحد سجون لا يعرف له جاهاً ولا عزاً ولا يعرف لماذا هو مسجون، إلا أنه في المقابل أنجده وفرّج كربه وأعطاه ما استعصى على الجميع إعطاؤه وأرسله له مع الساقى، لم يستطيع الملك أن يصمد أمام إلحاح داخله بالتعرف إلى هذا الرجل المليء بالعلم المنسي في غياهب السجن فقال: ﴿أَتُؤْنِي بِهِ﴾ [يوسف: ٥٠]^(٢).

٢- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ [يوسف: ٥٠]:

لم يذكر اسم الرسول ولكن الظاهر هو الفتى الذي ذهب إليه لتفسير الرؤيا بدليل أنه ذكر معرفاً ب (ال) أي: الرسول الذي أرسل من قبل وهو الفتى الذي

(١) آيات للسائلين، ص ٢٣١.

(٢) قصة يوسف مدرسة أخلاقية، ص ٣١٩.



نجا من السجن، ولا يستبعد أيضاً أن يكون الشخص المسؤول عن مهمة توصيل رسائل الملك إلى الآخرين، وحينئذ أدّى الفتى الساقى مهمته، ثم حول المهمة إلى الشخص المسؤول^(١).

٣- ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]:

- ﴿ارْجِعْ﴾ [يوسف: ٥٠] ولم يقل عُذ، فلفظ (ارجع) دلّ على المعنى الخاص الدقيق به، أي: لا تعد إليه خالي الوفاض بل بما سأحملك به، وليبقى احتمال تكرار الرجوع بيني وبين الملك غير مغلق.

- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]: وجاء بلفظ الرب للدلالة على أن الرسول كان من فتیان الملك وللدلالة على جواز استعمال اللفظ بين الناس على معانيه المتعارفة بينهم، فالربّ هو السيد المالك لعبيده في المجتمع المنتشر فيه الرق، ورب البيت هو صاحبه وراعي من فيه.

- ﴿فَسَأَلَهُ﴾ [يوسف: ٥٠] أي: ارجع إلى الملك برسالة مني جواباً لطلبه. وهذا من حكمة يوسف وحسن سياسته وعزة نفسه^(٢).

- ﴿مَا بَالَ الْإِسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] أي: ما خبرهن في هذا الأمر؟ واختار عَلَيْهِ السَّلَامُ واقعة تقطيع الأيدي من بين وقائع القصة لأنها أعجب الوقائع وأغربها وأكثرها إثارة للسامع فسيقتضى لزوماً الحوادث المتصلة بها والأسباب المؤدية إليها^(٣). وتقييد الصورة بالموصول وصلته ﴿الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، لأجل تحديد أدق حتى تقصر المسألة عليهن وحدهن ومن أجل

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقره داغي، ص ٩٤.

(٢) يوسف أيها الصيق، السقا، ص ٢٦٥.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٦).



الإشعار بشيوع هذه الصفة فيهن حتى أصبحن يعرفن بها. ولم يذكر امرأة العزيز لأن لها وللعزيز عليه فضلاً فما ذكر كلاماً يخصها ولم يطلق لسانه العنان بكلمات يجرح فيها العزيز وامرأته رغم أنه صاحب حق ومظلوم^(١).

يقول الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن^(٢)، إضافة إلى سؤاله عن النسوة وعن تلك الحادثة خصوصاً، سيؤول إلى الكشف عن علاقتها بالقضية، دون تصريح بعلاقتها بها^(٣). وجاءت ﴿النِّسْوَةُ﴾ [يوسف: ٥٠]: بصيغة (ال) التعريف القلّة أي: أنهنّ مجموعة قليلة من النساء المعرفات؟ وبهذا حدد السؤال بعض الشيء فلم يسأل عن جمع كثير من (نساء) مجهولات نكرة.

- ﴿الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] وهذا تحديد وتعريف آخر لهن يمكن تمييزهن به، أي: بآثار التقطيع وندب الجراح في أيديهن^(٤).

٤- ﴿رَبِّي يَكِيدُهَا عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]:

فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيًا عن التصريح^(٥). وأنت أيها المؤمن إذا كان هناك من يدبر لك كيداً كافاك طمأنينة وثقة أن الله عليم بهذا الكيد مهما كاد لك ومهما دبر لك، فإن الكيد بعلم الله وسوف يحبطه الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا [الطارق: ١٥ - ١٦].

(١) جماليات النظم القرآني، ص ١٠٨.

(٢) الكشاف، (٢/ ٤٧٨).

(٣) جماليات النظم القرآني، ص ١٠٨.

(٤) يوسف أيها الصق، السقا، ص ٢٦٦.

(٥) فتح القدير، (٣/ ٤٧-٤٨).



إذ في هذه الكلمة التي قالها هذا النبي الكريم حكمة ما بعدها حكمة وسداد ما بعده سداد وهذا شأن الأنبياء: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]^(١). إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رد على رسول الملك بكلمات حكيمة ليست رعناء ولا هوجاء، فلم يجب بما لا يناسب مقام المخاطب، ولم يقدح في المدعى عليهن، بل عمد إلى تبرئة جانبه بأعف عبارة، فلم تكن عفة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تقتصر على ابتعاده على المنكرات، بل بلغت عفة لسانه حداً يجعله لا يشير إلى المرأة التي حاولت فتنته، ثم سجنه هذا السجن الطويل، بل يذكر قرينة تشير إلى القضية دون أن يصرح باتهام أحد، والذي يتجنب الفحش في الكلام لا يمكن أن يقع في فاحش الأفعال^(٢).

رفض يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستجابة لدعوة الملك بالخروج من السجن بعفو ملكي، ولم يتعجل الاستجابة لدعوة الملك، مع أنه مسجون ظلماً، ومضى على سجنه بضع سنين ومن كان مثله متلهفاً للخروج، فما أن تبدو أول إشارة للخروج حتى يتعجل، هذا وإن لم يَرَجُ ويتوسط ويشفع، لماذا وقف يوسف هذا الموقف؟ ولماذا لم يُسارع بالخروج ثم يطلب إعادة المحاكمة وهو حر يعيش حريته؟ من إشارة الملك وأمره بالإفراج عنه، والمجيء به عنده، أن الملك معجب به وأنه يسند إليه بعض المراكز الإدارية العليا، وأنه ينتظره عهد جديد من التمكين، فهم يوسف كل هذا، لكن ما هو كلام الناس عنه؟ وما هو (ملفه) عندهم؟ وما هي سمعته بينهم؟

إن الناس لا يعرفون حقيقة قضية يوسف، وقصته مع امرأة العزيز، ومع نسوة المدينة، لقد شوّه (الإعلام الرسمي) الذي يشرف عليه المتنفذون سمعة يوسف

(١) تفسير النابلسي، (١٨٩/٦).

(٢) آيات للسائلين، ص ١٣٦.



وقدّمه للناس بصورة الظالم المجرم الذي لم يحسن إلى العزيز الذي أحسن إليه، وفتح له بيته، فقام بمراودة امرأته وأراد انتهاك عرضها والاعتداء عليها، ولو لم تدفعه هي وتدافع عن عرضها لنال منها، فعل ذلك وهو عبدها ورقيقها، وقد عوقب لهذه الجريمة الأخلاقية البشعة بالسجن جزاءً على سوء فعله وهذا قد مضى عليه في السجن بضع سنين.

هذه هي صورة يوسف وسمعته في الخارج، كما صورها الإعلام الرسمي الجاهلي ولعل الملك عرفه بهذه الصورة المشوهة، كما قدمها له الملاء الجاهلون، فهل يخرج للناس بهذه الصورة والسمعة؟ وهل يرضى أن يمن عليه الملك بعفوه وتجاوزته عن جريمته؟ وهل يقبل أن يعرف عند الناس بأنه (طليق الملك) إذ لولا إفراجه عنه لأمضى في السجن سنين أخرى^(١)، وهل من المناسب أن يلي المراكز الإدارية العليا، وهو بهذا الماضي الأسود كما يبدو عند الناس؟ مع أنه في الحقيقة عفيف نزيه طاهر شريف، وهو المعتدى عليه وهو المظلوم والبريء، وهو الذي سجنوه ظلماً وعدواناً. إذن لا بدّ من إعادة بحث القضية من جديد، والذي يبحثها ويحقق فيها هو الملك نفسه هذه المرة: ﴿فَسَعَلَهُ مَا بَالَ لَيْسَوَ الَّذِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَدِّهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]^(٢).

٥- لا تناقض بين يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا وقوله ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾

[يوسف: ٤٢]:

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال للساقى المفرج عنه من قبل: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] هو يوسف نفسه الذي يرد دعوة الملك للخروج بعد بضع سنوات، فلا يخرج إلا بعد إظهار براءته ولا أرى تعارض بين الموقفين.

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٦٦).

(٢) (٢) القصص القرآني، (٢/ ١٦٧).



فلما قال قبل بضع سنين للساقى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، لم يرد أن يخرج بعفو الملك ولا أن يخرج وسمعته مشوهة عند الناس إنما أراد أن يعرف الملك قصته وأن يطلع على (ملف) قضيته وأن يحقق في الأمر، فإنه إن فعل ذلك فسوف يقف على براءة يوسف وإدانة امرأة العزيز، ولكن الساقى نسي، والملك لم يطلع على القضية والقوم نسوا يوسف موقوفاً في السجن ومضى عليه بضع سنين والآن جاءت فرصة أخرى لإعادة البحث في قضيته من جديد، فكيف يخرج يوسف دون إعادة التحقيق وإظهار البراءة؟

وهب أن الساقى قبل بضع سنين تذكر يوسف وذكر قضيته للملك، وطلب الملك إحضاره وأمر بالإفراج عنه، فهل سيسارع يوسف بالخروج ممتناً للملك بعفوه؟ وهل يرضى أن تبقى سمعته مشوهة عند الناس؟

ما أظن أنه كان سيرضى بذلك واعتقد أنه كان سيتريث ويتأنى وسيطلب إعادة التحقيق في المسألة.

إنه لا تناقض بين الموقفين، ولا تعارض بين القولين، لأن يوسف الذي قال ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] هو يوسف الذي يقول الآن للرسول ﴿فَسْأَلُهُ مَا بَالُ اللَّسَوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]^(١).

٦- أثنى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على موقف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبية على فضله وشرفه وعلوه وقدره، ففي الصحيحين: عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى"^(٢).

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٦٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ح رقم ١٥١.



وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: نحن أحق بالشك من إبراهيم معناه: لا تظنوا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يشك في قدرته تعالى على إحياء الموتى، فلو كان يشك لكننا نحن أحق بالشك منه، هذا من تواضعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحرصه على تبرئة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من كل سوء.

وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: "ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي" مدح يوسف والثناء عليه بسبب صبره وقوته على تحمل آلام السجن، وفي الوقت نفسه أظهر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تواضعه وضعفه وافتقاره إلى الله تعالى، وما أراد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ انتقاد يوسف والطعن عليه، كما فهم صاحب كتاب (مؤتمر تفسير سورة يوسف) حتى دعا إلى الإعراض عن الحديث الشريف ورفضه^(١).

وحمل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ الأمر على اختلاف وجهات النظر في أمر له أكثر من وجهة جيدة، فقال: كيف مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح فيها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة^(٢).

فالمبادرة إلى الخروج عند نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى لأن فيها مسارعة إلى التخلص من بلاء السجن، ويمكنه بعدها المطالبة بإظهار براءته وكشف الحقيقة وقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكره تمنى البلاء ويقول: "لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"^(٣)، ولا ننسى: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثني على

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ١٨٥).

(٢) تفسير القرطبي، (٩/ ٢٠٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، ح رقم



يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لصبره، وأخبرنا أنه لو كان مكانه وسجن لأجابه وخرج فوراً وبعد ذلك يطالب بإعادة التحقيق والمحاكمة^(١).

ولهذا قال في رواية أخرى، فيها مزيد من التوضيح أخرجها الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له، حيث أرسل إليه يُسْتَفْتَى في الرؤيا ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج. وعجبت لصبره، وكرمه، والله يغفر له، أُتِيَ ليخرج، فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب^(٢)، أي: لسارعت بالخروج من السجن، عندما أتنى دعوة الملك.

تريث يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قلناه سابقاً ولم يخرج إلا بعد إعلان براءته وبذلك اختار الأسمى والأكمل والأفضل^(٣)، ونجح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحقيق مراده، وبادر الملك إلى التحقيق وباشر بنفسه وأظهرت نتيجة التحقيق براءة يوسف وعفته وأمانته وأنه سجن ظلماً، فأمر بإحضار النسوة، وسألهن سؤال المتهم لهن^(٤):

ثانياً: قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]:

يطوي القرآن الكريم الزمن والتفصيلات لنجد أننا في محضر تحقيق يديره الملك بنفسه وقد جمع فيه امرأة العزيز والنسوة وهذا قطعاً اقتضى منه تحريات

(١) القصص القرآني، (٢/١٦٨).

(٢) أخرج الطبراني في المعجم الكبير، باب العين عكرمة عن ابن عباس، ح رقم ١١٦٤٠، الأحاديث الصحيحة، رقم ١٨٨

(٣) القصص القرآني، (٢/١٦٨).

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/١٨٦).

واستفساراً وجهداً حتى أمسك بخيوط القضية كلها ثم حضرت النسوة بين يديه للمحاكمة ويبدو الملك مقتنعاً ببراءة يوسف، ويبدو أنه درس الملف وفهم الحثيات، فهو يلقي بالتهمة مباشرة فأفضل طريقة تجعل فيها المجرم يستسلم ويعترف أن تواجهه بالحقائق الدامغة وأن تحاصره بالتهمة حتى لا يزوغ ولا يروغ ومن هنا يقول^(١):

١ - ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١]:

وإن الخطب لا يستعمل إلا في الأمر الجلل: والشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث، ومن هنا قال موسى للفتاتين لما رآهما مُزورَّتين عن السقيا^(٢): ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢]، وهو سؤال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للملائكة أي: أن الملائكة طمأنّت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهي في مهمة لعقاب قوم مجرمين.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين عاد إلى قومه ووجد السامري قد وضع لهم عجلًا من الذهب الذي أخذوه من قوم فرعون نجده يقول: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ﴾ [طه: ٩٥].

وقول الملك هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١]؛ يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفصيلها فاهتز لها واعتبرها خطباً؛ مما يوضح لنا أن القيم هي في كل زمان ومكان^(٣).

(١) سورة يوسف، ص ٤٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٥.

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/٦٩٨٩).



٢- ﴿قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]:

ولم يكن ثمة مجال لمراوغة، وقد ابتدأت النسوة بالكلام لأنهن أقوى موقفاً من امرأة العزيز لأنهن لم يفعلن شيئاً يجرّم مثلها. ولقد كنا نجد امرأة العزيز متقدمة في كل أمر، ولكنها الآن تأخرت! لقد خفضت المعصية رأسها، ونكست جبينها وهامتها وأخرتها. وتعيد النساء نفس الكلمة التي قيلت قبل سنوات أمام امرأة العزيز فيقلن:

- ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١]؛ قال أبو حيان: حاشا لله تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها^(١). وهذه الكلمة قيلت من قبل: ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١]، ولكن كان في سياق موقف الإعجاب والانبهار لجمالها، وفي هذه الحالة استعملتها للجمال المعنوي الأخلاقي^(٢). وفي جوابهن ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١] أجبن الملك: معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء. وهو تعبير أريد به تبرئته والتعجب من نزاهته وعفته، أي حاشا لله أن يكون يوسف متهماً. والله ما علمنا من سوء في تاريخه الطويل^(٣).

٣- ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]:

وكلمة (علمنا) لها دلالة أوسع من لو قلنا ما رأينا منه من سوء، لأنها تعني ما رأينا ولا سمعنا ولا علمنا (من سوء) من قليل ولا كثير ولا صغير ولا كبير. ولاحظ ذكاء النسوة اللائي قطعن أيديهن، وأنهن ضربن صفحاً عن المراودة

(١) البحر المحيط، (٦، ٢٨٨).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقره داغي، ص ٩٧.

(٣) التفسير المنير فيا لعقيدة والشرعية والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (٦/ ٦٢٠).



التي ذكرها الملك في السؤال وأجبن إجابة تتضمن نفيها ونفي أي شائبة وتهمة وأي شائبة سوء تمس يوسف، وهذا مما زاد به الملك حرصاً عليه واقتناعاً به^(١). وفي اختيار الفعل (علمنا) ونفيه ب (ما) اشعار ببراءة يوسف على أكمل وجه، لأن ما ذكر من تهمة يوسف هو بالنسبة لهن خبر، فهو من قبيل المعلوم. فاعترافهن بعدم علم السوء مع أنهن سمعن ذلك من قبل، دليل منهن بأن ذلك المعلوم لم يكن صحيحاً على الوجه الذي علم، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ بريء مما نسب إليه وأن الخطأ من امرأة العزيز^(٢).

ودخول (من) على كلمة (سوء) النكرة أدى إلى نفي جنس السوء كله وذلك أنها تعني نفي كل أجزائه وأبعاضه، وهذا لا شك أكد في تبرئة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شك أنهن أردن تبرئة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الأسلوب الدال على نفي السوء عنه جنساً وأبعاضاً قناعةً منهن ببراءته وتبرئته لأنفسهن لأنهن متهمات به كما يظهر من سؤال الملك لهن، لذا لا عجب أن يكون نفيهن للسوء عنه على هذا المستوى من العناية والتوكيد، لأنه لو علم على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ شيء من السوء ولو جزء يسير لكنّ المتهمات بذلك^(٣).

٤ - ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]:

يظهر من سياق الآيات أن امرأة العزيز صحا ضميرها تماماً، فلم ترد أن تظلمه مرتين، مرة بسجنه، ومرة بقول الباطل والافتراء، بالإضافة إلى أن براءة يوسف كانت واضحة من خلال شهادة الشاهد من أهلها، بالإضافة إلى أنها أدركت بأن

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٢٦.

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٥.



يوسف لم يذكر اسمها صراحة على الرغم مما فعلت به من السجن ومحاولة الغواية، رعاية لحقها، وتعظيماً لجانبها وحماية لها؛ لذلك كانت جريئة وفيّة فكشفت عن غطاء الحقيقة للجميع فأصبح الأمر جلياً وأسندت المراودة كلها إلى نفسها وشهدت له بأنه من الصادقين^(١). ولا شك أن امرأة العزيز وجدت نفسها بيم مطرقة الملك وهجومه الصاعق ومعرفته بتفاصيل القضية، وسندات النسوة اللاتي شهدن وجههن ببراءة يوسف فلم تجد مخرجاً ولا مناصاً فقد آن الحق من الخروج من تأنيب الضمير والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ وكشف الحقيقة.

- ﴿الْفَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]: ها هي امرأة العزيز تستخرج من نفسها معنى ولفظاً سار في الناس مسير المثل وهو قولها ﴿الْفَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]^(٢).

- ﴿الْفَنَ﴾ [يوسف: ٥١]: وذكر هذا الظرف يوحي بأن هذه اللحظة كانت منتظرة ولا بد أن تأتي يوم تكشف فيه الحقائق، فلما كان هذا الموقف عند الملك، وما كان من تجمع النسوة وسؤاله لهن، رأت أن هذا هو الموقف المناسب لإظهار الحق، وخصوصاً أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لقد كان كريماً معها حافظاً لحق الأسرة التي رعته فلم يذكرها صراحة، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن، فلا جرم أزال الغطاء واعترفت بالذنب كله من جانبها وأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مبرأ عن كل ذلك^(٣).

- ﴿الْفَنَ﴾ [يوسف: ٥١] أي: أن هذا الظرف، وقد حان الوقت للاعتراف بخطئها في حق يوسف خصوصاً بعد دخوله السجن، وانعزاله عنها وفتور الشهوة عندها،

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ١٠٠.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٢٧.

(٣) مفاتيح الغيب، (١٨/١٢٣).



فكانها كانت تنتظر الفرصة المناسبة للإدلاء بشهادتها، فلما كان هذا التجمع الذي رعى فيه يوسف مكانتها قالت: ﴿الْفَن﴾ [يوسف: ٥١]؛ أي: حانت الفرصة التي كنت أنتظرها. وقد يكون في هذا الاعتراف على هذه الصورة لون آخر من حب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو حب التقدير والتوقير، فلما حان الوقت لتبرئة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بادرت بتقديم ما كانت مشغولة به^(١).

- ﴿حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]: تعود مادة (حَصَّ) إلى الوضوح والانكشاف أو القطع والإزالة^(٢)، يقول الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وأصل الحصص استئصال الشيء، يقال فيه: حصص شعره إذا استأصله جزاً وإنما أريد في هذا الموضع بقوله: ﴿حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] ذهب الباطل والكذب فانقطع، وتبين الحق فظهر^(٣). وأشار الزمخشري: حصص أي: ثبت واستقر... وهو حصص البعير إذ ألقى ثفنته للإناخة^(٤). وقد ظهر مما تقدم أن معاني هذه الكلمة تدور حول الثبوت والاستقرار والاستئصال والقطع، والوضوح والانكشاف، ومما لا شك فيه أن هذه الكلمة قد صورت المراد أكمل تصوير، ووفت بالمعنى المراد، إذا قد انكشف الحق ووضح وهو براءة يوسف، وانقطع الباطل، وأزيل، وثبتت البراءة واستقرت.

وأما من جهة دلالة صيغتها، قد جاءت على صيغة الزيادة بتكرار بعض الحروف، فأصلها: (حص) ولكن قيل (حصص) كما قيل: فككبوا، في كبوا.

(١) جماليات النظم القرآني، ١١٧.

(٢) المفردات، ص ٢٣٧.

(٣) تفسير الطبري، (٢٠٧/١٣).

(٤) الكشف: (٤٧٩/٢).



وقيل: كفكف في كف^(١). وعلى قاعدة: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فإن (حصحص) أكد من (حص) فيما ذكر من معاني. وهذه الكلمة لم تأت في القرآن إلا في هذا الموضوع لذا فهي بلا شك قد جمعت أطراف المعنى المراد، وذلك أن الطريقة التي ثبتت بها براءة يوسف كانت غاية في العلو والعظمة، إذا المعترف ببراءة يوسف هو مجموع النسوة لا بعضهن، وكان ذلك أمام الملك ومن ضمنهن امرأة العزيز، فليس هناك أطراف أخرى لها تعلق بالقضية إلا يوجد من يمثلها في هذا المجلس أعلى تمثيل، لذا فقد تجمع الحق، وثبت وظهر وبان على أكمل وجه، كما تعبر عن ذلك هذه الكلمة: (حصحص).

٥ - ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١]:

بدئت الجملة هنا بضمير المتكلم (أنا) وهو في هذا الموضوع من أكثر أساليب التعريف دلالة على المراد، لأن الموقف موقف اعتراف، فهو أقوى من: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ﴾ [يوسف: ٣٢].

- ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١]: جاءت هذه الجملة من خطابها حاسمة في الموضوع، ناصّة على الحدث المقصود وهو تبرئة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢). ﴿وَأِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [يوسف: ٥١]: إن هذا القول كان مهماً في إبراء يوسف، لأن إبراءه يحتاج إلى ثبوت قضيتين مهمتين، المراودة كانت ممن؟ وتصديق يوسف في تلك المواقف المتتالية التي حاولت امرأة العزيز أن تلصق به تهمة الكذب تغطية على فعلتها الشنيعة فجاء الاعتراف الأول: ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١]، هادئاً دون مؤكدات لأن أمرها فيه ظاهر، فهو إبراز للحق الذي حاولت طمسه.

(١) تفسير الطبري، (١٣/٢٠٦).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٢٠.



وأما الجملة الثانية ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [يوسف: ٥١]: فجاءت لبيان الأمر المهم في جانب يوسف الذي يشمل ما سبق. وزيادة (وإنه) تقر بأن يوسف على هذه الدرجة العالية من الصدق، وإنما وصلت الجملة بالواو ولم تفصل، للإشعار بأن وصف الصدق وصف عريق فيه غير مرتبط بحادثة معينة^(١).

إن امرأة العزيز لم تكتفِ بإثبات التهمة عليها، بل وأضافت تبرئة يوسف منها، ولم تكتف بمجرد تبرئته بل عمّمت الشئاء عليه، وبصفة الصدق وَصَفَتْهُ، والصدق عنوان ورأس للفضائل الحميدة.

- ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ﴾ [يوسف: ٥١]: (إن) و(من) للتأكيد وكذلك اللام، وضمير الغائب عائد على يوسف. ﴿الصّٰدِقِیْنَ﴾ [يوسف: ٥١]: في قوله وعمله وصفاته وفي الحاضر والماضي. والصادق حين قال لها وهي تراوده ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

- والصادق حين قال للعزيز ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

- والصادق حين دعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

- والصادق حين أجاب رسول الملك: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

- ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [يوسف: ٥١]: شهادة أخرى من الغريم أضيفت إلى الشهادة السابقة من صاحبه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصّٰدِقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، فاجتمع له شهادة الغريم والصدیق^(٢).

(١) جماليات النظم القرآني، د. عويض العطوي، مركز تدبر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ١٢٢.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص ٢٦٩.



إن امرأة العزيز تعرض لنا صورة يوسف في نفسها بعد ما كان معها ما كان، وكيف حشدت أدوات التوكيد لا لتؤكد لنا، لأننا نعرف صدقه من غيرها، وإنما لتؤكد لنا إحساسه بصدقه. والتعريف بالألف واللام في كلمة (الصادقين)، يعني أنها من هذه الجماعة التي عرفت بالصدق واشتهرت به، ليس صدق اللسان فحسب، وإنما صدق السلوك، وصدق الأدب، وصدق العفاف، وصدق الرجولة، وصدق المروءة، وكل صدق يحمد به أهل الصدق، فإذا أردت أن تعرف الصدق في شموله وعمومه، ونبله وكرمه، وشموخه، فإنك ستري ذلك وأكثر من ذلك في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

[يوسف: ٥٢]

ذلك الاعتراف مني ليعلم يوسف حين يصله موقفي هذا، وتبلغه شهادتي هذه ليعلم، أنني لم أخنه، ولم أشوه سمعته ظلماً وزوراً وهو غائب، كما فعلت ذلك وهو حاضر، لن أكرر خطيئتي في حقه مرة أخرى. إن هذا الشيء عجيب إن العادة أن الناس تسيء في الغياب وتحسن في الحضور أما هذه المرأة التي طهر الله سريرتها ونور بصيرتها بعد كثافة الظلمات التي كانت غارقة فيها، فإنها قلبت الموازين وعكست الآية وضربت الرقم القياسي في شهادة الحق والقول بالحق والاعتراف بالحق. عجيب حال الإنسان وكم هي قابلياته واسعة، وقابلة للزيادة والنقص، وللتزكية والتدسية^(٢).

وقد أخطأ بعض المفسرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ حينما نسبوا ليوسف قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ

(١) سورة يوسف، ص ٤٤١.

(٢) سورة يوسف، ص ٤٤١.

يَالسُّوءَ ﴿يوسف: ٥٢ - ٥٣﴾، فالصواب أنه تنمة قول امرأة العزيز، كما ذكر ابن تيمية وابن كثير وغيرهم - رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعاً - فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يزال في السجن وهي ربما تقصد زوجها أي أنها لم تخنه بالفعل، لكنها راودت فتاه مجرد مراودة وحسب. وقال بعض المفسرين بأن الضمير يعود إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في قولها: ﴿أَلَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ﴿يوسف: ٥١﴾، فإن الضمير يعود إلى يوسف والكلام متصل، فيكون المعنى: قالت امرأة العزيز: ذلك ليعلم يوسف أنني لم أخنه في غيبته، فإني وإن أدخلت الذنب عليه عند حضوره، فما أدخلته حال مغيبه، وهذا الوجه أولى لاستقامته مع التركيب ولأن الضمائر قبل عائدة على يوسف^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا من تمام كلامها، والضمائر كلها في نسق واحد مما يشهد بأنه من كلامها، فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ ﴿يوسف: ٥١﴾ ﴿أَنَا رَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ﴿يوسف: ٥١﴾.... الخ، ومن ثم اتصل بها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ ﴿يوسف: ٥٢﴾، فلا شيء يفصل الكلام من نظمه، ويضم فيه قول لا دليل عليه، فإن قيل: فما معنى قولها هذا؟ قيل: هذا تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت له ذلك أي: قل لي هذا وإقراري ببراءته: ليعلم أنني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه أول الأمر، فالآن يعلم أنني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: وما أبرئ نفسي، ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أماراة بالسوء فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق فاعتذرت عن محبوبها وختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته^(٢).

(١) آيات للسائلين، ص ٢٤٠.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم، دار عطاءات العلم، ط ٤ (٢٠١٩م)، ص ٣١٩.



١ - ﴿ذَلِكَ﴾ [يوسف: ٥٢]: هذه إشارة فيها معنى البعد المدلول عليه باللام وكأنها تلوح بأهمية هذا المشار إليه، ولا شك في أنه مهم، لأن المراد توبتي وإقراري واعترافي ليعلم أنني لم أخنه^(١). إذن هي تشير إلى ما سبق من اعترافها: ﴿أَلَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١]، وفي التعبير باسم الإشارة (ذلك) استحضار لذلك المعترف به سابقاً مع الإشعار بأهميته وقيمتها عندها وعند من يسمع، كما تدل عليه لام البعد. وهنا قبل هذه الإشارة كلام محذوف، يقول المنتجب الهمداني: (ذلك) في موضع نصب بفعل مضمر، أي فعل الله ذلك^(٢).

ولعل سرّ هذا الحذف أن يذهب الذهن كل مذهب مع حذف لأن الكلام السابق دال عليه، فجاء اسم الإشارة لربط الكلامين مع فضيلة الإنجاز.

٢ - ﴿لَيَعْلَمَ﴾ [يوسف: ٥٢]: يوحى هذا الفعل مع لام التعليل، بأن ما يهمها هو أن يعلم يوسف بأنها لم تخنه حال غيبته وكأنها تكفر عن أذاها له من قبل.

٣ - ﴿أَنَّى﴾ [يوسف: ٥٢]: جاءت ب (أن) وبعدها ياء المتكلم لتأكيد نسبة ذلك إليها.

٤ - ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: ٥٢] أي: ليعلم يوسف أنني لم أخنه بالكذب عليه حال غيبته، أو ليعلم زوجي أنني لم أخنه في حقيقة الأمر ولا وقع المحذور الأكبر وإنما هي مراودة ولم يتم معها الفعل^(٣).

والذي يظهر لي أنّ الأول أنسب للسياق، لأن خيانة الزوج وقعت بمجرد المرادة، كما أن سياق الحديث كله عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والتعبير بالخيانة

(١) المحرر الوجيز، (٥/١٠٥).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٢٤.

(٣) محسن التأويل، (٩/٢٣٧).

دون الكذب، لأن هذا هو اللائق برفع تلك التهمة التي عرفت عنها، فكل سوابقها تشير بذلك إليها، أو لتدفع ما كان يتوقع من مثلها في هذا الموقف مع بعد يوسف في السجن، إذ المتوقع أن تكذب في غيبته عليه لتخلص نفسها من تلك الخيانة، لذا عبرت بنفيها عن نفسها وإنما لجأت إلى نفي الخيانة دون إثبات الأمانة بأن تقول مثلاً: (ذلك ليعلم أنني أمانة) لأن ثبوت الخيانة في حقها هو الأصل، فاحتاجت هنا أن تنفي ذلك عنها ولو كانت الأمانة هي صفتها المعروفة لكان الإثبات أولى من النفي.

٥ - ﴿يَالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]: الجار والمجرور حال من الفاعل، بمعنى غائبة عنه أو من المفعول غائباً عني، أو يكون ظرفاً، أي بمكان الغيب؛ أي: وراء الأبواب والأستار، وحتى القول بالظرف يؤول إلى الحالية بمعنى لم أخنه مخفية أو مستترة أو ما شابه ذلك، وعلى هذا نسأل عن مجيء هذا القيد على هذا النمط (جار ومجرور)؟ أما سر تقييد نفي الخيانة بحال الغيبة فهذا يشعر بأن ذلك هو مظنة هذا الفعل لكنها لن تفعل ذلك، بل ستقول الحق حتى لو كان غائباً، ولا عجب في ذلك فقد تحولت في موقفها تماماً بعد ظهور الحق وسطوعه، فلا عجب أن تتحول في كل شأنها فإذا كانت قد جحدت الحق بوجوده، فهي الآن تقول الحق في غيابه، وهذا التقابل في الموقف هو المصور لحال رجوعها وإصرارها على تبرئة يوسف.

وأما سر مجيئه بالجار والمجرور، فلعل ذلك هو أن المراد هنا هو تصوير كل حالات الغيبة، غيبته عنها، وغيبتها عنه، وكونه أو كونها وراء أستار وحجب، كل ذلك لن يحول دون إدلائها بالحقيقة، وهذا كله لا يتم لو عبّر بغير الجار والمجرور، لأنه لن يصور إلا مجالاً واحداً من مجالات الغيبة ولعل هذا ما يفيد



قول البقاعي في تفسيره: ﴿يَالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]؛ أي: والحال أن كلامنا غائب عن صاحبه^(١). وهي بذلك تثبت إصرارها على قول الحق.

يقول ابن عاشور: تمدحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه، إذ نفت الخيانة في المغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه وحالة المغيب أمكن لمزيد الخيانة أن يخون فيها من حال الحضرة، لأن الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانتة بالحجة^(٢).

٦ - ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]:

والذي دفعني إلى عدم خيانة يوسف بالغيب والشهادة لصالحه مع أنه غائب عني في السجن؛ هو علمي و يقيني بأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وكأنها تقول: لقد خنت يوسف من قبل بالغيب والشهادة وقد تأمرت عليه، وكدت ضده، وسجنته ولكني لم أنجح في ذلك لأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ولا أريد أن أكرر الخطأ مرة ثانية^(٣). إنها تريد أن يعرف يوسف هذا منها، ليقوده هذا إلى احترامها وتقدير موقعها، فلئن كرهها من قبل لإغرائها وشهوانيتها فقد حق له ذلك، لكنها الآن تغيرت، ولا بد أنها تغيرت، وأنها ناضجة متزنة موضوعية منصفة وذلك ليعتبرها.

ونفهم من كلامها هذا أن حبها ليوسف بقي، لم يتغير ولم يُمحَ من قلبها، لكن الذي تغير هو نوع هذا الحب. لقد كان حبها له في الماضي حباً شهوانياً جسدياً، أعجبت بجمال جسده وأرادت مخالطته ومعاشرته، وأما الآن وبعد

(١) نظم الدرر، (١٠/١٢٨).

(٢) التحرير والتنوير، (١٢/٢٩٣).

(٣) القصص القرآني، (٢/١٧٤).



هذه السنوات العديدة، فقد نضجت ونضج حبها ليوسف معها، وتحول من حبٍ شهواني جسدي إلى حب موضوعي فكري، أحبته الآن لعفته وطهارته وأحبته لدينه وإيمانه، وتأثرت لمواقفه. ونلاحظ أن حبها الموضوعي لدين يوسف قد أثر فيها، فأمنت بالله ربه، ودخلت في دينه وصارت مؤمنة صالحة، كما يبدو من كلامها^(١): ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] أي: لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه، فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانتته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره، ولا بد أن يقيم الله تعالى سبباً لظهور الخيانة وإن اجتهد الخائن في التعمية^(٢). وتختتم امرأة العزيز اعتراضها أمام الملك بالتفاتها إلى نفسها وتسجيل إدانة جديدة إلى نفسها وبرأت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من التهمة، ولم تبرئ نفسها، وهذه موضوعية كبيرة منها وتفسير ما جرى منها فيما مضى من أنه (نزوة) من نزوات نفسها، حيث تحكمت فيها نفسها، وسيطرت عليها فأمرتها بالسوء والفحشاء وإن النفس تأمر بالسوء، إلا إذا كانت نفساً مؤمنة صالحة ناضجة، فأنضجها بالتربية، فتوجه إلى الله بالاستغفار عن كل ما جرى منها في قضية يوسف، وتندم عن كل ما فعلت من مراودات وإغراءات: ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، ونلاحظ المنطق الإيماني لهذه المرأة المؤمنة، التي بدأت أماننا شهوانية شبة متآمرة فاتنة، وانتهت مؤمنة منصفة موضوعية صالحة وهذا التغيير الإيجابي في شخصية هذه المرأة، صورة من صور توفيق الله عَزَّجَلَّ ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ونجاحه في الدعوة، حيث نجح في الانتقال بهذه المرأة من سفح الشهوات الهابط، إلى قمة الإيمان والتوبة والرجوع إلى الرب الغفور الرحيم^(٣).

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٧٥).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٣٥.

(٣) القصص القرآني، (٢/ ١٧٦).



رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ إِنَّ رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]:

كان في الكلام السابق نوع تزكية لنفسها وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استدركت فقالت^(١):

١ - ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيْ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أي: ولست أبرئ نفسي من الخطأ والهم بذلك الإثم والقيام والمكائد والحيل^(٢). والآية أصل في التواضع وكسر النفس وهضمها^(٣).

٢ - ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أي: لا ادّعي براءة نفسي، لأن نفوس العباد كثيراً ما تأمرهم بما تهواه من المعاصي، إلا من رحم الله فعصمهم^(٤). وفي هذه الآية ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، دليل على أن هذا وصف النفس من حيث هي وأنها لا تخرج عن هذا الوصف ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ أي: برحمة من الله وعناية منه، لأن النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلا كل شر فإن رحم الله العبد ومنّ عليه بالعلم النافع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف وصارت مطمئنة إلى طاعته وذكره ولم تأمر صاحبها إلا بالخير، ويكون مآلها إلى فضل الله وثوابه، قال تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

(١) التفسير المحرر لقرآن الكريم، (١١/١٨٣).

(٢) المصدر نفسه، (١١/١٨٤).

(٣) تفسير ابن عاشور، (٦/٦).

(٤) تفسير السعدي، ص ٥١٠.



فعلى العبد أن يسعى في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم وهو أنها أُمارة بالسوء وذلك بالاجتهاد وتخليقها بأحسن الأخلاق وسؤال الله على الدوام على ذلك، وأن يكثّر من الدعاء المأثور: "اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت"^(١). والآية الكريمة تدل على أنه ليس كل نفس أُمارة بالسوء، بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأُمارة بالسوء.

وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال: تكون أُمارة بالسوء، ثم تكون لوّامة، أي: تفعل الذنب، ثم تلوم عليه، أو تتلوّم فتتردّد بين الذنب والتوبة ثم تصير مطمئنة^(٢).

٣- ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]:

فنجّاه من نفسه الأُمارة حتى صارت مطمئنة إلى ربه منقاداً لداعي الهدى مستعصية عن داعي الرّدى، فذلك ليس من النفس، بل فضل الله ورحمته بعباده^(٣).

٤- ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أي: أن من شأنه تعالى كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم، فربي (غفور)، أرجو أن يغفر لي ما ارتكبته، فهو سبحانه غفور لمن أذنب وعفى ثم تاب وأناب. وربّي (رحيم) يقبل التوبة^(٤) من عباده ويعفو عن السيئات ويوفق للأعمال الصالحة.

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ص ٤٣.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٥/ ١٤٣).

(٣) تفسير السعدي، ص ٥١٠.

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٣٦.



وجملة ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، تدل دلالة أكيدة على أنها مؤمنة بالرب الغفور الرحيم.

كانت تصرفات امرأة العزيز الأخيرة تدل دلالة كبيرة على أنها قد علمت بحقيقة رسالة يوسف ونبوته عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأسلمت وحسن إسلامها، فقد كان الاعتراف بالحق أمام مجلس القضاء الملكي الأعلى، فكانت شهادتها صحيحة حق مدوية، مبرئة ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من كل تهمة، ومثبتة له كل كرامة وطهر ونبل وشرف، وفي نفس الوقت معلنة عن ذلك الإيمان العظيم في قلبها المشرق الوضيء، وما كان لأنثى مثلها أن تصدع بما صدعت به من الحق أمام الملاء العظيم لولا الإيمان، فكان يكفيها أقل منه بكثير لو لم تكن قد آمنت وصدقت.

وإذا تأملنا ما جاء على لسانها تعقيباً على اعترافها من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فمن نور هاتين الآيتين الكريمتين نرى دلائل إيمانها تتلأأ نوراً على لسانها واضحة مشرقة، ألم تقل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]؛ وهي قاعدة إلهية وسنة مطردة في كون الله تعالى، فالخائنون محرومون من هداية الله مبعدون عن رحمته مقطوعون عن فضله وكرمه، ألم تُنبئنا بحقيقة النفس وميلها إلى الشهوات ودوام أمرها بها إلا نفساً رحمها خالقها فعصمها من كل سوء كنفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصالحون من عباد الله. ألم ترُج الله ربها بعد أن تابت وأنابت ورجعت إليه أن يغفر لها ويرحمها: ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فأی دلالة على صحة إيمانها بعد كل هذا^(١).



٥- هل تزوجت امرأة العزيز بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

إن بعض كتب التفسير قد ذكرت أن زليخا امرأة العزيز تزوجت بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كذلك فإن كثير من مؤرخي تراثنا يذهبون إلى ذلك.

أخرج الطبري عن ابن إسحاق أن الملك زوجه منها، فلما دخلت عليه عروساً قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت أردت، فقالت له: أيها الصديق، كنت في غاية الجمال وكنت شابة عذراء وكان زوجي لا يطاءً، فغلبتني نفسي في حبك فدخل يوسف بها فوجدها بكرًا، وولدت له ولدين، إقرام، ومنشي. وقال المطهر القدسي: وكان يوسف تزوج زليخا فولدت له اثنين، إقرايم بن يوسف جد يوشع بن نون، وكان ولي عهد موسى من بعده، ومنشي بن يوسف أبو موسى صاحب الخضر - كما يزعم أهل الكتاب - وجاء في قصص الأنبياء المنسوب إلى الكسائي أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما اجتمع بأهله أخبرهم بما جرى له في مصر، وحدثهم بحديث (زليخا) وأن أولاده منها. وقال الكسائي في موضع آخر: وكانت (زليخا) ماتت قبل يوسف فحزن عليها ولم يتزوج بعدها.

والحق أن أمر البت في زواج امرأة العزيز من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والحكم بصحته لم يرد في أي مصدر يُعَوَّل عليه؛ يقول الإمام ابن عطية الأندلسي: وروي في نحو هذا من القصص ما لا يُوقف على صحته، وقد أشار قبل ذلك إلى ما روي عن زواجها من يوسف.

وقال الإمام الألويسي البغدادي: وخبر تزوجها أيضاً مما لا يُعَوَّل عليه عند المحدثين.

هذا، ويمكن الرد على من ادعى بأن الله أعادها شابة ليتزوجها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن ذلك لو حدث لكان معجزة له، ولأخبر عنها القرآن الكريم، كما أخبر عن



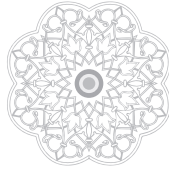
معجزة رد البصر ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ولكن ذلك لم يقع، فبطل هذا الادعاء^(١). لقد أكرم الله (زليخا) بما هو أعظم من الزواج بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكرمها بالإيمان العظيم. إن هداية الله تعالى لامرأة العزيز، وشرح صدرها للإيمان بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته، هي قمة العطاء الإلهي وهي النعمة فوق كل نعمة وكفى بها نعمة، وإن مجرد زواجها من يوسف الذي يتعلق به البعض، ويود لو كان صحيحاً لا يساوي شيئاً، فقد حكى القرآن الكريم عن المرأتين اللتين تزوجت كل واحدة منهما برسول من رسل الله ولم ينفعها هذا الزوج شيئاً عند الله رب العالمين واستحققت كل واحدة منها النار لكفرهما حتى ضرب الله بهما المثل للذين كفروا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فعطاء الإيمان العظيم لزليخا والذي جرى على لسانها فياضاً بالنور والرضا واليقين في الآيتين (٥٢-٥٣) [من سورة يوسف] السابقتين، هو العطاء الأكرم والأسمى والأبقى والمقبول عند رب العالمين، فهذا هو ما يجب أن تتعلق به القلوب وتهتم به العقول المؤمنة المخلصة^(٢).



(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٤٣.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٤٤.



المبحث السادس: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سدة الحكم والسلطان والتمكين

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا نُجْزِ الْأَخِرَةَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٧﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

أعجب الملك بأمانة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدقه وعفته وأعجب أيضاً بعلومه وخبرته فأحبه واشتاق لرؤيته^(١).

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ [يوسف: ٥٤]:

لا تزال أسهم يوسف ترتفع في نظر الملك مرة بعد مرة، وفي موقف بعد موقف، أولاً بتفسير الرؤيا، ثانياً برفضه الخروج، وثالثاً بهذه الشهادة التي أدانت بها النسوة أنفسهن وشهدت له شهادة ما قيلت في أحد من العالمين. والآن موقف رابع جديد أهم من كل ما سبق، أن يجلس إلى يوسف مباشرة ويستمع إلى هذا المنطق السديد، والفكر الثاقب الخصب^(٢).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٢).

(٢) سورة يوسف، القره داغي، ص ٤٤٦.



١ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤]:

لقد قال الملك ﴿أَتُؤْنِي بِهِ؟﴾ [يوسف: ٥٤] مرتين:

المرّة الأولى: بعد ما عبر له رؤياه، ونحسُّ هناك رغبته في الإنعام عليه، بالإفراج والعفو مع الاهتمام بهذا العالم الذي حل لغز الرؤية.

المرّة الثانية: في هذا الموقف الكبير ذكر الملك أنه يريد يوسف ليستخلصه لنفسه، فهو الآن لا يريده للعفو عنه فقط ولكن لشيء أكبر من ذلك بكثير^(١) يقولها بكل جدية وصراحة واعتراف^(٢).

تبينت للملك براءة يوسف وتبين له علمه في تفسير الرؤيا وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة، كذلك تبينت له كرامته وإبائوه وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ولا يتهافت على لقاء الملك وأي ملك؟ ملك مصر.

ولكن يقف أمامه الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته، قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله، قبل أن يطلب الخطوة عند الملك، كل ذلك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل، وحبّه فقال: ﴿أَتُؤْنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

- ﴿أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤]: السين والتاء في أستخلصه للمبالغة والمعنى أجعله خالصاً لنفسه، أي خاصاً بي لا يشاركني فيه أحد، وهذا كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه^(٣). والذي جعل الملك يتقدم هذه الخطوة نحو يوسف:

(١) القصص القرآني، (١٧٧٨/٢).

(٢) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٤٢٨.

(٣) سورة يوسف، ص ٤٤٨.



﴿أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤] هو معرفة أمانته وكرم نفسه وصدق معدنه وعمق فهمه للطبيعة الإنسانية وأن استقامتها لا تكون إلا بمدد من الذي خلقها وأن المقصود ليس أن يعمل عملاً خاصاً بالملك، وإنما يعمل لمصلحة العباد والبلاد، وأن استخلاص الملك له لنفسه هو العمل لمصلحة العباد والبلاد^(١)، وهذا ظاهر في أن الملك يسعى لإنقاذ بلاده من الأزمات الاقتصادية القادمة وأنه لن يجد مثل يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الذي توفرت في شخصيته الصفات القيادية والأخلاقية، والمعرفة الإدارية والاقتصادية لإنقاذ البلاد والعباد، ويذهب الرسول مرة ثانية وفي هذه المرة يأتي يوسف عَلَيْهِ السَّلَام متسربلاً بثوب العز مرفوع الرأس مطمئن النفس، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقد تكون ثياب يوسف ثياب لا تليق كثيراً بلقاء الملك فهي ثياب من قضى في السجن سنيًا عدداً، ولكن ماذا يضيره ونفسه تتألق طهراً وذكره ينتشر أريحاً وعبيراً يجد فيه الملك عرفاً فواحاً، وما الثياب إذاً تسربت النفوس سربال العلو والسمو؟ ورضي الله عن الشافعي إذ قال:

عليّ ثياب لو تباع وتشترى بفلس

لكان الفلس منهن أكثر

وفيهن نفس لو تُقاس بمثلها

نفوس الوري كانت أعزّ وأكبر^(٢).

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٣٥.

(٢) قصص القرآن، د. فضل حسن عباس، ص ٤٢٩.



٢- ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]:

- ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ [يوسف: ٥٤]: فلما كلمه الملك ورأى فضله وخصاله الحميدة زادت مكانته لديه^(١) ورأى فيه الملك مالم يره في أحد قط، فزاد حبه وتقديره واحترامه في قلبه وكشف ملكاته وقدرته العقلية والفكرية الإدارية والأخلاقية بتلك المقابلة العظيمة فقال له الملك:

- ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]: وهذا القرار الملكي جاء بعدما اكتملت صورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مرأى الملك من كل نواحيها وتطابقت في الغيب والشهادة وعظمت في قلبه بعد أن خاطبه وكلمه، فرأى فيه ما رأى من آيات الكمال النبوي والاصطفاء الإلهي ففرح بلقائه ونوال قربه، وفتح له الباب على مصرعيه ليتولى أي منصب يختاره لنفسه من مناصب الدولة العالية، فهذا هو المفهوم من قوله: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]؛ أي فاختر ما تحب لنفسك من مناصب الدولة العالية. لقد أصبح لك عندنا مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة وأصبحت مؤتمناً على كل شيء^(٢).

إن خطاب الملك ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ (إنك) بهذا التأكيد القوي لإعلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمكانته لديه ثم قال: (اليوم)، وهذه الكلمة تعني أنك قبل اليوم لم تكن بهذه المكانة وإنما كانت اليوم بعد ما عرفناك وبلوناك، وعرفنا أمانتك، وعرفنا قدرتك. وكلمة (لدينا) معناه نحن المسؤولون عن هذه البلاد وأنك مكين أمين عندنا في صلاحيتك لأن تتولى مسؤولية من هذه المسؤوليات التي نحن مسؤولون عنها، ولا نختار لها إلا ما عرفناه وبلونا، ولم نكتف في معرفتك

(١) التفسير المحرر، (١١/١٩٦).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٩٣).



بالذي كان منك في شأن الرؤيا ولا بما شهدته لك النسوة وإنما لما كلمناك وعرفنا قدرتك وعقلك وبصيرتك، صرت عندنا موضوعاً لهاتين الصفتين التي لا نحتار أحداً لولاية شأن من شؤون البلاد إلا إذ توفرت هاتان الصفتان فيه، أن يكون مكيّناً قوياً، نافذ الرأي وان يكون أميناً، وأنت اليوم لدينا مكيّن أمين^(١). وكلمة مكيّن أي قادر متمكن وصاحب المنزلة في قلوب الناس^(٢).

وإن المراد بقول الملك أمين: أننا نعول على أمانتك في الشيء الذي تباشره، فلا تنابحك، ولا نراقبك، ثم إن الملك لم يتخير له موقعاً بشغله وإنما ترك ذلك ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام وأنه أعرف بالذي يحسن ويتقن. وفهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام هذا فاختار عَلَيْهِ السَّلَام خزائن الأرض لكونه حفيظ عليم^(٣).

وإن هذا الموقف من الملك ليدل على خلق نبيل عند الملك أيضاً، فإنه لا يعجب بالأمانة إلا أمين، ولا بالرجولة إلا رجل، ولا بالشجاعة إلا شجاع ولو كان ذا نفس أنانية صغيرة لحسد يوسف عَلَيْهِ السَّلَام ولخشي أن تطغى شخصيته على شخصيته، ولكان أبعدده وخسر طاقة ضخمة تستطيع أن تقود سفينة أمة إلى بر السلامة، ولكن هذا الموقف بجوار أنه شهادة ليوسف فهو شهادة للملك نفسه^(٤).

إن قول الملك هذا: ﴿إِنَّكَ أَلْيَمٌ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، يدل على علو مداركه وحسن فراسته، وحبه للأخلاق الكريمة وإنصافه وعدله مع أنه من ملوك (الهكسوس) وهم البدو الرحل الذين استولوا على الحكم في مصر، واستأثروا به

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٣٩.

(٢) قصص القرآن، د. فضل حسن عباس، ص ٤٢٩.

(٣) من حديث يوسف وموسى، ص ١٣٩.

(٤) سورة يوسف، ص ٤٤٧.

دون الأسرة المعربة الحاكمة التي تنتمي إليها الفراعنة ولهذا ذكره الله تعالى بالملك، ولم يذكره بفرعون كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَام^(١) وكما بيننا سابقاً.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]:

إنّ السياق القرآني يبين أن الملك عرض على يوسف الوزارة، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام عين الحقيقة الوزارية فقط، والذي أشرف عليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام ما يمكن أن يوازي اليوم هذه الوزارات: التخطيط، التموين، الزراعة، المالية، الاقتصاد، العمل، الثروة الحيوانية، وزارة القوى البشرية والتعليم، الإعلام؛ وهذا يستخرج من قوله ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]^(٢).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام أراد أن يقوم بعمل كبير مفيد، ويتحمل مسؤوليته، فرشح نفسه لأخطر المناصب أعلاها وأكبرها عملاً وجهداً ودأباً وسهراً، وأكثرها نفعاً لعامة الناس وضعفائهم وفقرائهم، والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزمت اقتصادية خانقة تبعة كبيرة ومسؤولية جسيمة، يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تكلفهم رؤوسهم^(٣).

١ - ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]:

أي: اجعل أمر إدارة خزائن المال والطعام في أرض مصر إليّ، فأني أمين عليها، خبير بتدبير شؤونها ووجوه مصالحها^(٤). طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك، خيراً مما

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٢).

(٢) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٤٥١.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٠٥).

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٤).



ينهض بها أحد في البلاد، وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحاً من الموت وبلاداً من الخراب ومجتمعاً من الموقف الفتنة - فتنة الجوع - فكان قوياً في إدراكه لحاجة الموقف إلى معرفته بخبرته وكفايته وأمانته^(١).

٢- ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]:

ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤهلاته على خزائن الأرض وهي:

- الحفظ والعلم، وقد علمنا أن الحفظ يقابل الأمانة، والعلم يقابل القوة كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. والعلم قوة قطعاً والغريبون يقولون: إن المعرفة قوة. ونحن أحق بهذه الكلمة منهم، أما الحفظ أو الأمانة فصفة وهبية نفسية وأخلاقية توفيقية وكسبية^(٢).

- ﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾ [يوسف: ٥٥] على وزن فعيل، مبالغة: من حفظ؛ أي: شديد الحفظ لما يرد من الأرزاق والأقوات والأموال، فكأنه يقول: ليست أمانتي قاصرة فكثير من الناس أمين في نفسه ولكنه سيء التدبير، فهو مع أمانته لا يطبق حفظ ما أوّتمن عليه، لا ضعفاً في الأمانة، ولكن عدم قدرة على الحفظ والصيانة^(٣).

- ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] على وزن فعيل مبالغة من: علم، والمعنى: عظيم العلم أعرف كيف تصرف الأموال في مصارفها وأعلم كيف تُنمى وتُصان وتلك صفة تستحق صاحبها المكانة.

وهذه الكلمات تشعر بأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استفاد من السنوات التي قضاها في بيت العزيز خبرة في أمور التدبير^(٤)، فقد كان يوسف قد خبر شؤون البلاد

(١) سورة يوسف، ص ٤٥٠.

(٢) سورة يوسف، ص ٤٥١.

(٣) آيات للسائلين، ص ٢٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٧.



ونُظّمها وطرائف عيشها وأساليب أهلها فيها وذلك بحكم إقامته بها في خدمة العزيز مدبراً أمور بيته محتملاً ما يسند إليه من وظائف وأعباء وكان في أثناء ذلك، - وهو الغريب النازح - يدرس ما يجري أمام عينيه فاحصاً متأملاً مستقصياً أمور البلاد والعباد متعرفاً ما يتبعون من عادة، مستمعاً إلى ما يروون من عيون الأخبار، ومن تاريخهم، وتاريخ ملوكهم وحكامهم، وكانوا بالرواية والتاريخ شغوفين^(١).

إنّ عزيز مصر تبني يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصدقت فيه فراسته، فقد كان يؤمل فيه النفع؛ ولذلك اهتم بإعداده إعداداً مستقبلياً في صقل شخصيته، حتى يعينه على أمور الدولة ويساعده. وبهذا يعلم أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أقدم على ما أقدم عليه لمعرفته بواجبات الوقت، ولعلك تلاحظ في تعليل يوسف أحقيته بالمنصب أسباباً خصها دون غيرها، فلم يقل إني حبيب كريم، فليس الحسب والكرم الأصل مؤهلاً للولاية. ولم يقل إني مليح جميل، فليس ذلك معتبراً هنا. ولم يقل بما أنني صرت قريباً منك، أو في حاشيتك لذلك عليك أن توليني، فليس ذلك مؤهلاً من مؤهلات ولاية العامة. ولم يقل كذلك: ولني لفصاحتي ولباقتي ونحو ذلك مما حباه الله إياه وفاق فيه غيره، لأنّه لا يناسب الطلب، بل ذكر الحفظ والعلم، وهنا مربط الفرس^(٢)، وقد يرد سؤال هنا: لِمَ اختار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خزائن الأرض تحديداً؟

فيقال أولاً: لأنها من أرفع الولايات، وقيل: هو المنصب الذي كان يتولاه العزيز، ويوسف من خلاله يستطيع أن يحكّم شيئاً من شريعة ربه. ثانياً: لأنها

(١) مصر في القرآن والسنة، د. أحمد يوسف، ص ٦٢-٦٤.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٤٧.



تتناسب مع خبراته السابقة المستفادة من نشأته في بيت العزيز السابق. ثالثاً: لارتباطها بمصالح الناس، وبذلك يكون قريباً منهم يمكنه أن ينفذ إلى قلوبهم ويرغبهم في توحيد الله والإيمان به وإفراد العبودية، ويعرفهم بالدين القيم. رابعاً: معرفته بواقع البلد وبالأزمة المقبلة عليها وبحاجتها للحفيظ العليم الأمين. فلعل هذه الأمور مجتمعة وربما غيرها اقتضت تعيين تلك الولاية على وجه الخصوص^(١).

وقد استدل أهل العلم بخبر يوسف هذا على جواز طلب الولاية إذا علم الطالب أنه لن يقوم بها على وجهها غيره، أو غلب على ظنه أو احتاج الناس له بعينه فيها، بل قال بعضهم بوجوب طلبها في هذه الحال، ونقل بعضهم الاتفاق على جواز طلبها^(٢)، وأما حديث عبد الرحمن بن سمرة في الصحيحين قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها"^(٣). فلا يرد على هذا لأنه لم يكن عبد الرحمن بن سمرة منفرداً بالفضل على سائر الصحابة فيما طلب^(٤). إن طلب الولاية إذا كان لحفظ النفس كتحصيل مكسب يراه حلاً أو يشتمل على تقديم غير الكفء فلا يجوز، بل على الوالي إذا جاءه من يطلب الولاية وهو يعرف أن في البلد من هو مثله أو من هو أكثر كفاءة فلا يوليه لأن طلبه للولاية نقص، ومخالفة لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهديه. أما إن طلب إنسان الولاية لمصلحة الأمة، فلا حرج عليه، بل قد يجب عليه ذلك إذا لم يسد

(١) المصدر نفسه، ٢٤٨.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٤٩.

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان والنذور، ح رقم ٦٢٤٨.

(٤) آيات للسائلين، ص ٢٥٠.



غيره مسده^(١)، ودل قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للملك: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، على جواز قبول العمل والوظيفة من الحاكم الكافر، وخاصة إذا كان في العمل مصلحة لبني آدم ورعاية لشؤون الإنسان بما يرجع بالنفع عليهم في دينهم ودنياهم ودلائلهم على الخير وهدى الأنبياء والمرسلين.

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان حصيماً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعية الضخمة في أشد أوقات الأزمة، وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل^(٢). ويرى ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: أن هذا المجتمع الكافر لابد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته ورعيته ولا تكون جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكنه فعل الممكن من العدل والإحسان ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يمكن أن يناله بدون ذلك وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿فَأَنقَضُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولقد اعترض المانعون على المجيزين في استدلالهم بقبول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للوزارة وقالوا: إن شرعنا لا يجيز تولي الوزارة في ظل حاكم غير مسلم، وأما تولي يوسف للوزارة فهو شرع لمن قبلنا، وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا إذا جاء في شرعنا ما ينقضه، ورد المجيزون على هذا الاعتراض بوجوه:

الوجه الأول: أن شرعنا وشرع يوسف، بل شرائع الأنبياء جميعاً متفقة في تقرير حاكمية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقرر مخاطبته للفتيين الذين دخلا

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٠٥).



معه السجن أن الحكم لله وحده ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ
 أَلْقَيْتُمْ﴾ [يوسف: ٤٠] ^(١) إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم
 ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، ومن ادعى الحق فيها فقد نازع الله
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أول خصائص الألوهية ^(٢). ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام الذي يعلم هذا الحكم
 المقرر في جميع الأديان هو الذي يتولى منصب عزيز مصر، ويقول للملك:
 ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، فيتولى هذا المنصب وهو يعلم أن
 للملك نظاماً وشريعة لا يستطيع أن يزجها بين عيشة وضحاها: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ
 أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، إن هذا النص يحدد مدلول كلمة الدين في هذا
 الموضوع تحديداً دقيقاً، إنه يعني نظام الملك وشرعه، فإن نظام الملك وشرعه
 ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته ^(٣) فإذا كان فقه يوسف
 عَلَيْهِ السَّلَام للحاكمية هو الفقه نفسه المقرر في شريعتنا ومع ذلك تولى الوزارة فإننا
 نجزم في هذا المقام بأمرين:

أ- أن توليه للوزارة لم يناقض عقيدته في كون الحاكمية لله وحده.

ب- وأنه لم يكن مخطئاً عندما تسلم الوزارة، لأنه نبي معصوم.

الوجه الثاني: ومما يدل على نفي هذه الشبهة وإبطالها إخبار الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى
 أن استلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الوزارة كان رحمة ونعمة ولم يكن عذاباً ونقمة: ﴿قَالَ
 أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۖ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا
 حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٥ - ٥٦]:

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، (٥٧/٢٠ - ٥٦).

(٢) في ظلال القرآن، (٤/١٩٩٠).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٢٠).

فالله يقرر أن استلام يوسف للوزارة هو باب التمكين له في الأرض وأنه رحمة أصابه بها وإنه أجر دنيوي عاجل وما ينتظره من الله من الثواب الآجل أعظم وأكبر: ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يصرح بأن استلامه للحكم كان من نعم الله عليه ولم يكن نقمة: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الوجه الثالث: والنصوص التي ذكرت تدل على أن هذا الحكم ليس خاصاً بنبي الله يوسف، دون سواه، ذلك أن النص صيغ صياغة عامة: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، ثم من ادعى أن هذا الحكم خاص بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دون سواه عليه أن يأتي بالدليل، لأن الأصل في سير الأنبياء والمرسلين يراد به التآسي والافتداء فكيف إذا جاءت النصوص القرآنية الخصوصية مشيرة إلى العموم^(١).

لقد تحدث المفسرون في هذه القضية:

- نقل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: عن بعض أهل العلم إباحة طلب الرجل الفاضل بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك، ونقل القرطبي عن قوم أن هذا كان ليوسف خاصة دون غيره، ولكنه رجح القول الأول^(٢).

(١) حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ص ٢٩-٣٢.

(٢) تفسير القرطبي، (٧/١٥١٢).



- استدل الألو سي رَحْمَةُ اللَّهِ بطلب يوسف الولاية على جواز ذلك لغيره إذا كان الطالب قادراً على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر، بل ذهب الألو سي إلى أنه قد يجب الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلاً، وكان متعيناً لذلك^(١).

- وقال الشوكاني رَحْمَةُ اللَّهِ: وقد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر، بل الكافر، لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق^(٢).

هذا وقد وجد الملك في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الأمانة والخبرة فوافق على طلبه وسلمه مسؤولية إدارة الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مملكته كلها وأصبح عَلَيْهِ السَّلَامُ الوزير الأول في مصر وعزيزها وصاحب الكلمة النافذة فيها بعد الملك، وجمع الله له بهذا النبوة والحكم فقد كان نبياً وحاكماً وفي هذا ردٌّ على أولئك الذين يحصرّون مهمة الأنبياء في بيان شؤون العقيدة، والعبادة فقط ويحاولون عزل الدين على الشؤون المتعلقة بالحكم والسياسة والاقتصاد وغير ذلك من الأمور العامة^(٣).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

بين الله تعالى فضله على نبيه يوسف ونعمته عليه، فقال:

(١) تفسير الألو سي، (١٣/٥).

(٢) فتح القدير، (٣/٣٥).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٩٦).



١ - ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]:

أي: مثل هذا الذي كان له التمكين عند الملك. (كذلك) مركبة من كاف التشبيه. و (ذا) الإشارة، ولام البعد وكاف الخطاب، وهذا يُشعر بنفوذ أمر يوسف في الأرض، بل بنفوذه عند من تمكن عنده أولاً وهو الملك، فقول من قال من المفسرين: لم يكن الملك يخالف له أمراً، ليس ببعيد، وتلك حال كل من تمكن عنده إنسان ثم ائتمنه^(١).

- ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦] ترسيخ وتثبيت الوجود والحضور في الزمان والمكان مادياً ومعنوياً^(٢). ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] أي: أرض مصر والحدود التابعة للمملكة الهكسوسية.

- والتمكين: السلطان والملك^(٣). إن القرآن الكريم تحدث عن مادة التمكين وقد كتبت فيها رسالة الدكتوراه (فقه التمكين في القرآن الكريم)، وأشار القرآن الكريم إلى أنواع التمكين وشروطه وأسبابه ومراحله وأهدافه:

ومن أنواع التمكين:

- تبليغ الرسالة وأداء الأمانة وهذا واضح في دعوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحبيه في السجن إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة وترك الشرك وبيان خطورته.

- المشاركة في الحكم، حيث مكن الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السلطة والحكم بمرسوم ملكي ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

(١) آيات للسائلين، ص ٢٥٦.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص ١١١.

(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، د. علي الصلابي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م، ص ١٧.



ومن أنواع التمكين الكلي، تمكين الله تعالى لذي القرنين وداود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة بعد فتح مكة. ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦]، بأن الله تعالى أسند التمكين على ذاته العلية بصيغة: (نا)، للدلالة على كون الأمر مهماً، وأنه لولا تمكينه لما تحقق ليوسف شيء^(١). وهذا حق بارز وواضح من القصة، فمن غلام مهدد بالموت في الجب أو الضبيع إلى عزيز مصر يحكم مصر، يتبوأ منها حيث يشاء، فتبارك الله العليم الحكيم القادر القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

والآية الكريمة هنا تذكر التمكين في الأرض وهو أعم من التمكين السابق في بيت العزيز، لقد صارت صلاحياته الآن تستغرق القطر المصري كله، وتشمل الديار المصرية برمتها والمقدرات المصرية جميعاً، وإن يوسف لما لم يجعل للشهوات على نفسه تمكناً مكنه الله من ملك مصر^(٣).

٢- ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]:

فيُشير إلى تقلبه فيها معزراً، ويشير إلى متابعته الأحوال المصرية على الطبيعة والزيارات الميدانية للأقاليم، لأنه بالتجربة البشرية يرى وبالمشاهدة يدرك، أنه لا تنفع خطة ليس وراءها متابعة. ثم هذه الإشارة إلى أن الذي يضع الأحداث في الحقيقة هو الله عَزَّ وَجَلَّ. والتبوء: اتخاذ المكان للتبوء، أي الرجوع، فمعنى التبوء النزول والإقامة، وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر^(٤).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للقره داغي ص ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٣) سورة يوسف، ص ٤٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.

أي: ينزل منها حيث أراد، وكأنه يتصرف في أرض مصر كما يتصرف الرجل في منزله ليضع فيه ما يشاء، وهذا التمكين قدرى قضى الله تعالى له به لا ينزع منه^(١).

٣- ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]:

وهذا هو التفسير الإيماني للأحداث، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وجملة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦] تذييل لمناسبة عمومته لخصوص ما أصاب يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطى من النعم جزاء لها ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى^(٢). وتدل الآية أن هذا التمكين في هذه الأحداث أمر إلهي وأن تصارييف قصة يوسف من أولها إلى آخرها هي تصارييف رحمة الله، وأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من هؤلاء الداخلين في قوله ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦] ونلاحظ أن جملة: ﴿مَكَّنَّا يُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] كأنها تنادي جملة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، ثم راجع لترى الأمر الإلهي الذي تنطق به جملة ﴿مَكَّنَّا يُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] وجملة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وأنه ليس هناك من يقول مكنا ليوسف في الأرض إلا الله ولا يقول ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦] إلا الله^(٣).

- ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]: يتخذ منها المنزل الذي يريد والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد، في مقابل العجب وما فيه من مخاوف والسجن وما فيه من قيود.

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٥٤.

(٢) سورة يوسف، ص ٣٥٨.

(٣) من حديث يوسف وموسى، ص ١٤١.



- ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]: فنبذله من العسر يسراً، ومن الضيق فرجاً، ومن الخوف أمناً، ومن القيد حرية، ومن الهوان على الناس عزاً ومقاماً علياً^(١).

٤ - ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

الذين يحسنون الإيمان بالله والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس^(٢). والإحسان يشمل معناه اللغوي الشامل للإخلاص والتقوى والرحمة، وعمل الخير، والجودة، والإتقان، والإبداع، وكل هذه المعاني مطلوبة، وبمقدار الرقي فيها يكون مقدار الثواب والجزاء بإذن الله تعالى، بل إن الله عَزَّجَلَّ جعل امتحان الأمم في الدنيا في النصر والتمكين بسنة الإحسان بمعانيه الشاملة، قال تعالى: ﴿لِبَلِّوْكُمْ أَتْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]؛ أي: يمتحنكم أيكم - فرداً أو جماعة أو أمة - أحسن عملاً، وأتقن عملاً وأكثر إبداعاً وتأثيراً^(٣). وقد عقَّب الله عَزَّجَلَّ على التمكين من أرض مصر والسلطة والملك بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، مما يدل بوضوح أن التمكين بالملك والقوة والسلطة رحمة من عند الله، وبركة من عنده، وأنه جزء من جزاء المحسنين المتقين الخيرين المبدعين، وهذا يدل على أن السلطة العادلة ليست شراً بل هي خير وبركة، ولكن بشرط استعمال السلطة والقوة والملك في الخير وخدمة الناس وانقاذهم والرحمة بهم^(٤).

(١) في ظلال القرآن، (٤/٢٠١٤).

(٢) المصدر نفسه، (٤/٢٠١٤).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، للقره داغي، ص ١٠٤.

(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٤١.



إن قول الله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، ومن تمام جملة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، والمعنى نصيب برحمتنا من نشاء، والحال أننا لا نضيع أجر المحسنين، وتعلق جملة ولا نضيع أجر المحسنين بالجملة قبلها تشرح لنا أن رحمة الله - سبحانه - التي يصيب بها من يشاء. إنما نصيب المحسنين أي الذين يعملون عملاً - أي عمل - ويحسنون فيه، لأنه لا يجوز لأحد أن يتكئ على أريكته وأن ينتظر إصابة رحمة الله له، ولو تصورت أن الجملة التي هي ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، ليس لها بقية وإنما انتهى الكلام بها لفتحت باب التواكل وانتظار الرحمة، ومن المهم جداً في فهم الدين والدنيا معاً أن نعلم أن رحمة الله التي هي توفيقه، وتسديده، وإنجاحه، وهدايته لعباده، إنما هي مقترنة بالإحسان الذي هو الإتقان والتدقيق، وأنها أصابت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن الإحسان كان ديدنه ودأبه. وراجع قصته من أول ما عاش في بيت العزيز، وقد بلغ أشده، ثم في السجن وإتقانه لكل ما هو بسيله، ومن المهم جداً أن ترجع بهذه الصفة صفة (المحسنين) إلى الوراثة تجدها مع يوسف في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرْزُقُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، وتجدها في هذه الآية وصفاً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن رحمة الله أصابته ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]^(١).

إن صفات الإحسان في الأعمال مهمة جداً في عمارة الأرض وسعادة الإنسان وبني آدم عموماً، وإن الله عَزَّجَلَّ يحب الإحسان في الأمور كلها، فإن كنت كاتباً فعليك بالإحسان، وإن كنت عاملاً في مصنعك فعليك بالإحسان واعلم أيها العامل في المصنع أو في ميدان من ميادين الحياة أنه يمكنك أن تكون من المحسنين الذين تصيبهم رحمة الله، والذين يحبهم الله لأنه يحب

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٤١.



المحسنين، ليس باللازم أن تكون فقيهاً أو مفسراً فإذا كنت عامل نظافة، وأنت محسن فأنت خير من رئيس الحي الذي لا يحسن، وخير من الفقيه والمفسر الذي لا يحسن، وقد قال أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قيمة كل امرئ ما يتقنه"، ولم يقل ما يعمله، فجعل قيمة المرء في الإتقان^(١).

كما أن الإحسان لا يكون ولا يمكن أن يكون إلا بالعلم فالجاهل لا يُحسن ولو كنت معلماً لن تحسن إلا بمزيد من العلم، وبمقدار زيادة العلم تكون زيادة الإحسان، ولن يحسن الطبيب في طبه إلا بزيادة العلم، وكذلك الصانع في صنعته، وكذلك في الأمور كلها، وهذا يعني أن توفر الإحسان في حياة الشعب لن يكون إلا بتوفر العلم والعناية الفائقة بالتعليم، والبحث، ونشر ذلك في الناس. وإذا كان الإحسان الذي هو الإتقان هو السبيل الذي لا سبيل للناس سواه في التقدم والرفي، وتحصيل الحياة الكريمة والعيش الكريم، والقوة الكريمة، فإنه لا يمكن أن يوجد شيء من ذلك إلا بالعلم، فإذا قال لنا ربنا: إن المحسنين لا يضيع أجرهم في الدنيا ولأجرهم خير في الآخرة، فلا بد أن نبحت في شروط الإحسان وأن نعرف ما لا يكون الإحسان إلا به، وأن ما لا يكون الإحسان إلا به فهو إحسان، وإذا كان لا يكون إلا بالعلم فالواجب أن نحسن العلم، حتى يُفضي إحسان العلم إلى الإحسان في الأمر كله^(٢). إن الإحسان يقتضي استقامة العقول، وإخلاص القلوب والقول الطيب والعمل الصالح^(٣).

ثم انتقلت الآيات الكريمة بعد ما بينت بأن الله سبحانه يجازي المحسنين بكمال وتمام الأجر وأنه قد كافأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتمكين مع محبة من تولى

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٣٥).



أمرهم، وأنه سبحانه لا يجزي المحسنين في الدنيا فقط ولكن يجازيهم بخير أبقي في الآخرة^(١):

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَلَا جَرْءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]:

إن الآية الكريمة تدل بوضوح على أن النجاحات في الدنيا مهما كانت عظيمة وكبيرة مفيدة، لكن أجر الآخرة أكبر وأفضل وأبقى وأصلح للمتقين، والآية الكريمة فيها:

- توجيه المؤمنين إلى ربط قلوبهم بالله تعالى وبالعامل للآخرة وفي ذلك تربية وتوجيه عظيم.

- أن الدنيا ليست شراً من حيث الأصل، بل هي حسنة وجيدة، لأن لفظ (خير) اسم تفضيل، أي: أنه أفضل ولكن الدنيا التي يستثمرها المؤمن المتقي لخدمة دينه وأمته ولخدمة الإنسانية جميعاً، هي طيبة، بل إن الدنيا مزرعة الآخرة وأن ما يحصده الإنسان في الدنيا هو الذي يجنيه في الآخرة.

- أن المسلم يستطيع أن يجعل أعماله في الدنيا وقوته وماله وغناه لتحقيق حسنتي الدنيا والآخرة، فلو التزم المؤمن بالنية الصادقة، والعمل الصالح، فإن جميع أعماله من الإصلاح والملك وتحقيق العدالة وتوفير الخير للناس أجمعين فهو لله تعالى، وينال جزاءه في الآخرة - كما فعل سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَام - فليس هناك تناقض بينهما^(٢).

يقول العلامة محمد أبو زهرة في تفسيره لهذه الآية ﴿وَلَا جَرْءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]: اللام لام التوكيد والآية الكريمة تبين أن أجر

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٠٢).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، للقره داغي، ص ١٠٥.



الآخرة خير من هذا الذي رأيناه ليوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ وإنما يستحقه من كان فيه وصفان:

الوصف الأول: الإيمان: فقال ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يوسف: ٥٧] وقد أطلق الإيمان ليشمل الإيمان بالله تعالى وهو رأس الإيمان، والإيمان بالحق والإيمان بالفضائل والإيمان بحقوق الناس وحماية هذه الحقوق ويصح أن تقول إن الإيمان بالله تعالى يتضمن هذا كله.

الوصف الثاني: التقوى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَاْنُوا يَتَّقُوْنَ﴾ [يوسف: ٥٧]؛ أي: استمروا على التقوى. والتقوى استشعار خشية الله تعالى، وأن يجعلوا بينهم وبين المفسد أياً كانت وقاية من الانحدار في مخازي الشيطان^(١).

إن الآية الكريمة ذكرت الإيمان والتقوى وأثرها في رفع المقامات عند الله يوم القيامة من أمثال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن سار على نهج الأنبياء والمرسلين.

١ - قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره للآية: ﴿وَلَا جَزَأَ لَآخِرَةٍ﴾ [يوسف: ٥٧] أي: أجرهم في الآخرة. وأضيف الأجر إلى الآخرة للملازمة، وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها، وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها، ولا تنقضي مدتها: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُوْنَ﴾ [يوسف: ٥٧]، يتقون الوقوع فيما حرمه عليهم، والمراد بهم المحسنون المتقدم ذكرهم وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى^(٢).

٢ - قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: إن الله لا يضيع أجر المحسنين ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ولهذا قال تعالى:

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٣٦).

(٢) فتح القدير، (٣/٥٠-٥١).

﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧] - من أجر الدنيا - ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧] أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات^(١). إن الآية السابقة بينت أن إحسان العبد لا يضيع عند الله تعالى ولا بد من حسن عاقبته في الدنيا. ثم عقبت الآية بذلك بأن حال الآخرة أعظم وأجل، فقال تعالى: ﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٥٧] أي: ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين. إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يُدَّخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يُخَوَّلون به في الدنيا من التمكين في الأرض والحياة والثروة والملك، والمؤمن التقي في الآخرة هو أسعد حظاً وأرقى نعيماً من حاله في الدنيا، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو موضوع الحديث لئن كان قد تبوأ في مصر حيث شاء فلا شك أن مقامه في الآخرة أعظم وأعلى وأكرم حيث في منازل الأنبياء والمرسلين^(٢).

خامساً: خطة يوسف الاستراتيجية لإنقاذ شعب مصر وما حولها:

ضرب القرآن الكريم مثلاً للتخطيط السليم الذي قام على أسس منطقية، فأمكن بذلك تلاقي مجاعة كانت تهدد الناس في مصر ومن حولها بسبب التخطيط السليم الذي قام به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أمين على الخزائن وذلك حين فسر الرؤيا التي جاءت على لسان ملك مصر - كما مر معنا - إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فسر الرؤيا وزاد عليها بأن قدم خطة عمل تستغرق القطر كله والشعب المصري كله، أي أن خطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت،

(١) تفسير السعدي، ص ٥١١.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٥٦.



ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة وهذا الذي أراده يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وعبر عنه بقوله ﴿تَزْرَعُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، إن الذي يخطط له يوسف عَلَيْهِ السَّلَام هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي ولأن سلوك الناس في الأزمات غير سلوكهم في الظروف العادية - استرخاء وبطالة - فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير^(١).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قسم خطته إلى ثلاث مراحل:

- ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ [يوسف: ٤٧].
- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨].
- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ٤٩].

وتظهر ملامح هذه الخطة في الآتي:

١- الطابع الغالب على المرحلة الأولى وهو الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَام حدد خطط الإنتاج بالزراعة، وحدد استمرار الإنتاج الزراعي سبع سنين العمل فيها دائب لا ينقطع ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك، يبدو في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي: ﴿فَدَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ [يوسف: ٤٧].

٢- فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الأقوات

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص ٤٠٩.

سبع سنين عجاف، وبعبارة أخرى: بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى سيأتي تحمل أيضاً في المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم.

٣- ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق، ينبغي ألا تأتي هذه السنوات العجاف على كل المدخرات وإنما كان يوسف واضحاً في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]، فكان هذ الجزء المدخر هو (الخميرة) التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف، أي إعادة استثمار المدخرات، ومن طبيعة التطور أن تختلف: (تفاصيل الصورة)، ولكن أساسها سيظل قائماً عميقاً في ديننا وتراثنا^(١)، وتظهر معالم التخطيط والإدارة في كلمات يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث إن التخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على داعمين وخمسة عناصر، أما الدعامتان، فهما التنبؤ والأهداف وأما العناصر فهي السياسات، والوسائل، والأدوات، والموارد البشرية والمادية، والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التقديرية التخطيطية^(٢). إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: أنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق، وهذا عين الذي زاوله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحية السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي والزراعي، كل ذلك في ذهنه قد أعد إعداداً دقيقاً^(٣).

(١) مواقف إسلامية، د. عبد العزيز كامل، دار المعارف الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ٨٣-٨٦.

(٢) سورة يوسف، ص ٤١٥-٤١٦.

(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص ٢٧٩.



❖ دعامتا التخطيط: التنبؤ والأهداف:

أما التنبؤ: فاستشرف المستقبل واستشفاف الآتي، وهذا عين ما كان يوسف بما علمه الله - تعالى - ثم نجده أيضاً قد حدد الأهداف في مضاعفة الإنتاج وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام وهذا يقتضي خطة تفصيلية، لأن الهدف العام الكبير ليس شيئاً إن لم يقترن بخطته التفصيلية، وهنا يأتي دور السياسات والوسائل، والأدوات والموارد البشرية والإجراءات والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية. هذا هو ما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَام على ضوء علم الإدارة الحديث وإن كان القرآن الكريم حصر كلام يوسف في جمل جامعة وجيزة ولم يشر إلى تنمية الإنسان، لكنها متضمنة قطعاً ضمن الخطة، لأن القرآن الكريم علمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه، ومحتواه، وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيراً. لقد وضع يوسف عَلَيْهِ السَّلَام العنصر البشري في خطته لعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذي ينفذها. وأما منهجه في التعامل مع الإنسان فقد ظهر في دعوته للسجينين لتوحيد الله وإفراد العبادة له وبذلك يكون منهجه في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع ودعوته للتوحيد وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة. إن فائدة التعبير الخارجي تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير الخارجي، صحته وصدقه وأمانته، وإن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان في المحتوى النفسي، فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل ثم يجسد محتواه النفسي تغييراً خارجياً ويحول إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق، لأن أحوال الناس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تتغير إلا إذا تغير محتوى الإنسان وما هو عليه من الحق أو الباطل، هذا هو منطق القرآن الكريم، والحياة لكي ترسي نظاماً لا بد أن تهيب له إنساناً أولاً.



إذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الإنسان ومفاهيمه فسرعان ما يتسرب الفساد من الإنسان إلى النظام، فيقيضه أكثر مما يتسرب الإصلاح من النظام إلى الإنسان فيصلحه، لأن الأنانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والأنظمة مالم تهذبها التربية الداخلية العميقة والأخلاق الكريمة المبنية على معرفة الله وحبه والخوف منه^(١).

إن الآيات القرآنية الكريمة أشارت إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطاً مباشراً، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطة:

١ - استعداد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن يشرف على تنفيذ هذه الخطة وكان هذا الاستعداد بعد أن بدد ظلال الشك وأوهام التهم عن نفسه وبذلك حدث التكامل القوي بين الخطة والمخططين، بين حساب الأرقام وحساب الأخلاق بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع بين الدين والحياة^(٢).

٢ - الجانب الثاني: يتجلى في اختيار معاونين الذين ساعدوه في عمله فكان من رجال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ المعين الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء^(٣).

كما أشارت الآيات القرآنية إلى المعلومات اليقينية التي بنى عليها يوسف خطته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨].

إنّ من معالم الخطة السياسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مبنية على معلومات تقنية صادقة حقيقية لا على الخيال الشعري المجنح الذي لا يرتبط

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص ٤١٨-٤١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

(٣) مواقف إسلامية، ص ٨٦-٨٩.



بالواقع ومن هنا صارح يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الشعب بالشدائد التي تنتظره لكنها ليست المصارحة التي تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التي تدفع للعمل وتزيد الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة. إن السبع التي تلي الرخاء ستكون مجدبة لا تعطي بل تأخذ وتأكل فهي تقتضي حرصاً واحتياطاً^(١).

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨] لا زرع فيهن يأكلن ما قدمتم لهن وكان هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما قدمتم لها لشدة نهمها وجوعها ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ﴾ [يوسف: ٤٨] أي: إلا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدية، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم في سنوات الخصب، وتنقضي وبعدها عام رخاء، يغاث الناس فيه بالزرع والماء وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً وسمسمهم وخسهم فيعصرونه زيتاً، وهنا نلاحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبشر به الساقى لبشر الملك والناس بالخلاص من الجذب والجوع بعام رخيٍّ رغيد^(٢). ونلاحظ في الآيات القرآنية الكريمة التي تكلمت عن خطة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عنصر الأمل والتفاؤل وهذا الأمر مهم في الخطة الناجحة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]؛ إن بعد الشدة التي أشار إليها يوسف انفرجاً ورخاء وستعود الأمور بإذن الله تعالى إلى مسيرتها الأولى، ولكن بداية العودة تكون عاماً مباركاً غير معهود العطاء وفرة وكثرة، وكان الخير فيه سيفيض بغير جهد، فهو غانم ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]

(١) سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص ٤٢٧.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/١٩٩٤).

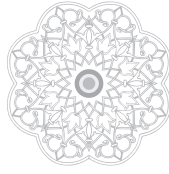
أي: يسقون الغيث، أو يغاثون: ينجدون، من الغوث، وكل ذلك متلازم؛ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ الناس إلى العصر للثمار إلى بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الأساسية وهي الأكل. ولا بد من الأمل والتفاؤل في أي خطة وإلا فإن انعدام الأمل فما الداعي إلى العمل؟ ولقد حرّك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دوافع العمل عندهم بتحذيرهم من شدة سنوات القحط ثم حركها ثانية بفتح نافذة الأمل^(١).

إن يوسف كان مظلوماً مضطهداً في سجن الملك وهو يملك المعلومات والخطط ما يجعله في محل قوة عند المفاوضة إلا أنه لم يشترط لنفسه شيئاً، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح، والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلماً لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مستوعباً لفقه الخلاف حيث إن الملك والشعب بعيدون عن منهج، منغمسون في مناهج الجاهلية، ومع هذا التقى معهم في الخير المحض والسعي نحو إنقاذ البلاد والعباد في محنة المجاعة والقحط. وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة الناس ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض.

وقد كان من ثمار تدبير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء وفي هذا القصص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي، لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها^(٢).

(١) سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص ٤٢٨.

(٢) فقه النصر والتمكين، للصلاحي، ص ٢٨٢.



المبحث السابع: مجيء إخوة يوسف إلى مصر وإكرامه لهم وطلبه حضور أخيه من أبيهم

قال تعالى ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ اللَّاتِي تَرَوْنَ أَتَىٰ فِي الْكِتَابِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩ فَإِنَّ لَّهٗ تَأْتُونِي بِهِ ۖ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مِّنْ مِّنَّا الْكِتَابُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٦٤ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ ۖ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَّسِيرٌ ۖ﴾ [يوسف: ٥٨ - ٦٥]:

يشمل القحط والجفاف مصر وما حولها من البلاد وتسامع الناس في كل مكان أخبار التوزيع للمؤن والطعام في مصر وأخبار العزيز الصالح فشدوا الرحال إليه من كل حذب وصوب، يمتارون في هذه السنوات العجاف^(١).

أولاً: قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

[يوسف: ٥٨]:

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٩٩).

جاء ذكر خبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مباشرة بعد قصة توليه خزائن الأرض رغم أن الفاصل الزمني بين الحدثين بضع سنين، وإخوته ما جاؤوا إلا بعد انقضاء سنوات الرخاء وبداية سنين الشدة، فطوى القرآن أمر امرأة العزيز، وحلول سنين الخصب والادخار ثم اعتراء سنين القحط لقلة جدوى ذلك كله في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقيه الأنبياء في طريق دعوتهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى ولأنه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصة إلى ما فيه العبرة من مصير إخوة يوسف، وقصص القرآن الكريم جميعها تقتصر على مواطن العبر والعظات ولا تعبأ بسرد فضول الأحداث، وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى ولما كانت السنة وحيًا كان في كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء من ذلك، فقد اختصر له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكلام اختصاراً وهذا مما فضل به نبينا على سائر الأنبياء^(١).

وكما ضرب الذكر عن بعض تفصيل الأحداث ضرب الذكر عن بيان سبب انقطاع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه، وهذا السؤال يرد على فرض أنه كان بوسع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأتي بأبويه مباشرة بعد توليه وزارة مصر، ولكنه مع عظيم شوقه لأبيه وذويه لم يفعل ذلك والعزم بهذا الغرض فيه نظر، فمن أين لنا أن الملك كان يأذن للوزراء في مغادرة المملكة وحال البلد مخوفة، ولا سيما من تمس الحاجة إلى وجوده، وربما كان السبب أمر الله تعالى له بذلك وهذا يفهم من إمكان طلبهم ولا سيما بعدما مجيء إخوته مع عدم فعله، فقال بعضهم: لا يكون تركه لهذا إلا بتوقيف فصبر على بعدهم حتى أذن الله تعالى له باستقدامهم. وقيل: بل ربما كان سببه الانشغال بالأعباء الواجبة من إصلاح الفساد الإداري

(١) آيات للسائلين، ص ٢٥٩.



مع العمل الدؤوب والإعداد المتواصل لسبع سنوات حسوم مقبلة، فضلاً عن أعباء وظيفته الربانية المكلف بها إلا وهي دعوة من ضل إلى الهدى. وربما اجتمع أكثر من سبب وهذا الأخير لعله أظهر، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام يعلم أن أباه نبي مؤيد بالوحي مسدد، ومن كان هذا شأنه فهو في خير حال، فلم يكن شوقه لرؤيته والاجتماع به وبأمه وإخوته، مقدماً عنده على الحقوق الواجبة، سواء كانت دعوة أو أعباء دولة، ومع ذلك ربما توقع وفدهم عليه بأرض مصر لسابق رؤياه في صغره التي يعلم أنها حق ولعلمه بواقع الناس واضطرارهم للمجيء^(١).

١ - ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٨]:

دونما حاجة إلى الشرح ومقدمات عن أحوال البلاد المجاورة لمصر، علمنا فور رؤيتنا لهؤلاء الإخوة أن فاقة أتت بهم وجائحة نزلت ببلادهم وأرزاقهم في فلسطين، وإن جلوس يوسف للناس ليعني أكثر من مسألة، منها أنه يتابع في مصر كل الأمور، وخاصة ما يتعلق بضرورات الناس الحياتية وعدالة توزيع معاشهم. وثانياً: فتح أبوابه للناس حتى يتمكن كل أحد من الوصول إليه والدخول عليه. ثالثاً: لعله لتعليم الله له، علم أن إخوته سيبحثون عن الطعام، فهو جالس يتفقد كل قافلة ينتظر أن يرى إخوانه، ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر البيع بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة^(٢).

ونلاحظ أن الفاء في قوله: ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٨] تعني أن دخولهم عليه كان عقب مجيئهم بلا مُهْلَة، وأن آخر المجيء موصول بأول الدخول^(٣)،

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٢) سورة يوسف، ص ٤٦٠.

(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٤٧.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٥٨] نسبتهم الآية إلى يوسف وعرفتهم به، فلولا له لكانوا نكرات لا يذكرهم أحد ولا يعرفهم^(١).

٢- ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]:

- ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ [يوسف: ٥٨]: وكانت لحظة رؤيته عَلَيْهِ السَّلَامُ لحظة فاصلة بين ماضي ولّى وحاضر أتى، ولعله عَلَيْهِ السَّلَامُ تذكر آخر مشهد معهم وهم يجعلونه في الحب ويتركونه لمصيره المجهول، ثم رأى كيف أفاض الله تعالى عليه من نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فأكرمه بالمكان العالي والمكانة الشامخة وبالنبوة والرسالة، وجعله الوحيد الذي يتوجهون إليه مضطرين ويقصدون عطاءه ومددَه لهم، بعد أن ولوا ظهورهم له في الماضي، وكانوا له كارهين وللعيش معه مبغضين، ولم تتأثر نفسه العالية الكريمة بكل ما وقع منهم تجاهه فلم يكن منه إلا الحنان الصادق والعاطفة الرحيمة نحو إخوته الذين قدموا من بعيد بحثاً عن الطعام لهم ولأهلهم، بعد أن دار عليهم الزمان وتحكم فيهم القحط والجذب، ولم تغن عنهم قوتهم وعصبتهم التي كانوا يتفاخرون بها في إبعاد شبح الجوع عنهم. وشاء الله بحكمته وقدرته أن يعيدهم من شر المجاعة على يديه الكريمتين، ولا شك أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ برؤيته لهم قد شعر بحنان جارف نحو أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الرحيم به والحبیب له، الأب المبتلى بفقد أحب أولاده إليه والذي أثقلته الهموم وهدّته الأحزان وأضناه فراق حبيبهِ يوسف الذي انقطع أثره وخبره عنه وتذكر أخاه الشقيق، فهو الوحيد من الإخوة الذي غاب عن المعجىء إلى مصر وود لو كان معهم لينعم بطيب رؤيته ونعيم قربهِ^(٢).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٩).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٦٢.



- ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ [يوسف: ٥٨]: ودلت الفاء على سرعة معرفة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم أي: ما إن دخلوا على يوسف حتى عرفهم وربما كان ذلك بسبب يقظته أولاً، وثانياً أن الصور والوجوه، لا تتغير كثيراً في سن الرجولة على عكس مراحل الطفولة والانتقال منها إلى الرجولة^(١).

- ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] هم لم يعرفوه، بل أنكروه: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]؛ كل ما يعرفونه أن الشخص الذي أمامهم الآن هو عزيز مصر، وهم لا يعرفون اسمه ولا أصله ولا هويته، هل من الممكن أن يتوقعوا أن عزيز مصر الذي أمامهم الآن هو أخوهم يوسف الصغير، الذي ألقوه في البئر قبل سنوات وسنوات؟

ونقف هنا على مظهر من حصافة يوسف وكياسته عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث لم يكشف لإخوته عن هويته ولم يُعرفهم على نفسه، ولم يذكرهم بجريمتهم ضده، ولم يقل لهم: أنتم الذين تأمرتم عليّ، وفعلتم بي كذا وكذا وجاء الآن دور الانتقام والثأر والقصاص ولم يأمر بالقبض عليهم، وسجنهم فقد استعلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على آلامه وأحزانه وجراحه، وتخلص من الحقد والتشفي والانتقام، وأحسن إلى من أساءوا له. وتفاعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع إخوته بأخلاق النبوة، والأصل أن يكون قد استقبلهم وأكرمهم دون أن يعرفهم على نفسه، والأصل أنه جلس معهم وحدثهم، وسألهم عن أنفسهم وأهلهم وبلادهم وأنهن أنسوا إليه وحدثوه وأخبروه عن أوضاع أهلهم وعرف منهم أن لهم أخاً صغيراً، وهو أخ من أبيهم، غير شقيق لهم وأنه أثير عند أبيه وأنه لا يدعه يخرج معهم، خوفاً عليه^(٢)

(١) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص ٢٩٨.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٨٨).

كان عَلَيْهِ السَّلَامُ في قمة الحكمة حيث لم يصدر منه أي شيء يؤذن بأنه يعرفهم، وحتى معرفته بأن لهم أخًا من أبيهم جاءت من خلال أسئلته لهم التي تقتضي معرفة العائلة. وفي نظري أن يوسف أعد شيئًا، أو ورقة خاصة بالتموين تتضمن أسئلة مهمة حول المستفيدين، حتى يعرف كم عدد العائلة ومدى الحاجة ونحو ذلك مما تقتضيه العدالة^(١).

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْعٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَاءُ تَرَوْتَنِي أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾﴾ [يوسف: ٥٩]:

ومما يظهر أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكرم وفادتهم، وجهازهم بجهازهم، ولعل ذلك كان بدينه شأنه شأن الداعية الكريم فهذا سبيل قد هُيئَ له من أجل دعوة الوفود فحري به أنه يسلكه ولهذا لم يستغرب ذلك منه تجاه إخوته، ولم يستغرب منه لما شاع من خبر كرمه، ويظهر كذلك أن في بعض تلك المحاورات ذكروا أن لهم أخًا، وقد كان يفرض للرجل حمل بعير، ولعلمهم أرادوا الاستزادة من الميرة بذكر أخيهام له وإخبارهم بشأنه لما رأوا إحسانه، فأبى وأظهر الصرامة والجزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة^(٢)، وطلب منهم إحضار أخيهام معهم المرة القادمة إن كانوا صادقين.

١ - ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٥٩]:

أي: أعطاهم ما جاؤوا لأجله وما يحتاجون إليه في سفرهم، وكان يعطي كفاية عام واحد^(٣). وقد قام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بنفسه بتجهيزهم بحصصهم وهذا يدل

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقره داغي، ص ١١٦.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٦١.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠١).



على الإشراف الفعلي الشخصي على عملية التوزيع وفي هذا دليل على حسن إدارته ونجاحه، لأن التوزيع في مثل هذه الحالات يحتاج إلى الحسم والعدل وعدم المجاملة فيه، وهذا يقتضي الإشراف الفعلي منه^(١). وفي هذا إشارة إلى أن الأعمال التي يمكن أن يحدث فيها ظلم أو فساد يجب على المسؤول أن لا يتركها للآخرين^(٢).

٢- ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]:

ترك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إخوته في ضيافته حتى أنسوا إليه، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفضيل، ثم طلب منهم بعد أن جهزهم بجهازهم إحضار أخيه من أبيهم ليتأكد من صدقهم فيما أخبروه به، وجعل هذا كشرط لقدومهم إلى مصر مرة أخرى للحصول على الميرة، ولم يكن بمقدوره عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يطلب من الإخوة أن يأتوا بأخ من أبيهم، لو لم يكن حصل على هذه المعلومات منهم، وكان هذا الاستدراج أول الخيط في تدبير الخطة التي وضعها عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي انتهت بجمع شمل الأسرة كلها.

٣- ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]:

والآية الكريمة تبين أن إكرام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس وقفاً على إخوته النازلين به، بل كان شاملاً لكل قاصد له، إلا أن المرجح أن نصيب الإخوة كان أكثر من نصيب سؤالهم فقد واجههم بسؤاله: ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]، مما يؤكد أنهم تمتعوا بثلاثة أنواع من الإكرام:

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ١١٦.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ١١٧.

حسن الاستقبال ووفاء الكيل والنزول في ضيافته^(١)، ثم بعد الترغيب توعدّهم بالحرمان والمنع من دخول البلاد إذا لم يحضروا أخاهم معهم^(٢).

ثالثاً: قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠]:

اشترط يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيء أخيه، فإن لم يأت فلا كيل لكم حين تأتون مصر ثانية، بل ولا تقربوها مرة أخرى، فأنتم مخيرون بين الميرة ودخول بلادي وبين عدم ذلك، ولا تنسوا شرطي عليكم^(٣).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدّم في الآية السابقة الترغيب ثم استخدم بعد ذلك التهريب، لأن أمر إحضار الأخ ليس بالشيء اليسير عليهم، وهو يعلم ذلك كل العلم بل هو أمر ثقيل عليهم كل الثقل، فكيف يمكن لهم أن يسألوا أباهم مرة أخرى أن يرسل معهم (أخاهم) وقد سألوه إرسال شقيقه يوسف من قبل بل ووعدوه بالمحافظة عليه، ولكنهم نقضوا عهدهم معه، ولم يرجع له يوسف حتى الآن، كما أن الأخ المطلوب هو الشقيق الوحيد ليوسف وهو الأحب إلى قلب أبيه بعد يوسف، فكيف يتسنى لهم طلبه من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

من أجل ذلك عاجلهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب قوي ليبرر طلبه أخاهم من أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى يعلموا أن هذا الأمر ملزم لهم ولا رجعة فيه، فيأخذونه مأخذ الجد، ويبدلون أقصى جهدهم في إقناع أبيهم بهذا الخصوص^(٤)، وفي هذا الأسلوب

(١) يوسف وقصة العجيبة، ص ٣٦٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠١).

(٣) اتحاف الألف، سليم الهلالي، (٢/ ٦٣٥).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٦٩.



اليوسفي ترغيب ثم ترهيب، واللفظ والترغيب مع الحزم والترهيب من أركان القيادة الناجحة لأن القائد الناجح هو الذي يقدر على قيادة القلوب والأبدان^(١).

رابعاً: قال تعالى: ﴿قَالُوا سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعِلُوْنَ﴾ [يوسف: ٦١]:

لما كان الإخوة يعلمون كيف يضمن أبوهم بأخيهم الأصغر وبخاصة بعد ذهاب يوسف، فقد أظهروا ليوسف أن الأمر ليس ميسوراً وإنما طريقه عقبات من ممانعة أبيهم وأنهم سيحاولون إقناعه ولهذا قالوا:

١ - ﴿سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١]:

المرادة تشعر بصعوبة ذلك؛ إذ هي تدل على المجهود العظيم الذي كان على الإخوة أن يبذلوه في مفاتحة يعقوب في هذا الموضوع أولاً، ثم المجهود الذي عليهم أن يبذلوه بعد ذلك حتى نجحهم في أخذ الشقيق ليوسف معهم. ومعنى: ﴿سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١] أي: سنحايه ونستميله في رفق إلى أن يتركه يأتي معنا.

٢ - ﴿وَإِنَّا لَفَعِلُوْنَ﴾ [يوسف: ٦١]:

تأكد ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة لا يفرطون فيه ولا يتوانون، وأنهم سيبدلون قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم^(٢). وإن الآية تبين أنهم سيبدلون غاية الوسع لفعل ما يطلبه منهم وخصوصاً لشدة حاجة آل يعقوب في المستقبل أيضاً إلى الطعام لاستمرار القحط والمجاعة^(٣). وكما يضمن رجوعهم، أمر

(١) آيات للسائلين، ص ٢٦٢.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٢.

بعض أتباعه ومعاونيه أن يردوا إليهم ثمن الطعام الذي أحضروه معهم دون أن يشعروهم بذلك، ليعرفوا كرمه وإحسانه فيرجعوا إليه^(١).

خامساً: قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]:

هذا تدبير من يوسف عَلَيْهِ السَّلَام - سيكون له - إن شاء الله أثر كبير، فكما وضع خطة طويلة لإنقاذ مصر من المجاعة رسم أخرى لاستنقاذ أخيه من المأساة ونفذها على مراحل مما يدل على بعد نظره واستشرافه للمستقبل وصبره الفاتح لما أغلق، إنه يعرف كيف يتحرك ويأخذ الأسباب ويضع الأهداف القريبة والبعيدة بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ^(٢).

١ - ﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]:

- (الفتى) من كان في مبدأ الشباب ويطلق على الخدم تلطفاً.

- (البضاعة) المال أو المتاع المعد للتجارة^(٣)، والتعبير بالبضاعة هنا يدل على أنهم لم يتمكنوا من الإتيان بالنقود الذهبية أو الفضية. وهل هذا يدل على أن التعامل كان يتم بالمقايضة؟ أو أن نقودهم من كثرة ما فيها من نحاس سميت بضاعة؟^(٤).

قال بعض العلماء: البضاعة هنا هي الورق: الدراهم الفضية المضروبة نقوداً، التي ابتاعوا بها الطعام^(٥).

(١) إتحاف الألف، (٢/٦٣٨).

(٢) إتحاف الألف، (٢/٦٣٨).

(٣) سورة يوسف، ص ٣٦٨.

(٤) يوسف علي السلام، للقره داغي، ص ١١٨.

(٥) تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، =



- ﴿رَحِّلْهُمْ﴾ [يوسف: ٦٢]: الرحال: جمع رحل، وكلاهما الجمع والمفرد ورد في السورة، والرحل: ما يوضع على ظهر البعير من وعاء أو متاع ومنه سُمي البعير: رحالة، وقيل الرحل كل شيء معد للرحيل، من دابة ووعاء ومتاع ورسن وغيره^(١).

٢- ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]:

والهدف من ذلك هو أن يعرفوا عند تفريغ أحمال الجمال أنهم لم يدفعوا ثمن الحبوب التي أخذوها من العزيز، فها هو العزيز يعيد لهم بضاعتهم ويعطيهم الحبوب مجاناً وهذا يدعوهم إلى العودة إلى مصر، لأخذ أحمال أخرى ويبدو أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام دفع ثمن الجمال العشرة التي حملها لهم من حسابه، بعد أن أعاد لهم بضاعتهم من ضمن الحبوب وأراد إكرام أهله بذلك^(٢).

٣- ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]:

أي: ليكون حالهم حال من يرجع إلينا إذا عرفوها لردها أو للميرة بها إن لم يكن عندهم غيرها، أو طمعاً في مثلها. وإنما لم يبادروا إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور لأن ذلك غير ممكن عادة، لما يأتي من الحكم البالغة والتدبير المتين^(٣).

- ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]: قيل لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمانه وقيل ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام، وقيل: ليروا فضله ويرغبوا

= الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، (٢/ ٢٨٥)، التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، ص ١٣٧.

(١) التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، ص ١٣٧.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٩٠).

(٣) نظم الدرر، (٤/ ٦٨).



في الرجوع إليه^(١)، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب التي جعلته يجعل بضاعتهم في رحالهم منها:

- أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أن ذلك كان كرمًا من يوسف وسخاء محضًا فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

- خاف أنه لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى.

- أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط.

- رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

- قال الفراء: إنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو، وهم أنبياء وأولاد أنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

- أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

- مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا يطلب زيادة في الثمن.

- أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

- أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى محصنة إلى أن تصلوا إلى أبيهم.

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٠٤.



- أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم^(١)، وتدور هذه الأقوال والتعليقات في فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على معنيين:
الأول: الإحسان لو الده عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهله.

الثاني: اضطرار إخوته للعود إليه إما طمعاً في كرمه أو لإعادة ما تركه لهم.
ونلاحظ أن هذا الإحسان من يوسف لأبيه وإخوته في غاية اللطف واللباقة وإحسان دون منّة ولا تكثّر...، والإحسان دون منّة من أكبر الدلائل على صدق صاحبه وعلى صفاء خلقه^(٢)، وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بما حدث لهم، وبادروا إلى مطالبتة أن يرسل أخاهم معهم في المرة القادمة^(٣):

سادساً: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِّعْ مِنَّا الْكِيلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾ [يوسف: ٦٣]:

تطوي الآية الزمن والمسافة وتسقط التفاصيل التي ليس وراءها فائدة وتنقلنا من مصر إلى فلسطين، ومن مواجهة يوسف إلى مواجهة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١ - ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِّعْ مِنَّا الْكِيلَ ﴾ [يوسف: ٦٣]:

- ﴿ فَلَمَّا ﴾ [يوسف: ٦٣]: جاء بالفاء ليدل على التعقيب السريع، أي: ما إن وصلوا من السفر حتى رجعوا إلى أبيهم دون إبطاء

- ﴿ رَجَعُوا ﴾ [يوسف: ٦٣]: ليدل على التكرار في تلك الرحلة المكوكة بين يوسف وأبيهم.

(١) مفاتيح الغيب، (١٨/٤٧٩).

(٢) أخلاق الأنبياء، محمد درويش، ص ١٢٠.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/٢٠٢).



- ﴿إِلَىٰ آيِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٣]: قاصدين إليه مباشرة.

- ﴿قَالُوا يَتَابَانَا﴾ [يوسف: ٦٣]: قدموا لطلبهم بلفظ النداء التحببي^(١).

- ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣]: حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل، لأن رجوعهم بالطعام المعبر عنه بالجهاز قرينته أن المنع من الكيل يقع في المستقبل أي منع منا ذلك، إلا إذا وفينا بما وعدنا من إحضار أخينا ولذلك صح تفریع: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٣] عليه، فصار تقدير الكلام: منعنا من أن نطلب الكيل إلا إذا حضر معنا أخونا. وجملة إنا له لحافظون عطف على جملة فأرسل. وأكدوا حفظه بالجملة الإسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.

٢- ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:

- ﴿فَأَرْسِلْ﴾ [يوسف: ٦٣]: الفاء للتعقيب السريع، أي: بادر وللسببية، أي: إن إرساله سبب في إزالة المنع، وجاؤوا بطلبهم على صيغة فعل الأمر أرسل للجزم والتأكيد.

- ﴿مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ [يوسف: ٦٣] أي: إن أرسلته معنا نكتل وإلا فلا، وإن إرسال أخيهم للكيل فحسب لا لسبب آخر وقدموا (معنا) على (أخانا) للحصر والتأكيد على صيغة المعية الدائمة.

- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]: وإن اللام وصيغة الجمع واسم الفاعل كلها تفيد التأكيد وقدموا له المفعول على الفاعل؛ للحصر والاهتمام وزيادة التأكيد في الحفظ^(٢).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.



وهنا يسأل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه ويسأل من حوله من أبنائه وما العلاقة بين منع الكيل وإرسال أخيهام معهم؟ أهو مطلوب لعزیز مصر؟ وهل يعرف العزيز أخاهم هنا؟ ومن دله عليه؟ تساؤلات كثيرة عرف يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ جوابها فيما قصه عليه أبنائه مما كان بين العزيز وبينهم وذكروا له كذلك ما أكرمهم به من حسن استقبال وطيب ضيافة... الخ

ولكن كيف يقابلهم العزيز بكل هذا الإحسان والإكرام ثم يتشترط عليهم إحضار أخ لهم من أبيهم ليحصلوا على الميرة في المستقبل، ويحكم عليهم ألا يقربوا مصر ولا يقربوه إلا ومعهم (أخوهم من أبيهم) من يكون هذا العزيز الذي يصّر على رؤية أخ لهم من أبيهم ليعرف صدقهم فيما أخبروه به؟

لعل كل هذه التساؤلات وغيرها قد تواردت على فكر النبي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يتلقى الخبر المزعج الذي تلقاه من أبنائه، وأنه لن يكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم ويلاحظ في كلام إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الصدق هذه المرة وهم يطلبون اصطحاب أخاهم معهم إلى مصر^(١). وكانوا حريصين جادين في حفظه إلا أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يرفض طلبهم ويذكرهم بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وما فعلوه فيه.

سابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

ومع أن إخوة يوسف أكدوا لأبيهم حفظهم لأخيهم فقالوا: ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣] وأكدوا حفظهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبلاد التوكيد إلا أن الكلمة فيما يبدو هيجت أشجان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأعادت له ذكريات قديمة

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٧.

مريرة إنها الكلمة نفسها التي قالوها يوم قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] لقد أعادت إلى ذهن الأب الشفيق الشغوف صورة ابنه الحبيب يوسف، وعندها لم يمتلك يعقوب إلا أن قال:

١ - ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]:

كان جواب أبيهم حاضراً وفورياً إذ ما جرى منهن في أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من قبل لا يُنسى وألمه لا يخف والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، فرد عليهم باستفهام إنكاري تقريري، أي: هل آمنكم عليه إلا كما آمنتم على يوسف من قبل وقد أكدتم كما تؤكدون الآن أنكم إن أرسلته معكم فأنتم له حافظون فضيعةتموه وما حفظتموه البتة فكيف أعيد الكرة^(١).

٢ - ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

- ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]: فإنه لا ثقة أبداً في حفظ أي مخلوق، ولكن الثقة كلها في حفظ الله القادر الحفيظ العليم.

- ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] بخلقه من كل مخلوق^(٢).

وهذه من الحقائق الإيمانية القرآنية الراسخة، ذكرها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وأكد عليها ويجب على كل مؤمن من أن يغرسها في قلبه، وتكون عقيدة راسخة وثوابت حقة، وأن يجعلها نصب عينيه في كل أمر وشأن^(٣).

- ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]: قال ابن عاشور: أي خير حفظاً منكم، فإن حفظه الله سلم، وإن لم يحفظه لم يسلم، كما لم يسلم أخوه من قبل حين آمنتم عليه^(٤).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٠٧.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

(٤) التحرير والتنوير، (١٣/٦).



وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملي به، إن أرحم الراحمين^(١).

وواضح من الآية الكريمة أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعيش وحفظ الله ليوسف بين جنبه، وأن تأويله لرؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ساكن في قلبه، وأن الله اجتباه وعلمه من تأويل الأحاديث، وسيتم نعمته عليه إلى آخره، لقد عاش يعقوب مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وظهر أثر ذلك في حياته: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

٣- اسم الله (الحافظ):

ورد اسمه الحافظ في القرآن الكريم مرة واحدة بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وورد مرتين بصيغة الجمع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]. وأما اسمه سبحانه ﴿الحفيظ﴾ فقد ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك:

- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧].

- وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [سبا: ٢١].

- وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بَوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

(١) تفسير ابن كثير، (١/٣٩٩).



وقال البيهقي: قال الحليمي: الحافظ هو الصائن عبده من أسباب التهلكة في أمور دينه ودنياه^(١).

- ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]: أي: إن الله حافظ لأبناء سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ. ومن فوائد اسم الفاعل أنه حاضر الفعل الآن فإنه قد جاء اسم الله: (الحافظ) على لسان نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ معبراً عن وثوقه المطلق بحفظ الله لولديه يوسف وأخيه حفظاً حاضراً، فإذا خوطب المؤمن باسم الله (الحافظ) فكأنه يعاين الحفظ ويشاهده ولا يقدر على ذلك إلا المؤمن^(٢).

ومن آثار إيمان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ باسم الله (الحافظ) والحفيظ، صدق التوكل على الله وحده والأخذ بأسباب حفظ الله وأعظمها توحيد الله سبحانه وإفراده بالعبادة وفعل ما يحبه الله واجتناب ما يسخطه، وحفظ الله تعالى في حرماته ودينه وشرعه^(٣).

٤ - ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

يعني أن رحمته سبحانه تتميز تميزاً ظاهراً عن رحمة كل الراحمين، فالله رحيم وفي الناس رحيم: والأب رحيم ولكنه سبحانه أرحم الراحمين^(٤).

إن اتصاف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق لمخلوق^(٥).

(١) الأسماء والصفات، ص ٦٩.

(٢) اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمه، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، (٢/٦٣٥).

(٣) والله الأسماء الحسنى، ص ٤٥٦.

(٤) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٧.

(٥) والله الأسماء الحسنى، ص ١٢٤.



إن صفة الرحمة من الصفات الثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة وهي صفة كمال لائقة بذاته سبحانه كسائر الصفات لا يجوز أن تنفيها أو تؤولها أو تحرفها أو تفوض معناها أو تكيّفها كما هو مقرر في مذهب أهل السنة والجماعة.

بعد أن واجه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أبناءه بقوله: ﴿هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، تبين لإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن مواصلتهم الكلام مع أبيهم الآن بخصوص إرسال أخيهام معهم لن تأتي إلا بالرفض، خاصة بعد أن واجههم صراحة لأول مرة واتهمهم بكيدهم لأخيهم يوسف من قبل، وأنهم يريدون أن يعيدوا الكرة مع أخيه الشقيق مما أفحمهم وأبهتهم، فما كان منهم إلا أن يؤجلوا الحديث معه بهذا الخصوص حتى تأتي مناسبة أخرى تهيب لهم العودة إليه^(١).

وبعد أن فتحوا أو عيبتهم وفوجئوا بوجود ثمن الطعام فيها، عادوا يطالبون أباهم بإرسال أخيهام معهم محتجين بما وجدوا في أو عيبتهم^(٢).

ثامناً: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]:

١ - ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥]:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]: هذا يؤكد أن حديثهم السابق مع أبيهم وطلبهم أن يرسل معهم أخاهم كان قبل إنزال وفتح رحالهم. والمتاع هنا يقصد به حوائجهم التي جعلوها في رحالهم من طعام ولباس وغيره.

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٣).

- ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥]: أي ووجدوا ما أخذوه معهم إلى مصر ثمنًا للطعام والميرة قد رد إليهم كاملاً وجعل في رحالهم.

٢- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ [يوسف: ٦٥]: لما ردت بضاعتهم إليهم تجددت عندهم الرغبة والحماس في تكرار طلبهم وكان هذه المرة ترغيباً خالصاً وابتدروه أيضاً بالنداء الجميل: ﴿يَا أَبَانَا﴾ [يوسف: ٦٥] وباستفهام تحريضي لحث أبيهم على إرسال أخيه معهم، فقالوا ما نبغي؟^(١).

وقيل في ﴿مَا﴾ [يوسف: ٦٥] إنها استفهامية تعجبية، وقيل نافية. ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى (الذي) فإذا كانت استفهامية فالمراد بيان كرم يوسف، أي: ما نريد فوق هذا الإحسان؟

وإن كانت نافية، فالمعنى: لا نريد شيئاً فوق هذا الإحسان. وإن كانت موصولة كان المعنى: يا أبانا هذا الذي نريد؛ أي: الأثمان المردودة. وعليه يكون الموصول مستأنفاً لكلام بعد النداء جديد وكل ذلك محتمل^(٢).

٣- ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥]: أي هذا دليل مادي ملموس أمامك في أن الطلب ليس فيه أدنى شر أو منفعة للعزيز؛ إذ لو كان كذلك لآثر أن يؤذينا ونحن بين يديه على أمر غائب غير مؤكد ولأنقصنا الكيل، بدل أن يوفينا إياه ويرد إلينا الثمن^(٣).

٤- ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف: ٦٥]: أي: نحضر لهم ميرة وهي الطعام الذي يجلب إلى بلد^(٤).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٦٩.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.

(٤) التفسير الموضوعي، (٢٠٣/٤).



٥- ﴿وَنَحْفِظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]: من المخاطر والمكاره.

٦- ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]: أي زيادة حصة أخيهم الذي سيذهب معهم، وهذا دليل على أن الحصة كانت حمل بعير لك شخص حاضر^(١).

٧- ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]: أي سهل على هذا العزيز المحسن لسخائه، أو المعنى قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير. أو المعنى: ذلك الذي يكال لنا دون أخينا شيء يسير قليل، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله^(٢).

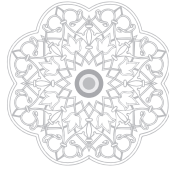
وافق أخيراً نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على إرسال ولده الشقيق الأصغر ليوسف مع إخوته، بعد أن أخذ منهم ميثاقاً مؤكداً بالأيمان المغلظة على حمايته وحفظه^(٣).



(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨، (٢٤٨/٩-٢٤٩).

(٣) التفسير الموضوعي، (٢٠٢/٤).



المبحث الثامن: أخذ يعقوب الميثاق على أبنائه وتوجيههم للتعامل مع سنة الأخذ بالأسباب وحيلة يوسف في بقاء أخيه معه وفقد يعقوب لأبنائه الثلاثة

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٦٦) وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّفَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ (٧٠) قَالُوا وَقَابِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴾ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ



بِمَا تَصِفُوكَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَتَّيِبُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوكَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا ابْنُ ابْنِكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ [يوسف: ٦٦ - ٨٢].

تفسير الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لِنَأْتِيَنِي بِهِءَ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف: ٦٦]:

١ - ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦]:

أي قال لهم أبوهم وابتدأ الكلام بصيغة النص، ليدل على أن الأصل هو المنع، وأن هذا المنع يتخلى ويتنازل عنه إذا ما استجابوا إلى شرطه. وفي هذا قوة في خطابه بعكس ما ابتدأه بالموافقة كأنه يقول: أرسله معكم إذا آتيتموني الميثاق.

٢ - ﴿ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٦٦]:

حتى: أي إلى أن؛ وهي تحمل معنى الشرط.

- ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ [يوسف: ٦٦]: أي تعطوني، ولفظ الإتيان أقوى وأكد الألفاظ الدالة على الحضور والمجيء والإعطاء: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١] أي: حصل وأتى معه كل ما وعد به من عطاء للكافرين بالعذاب وللمؤمنين بالسرور والنعيم^(١).



- ﴿مَوْثِقًا﴾ [يوسف: ٦٦]: وهو العهد المؤكد.

- ﴿مَنْ أَلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]: أي الملك الأعظم بأيمان عظيمة^(١).

وكل ذلك زيادة في التوثيق لما حصل له من المصيبة بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن كان الاعتماد في حفظه إنما هو على الله وهذا من باب (أعقلها وتوكل) فأجابوه إلى جميع ما سأل^(٢).

- ﴿لَتَأْتِيَ بِهِ﴾ [يوسف: ٦٦]: أكد على طلبه باللام للقسم، أو للتأكيد وبلغ الإتيان نفسه، وبصيغة التشديد في الفعل، وجاء بصيغة الجمع ليكون، المطلوب منهم أجمعين يتعاونوا عليه ولا يستثنى ولا يتخلف منهم أحد، وقال به لحصر الطلب فيه وحسب^(٣).

٣- ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]:

فيها ادب مع الله عَزَّجَلَّ وفيها معنى التواضع والتوحيد والعبودية ورغم حرصه عَلَيْهِ السَّلَامُ على اتخاذ الأسباب لئلا يسؤل الشيطان لأبنائه أن يكيدوا بأخيهم كما فعلو بيوسف، إلا أنه ما نسى أن الأمر بيد الله تعالى أولاً وآخر^(٤).

- ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]: أي إلا أن تغلبوا وتهلكوا، فلا تقدرُوا على رده. وأصله من إحاطة العدو، فإن من أحاط به العدو فقد هلك غالباً^(٥).

(١) نظم الدرر، (٤/ ٧٠).

(٢) المصدر السابق، (٤/ ٧٠).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٤.

(٤) آيات للسائلين، ص ٢٧٠.

(٥) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥)، روح المعاني، (٥/ ١٤).



والإحاطة: هي أن يكون الشيء محاطاً به من جميع الجهات لا ثغرة فيه أبداً وهو استثناء منقطع. وقد استثنى لهم أبوهم هذا رحمة ورأفة لهم؛ إذ لو لم يستثن للزمهم من العهد المؤكد والميثاق المغلظ أن يهلكوا جميعاً دون أخيهم إن أحيط بهم بأمر غالب قاهر لا يستطيعون فيه حيلة. وهو أيضاً من التعاليم الإيمانية التي يؤمن بها ويريد أن يربي أبناءه عليها إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿فَأَنْقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولاحظ حرص يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام على ولده رغم أنه الآن صار رجلاً، ولاحظ أيضاً أن خوف يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام من إخوته لا يزال قائماً وأنه مع هذا وذاك يعلم أن العهد والميثاق لا يزال هل في قلوب أولاده حرمة، وأن العهد من الله والموثق من الله لا يزال في قلوبهم قادراً على كف وكبح أهوائهم ونوازع الشر فيهم ثم لاحظ تأكيد ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ [يوسف: ٦٦] ﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، وأنها جواب القسم الذي هو الموثق من الله. ومعنى ﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] من أحاط به العدو إذا غلبه وأهلكه أو كاد. وهذه هي الحالة الوحيدة التي تكونون في حل من الميثاق إذا لم تأتوا به^(١).

٤ - ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوَاقِعَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]:

وهم لصدقهم وصحة قصدهم آتوه ميثاق الله على ذلك. وإنما عبر بالإتيان المشعر بأخذ ورد؛ لأنه من جنس التوثيقات العينية التي تؤخذ وترد، بل هو عند أهل الإيمان أبلغ^(٢).

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٧.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٧٠.



- ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]: وكان الذي يعاهدك ويوآثقتك إنما أتاك بيده عهد الله، وميثاق الله، فإن غدر فهو لم يغدر بك، وإنما غدر بعهد الله الذي أعطاه بيده، وبميثاق الله الذي أعطاه بيده، ومن غدر بعهد الله وميثاقه لا ينتظر منه خيراً إلا جاهل غبي أحمق، لأن من غدر بعهد الله وميثاقه لم يبق في نفسه شيء من الخير^(١).

- ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ أي: على قوة في الاستجابة نابعة عن عزم صادق في تلك اللحظة^(٢).

- ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]: أي رقيب وحاضر وشاهد على العهد والميثاق، وناهيك عن عهد شهد الله عليه^(٣).

﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]: الله شاهد على ما نقول وحفيظ عليه، وهو الذي سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو العذر^(٤).

٥- اسم الله (الوكيل):

يأتي اسمه سبحانه (الوكيل) بمعنى الوكيل العام على جميع خلقه، وذلك لأنه خالقهم ومدبر أمرهم والمتكفل بأرزاقهم وحاجاتهم ومحياتهم ومماتهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٥.

(٣) من حديث الرسل، ص ١٣٨.

(٤) دعوة الرسل، العدوي، ص ١٣٩.

وورد اسمه الوكيل في القرى، الكريم أربع عشرة مرة، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

- وقوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عن اسم الله الوكيل: هو المتولي بتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته على تدبيرها وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها^(١).

ولم ينس يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام: أن يزود أولاده بوصاياهم عندما أرادوا السفر^(٢) فقال لهم:

ثانياً: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَٰهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]:

١ - ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

- ﴿وَقَالَ يَبْنَى﴾ [يوسف: ٦٧]: ناداهم بنداء التحبب والقرب جذباً لأذانهم ليسمعوا، وقوة في التأثير على أفئدتهم لينصتوا^(٣).

- ﴿يَبْنَى﴾ [يوسف: ٦٧] تدل على الحنان الفائق لكل بنيه.

- ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧]: أي وأنتم ذاهبون لمقابلة العزيز، أخذاً في الأسباب والحيلة والحذر ودفع الضرر، فهو يريد أن يدفع عنهم حسد الحاسدين وكيد الكائدين وظنون الظالمين^(٤).

وقال ابن عاشور: وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد، خشية أن يسترعي

(١) والله الأسماء الحسنى، ص ٤٧٧.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٧.

(٤) سورة يوسف، القره داغي، ص ١٦٦.



عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها، وأزياءهم بأزياء الغرباء عن أهل المدينة أن يوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم فيكون ذلك ضرراً لهم وحائلاً دون سرعة وصولهم إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ودون قضاء حاجتهم. وقد قيل في الحكمة: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان^(١).

٢- ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

أي: توزعوا على الأبواب بحيث تدخل كل مجموعة من باب، فكأنه خشي عليهم من أعين الحساد ومكرهم بسبب ما كان لهم من الهيئات الحسنة والأبهة والجمال فحذرهم ألا يدخلوا جميعاً من باب واحد عند وصولهم إلى مركز التوزيع، وأوصاهم أن يدخلوا أفراداً من أبواب متفرقة^(٢).

٣- ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

لما أوصيتكم بهذه الوصية وطلبت منكم الدخول من أبواب متفرقة، فلا يعني هذا أنني أدفع قدر الله وأمره، وإنما أخذت بالأسباب المادية وقمت بالحدز المطلوب لكن أخذي بالأسباب لا يوقف قدر الله، فإن الله إن قدر وقوع الأذى ولضرر بكم فلا بد أن يقع رغم تحذيركم واحتياطكم ودخولكم من أبواب متفرقة^(٣).

(١) التحرير والتنوير، (١٦/٦).

(٢) التفسير الموضوعي، ص (٢٠٥/٤).

(٣) القصص القرآني، (١٩٦/٢).



إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ لأَوْلَادِهِ بَأْنَ وصيته لهم لا تدفع عنهم شيئاً أرادَهُ اللهُ وإنما وصيته لهم على مقدار ما تهتدى إليه العقول السليمة والفطر المستقيمة وأنه يفعل ذلك وهو واثق أن الحكم لله وأنه متوكل عليه.

وهذا فهم عظيم لعقيدة القضاء والقدر، فعلى المؤمن أن يأخذ كل طريق للسلامة، والغبنة والإياب ثم يترك الأمر لله، وإن كل الاحتياطات لا تتنافى مع أي شيء من التوكل. وإن التوكل لا يعني إلغاء شيء أي شيء من الاحتياطات وإن المسلم يأخذ حذره وكأنه غير متوكل ثم يتوكل وكأنه لم يأخذ حذره^(١).

﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]: إشارة إلى عدم الالتفاف إلى الأسباب بل إلى التوحيد المحض والبراء من كل شيء سوى الله تعالى.

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم أولاده الاعتماد على توفيق الله تعالى ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدياً مع واضع الأسباب ومقدر الألفاف في رعاية الحالين؛ لأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله تعالى في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاقتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها ويبقى في النهاية أمر الله نافذ على عباده.

وبعد أن نفى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يغني عنهم شيئاً يعني بوصيته علل ذلك بقوله^(٢):

٤ - ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٧]:

أي أنه لا يتم إلا ما أرادَهُ اللهُ تعالى فما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه فإنه يحكم في خلقه بما يشاء فينفذ فيهم حكمه ولا يرد قضاؤه.

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٥٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٨٨.



فالحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة وبعد ذلك السعي البليغ والجهد الجهيد، فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود لا بد وأن يكون بقضاء الله ومشيئته وسابق حكمته^(١)

لقد وردت عبارة (إن الحكم إلا لله) مرتين في قصة يوسف وهي في كل مرة واردة في سياق خاص.

المرّة الأولى: قالها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للسجينين معه في السجن لما دعاهم إلى توحيد الله والإيمان به وإفراده بالعبادة: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]؛ لقد وردت هذه العبارة في سياق الخضوع لحكم الله وأمره وشريعته أي أنه لا حاكم إلا الله وهو الذي يحكم ويشرع ويحلل ويحرم وما على العباد إلا تنفيذ حكم الله والالتزام بشريعته ليحققوا العبادة والعبودية لله ويكونوا على الدين القيم والحق.

أما المرّة الثانية: قالها يعقوب لأبنائه وهو يطالبهم بالحدز والأخذ بالأسباب ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ وردت هذه العبارة هنا في سياق الرضا بقدر الله والاستسلام لقضائه والإيمان بأن كل ما يصيب الإنسان فهو من الله سواء كان هذا ضرراً أو نفعاً إن ما أراد الله فهو كائن وما قدره فهو واقع ومهما أخذ الإنسان من أسباب الحيلة والحدز فلن يدفع عنه قدر الله فالأمر أمر الله والقضاء قضاؤه والحكم حكمه، وكأن يعقوب يقول لأبنائه: أنا مؤمن بقدر الله راض بقضائه مستسلم لحكمه متوكل عليه.

- الحكم التشريعي لله كما قرره يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٨٩.

- الحكم القدري لله كما قرره أبوه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

٥- ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]:

فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يعطينا درساً بأن التوكل على الله يجب أن يصاحبه الأخذ بالأسباب والحيلة والحذر من الأضرار^(٢) فالتوكل لا يمنع الأخذ بالأسباب والوقاية والحذر^(٣)

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]: في موضع البيان لجملة ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله، هو معنى التوكل الذي يضل في فهمه كثير من الناس اقتصاراً وانكاراً ولذلك أتى بجملة: (وعليه فليتوكل المتوكلون) أمراً لهم ولغيرهم على معنى إنه واجب كل مؤمن كامل الإيمان لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات^(٤).

وقال محمد العدوي رَحِمَهُ اللَّهُ: وذلك معنى التوكل وهو أن تأخذ في الأسباب بقدر استطاعتك ثم ترجع إليه وتفوض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التي تعلمها وليس التوكل كما يفهمه العامة هو التواكل وهو أن تدع الأسباب ثم ترجع إلى الله تعالى ليوصلك إلى المسببات، فإن ذلك حمق وسفه. فالذي يدع العمل للرزق ثم يطلبه من الله ويزعم أنه متوكل عليه، كاذب في دعواه، والذي لا يطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلم، ثم يطلبه من الله لأنه متوكل عليه، كاذب

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٩٧).

(٢) سورة يوسف، ص ١٦٧.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٧).

(٤) التحرير والتقرير، (٦/ ١٨).



كذلك في توكله، لأن طريق العلم هو التعليم والذي يرمي بنفسه في أحضان المرضى بدون أن يأخذ لنفسه الحيلة والوقاية من العدوى زاعماً أنه متوكل على الله هو جاهل معنى التوكل. والمرأة التي تدع طعامها مكشوفاً معرضاً للأفاعي والحشرات ثم تدعي أنها متوكله على الله كاذبة في دعواها. والأمثلة في ذلك كثيرة وهي كلها ترجع إلى الطمع في النتائج بدون مقدمات والغايات بدون وسائل، وهو طمع مذموم، وتصلح كاذب وإنما الصلاح الصحيح هو الذي يتفق وسنة الله في ربط الأسباب بمسبباتها^(١).

٦- العين والحسد:

فلعين الحاسد تأثير سلبي ضارّ بالمحسود بتقدير الله، أثبتته النصوص القطعية وشواهد الواقع الكثيرة المحسوسة، قال الله تعالى ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۚ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ - ٥٢].

وقال رسول الله ﷺ: العين حق^(٢) وقال أيضاً: العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا^(٣).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه العين^(٤).

وقالت أيضاً: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاها جبريل قال: بسم الله يبريك من كل داء يشفيك ومن حاسد إذا حسد ومن شر كل ذي عين^(٥).

(١) دعوة الرسل، ص ١٣٩-١٤٠.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥)، البخاري رقم ٥٧٤٠.

(٣) رواه مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، ح رقم ٢١٨٨.

(٤) رواه أبو داود، كتاب الطب باب ما جاء في العين، ح رقم ٣٨٨٠، حسنه الألباني.

(٥) رواه مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، ح رقم ٢١٨٦.

فثمة جانب خفي في الإنسان يتأثر ويؤثر، دأبت سورة يوسف على إثباته، فالرؤيا تدل على وجوده، كما مر معنا فهي تدل على تأثره بما يُلقى إليه من خارج الإنسان، والوحي وعلومه يؤكده ويجعله حقيقة ملموسة، والعين الحاسدة تدل أيضاً على امكانية تأثر الإنسان في غيره بمشيئة الله تعالى وتقديره^(١).

وقد علمنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نستعيد به سبحانه من الحسد لأنه سبحانه قد علم ألا أن الحسد أمر فوق طاقة دفع البشر له وهو القائل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿[الفلق: ١ - ٥].

قال الشيخ الشعراوي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيد بواحد مساوٍ لك؛ لأن الحسد يأتي من مجهول غير مدرك، فالشعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحقد على كل ذي نعمة، وإذا كان عصرنا وهو عصر الارتقاءات المادية قد توصل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت الأشياء إذن: فمن الممكن أن يكون الحسد مثل تلك الإشعاعات والتي قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه وتكون النظرة مثل السهم النافذ، أو الرصاصة الفتاكة^(٢). ويمكن للبعد أن يستعيد بالله خالق البشر وخالق الأسرار ويتحصن بقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

وأن تقول كلمات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين كان يعوذ الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ويقول: أعيدكما بكلمات الله التامة ومن كل شيطان وهامة^(٣)

(١) التفسير الموضوعي، (٤/٢٠٦).

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠١٨).

(٣) الهامة: مفرد هوام وهي الحيات والعقارب.



ومن كل عين لامة^(١) وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كان أبوكما -إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ - يعوذ بها إسماعيل ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ^(٢). كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كان إذا حزبه أمر قام وصلى.

وهنا على الإنسان أن يأوي إلى الله فهو الركن الشديد بعد أن أخذت أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المضطر لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب، والحق سبحانه تعالى يقول ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [النمل: ٦٢].

والمضطر هو من استنفذ كل أسبابه ولم يدع ربه إلا بعد أن أخذ بكل الأسباب الممدودة فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك - بيده سبحانه - من أسباب^(٣).

وهنا في الآية: تجد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أوصى أبنائه ألا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب متفرقة خشية الحسد وتنبت قيضة الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧] أي: لست أغني عنكم بحذري هذا من قدر الله فهو مجرد حرص أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو أمر الله فكل الخلق أمرهم راجع إلى الله وعليه يعتمد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وعليه يعتمد كل مؤمن^(٤).

(١) اللامة: ما تخاف من مسن أو زع: العين التي تيب الإنسان

(٢) سنن الترمذي، أبواب الطب، باب، رقم ٢٠٦٠، حسن صحيح، تفسير الشعراوي، (١١/٧٠١٨).

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠١٨).

(٤) المصدر نفسه، (١١/٧-١٨).



وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: واجب على كل مسلم أعجبه شيء.. أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه^(١). وهذا، وقد نفذ أبناء يعقوب ما أمرهم به أبوهم، يقول سبحانه:

ثالثاً: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

ولما وصاهم أبوهم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآية السابقة بما وصاهم به فكانه قيل: فهل نفذوا وصية أبيهم؟ فقيل: نعم لقوله تعالى

١ - ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ [يوسف: ٦٨]:

أول ما تراه في الآية تنفيذ الأبناء لوصية أبيهم وكلمة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ [يوسف: ٦٨] كلمة جليلة وكأنهم بحثوا في المداخل عن المداخل التي إذا دخلوا منها كانوا داخلين من المكان الذي أمرهم أبوهم بالدخول منه، ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يحدد مكاناً بعينه وإنما ذكر أوصافاً واجتهد أبناؤه في أن يكون المكان الذي يدخلون منه أقرب إلى ما وصف^(٢).

٢ - ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٨]:

لما قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧] صدقه الله تعالى في ذلك جل شأنه فقال: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٨]:^(٣) أي: أن هذا الفعل لم يكن ليكفيهم أي شيء أمام أمر الله النافذ^(٤).

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن، (١٦/ ٢٦٠).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٦٠.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٩٠.

(٤) يوسف أيها الصديق، د. السقا، ص ٣٢٣.



٣- ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف: ٦٨]:

وهي شفقتة عليهم والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى^(١)، قال الدكتور محمد أبو موسى: قال حاجة في نفس يعقوب ولم يبين لنا ما هي. وقوله قضاه تعني الوصية التي أوصى بها بنيه وليست الحاجة، وإنما الحاجة هي الشيء الذي جعله يوصي أبناءه بهذه الوصية. ثم بين سبحانه أن يعقوب ذو علم للذي علمناه؛ وهذا يدل على أن هذه الحاجة هي من العلم الذي علمه الله. وقوله سبحانه ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦٨] سار في الناس سير المثل كما سار قول يوسف لصاحبيه: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، سار أيضا سير المثل. ولما لم يبين لنا القرآن هذه الحاجة وإنما فتح لنا باب معرفتها لما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨] اجتهد أهل العلم في بيانها فذكروا أن قوله لبنيه: ﴿يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، كان لخوفه عليهم من الحسد وأوصاهم بذلك ثم قال لهم: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، وأن العلم الذي علمه الله يعقوب من هذا الباب أن تحافظ وتحتاط في كل وجه ولا تبقي شيئا يمكن أن يدخل عليك منه من الضرر، ثم تتوكل التوكل الذي ليس فوقه توكل وهذا هو الذي لخصه علماؤنا في كلمتين ليس وراءهما شيء وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اعقلها وتوكل) تتناقلها ألسنتنا من لسان سيدنا صلوات الله وسلامه عليه^(٢)؟

إن الحاجة التي كانت في نفس يعقوب هي درس تعليمي تربوي تطبيقي لأبنائه بحقيقة التوكل بالقيام باتخاذ الأسباب السليمة اللازمة مع الاعتقاد الجازم بأن

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٩٠.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٦١.



الفاعلية المطلقة هي لله وحده بهذا السبب أو ذاك أو بلا سبب البتة: ﴿وَإِذَا قُضِيَ
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

هذه الحكمة في هذا العلم هي الحاجة التي كانت في نفس يعقوب قضاها
لأبنائه بأن علمهم وبلغهم إياها كما تبلغها وحيًا من الله سبحانه وهي حقيقة
إيمانية ثابتة جاء بها كل نبي وأساس من أسس الدين والتكليف والحساب وسنة
من سنن الله العامة والأمثلة عليها كثيرة لا تحصى. وقصة نبي الله نوح ببناء الفلك
سبب، والركون إلى الرحمن الرحيم فاعلاً في السبب ومنجياً من الغرق خير
دليل على ذلك. ورحلة هجرة المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاهد تطبيقي عملي
ودليل وأسوة حسنة على هذا^(١). ومن حقائق التوكل الحق، الدعاء الحق الذي
يأتي بعد القيام بالعمل واتخاذ الأسباب المستطاعة، فالدعاء من غير أن يُرفق
بعمل مستطاع هو نوع من التواكل أيضاً. وفي بدر قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يدعو ربه بعد أن أقام خطة الحرب وأقام المقاتلين في أماكنهم، إذ هو على يقين
بأن الله هو الفاعل المختار وهو الحي القيوم وهو الفعال لما يريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

٤ - ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨]:

أي: إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحب علم بسبب تعليم الله له ومن علمه الذي
علمه له أن يأخذ في الأسباب ويعتقد بعد ذلك أن احتياط العبد لا يغير شيئاً في
قضاء الله تعالى، إذا كان قد سبق في علمه شيء وراء ما قدر العبد ودبر وذلك هو
التوكل الصحيح^(٣).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

(٣) دعوة الرسل، ص ١٤٠-١٤١.



٥- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

كُرِّرَتْ هنا مع يعقوب كما ذكرت من قبل مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للتأكيد على معانيها العامة، وجاءت هنا في هذه المناسبة لتخص معنى علم حقيقة التوكل في أن كثيراً من الناس لا يعلمون علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عن حقيقة التوكل الحق فهم: أ- إما غارقون في الأسباب مؤلهون لها معتقدون بالفاعلية في ذاتها غافلون عن قيومية الله المطلقة في الوجود وعلى كل نفس بما كسبت.

- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

- ﴿أَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

ب- وإما الغافلون عنها تاركون أمر الله لهم باتخاذ أحسنها، وهؤلاء هم المتواكلون وكل منهم لا يعلم التوكل الحق وهم مع الأسف أكثرية الناس.

- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

لأن أكثرهم لا يؤمنون ولأن أكثرهم لا يشكرون والعكس صحيح فالعلم والشكر والإيمان سلسلة وحلقة دائرية كاملة كل حلقة تؤدي إلى الأخرى في جميع الاتجاهات ومن أي منها انطلقت فالإيمان يدعو إلى العلم والعكس صحيح: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، فالتوحيد رأس وذروة سنام الإيمان يتقدمه العلم والعلم يثمر الشكر وهكذا فإن (أكثر الناس لا يعلمون): كسلاً أو تقصيراً (غفلة) أو توجهاً خاطئاً (جحوداً وعدم شكر) أو صداً (كفراً) عن تعلم العلم الحق النافع وعلى رأسه العلم الذي علمه الله لآدم ولأنبيائه وأمرهم بتعليمه وتبليغه للناس فبلغوه كما تبلغوه وجعل الله العلماء ورثة الأنبياء جيلاً بعد جيل فالعلم

الحق هو الموصول بالله الحق والمستمد منه فإن لم يكن كذلك فهو إما علم غير نافع أو علم ضار (علم شيطاني)^(١).

رابعاً- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُعِيرِ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ (٧٠) ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ (٧١) ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣) ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٥]:

١- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]:

هذا المشهد الثاني من مجيء إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام ودخولهم عليه:

أ- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩]:

- (ولما) حرف شرط وفعل الشرط هو: (دخلوا على يوسف) وجواب الشرط هو ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩]^(٢).

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٦٩] أي: من بعد أن دخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وكالعادة بكل إيجاز ودقة بليغة وإشراك السامع في فهم ما انتهى إليه الكلام^(٣).

(١) يوسف الصديق، ص ٣٢٥.

(٢) القصص القرآن، (٢/ ٢٠٠).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٦.



ب- (أوى إليه أخاه) استطاع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينفرد بأخيه ويضمه إليه وينزله عنده ويصرّح له بسرّه وأمره وترك ذكر تفاصيل الكيفية لأنها غير أساسية^(١)

ج- (قال إني أنا أخوك): كان أول كلامه إليه أن ابتدر بتعريف نفسه وتبيان له أمره، كي يطمئن له وتسكن إليه نفسه ويتصرف بعد ذلك فيما سيفعله يوسف عن رضا وقبول من غير فزع ولا جزع بلفظ (إني) للتأكيد و (أنا) للاختصاص والاهتمام و(أخوك) لما لللفظ من معاني الأخوة التي تحمل المودة والقربى والعطف والمحبة ولم يقل أنا يوسف بل جاء بأجمل وأرق لفظ مع كاف الخطاب لتنفيذ الالتصاق والاختصاص والتسمية تحصيل حاصر لأن بنيامين يعلم أن لا أخ له غائب غير يوسف الذي افتقد منذ نعومة أظفاره والذي لا يفتأ أبوه يذكره بالأسى واللوعة على فراقه وأمل لقائه^(٢)

وإسرار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأخيه بأنه أخوه دليل على جواز التناجي للمصلحة وقد كان غرض يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تهية أخيه لما سيحدث فيستعد لذلك نفسياً ولئلا يتأذى بتوجيه التهمة له وهو يعلم أنه بريء وكل ذلك دليل على لطف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحكمته ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

د- ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]: جملة جليلة في معناها وجليلة في موقعها:

أما جلال معناها فإنه لم يقل له فلا تحزن مثلاً وإنما قال تبتئس من البؤس وهو الشدة والحسرة والألم والحزن ثم هو على صيغة الافتعال الدال على كثرة

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

البؤس وشدة الشدة وحسرة الحسرة ثم إنه لم يقل فلا تبتئس بما عملوا إنما قال بما كانوا يعملون فأشار بالمضارع إلى تجدد هذا العمل المفضي بك إلى الابتئاس^(١) فهذا جلالها في مبناها ومعناها أما جلالها في موقعها فهو فيض التسامح الذي تفيض به نفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه لما لقي أخاه المبتئس من سلوك إخوته بعد عقدين من الزمن أو أكثر كانت أول جملة قالها له بعد ما عرفه أنه أخوه هو اغسل قلبك ونفسك من كل سوء فعلوه بك وببي حتى كأنك لم تلق من أحد من أهلك سوءاً^(٢)، بالله ما أكرم هذا الإنسان المخلص المجتبي وما أحسن إحسانه حقاً لقد أوتي شطر الحسن في الخلق والخلقة وما كان في الخلق خير وأبقى. أجمل القرآن الكريم في هذه الآية بعضاً من محاسن أخلاق يوسف فقد آوى إليه أخاه وعرفه بنفسه ونصح له وتجاوز عن ذكر ما دار بينهما من حديث ومكاشفة ومشاعر وذكريات وأسى وأحزان أدباً رفيعاً بعدم ذكر الإخوة - رغم ما فعلوه - بسوء وعدم رغبة يوسف بالتصريح بذلك والتشهير بهم^(٣).

هذا وقد رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خطة لإبقاء شقيقه عنده وشرع في تنفيذها^(٤):

٢- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِيزُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

أ- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: كما فعل في الأولى وجاء بالفاء للتعقيب القريب ليدل على سرعته ومبادرته في ذلك اهتماماً بأمرهم وتيسيراً لهم وأيضاً للتعجيل بتنفيذ خطته والوصول إلى غايته^(٥).

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٧.

(٤) التفسير الموضوعي، (٢٠٨/٤).

(٥) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٩.



وقوله: ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٠]: أي الجهاز الذي ابتغوه وأرادوه غير منقوص^(١).

ب- ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]:

- (السقاية): أي وعاء الكيل وأهميته لا تكمن في قيمته فقد قيل إنه مصنوع من الذهب، والذهب إضافة إلى ارتفاع قيمته فهو أصلح المعادن لكيل المواد الغذائية وخصوصاً السائلة. و(السقاية) منها فهو لا يتغير بما يُكال فيه ولا يغير ما يخالطه بل أداة الكيل ووحدة القياس الرسمية فإذا فُقد، يتعطل الكيل والتوزيع وتعطلت مصالح العباد^(٢).

والسقاية هي المشربة التي يشربون منها وسميت هنا سقاية، وسميت من بعد بالصواع لأنها استخدمت للكيل ولا مانع للمقتصد من أن يستخدم أمراً واحداً في حاجتين مختلفتين وخصوصاً إذا كانت غالية في ذاتها فقد قيل أنها كانت من الذهب كما مر معنا. وقيل من الفضة أو نحو ذلك والصواع لغة في الصاع^(٣).

- ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: مخزن متاعه فوق بعيره.

ج- ﴿ثُمَّ أَدْنَى مَوْزَنٍ أَيْتُهَا الْعِزُّ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

- (ثم) للتراخي الزمني أي: بعد مدة من الزمن ذهب فيها الجاعل بعيداً حتى لا يُكتشف أمره أو لانتقال التصعيدي في الأمر^(٤).

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٤٤).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٩.

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٤٤).

(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٩.

- ﴿أَذِّنْ مُؤَذِّنٌ﴾ [يوسف: ٧٠]: نادى مناد وأعلم بأعلى صوته ومكرراً وموصولاً نداءه وصوته في آذانهم^(١) وأعلى اتهامه الصريح على الركب المغادرين وفاجأوهم بالاتهام.

- ﴿أَيَّتُهَا الْعَيْرُ﴾ [يوسف: ٧٠]: العير: هي الإبل التي عليها الأحمال وتحمل البضائع والناس في الأسفار أي: يا أهل العير ويا أصحابها وجاء بصيغة (أيتها العير) إضافة إلى جمالها البلاغي اللغوي ودقتها في الحصر والتخصيص إذ استثنى الأشخاص من موظفيه وفتيانه عن السرقة ثقة منه بهم كما أن الناس عموماً من المستحيل أن يسرقوا ويخفوا الصواع ويحملوه في ثيابهم دون أن يكشف أمرهم وأدباً مع الناس فكنى بالعير عن الناس حتى لا يتهمهم مباشرة بالسرة فيؤذي مشاعرهم وصيغة الاستفهام في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، تناسب هذا المعنى الآخر.

- ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]: إنكم كذلك. واللام للتأكيد لتكون التهمة من القوة بمكان لا مجال فيه للشك. والسرقة أخذ ما للغير من غير وجه حق خفية، فإذا كان علناً صار غصباً وسلباً.

قام يوسف بهذه الحيلة لكي يأخذ أخاه دون أن يشعرهم بأنه يوسف كما أنه لا يريد أن يأخذه قسراً وظلماً، وقد لاحظنا في هذا المثال: أن الدليل فيه صادق ملموس وأن المتهم بريء وهكذا فليس كل دليل بالضرورة ولو كان صادقاً دامغاً على أن المتهم مذنب فعلاً.

والم تأمل بالآية الكريمة: ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]، لم يذكر أنه أرسل فتiane أو غيرهم وهذا مشعر بانعدام الوساطة وليس للآزم ولكن إذا



روعي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يشرف ويباشر على أمر التمويل مع مراعاة أن الأصل في مثل هذه الأعمال الإخفاء لأن إذاعة أسرار التدابير التي حقها أن تكتم أمر لا تُحمد عقباه وهذه المعلومة الحساسة لا ينبغي أن تزداد ولو لأهل الثقة والقاعدة فيها أن لا يخبر بها غير المحتاج إلى إخباره وإن كان الآخرون أوثق ولهذا أسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأسماء المنافقين مع أن الصحابة كلهم ثقات ورغم وجود الخلفاء المهديين وهم أفضل منه اتفاقاً ولكن اقتضت الحاجة أن يخبر حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون سواه فإذا روعي ذلك لم يستبعد أن يكون هو نفسه من جعل الصواع في الرحل، هذا هو الأظهر^(١)

ويبدو أنه ما إن تم وضع السقاية حتى أعلم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعض جنده بفقد الصواع وأمرهم بالبحث عنه ويبدو أن قرائن الأحوال أشارت إلى أنه لا يمكن أن يكون الآخذ غير هذه العير إما لعدم وجود غيرهم أو لأن يوسف أوما إليهم والحاصل أنه قام منادٍ يكرر النداء معلماً: ﴿أَيَّتْهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، وتأكيداً للأمر يشعر بأنه لم يكن في المكان غيرهم والمؤذن رغم اتهامه لهم لما احتفّ بالموقف من قرائن فإنه لم يحدد أحداً بعينه وفي ذلك نوع من الحكمة^(٢)، فلما سمع إخوة يوسف هذا الاتهام فوجئوا به واهتموا به وانزعجوا منه فقالوا:

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَقَبِّلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ [يوسف: ٧١]:

فوجئ الإخوة الأبرياء بهذا الاتهام الصريح فما كانوا يتوقعون أن يُتهموا بالسرقه، سرقة عزيز مصر الذي أكرمهم وأحسن إليهم وهم من هم: إنهم أولاد بني فكيف يتهمون بالسرقه؟

(١) آيات للسائلين، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.



التفتوا نحو غلمان العزيز التفاتة تملؤها الدهشة والصدمة والاستغراب:
﴿قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ [يوسف: ٧١]؛ إن الجملة المعترضة في الآية
﴿وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٧١] تصور لنا تصويراً حياً مؤثراً كل علامات ومعاني
الانفعال والمفاجأة والاستغراب.

لقد كان الركب سائرين للخروج من المدينة فلما سمعوا الاتهام من قبل
المؤذن عادوا مسرعين إلى الغلمان وسألوهم ماذا تفقدون؟ ما الذي تتهموننا
بسرقة؟ أجابهم الغلمان قائلين^(١)

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفَقَدْ صُوعَ أَلْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ
زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]:

أ- ﴿قَالُوا نَفَقَدْ صُوعَ أَلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]:

- ﴿قَالُوا﴾ [يوسف: ٧٢]: بصيغة الجمع أي: المؤذنون أو فتیان يوسف عموماً.
- ﴿نَفَقَدْ صُوعَ أَلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: نطلب صواع الملك أي: وعاء
الكيل وأداة المقياس الرسمية الملكية ويسمى صاعاً أو صواعاً: لأنه يدور
ويمر بالكيل على مختلف الناس ليكتالوا به (وحدة القياس والتوزيع) أو لأنه
يدور ويمر على مختلف المواد التي تكتال به من حب وزيت وخلافه، أو
لأنه يدور ويمر على ما بداخله ولفظ الصَّوْع يعم ويحتمل كل مكيال فارغاً
كان أو مملوءاً ومن أي مادة كان مصنوعاً ذهباً أو نحاساً ويكال به أي شيء
صلباً كان أو سائلاً ولذا إذا أردت التخصيص أضفت إليه الوصف المضاف؛
فتقول: صاعٌ من شعير أو صاعٌ من تمر على حسب المادة المكالة به وتقول:

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٢).



صُواع الملك أو الوزير على حسب مالكة والشخص المضاف إليه وأضاف هنا الملك (صُواع الملك) ليدل على ملكيته وقيمتة الثمينة وأهميته كوحدة القياس الرسمية وأما لفظ (السقاية) فيخص المكيال الذي يكال به المواد السائلة فقط كالزيت والسمن والعسل وجاء بلفظ: (السقاية) في الأولى (ليدل على أنه كال لهم أطعمة سائلة أيضاً) وأن السائلة كانت هي الأخيرة حتى لا تختلط بالمواد الصلبة وأنها جعلت في رحل أخيه بدليل قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]، أي: بعد أن أتم تجهيزهم وتموينهم جعل السقاية في رحل أخيه (المكيال الذي يكال به السوائل) في رحل أخيه وهذا من بلاغة وفصاحة ودقة القرآن في استعمال لفظين مختلفين لشيء واحد ولكل واحد معنى خاص حسب مناسبته في البيان^(١).

ب- ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حُمِلْ بِهِ﴾ [يوسف: ٧٢]:

وفي هذا الموضع قال: ﴿حُمِلْ بِهِ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: حمولة كاملة للجمل أي: زيادة عن مقدار الحصاة المحدودة لكل بعير وذلك من باب التطميع والترغيب.

ج- ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]:

انتقل من صيغة الجمع إلى المفرد ولم يقل ونحن به زعماء ليدل على فردية المتكلم الزعيم واختلافه عن المتكلمين من قبل من فتيان العزيز وفي إشارة هنا إلى أن الزعيم الكفيل هو نفسه الزعيم الرئيس أي: العزيز صاحب الشأن والأمر والحل والعقد وذلك تأكيداً للأمر والمكافأة إذ هو الذي يملك أداءها على الحقيقة وليس نائبه فضمانته أقوى وأسلم وأكد من ضمانته نائبه ويكون التقدير:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٣٢.

(وأنا الزعيم بما قد صرح به فتياي). زعيم (كفيل) أي: بأداة المكافأة ويتضمن الكلام أيضاً إسقاط تهمة السرقة وعدم ملاحظة من جاء بالصواع ولو كان هو الذي أخذه وعدم متابعته أو اتهامه أو تجريمه أو معاقبته ويتضمن أيضاً الإشارة إلى عظم أهمية المفقود (الصواع) وأنه أرجح في الكفة من الفعل نفسه (السرقة) مما نتج عنه ليس مجرد العفو عن السارق بل وتقديم المكافأة لمن جاء بالصواع أياً كان وفي هذه الآية حكم بجواز العفو عن السارق وإسقاط الحق الخاص والعام عنه وذلك قبل أن يُقدر عليه ويُعلم ودلالة فقهية في رجوعه من صيغة الجمع (فتيان العزيز) إلى المفرد (العزيز نفسه) ليعلن الأمر بنفسه إذ هو صاحب الحق الخاص والعام بوصفه عزيز مصر ونائب الملك والمفوض باسمه بإدارة خزائن الأرض والتصرف في شؤونها.

وقد جمعت هذه الآية عدة حوافز وتطميعات لإعادة الصواع منها قوله: ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ﴾ [يوسف: ٧٢] ليعم أياً كان فلم يقل: لمن أخذه أو لمن كان عنده أو لمن وجدته أو لمن دل عليه وليدل بصورة ضمنية غير مباشرة على الصفح عن أخذه ولم يقل لمن سرقه، لطفاً منه وترغيباً وقوله ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢]؛ أي: حمولة كاملة غير محددة وقوله: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]؛ العزيز نفسه القادر على ذلك والغني جاهاً وسلطاناً ومالاً وأخلاقاً هو الكفيل الضمين^(١).

٥- قوله تعالى ﴿فَالْوَأ تَالله لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا

سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]:

لم يجد إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بُدّاً من مجابهة التهمة بالنفي الموثق باليمين فقالوا:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٣٣.



أ- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣]:

- ﴿تَاللَّهِ﴾ [يوسف: ٧٣]: بيان أن التاء في (تالله) من حروف القسم وهي خاصة بلفظ الجلالة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١) وعادة تدخل (التاء) على لفظ الجلالة عند القسم المقصود به التعجب أي: إن إخوة يوسف أقسموا مندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا وأن الكل قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك^(٢) لقد تكلموا بما يعلمون من أنفسهم من براءة فجاءت كلماتهم واثقة فيها نبرة التحدي فما قالوا: لسنا سارقين لا وإنما قالوا: (تالله) ولقد كثر القسم بهذه الصورة في السورة ثم قالوا بعد القسم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ [يوسف: ٧٣]؛ أي: أنكم أنتم في قرارة أنفسكم من خلال ما رأيتم من أمانتنا عبر أكثر من موقف أنتم بأنفسكم موقنون أنا براء.

وهذا أبلغ في اعتقاد البراءة وفي تأكيدها من أن تنفي عن نفسك التهمة فقط. ولكن بأن تقول لمن يتهم: أنا لن أرد عليك، أنت في قرارة نفسك تعلم فساد الدعوى التي تدعي. إن نبرة إخوة يوسف الواثقة جعلتهم يستعملون هذه المؤكدات ويخرجون كلامهم هذا الإخراج ولقد نفوا عن أنفسهم بالإضافة إلى ما قلناه لامجرد السرقة وإنما -أيضاً- أي فساد في الأرض^(٣).

ب- ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]: ثم أقسموا أنهم ما كانوا سارقين في يوم من أيام الدهر عبر الماضي (كنا). والمتأمل يلحظ أنهم فرقوا بين نفي الإفساد ونفي السرقة فأما الإفساد فلم ينفوه عنهم مطلقاً بخلاف السرقة وذلك لأنهم

(١) إتحاف الألف، (٢/٧٠٣).

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٢٥).

(٣) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص ٤٩٧.



يعلمون أن أخذهم يوسف من قبيل الإفساد لا السرقة فالسرقة لا تطلق على مثل هذا إلا على سبيل التجوُّز خلافاً لأصل مادتها في اللغة الدال على أخذ في خفاء وستر وحرز^(١).

ثم إن السرقة إفساد وزيادة ولهذا بالغوا في نفيها مالم يبالغوا في نفي مطلق الإفساد وخاصة أن التهمة الموجهة هي السرقة ولهذا تضمنت عبارتهم تلك نفي السرقة مرتين بصيغتين مختلفتين فالسرقة نوع من الفساد في الأرض لأنها تجمع بين خصلتين ذميتين: أخذ الشيء بغير حق، وأخذه خفية وهذا نوع من الخيانة ولذلك لما قال أحدهم معترضاً على حكم الله تعالى في السارق بقطع يده:

يَدْ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسَجَد

وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

رد عليه بعضهم بقوله:

عَزَّ الْأَمَانَةُ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا

ذل الخيانة فافهم حكمة الباري.

وتلاحظ في هذا الحوار من الأساليب المهمة في التربية وفي التعامل مع الناس إعطاء المخطئ فرصة ليعود عن خطئه، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يعدهم بالعفو فقط عن الجاني إذا رد الصواع بل وعدهم بإعطائهم حمل بغير بدلاً منه وأكد لهم الوعد وفي هذا دليل على أن الغرض ليس اعتراف الجاني لكن المهم إصلاح ما أفسده وتشجيعه على التخلص من الذنب^(٢) ويبدو أن في شريعة أهل مصر

(١) آيات للسائلين، ص ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.



كان المسروق يؤخذ ويعاقب السارق أما في شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وهي شريعة إلهية فكان يؤخذ السارق ولو عمل يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بشريعة أهل مصر لما تم مراده وهو بقاء أخيه (بنيامين) معه ولذلك حاول إخوانه وأنزل السارق على حكمهم؛ توطئة لأخذه بإقرارهم^(١).

٦- قوله تعالى ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]:

لم ينفع أسلوب الحث والترغيب مع القوم ولهذا لجأ الغلمان الفتيان إلى الأسلوب الآخر أسلوب التفتيش والمحاكمة والعقوبة والقضاء فأوعز يوسف عَلَيْهِ السَّلَام إلى فتيانه ليسألوا الرجال: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]؛ أي: أنتم أبناء نبي ولا نعاقب السارق إلا على حسب شريعة أبيكم النبي فما هي عقوبة السارق عندكم؟ كما علمكم أبوكم النبي وإن كنتم كاذبين في دعواكم في عدم السرقة وثبتت السرقة عند أحدكم فسوف نعاقبه وفق شريعتكم لا وفق قوانيننا^(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

[يوسف: ٧٥]:

أ- قال السمرقندي رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان الحكم في أرض مصر للسارق الضرب والتخمين وكان الحكم بأرض كنعان أنهم يأخذون السارق ويسترقونه ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم^(٣).

ب- وقال القرطبي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا وكان هذا من دين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وحكمة قولهم هذا قول من لم

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٤).

(٣) مختصر تفسير السمرقندي، (٢/ ١٧١).

يسترب نفسه لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ^(١).

ج- قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]؛ أي: فالسارق جزاؤه أن يسلم السارق بسرقة إلى المسروق من فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعف قيمة المسروق فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم^(٢).

د- قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق^(٣).

هـ- قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: وقولهم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]؛ أي: هذه سنتنا وديننا في أهل السرقة: أن تملك السارق كما تملك هو الشيء المسروق^(٤).

ولقد كان تحكيم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحديد الجزاء على السرقة آية من آيات الله تمكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من استبقاء أخيه فلو حكم على أخيه (بنيامين) بالقانون الوضعي المصري لما تمكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الاحتفاظ به ولُرد إلى إخوته بعد ثبوت السرقة عليه بعد أن يُضرب. ويدفعون غرامته ببيع بعض ما معهم من أحمال البعير وحينئذ يجد الإخوة سبباً قوياً للنيل من بنيامين والإساءة

(١) تفسير القرطبي، (٩/ ٢٣٤).

(٢) تفسير السعدي، ص ٥١٤.

(٣) المحرر الوجيز، (٣/ ٢٦٤).

(٤) المحرر الوجيز، (٣/ ٢٦٤).



الشديدة له^(١) ولما أجاب الإخوة بما هو المطلوب من تحكيم شريعتهم في السارق باسترقاقه فحينئذ بدأ التفتيش:

خامساً: قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

١ - ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]:

- ﴿فَبَدَأَ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي: يوسف ورجع الكلام إليه ليدل على قيامه بهذا الأمر ومباشرته له بنفسه لأهميته وخطورته. وجاء بالفاء ليدل على أنه ما إن سمع حكمهم حتى بادر من فوره بتنفيذ خطته قبل أن يتبهاوا أو يتراجعوا.

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي: تسبق التفتيش في أوعيتهم قبل وعاء أخيه تمويهاً منه حتى لا يُظن أنه يعلم مسبقاً بوجودها فيه.

٢ - ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]:

- ﴿ثُمَّ﴾ [يوسف: ٧٦]: عطف على التراخي الزمني أي: بعد أن أخذ وقتاً في التفتيش بدقة في أوعيتهم أو على الانتقال التصعيدي في نتيجة الاستخراج أي كان: سلبياً في أوعيتهم ثم صار إيجابياً في وعاء أخيه.

- ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي: ليدل على أنه طلب وقام بالجهد في إخراجها زيادة في الكيد والحيلة ولم يقل: أخرجها أي: من البداية وبسهولة. وأنث الضمير هنا ليدل على لفظ السقاية الذي ذكره في الأول؛ ليشير إلى أنه استعمله في كيل المواد السائلة التي كانت من نصيب رحل أخيه.

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٠٨.

- ﴿مِنْ وَعَاءٍ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ ولم يقل في هذه الآية: (رحل)؛ وهذا من الفصاحة فالرحل مخزن متاع المسافر فوق البعير (حقيبة السفر) توضع فيه الأشياء فاستعمل اللفظ في وضع السقاية فيه وبعد أن ضُمت فيه الأشياء وأوعاها صار وعاء قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨]، فعند الوضع والإدخال جاء بلفظ (الرحل) وبعد ضم الأشياء فيه جاء بلفظ (وعاء) أي: أنه فتش فيما ضمته رحالهم من أشياء وأوعت وبالطبع لم يفتش الرحال الخاوية - إن وجدت - كونها لا تحمل صفة الوعاء^(١).

ويبدو أن بنيامين لتواطئه مع يوسف لم يدافع عن نفسه أو يحاول دفع التهمة عنه وكان بإمكانه أن يقول: ليس هذا دليلاً! أثبتوا أنني وضعتها؟ ربما وضعها من يريد أن يكيد لي أو يريد أخذ حمل البعير وأنا أقسم على ذلك ولم يكن لهم حينها أن يأخذوه من غير بينة ولأنه سكت وهذا دليل على أنه كان مهياً للموقف وأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أسرَّ له بذلك وبين له ما سيفعله فلعل هذا ما جعل إخوته يسلمون ويقولون قولتهم: ﴿إِنَّكَ أَبْنُكَ سَرَقٌ﴾ [يوسف: ٨١] ومن هنا ينبغي أن نلاحظ أن المتهم قد يراعي بعض المصالح أو يحاول دفع بعض المفاصد فيسكت ولا يدافع عن نفسه لذلك ليس بالضرورة أن يكون كل من لم يبرئ نفسه مقراً على نفسه بالتهمة ولو عظمت^(٢).

٣- ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]:

وتترك الآيات الإخوة وسط الدهشة والصدمة والانفعال لتقدر لنا تقريراً وتعقيباً عن حكمة الله من تقدير هذه الحادثة المثيرة ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٤٠.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٨١.



لِيُوسُفَ ﴿يوسف: ٧٦﴾: إن الله هو الذي كاد ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرشده إلى هذا التدبير الحكيم ليتم قدر الله في النهاية.

إن قول الله عن ترتيب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] ثناء من الله على يوسف ومدح له لفعلته وإشارة إلى أنه فعلها بإلهام من الله وهذا دليل أنه فعلها بعد النبوة وأنه كان على صواب في فعلها فقد وضع السقاية في رحل أخيه دون أن يعلم به أحد حتى من رجاله وفتيانه وبعد ذلك وقف متفرجاً يرقب تتابع لقطات المشهد المثير المفاجئ دون أن يتدخل هو فتيانهم الذين فقدوا صواع الملك وأحد فتيانهم هو الذي أذن ونادى واتهم الرجال بالسرقة وأحد فتيانهم هو الذي وعد بجائزة حمل بعير لمن يعيد الصواع المسروق وتكفل بذلك وأحد فتيانهم هو الذي اتفق مع الرجال على أن يعاقب السارق وفق شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كل هذا ويوسف ينظر ويراقب ويتابع دون أن يتدخل أو يتهم أو يحاكم أو يدين وفي آخر لقطة في المشهد المثير تقدم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليفتش أمتعة القوم ويستخرج السقاية من رحل أخيه لقد كان يوسف على صواب فيما فعل ويكفيه أن الله أثنى عليه بقوله ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، ونقف لحظة أمام تقدير الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأخذ أخاه رفيقاً وفق شريعة أبيه لا وفق شريعة الملك^(١).

٤ - ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ﴾ [يوسف: ٧٦]: والمراد بكلمة ﴿دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] هنا هو: نظام ملك مصر وشرعه وقانونه الذي يحكم الشعب المصري على أساسه فيخضع الشعب المصري لهذا القانون

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٧).



ويدينون لهذا النظام ويلتزمون ذلك الشرع ولهذا سمي ﴿دِينَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] لأن أساس معنى (دين) هو الانقياد والخضوع والدينونة لنظام أو شرع أو قانون أو حكم وهناك (دينان) أي: هناك نظامان وشرعان وقانونان (دين الملك) أي: نظامه وشرعه ومنهاجه وقانونه الذي يحكم به الناس سواء كان هذا الحاكم ملكاً أو رئيساً أو زعيماً طالما نظامه وشرعه يناقض حكم الله والخاضعون لهذا النظام يدينون له، يقال عنهم: إنهم في دين الملك.

- و(دين الله): هو نظامه وشرعه ومنهاجه وحكمه الذي أنزله على رسله وأمر الناس أن يدينوا ويخضعوا له ويعبدوا الله من خلال التزامه والخاضعون لمنهاج الله وشرعه يقال عنهم: إنهم في دين الله^(١) إن الله عَزَّجَلَّ لم يرضى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعاقب أخاه وفق نظام الملك وشرعه ومنهاجه أي: وفق دينه الذي يخضع الناس له به ولذلك ألهم الله فتیان يوسف أن يسألوا الإخوة عن عقوبة السارق في شرع يعقوب النبي أي: عقوبة السارق في (دين الله) الذي أنزله على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وذلك ليعاقب يوسف أخاه وفق دين الله وشرعه، وهذا يدلنا على أن يوسف لما كان في منصب (عزيز مصر) معيناً من قبل الملك لم يكن مجرد تابع للملك ولا منفذاً لنظام الملك ولا حاكماً بشرعه وقانونه وإنما كان يحكم بشرع الله ويطبق على الناس حكم الله وكان صاحب الكلمة والقرار في البلاد^(٢).

- ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]: أي: ما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أخيه إلا بإذن الله ومشيئته ووحيه لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة^(٣).

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٧).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٢٠٧).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤١٣.



٥- ﴿نَرَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

أي: نرفع درجات ومنازل في العلو من نشاء وقد رفعنا يوسف فوق إخوته حتى احتاجوا إليه ومدوا أيديهم طالبين منه المبرة والعون وأعطيناه الملك والعز والحلم وتدير شؤون الدولة حتى صارت تمتد غيرها^(١).

قال الرازي في تفسيره رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأنّه - تعالى - لما هدى يوسف إلى هذه الفكرة مدحه لأجل ذلك فقال: ﴿نَرَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: ٧٦]، و - أيضاً - وصف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله ﴿نَرَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: ٧٦] عند إيراد دلائل التوحيد^(٢).

- ﴿نَرَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: ٧٦] أي: بالعلم الذي نوحى إليه ونخصه به كيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أعزه الله تعالى ورفع مقامه بالعلوم التي علمه سبحانه إياها في الدين والعبادة وتعبير الرؤيا والزراعة والادخار والتوزيع، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]^(٣).

٦- ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

أي: وفوق كل ذي علم من الخلق عليم وهو الخالق العظيم الذي وسع علمه كل شيء^(٤) وهذه حقيقة إيمانية حول علم الله الشامل المحيط لكل شيء فمهما أوتي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من العلم - أو غيره من الأنبياء والمرسلين والناس أجمعين - فعلمهم محدود قاصر لأنّه من البشر والله أعلم من كل البشر^(٥).

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٤٦).

(٢) تفسير الرازي، (١٨/١٨٢).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/٢١٠).

(٤) المصدر نفسه، (٤/٢١٠).

(٥) القصص القرآني، (٢/٢٠٨).



فعلى العالم ألا يغترّ بعلمه ويتواضع للناس ويسخر علمه لفائدتهم كما فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعليه أيضاً أن يسعى دائماً في طلب العلم والاستزادة منه قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].

وعليه أن يخلص في طلبه للعلم لوجه الله عَزَّجَلَّ حتى يتقبل الله علمه وعمله، وما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يدل على جواز الكيد لإحقاق الحق وإزهاق الباطل "فإن الحرب خدعة"^(١)

وقال أيضاً لنعيم بن مسعود الغطفاني عندما جاءه مسلماً في أثناء غزوة الخندق: "إنما أنت فينارجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة"^(٢).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينئذ محصوراً مع أصحابه في المدينة المنورة من قبل القبائل المشركة المتحزبة على المسلمين وقد انضم إليهم يهود بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحتال نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأحزاب ومن كان معهم من اليهود حتى تمكن من إشاعة الفرقة بينهم وتوهمين صفهم وتفشيهم^(٣).

وبعدما عرضت الآيات الكريمة كيفية تفتيش يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للأمتعة انتقلت لتسجيل وتصوير أثر الدهشة على الإخوة، فبعدما فوجئوا بسرقة أخيهم لصواع الملك لم يعرفوا ماذا يقولون لعزير مصر فاتهموا أخا لهم آخر بالسرقة وفوجئ يوسف بهذا الاتهام ومع هذا ضبط أعصابه أمامهم^(٤):

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، عنوان الباب الحرب خدعة، ح رقم ٢٨٦٣.

(٢) سيرة ابن هشام، (٢/١٣٧).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/٢١١).

(٤) القصص القرآني، (٢/٢٠٩).



سادساً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]:

لقد كانوا قبل قليل في حالة معنوية عالية وفي ثقة كاملة وعزة نفس، حتى اكتشفت السقاية في رحل الأخ فأصبحوا كأنهم فقدوا التركيز والاتزان ويتكلمون بغير وعي ولا روية^(١). فكان ردهم يدل على دهشهم وعلى ذهولهم وصدمتهم، فخرجت على ألسنتهم المشاعر الدفينة والأمور المخبأة ودلّ هذا على أن السنين الطويلة لم تنسيهم كرههم ليوسف مع أنهم نجحوا في كيدهم له بإلقائه في الجب وإبعاده عن أبيهم وكانوا له ظالمين كما أن يوسف لم يرد ذكره من قريب ولا بعيد فلماذا أقحموه من غير داع ولا مناسبة، ثم إنهم كانوا يعلمون يقيناً أن يوسف الطفل الصغير لم يسرق ولم يسيء، وهكذا ألقوه في الجب في الأولى كيداً، ورموه بالسرقة هاهنا بهتاناً، فقابل يوسف فريتهم حلماً وكنتم حقه صبراً وقوة إيمانية في كظم غيظه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

١ - ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]:

وتنطلق الروايات والتفسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في حكايات وأساطير، كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تخرجهم، وتبرؤا من يوسف وأخيه السارق، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه^(٢).

(١) سورة يوسف، ص ٥٠٢.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٢٢).

ولقد أولعت بعض التفاسير بنقل الإسرائيليات التي لا يقبلها نقل ولا عقل، وسارعت هي الأخرى تبحث في الملفات عن سرقة يوسف ارتكبتها يوسف، ثم جاءتنا بعد التنبيش في الإسرائيليات بأخبار ما أنزل الله بها من سلطان من مثل أن يوسف كان وهو صغير قد سرق صنما كانت تعبدته عمته، أو نحو ذلك من الروايات التي لا نحب أن نذكرها حتى ولو من باب الرد عليها. وتكلف البعض فقالوا إنه سرق قلب أبيه. ولماذا التكلف؟ إن الأمر جد يسير، إنها المفاجأة تنطق الإنسان بأي كلام والسلام، ولا حاجة إلى البحث عن تفسير هذه الكلمة وكأنها حقيقة ثابتة. إنها بقايا الحسد، ما زالت عالقة في أغوار النفس حتى إذا هبت أي ريح ثورتها^(١). قال الرازي: ظاهر الآية يقتضي أنهم قالو إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً. وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهم من أم أخرى. وأما عن رد فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إزاء موقف إخوته العجيب هذه، فقد واجهه بالضبط والربط والحلم والأناة، والهدوء والسيطرة على النفس^(٢).

٢- ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]:

لم يظهر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ انفعاله أو تأثره بما قالوا، وقال في نفسه: أنتم أسوأ مما تفترون على يوسف حتى لو كان كما تقولون، والله هو الذي يعلم حقيقة الحال^(٣).

- ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]؛ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون ولم يؤاخذهم به لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً وحلماً وكظم غيظه وأسر الأمر. وكان بإمكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يرد على التهمة وأن يبرئ

(١) سورة يوسف، ص ٥٠٣.

(٢) سورة يوسف، ص ٥٠٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٥٠٣.



نفسه منها، وأن يكذبهم فيما قالوا، وعندها سيعرفون أنهم واقفون أمام يوسف، ولو فعل ذلك لفسد كل ترتيبه وتدبيره وتخطيطه.

إذن عليه أن يتحمل وأن يصبر على التهمة وأن يضبط أعصابه وأن يتصرف مع المسألة بكياسته وحصافته المعهودة ولذلك لم يعقب على كلامهم.

﴿فَأَسْرَهَا...﴾ [يوسف: ٧٧]. وكم من مرة استعلى فيها يوسف على آلامه وأحزانه؟ وكم من مرة أودى واتهم فصبر واحتسب^(١)؟

٣- قال تعالى: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧]:

أ. ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧]: قالها في نفسه: أنتم إخوة شر ومكانكم شر وموقفكم هو الشر^(٢).

- ثم إن عبارة: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧] ليس فيها حقد عليهم وإنما هو وصف لهم.

- ﴿أَنْتُمْ شَرُّ﴾ [يوسف: ٧٧] مبتدأ وخبر. ﴿مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧]: تمييز.

وأنكم بسبب شركم جعلتم المكان الذي أنتم فيه شراً.

- قلت: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾ [يوسف: ٧٧] من قبل والله يعلم أنني لم أكن سارقاً.

- وقلت: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ [يوسف: ٧٧]. وأنتم تريدون أخي فإله يعلم أنه لم يسرق.

- وإنما أريد أن أبعده عنكم لأنكم شر مكاناً^(٣).

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢١٠)

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٢١٠).

(٣) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٤.

- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]؛ أي: عالم علما بالغاً إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا^(١). ومن العلماء من يرى أن قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا...﴾ [يوسف: ٧٧] خاطب بذلك إخوانه. وقالوا: إن من الحزم والعدل أن تقرر الحقائق بحكمة ويوقف المجرم عند حدّه وإلا تمادى المخطئ في خطئه وصدق نفسه وأقنعها بأنه على حق، وبرر خطأه واعتبره مباحاً أو فضيلة، فكان هذا التصريح من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليضع النقاط على الحروف وينزع القناع عن الوجوه ويردهم إلى حقيقتهم، ثم أنتم شر مكانا، فأنتم الإخوة الكبار القدوة والأسوة ولو كان فيكم خير وكان ما تقولون صدقاً لكان عليكم مسؤولية المشاركة في النصح والإصلاح والتربية والتزكية خاصة وأن أخويكم كانا أطفالاً صغاراً^(٢).

﴿مَكَّانًا﴾ [يوسف: ٧٧] أي: مكانكم ومكانتكم التي أنتم فيها، وكيونتكم التي أنتم عليها؛ شر كلها^(٣).

- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧] أي: إن ما وصفتم فيه أخويكم من سوء، الله أعلم بأمره وفي الكلام أسلوب حكيم لطيف في رد الحقائق إلى علم الله وفي تضمين مبطن بعدم الاقتناع بقولهم، فإن كان ما ذكرتموه حقاً، فقد اهتم طفلاً غير مكلف غائباً غير حاضر، ولا علاقة له بالأمر ولا تزر وازرة وزر أخرى، ومن غير دليل ولا برهان، المتهم بريء حتى تثبت إدانته. وإن كان غير ما تقولون فهو الكذب والبهتان فرد العلم الأوسع والأعظم إلى الله، بالإضافة إلى بيان الحق تشكيكاً بصدق قولهم، ولا يخفى على لبيب ما في هذه الآية من

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤١٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٨.



إرشاد وموعظة حسنة وتذكير وهز للنفوس والضمائر^(١). وبهذا انتهى المشهد المثير وعرف الحاضرون أن الأخ الصغير قد سرق صواع الملك، وعرف الحاضرون حكمه، والعقوبة التي ستقع عليه؛ سيأخذه عزيز مصر عبداً عنده مقابل ذلك المتاع وبهذا عرف الإخوة العشرة أن أخاهم الصغير سيتحول إلى عبد رقيق عند عزيز مصر، وعندها تذكروا ما جرى بينهم وبين أبيهم والموثق الذي أعطوه على أن يعودوا به، واستحضروا مقدار ما سيصيب أباهم من حزن وألم، عندما يعلم ما جرى، وبأنه فقد ابنه الثاني. تذكروا كل هذا فحاولوا محاولة أخيرة مع عزيز مصر^(٢):

سابعاً: قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ^ط إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْهُ^ط إِنَّا إِذَا نَظَرِ الْمَوْتَ^ط (٧٩) فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ^ط أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨ - ٨٠].

تفسير الآيات الكريمة:

١ - ﴿ قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ^ط إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨]: لما تنبه الإخوة إلى ضخامة المشكلة التي وقعوا فيها، أرادوا أن يستعطفوا العزيز ليطلق لهم أخاهم ويأخذ أحدهم مكانه فيرجعوا به إلى أبيهم؛ لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه فاتجهوا إلى العزيز في ذل وانكسار واستعطاف قائلين^(٣):

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢١١).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٢٠.

أ. ﴿قَالُوا يَكْفُؤُهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٧٨]: ولا يخفى ما في هذا القول من فخامة التقدير وعظيم الإكبار للعزیز في الوقت الذي صاروا فيه أمامه ضعفاء ولا حول لهم ولا قوة بسبب ما احتواهم من هذا الحدث الذي هز كيانه، وزلزلهم بسبب موقفهم من أبيهم^(١).

- ﴿قَالُوا يَكْفُؤُهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٧٨]: فنادوه بحرف النداء الذي للبعيد وهم في حضرته وذلك للإشارة إلى علو منزلته^(٢). نادوه بالمنصب مهابة وإجلالاً وتقرباً^(٣). ولأول مرة ينادى يوسف بهذا الاسم تعظيماً واستعطافاً، ومنه علمنا أن يوسف صار عزيز مصر^(٤).

ب. ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا﴾ [يوسف: ٧٨]: إن واللام للتأكيد والضمير عائد إلى أخيهم الصغير، أضافوه للأب بالافراد، ولم يقولوا أبانا، لما فيه من دلالة على تعلق زائد لأبيهم به وعلى التمييز بينهم كأبرياء وبينه كمذنب وكأخ غير شقيق^(٥).

ج. ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: ٧٨]: أضافوا نعت الكبر للشيخ زيادة في التأكيد، أي هرمًا. وفيها أيضاً أنه كبير في القدر والمنزلة والمكانة، فوصفوا أباهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي حنان الأبوة وصفة الشيخوخة واستحقاق جبر خاطره، لأنه كبير قومه^(٦)، وبعد هذه التوطئة قالوا:

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٤.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

(٦) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٥٧.



د. ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف: ٧٨]: ولم يحددوا واحداً منهم وإنما تركوا له الاختيار، وصار كل واحد منهم عرضة لأن يختاره العزيز، ويصير عنده رقيقاً خادماً عبداً يباع في الأسواق، كل واحد منهم على استعداد لأن يكون كذلك، حتى يرجع أخوهم إلى أبيه الشيخ الكبير، لأنه لا يتحمل الفجعة فيه، ويتحمل الفجعة في أي واحد منا. والفاء في قولهم: ﴿فَخَذَ﴾ [يوسف: ٧٨] تفيد معنى أننا نعلم ما يصيب هذا الشيخ الكبير من فقد أخينا الذي سرق، وترتب على ما نعلم دعاءنا لك، ورجاؤنا لك أن نأخذ من تشاء منا مكانه، ثم أكدوا دعاءهم، ورجاءهم الذي في قولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف: ٧٨] وبقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]: أي من أهل المعروف والخير والعطاء، وبصيغة المبالغة في كمال الصفة، والمحسن بعلو فوق درجة العدل إلى درجة الإحسان والمحسن بعد العفو يحسن لمن أساء إليه^(١).

وجملة: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]؛ تعليل للإجابة والتقدير: فلا تردسؤنا لأننا نراك من المحسنين، فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أبا شيخاً كبيراً^(٢).
ووصف الإحسان ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يجري في حياته ومصاحباً له في كل مراحلها وكانت ملامح الإحسان ظاهرة في وجهه، وقد وصفه ربنا بذلك لما قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقال: ﴿فُضِيبُ بَرَحْمَتِنَا مَن شَاءَ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]. ورفض يوسف استعطافهم ورجاءهم، وسقاه اقتراحهم فهو أمر يخالف دين الله تعالى وشرعه، فلا يجوز ترك الجاني وأخذ البريء^(٣)، فقال:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٠.

(٢) سورة يوسف، ص ٥٠٦.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٢).

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِذَا لُظِّلْمُوا﴾ [يوسف: ٧٩]:

لكل شخصية قاموس من الألفاظ كما رأينا في هذه القصة العجيبة العظيمة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٧٩] تتردد مرة ثانية على لسان يوسف كما ترددت ﴿حَشَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١] مرتين على لسان النسوة كما تردد ﴿أَنَا رَاوِدُتُهُ﴾ [يوسف: ٥١] مرتين على لسان امرأة العزيز، كما ترددت ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] مرتين على لسان يعقوب، كما ترددت ﴿أَتُؤْنِنِي بِهِ﴾ [يوسف: ٥٠] مرتين على لسان الملك^(١). المهم أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام رد طلبهم بأدب وحزم، وعن علم وحكمة، مؤكداً حقيقة إيمانية خالدة وتشريعاً ربانياً حكيماً، فلا يؤخذ المرء بجريرة غيره ولا يؤخذ الكل بجريرة البعض، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

١- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٧٩]: تكررت على لسان سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، ومعناها: أعوذ بالله معاذاً، أعني أعوذ بالله وألجأ إليه، ليحميني من فعل هذا، لأنه ذنب عظيم^(٢).

٢- ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ [يوسف: ٧٩]: أي من أن نأخذ أبداً، لأن الإنسان في الأصل بريء حتى تثبت إدانته.

٣- ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩]: استثناء منقطع، أي: يستثنى من هذه القاعدة الكلية من يقام الدليل عليه.

- ﴿مَنْ وَجَدْنَا﴾ [يوسف: ٧٩]: عمم ولم يخصص ﴿الصَّوَاعِ﴾ ليعمم الحكم.

(١) سورة يوسف، ص ٥٠٦.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥١.



وجمع ولم يفرد؛ ليدل على أن الأمر فيه مصلحة وحق عام، وليس حقاً شخصياً فيتنازل عنه.

- وقال: ﴿مَتَّعَنَا﴾ [يوسف: ٧٩] ليشير إلى شيء له نفع ومصلحة ممتدة الوقت وليست آنية عابرة.

- ﴿عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩]: لتخصيص المسؤولية عليه وحده^(١).

٤- ﴿إِنَّا إِذَا نَظَلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩]:

بصيغ الجمع للتعميم. وإن واللام للتأكيد و﴿إِذَا﴾ [يوسف: ٧٩] لتفيد الصيرورة والمآل، وصيغة اسم الفاعل للتخصيص، والاقتران في الصيغة والمعنى: لو فعلنا ذلك لكننا يقينا صائرين إلى الاتصاف بالظلم وما كنا كذلك من قبل. ومن الملاحظ أن يوسف في كل كلامه تحرى الصدق في ألفاظه وأحكامه.

فقال: ﴿نَأْخُذْ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل: نستعبد أو نسجن، والأخذ قد يكون إلى القصر أو إلى القبر. وقال: ﴿وَجَدْنَا﴾ [يوسف: ٧٩] ووجد الشيء لا تعني لفظاً ولا مضموناً السرقة. وقال: ﴿عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل معه. والعندية جوار قد يكون بعيداً أو قريباً، معلوماً له أو مجهولاً، سهواً أو قصداً. وهكذا لخص يوسف المبادئ الأساسية التي يجب على الحاكم أن يحكم بها:

- الاستعاذة بالله: كي يوفقه إلى الحكم بالحق على الوجه الحق وإن اجتهد فأخطأ أن يغفر له ويتجاوز عنه ويصلح عاقبة أمره.

- أن الناس في الأصل أحرار أبرياء لا يؤخذون بغير دليل.

- أن الحكم يقع على المدان وحده.

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥١.



- أن الحاكم لا يمكنه أن يتنازل عن الحق العام بعد الإدانة وثبوت التهمة^(١).
- أن الحكم مهما تحرى المرء المحقق فيه يظل محتملاً خطأً والحكم الحق هو حكم الحق علام الغيوب.

ولذلك نجد أن الإسلام حرم الشفاعة لمنع إقامة حد من حدود الله تعالى، كحد السرقة وحد الزنى بعد رفعه إلى الحاكم، فعندما كلم أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتَكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟! قَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ خَطِيْبًا، فَأَتَنِي عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا"^(٢).

وحرم أيضاً معاقبة غير الجاني في العقوبات البدنية كالجلد والسجن والقصاص، قال تعالى: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وهكذا نجد الفرق الواضح والشاسع بين تسرع الإخوة في الحكم على أخيه، وتوسعهم في الحكم ليشمل يوسف بغير دليل ولا برهان وبين دقة وصدق وإحسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(٣).

لقد فشل إخوة يوسف في الاسترحام والرجاء، وأصر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على أخذ الآخذ الذي وجد المتاع عنده، وعندما يئس الإخوة من استرجاع أخيه،

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: من شهد الفتح، ح رقم: ٤٠٥٣.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٣).



تركوا العزيز وغادروا قصره، وعقدوا لهم اجتماعاً مغلقاً وتشاوراً ماذا يفعلون
وانفقوا على خطة للعمل^(١):

ثامناً: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠]:

لقد كان رد يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قاطعاً حاسماً آيسهم من أن يظفروا منه بطائل.
ولقد ذكرهم ببعض الحقائق السماوية الحاكمة عليهم وعلى كل مؤمن، فقطعوا ما
بينهم وبينه واعتزلوا الناس يتشاورون فيما بينهم فيما حصل وفيما هم فاعلون^(٢).

١ - ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]:

يدل على أنهم بذلوا جهوداً كبيرة في سبيل تخليص أخيهم ولكنهم لم ينجحوا
فوصلوا إلى مرحلة اليأس، وحينئذ تركوا الأمر، كما أن صيغة الجمع تدل على
أن الجهد كان من الجميع وأن اليأس أصابهم جميعاً^(٣).

لقد بلغوا حد اليأس والتعبير بـ: ﴿ أَسْتَيْسُوا ﴾ [يوسف: ٨٠] أي يسّوا يأساً
لا زيادة فيه لمستزيد، ولا مجال فيه لمزيد^(٤). والسين والتاء في: ﴿ أَسْتَيْسُوا ﴾
[يوسف: ٨٠] للتأكيد ومثلها: ﴿ فَاسْتَجَابَ ﴾ [يوسف: ٣٤] و ﴿ فَاسْتَعَصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢]^(٥).
وهذه العبارة: ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا ﴾ [يوسف: ٨٠] تعني أنهم ألحوا وطال إلحاحهم
واستعداد كل واحد منهم أن يكون رقيقاً ليدخل السرور على هذا الشيخ الكبير^(٦).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٣.

(٢) القصص القرآني، (٢/٢١٣).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ١٢٨.

(٤) سورة يوسف، ص ٥٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٠٨.

(٦) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧.

- ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]: ذهبوا إلى لقاء خاص واجتماع مغلق لهم، انزروا فيه عن الآخرين، فكان لقاءهم خالصاً لهم، لم يشاركهم فيه أحد غيرهم وجلسوا يتناجون ويتشاورون ويتحدثون ويفكرون في ماذا سيفعلون.

و﴿نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] حال منصوب بمعنى متناجين^(١). وقال الدكتور محمد أبو موسى - حفظه الله -: وكلمة ﴿نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] تميز، أي: خلصوا نجوى. وهذا أرفع من لو أعربتها حالاً وقلت خلصوا متناجين، لأنهم لم يخلصوا متناجين، وإنما خلصوا نجوى. والنجوى مصدر^(٢).

قال الثعالبي: في كتاب: (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول: من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيماء ويفطن بكفاية الإيجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام، ثم قال: فمن ذلك قوله عز وجل في إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه، وما يقدرّون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة^(٣).

ويحكى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. فهنا فخامة تروع القلب، وجلال يمس الشغاف، وشيء يصعب التعبير عنه، هنا طبقة فاخرة من الكلام^(٤).

(١) القصص القرآن، (٤/ ٢١٤).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٧.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨، (٦/ ٢٦٣).

(٤) أيها الصديق، محمد خيرى، ص ١٤٩.



- ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] ينبغي لمن أراد البحث في أمر مهم، أو التشاور أن يختار موضعاً هادئاً، لا تشويش فيه، ليجمع فكره ويتبين أمره^(١).

٢- ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف: ٨٠]:

أكبرهم سناً أو قدراً أو كلاهما، ومن أسلوب القرآن كما ذكرنا أنه لا يأتي بالأسماء إلا للضرورة في أداء المعنى وفي هذه المناسبة لا يزيد تسمية أخيهما القائل إن كان يهوذا أو روبيا فائدة تذكر، ووصفه بالكبير أثرى المعنى ودلّ عليه^(٢).

- ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف: ٨٠]: عرف البدء بالأكثر من أفضل الأعراف البشرية، التي فيها احترام الكبير، وفيها الأخذ بالخبرة، وفيها كبح جموح الآراء غير الناضجة^(٣).

٣- ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠]:

استفهام استنكاري ذكرهم فيه فيما قطعوه لأبيهم من عهد وميثاق ومنكراً على نفسه وعليهم النكوث فيه^(٤).

وقال: ﴿أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠]: قال أخذ عليكم، ولم يقل أخذ منكم؛ لأن عهد الله يعلو، ولا يعلو عليه وأنك إذا عاهدت بعهد الله وواثقت بميثاق الله، فقد جعلت عهد الله عليك مالكاً لزمالك، فلا تفريط ولا تساهل، فإن نكثت وخنت وغدرت، وجب عليك أهل الحق أن يبنذك، لأن من غدر بعهد الله لن يفي لغيره بشيء.

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٥.

(٣) يوسفيات، ص ١١٣.

(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٥.

ثم قال: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠]: وإنما أخذ أبوهم العهد والميثاق منهم ولكن هذا الكبير يوقن إن ما كان مأخوذاً باسم الله فهو مأخوذ من الله، وإذا أعطيتك يمين الله فكأنما الله هو الذي أعطاك اليمين، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِاللَّهِ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وهذا الاستفهام: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي...﴾ [يوسف: ٨٠] فيه إشارة غضب وتهيج^(١)، فكيف يعودون إلى أيهم بدون أخيهم؟ وماذا سيقولون له عندما يسألهم عليه؟^(٢). ومن ثم راجع قوله على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قال:

٤ - ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠]:

وهذا القول من الأخ الكبير لإخوته يعني أن الأمر لو كان أخذ بنيامين وحده الآن ولا شيء قبل ذلك لهان الأمر، ولكن السابقة المروعة التي أوقعتموها بيوسف حيث فرطتم فيه من قبل، وقصرتم في شأنه وأسلمتموه للهلاك، ولم تحفظوا وعدكم لأبيكم إذ قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] و ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، هي التي تكسر ظهورنا وتجعل موقفنا الآن أمام أبينا موقف المتهمين غير المصدقين ولو كنا حقيقة صادقين^(٣).

أما أنا فلا أقدر على مواجهة أبي بعد هذا الكرب والمصاب العظيم، ولذلك:

٥ - ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٨٠]:

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤١٧.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤١٧.



- ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠]: أي فلن أرجع معكم وأغادر أرض مصر. وعبر بأداة النفي: (لن) وكأنه سيظل على هذه الأرض التي هو واقف عليها لن يتحرك، ولن يغادرها أبداً. وواضح من هذا القرار الذي اتخذه الأخ الكبير في هذه الحال وحكم به على نفسه، أن هذا الحدث أصابه بهمّ بالغ، فقد حان عليه أن يظل في مصر وحيداً غير عابئ بأهله وأولاده ووطنه، كل هذا يَقْدِرُ عليه. أما لقاءه أبيه بعد ما حدث فليس له بها طاقة^(١). إن كلماته تتفجر غضباً ووجعاً وألماً وحسرة وغماً وحزناً وتوبة ورجوعاً إلى الله عَزَّجَلَّ، وحرصاً على بر والده الشيخ الكبير والنبى العظيم.

- ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي﴾ [يوسف: ٨٠]: أي إلى أن يأذن لي أبي أو شريطة أن يأذن لي أبي؛ لأن العهد كان معه، ولأنه ولي أمرهم وصاحب الشأن. وقال: ﴿أَبِي﴾ [يوسف: ٨٠] ولم يقل: ﴿أَبَانَا﴾ [يوسف: ٨] لأنه يتحدث عن اسمه الشخصي، ومعبراً عن مشاعره الخاصة وعن ضمير استيقظ في وجدانه.

- ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى﴾ [يوسف: ٨٠]: بما قضاه وقده عليّ، إما بالخلاص وإما بالهلاك، وإما بأمر قدر قدره الله مما ليس في حساباني، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

- ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]: لي ولكم ولأخي ولعباده أجمعين. خيرية مطلقة شاملة، خيرية في الحاكمية: تشريعاً قضاءً، إنفاذاً. وهذه من الحقائق الإيمانية الأساسية صرح بها الأخ الكبير، وختم به مقدمته الخيرة في المحافظة على العهد والميثاق وجاءت تنويعاً لتذكره الله وأوبته إليه وسلوكه الملتزم

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٢٧.

بالصدق والوفاء وإنكار الباطل، وإحقاق الحق والإقرار بالذنب والشعور بالندم وإظهار اللوم وإصلاح العمل، هي في الحقيقة مقدمات التوبة، وأساسها^(١).

وبعد هذا الحديث الصادق من الأخ الكبير أمر إخوانه التسع بأخذ أحمالهم وجمالهم والعودة إلى أبيهم وإخباره بتفاصيل ما جرى:

تاسعاً: قوله تعالى: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١) وَسَلِّ الْقَرْيَةَ إِلَيْنَا كُنَّا فِيهَا وَأَعِيرَ إِلَيْنَا أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿[يوسف: ٨١ - ٨٢]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ - قوله تعالى: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]:

أ. ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]: طلب الأخ الكبير من إخوانه الرجوع إلى أبيهم وإخباره بما وقع وحدث. وواضح أن رجوعهم إلى أبيهم لم يكن لهم سبيل سواه. والفاء في قوله: ﴿فَقُولُوا﴾ [يوسف: ٨١] دلالتها على مبادرة أبيكم بهذا القول فور رجوعكم وقبل أن يسألكم عن أخيك، ثم مبادرة يعقوب الكريم ابن الكريم بأن ابنه الذي رباه وكانت رعايته له بعد فقد يوسف بأنه سرق وأن هذا الخبر ما كان يمكن أن يرد في نفس يعقوب، الذي هو أعلم الناس بأدب ولده وبخلقه وسموه الذي رباه عليه، ثم بتهيئتهم بهذا الخبر الصادق لقولهم: ﴿يَتَابَانَا﴾ [يوسف: ٨١] وندائهم له بأداة النداء الذي ينادى بها البعيد وهم في حضرته لمزيد إيقاظه وتنبيهه. ثم ذكر أبوته



لهم، وأنه أبوهم وأنه رباهم ورعاهم وبعد هذا التمهيد فاجأوا أباهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَبْنُكَ سَرَقٌ﴾ [يوسف: ٨١]. وأنا نقول لك ذلك أثر هذا الخبر على نفسك، ولا حظ أن الأخ الكبير معتقدا اعتقادا صارماً أن أخاه سرق؛ لأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أحكم خطته وأن يأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله^(١).

ب. ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ [يوسف: ٨١]؛ أي: شهدنا بذلك في حدود علمنا الظاهري المرئي ونفوا عن أنفسهم علم الغيب الخفي وهذا بديهي يتساوى فيه كل مخلوق والاختلاف بين الخلق في درجة علمهم ومبلغه، فالأخوة هنا أكدوا بقولهم هذا على ضعف علمهم، وضآلته وخلوه من الحكمة وإلا لقالوا: إن السقاية أخرجت من رحل أخينا، والقولان علم شهادة ورؤية ولكن شتان بين العلمين والشهادتين. وعلى مثل هذا التحري والدقة والازدياد في العلم والتعلم تقع المسؤولية الإنسانية في صفة العلم، فالتزكية والتعلم والاجتهاد وتحري الدقة وطلب الحكمة صفة إنسانية مسؤولة:

- ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

ج. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]: إننا لم نكن نعلم الغيب عندما أعطيناك الموثق والعهد على أن نعيده سالما ولم نكن نعلم أنه سيؤخذ رغما عنا بجريرة السرقة، وهو الآن عندهم سارق، والحقيقة لا نجزم بها، فهل سرق فعلاً أم أن في الأمر لغزاً مشيراً؟ لا ندرى. فما كنا للغيب حافظين^(٢).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٧.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٨٢.



قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف^(١).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] احتراس من تحقيق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطيف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا أمانة أخيهم ما خالجهما به الشك في وقوع السرقة منه^(٢).

ولما كانوا يعلمون أن أباهم لا يثق بهم بسبب ما رآه من كذبهم عندما جاؤوا عشاء ليكون وأخبروه بأن الذئب قد أكل يوسف، طلبوا منه أن يتحقق بنفسه من صدقهم^(٣)، فقالوا:

٢- ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾

[يوسف: ٨٢]:

ولا ندري هذا الكلام من تمام الوصية التي قالها الكبير للإخوة أم هو من كلام الأولاد لأبيهم مباشرة، المهم أن السياق يطوي الزمان والمكان ليوقفنا أمام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وهذه الجملة تدوي في مجلسه تنتظر جوابه.

أ. ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]: القرية في اللغة العربية هي مجتمع الناس، لكن الاصطلاح اليوم يجعلها بمفهوم معين هو ما دون المدينة، والقرآن اعتبر كل مجتمع قرية ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

(١) الكشف، (٢/ ٢٧٠).

(٢) التحرير والتنوير، (٦/ ١٣٠).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٤).



- ﴿وَكَاَنَ مِنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] وهي في الاستعمال القرآني مرادفاً للمدينة^(١).

قالوا لأبيهم إن كنت مذبا لنا، فاسأل القرية التي كنا فيها، فكل أهل المدينة، عاصمة مصر مقرّ العزيز عرفوا بالقصة، ولو سألت أهلها لأجابوك بأن ابنك استرقّ لأنه سرق^(٢).

ب. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي: واسأل أهل العير (القافلة) الذين رافقوهم في سفرهم وفي رجوعهم من مصر من خدام وساسة وأذلاء وغيرهم. ويشير إلى هذا المعنى إتيانه بلفظ: ﴿وَالْعِيرَ﴾ [يوسف: ٨٢] الذي يشمل العير وأهلها وخدمها والمشرفين عليها.

- ﴿أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] دقة في الأداء اللفظي، فالإقبال بمعنى مقابلة ومواجهة الشيء للشيء أو الأشياء، فجاء اللفظ، ليدل على المعية بينهم وبين العير وأهلها ومقابلتهم لها من اللحظة الأولى للحدث وإلى لحظة الإقبال على أبيهم والحضور بين يديه^(٣).

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والمراد بالعير التي كانوا فيها رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من أرض كنعان، فأما سؤال العير فسهل، وأما سؤال القرية فيكون بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب بنفسه إن أراد الاستثبات^(٤).

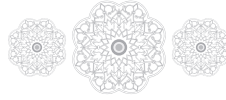
(١) سورة يوسف، ص ٥١٣.

(٢) أيها الصديق، ص ٢٦١.

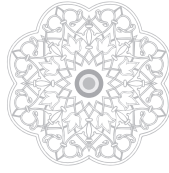
(٣) سورة يوسف، ص ٥١٣.

(٤) القصص القرآني، (٢/٢١٦).

ج. ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] ثم أكدوا صدقهم ب (إن) وبالجملة الإسمية وباللام^(١) وأرادوا هنا أن يثبتوا صدقهم وحين يسأل أبوهم يعقوب، سيجد أنهم صادقون فعلاً وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة.



(١) آيات للسائلين، ص ٣١٤.



المبحث التاسع: اشتداد البلاء على يعقوب عليه السلام وصبره العظيم وثقته المطلقة بالله تعالى وعفو يوسف على إخوته

قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَبِصْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرَجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ [يوسف: ٨٣ - ٩٣]:

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣]:

استمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه بإنصاف ولم يقاطعهم ولم يرفع صوته، بل انتظر فراغهم، ثم قال كلمة هادئة تنم عن صبر جميل، وعقل رجيح يحسن وزن الأمور وتقديرها، يرى الحق حقاً باديًا ساطعاً، وإن التبس على كثير من الناس^(١).

١ - ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ٨٣]:

فقوله: ﴿بَلْ﴾ [يوسف: ٨٣] إضراب عن كلامه تقديره: ليس الحق كما ذكرتم، ولا يلزم ذلك رميهم بصريح كذب و تهمة، فلو كان ذلك كذلك لما أمرهم - وهم الكاذبون عنده المتهمون بالجرم - أن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه، فلعل مراده: جانبتم الحقيقة وقد زينت لكم أنفسكم حمل أخيكم نحو أرض مصر، أو صواب ما ذكرتم، وعلى كلا التقديرين فقد أصاب ذلك كبد الحقيقة، فأنفسهم تمكن سوء الظن منها فظنت سوءاً بالأخ دون تراث أو محاولة للدفاع ورد التهمة، بل أثبتت التهمة أولاً، وإن اجتهدوا في خلاصه منها فيما بعد، مع تقريرهم لوقوعه فيها، فترتب على ذلك الظن الفاسد الذي قبلته أنفسهم ما اعتقدوه من الذي قالوه^(٢).

وذهب آخرون من العلماء إلى أن هذا تكذيب لهم وتهمة بالتآمر على أخيه، حتى قال بعض أهل العلم: ينبغي لأهل الرأي أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو نبي حين قال له بنوه: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْلَهُ الدِّبْتُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

(١) آيات للسائلين، ص ٣١٤.

(٢) آيات للسائلين، ص ٣١٤.



قال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] فلم يصب^(١). والأظهر أنه أصاب، فهل سرق بنيامين؟ لا بل زينت لهم أنفسهم ذلك الأمر فقبلوه، بدليل قوله لهم بعد ذلك: ﴿يَبْنَىٰ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَاذِبُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وليست تلك وصية يكلف بها المكذبون المتهمون فالأولى هو ما ذكرناه^(٢).

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]: ليس الأمر كما تقولون فإن ابني لم يسرق، بل زينت لكم أنفسكم أمراً، وهواكم الفاسد غير ذلك، كما زينته لكم من قبل إذ قلتم في يوسف: إن الذئب قد أكله وجئتم على قميصه بدم كذب^(٣).

٢- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]:

ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَام مدرسة كبيرة في الصبر الجميل وهو الصبر الذي ليس معه تأفف، وقد ذكر الله الصبر الجميل والصفح الجميل، والهجر الجميل.

فالصبر الجميل الذي ليس فيه جزع ولا شكوى إلى المخلوق.

والهجر الجميل: الذي ليس فيه أذى^(٤).

والصفح الجميل: الذي ليس فيه عتاب^(٥).

(١) تفسير القرطبي، (١٢٩/٩).

(٢) آيات للسائلين، ص ٣١٥.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

وفي البلاء الأول عند كيدهم ليوسف عقب بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وفي هذا قال:

٣- ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]:

لما فيه من بلوغ الشدة مداها ورجائه بفرجها. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦]؛ وواضح من الآية الكريمة حسن ظنه بالله وإحسانه وفراسته بقرب وعد الله باللقاء^(١).

- ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ [يوسف: ٨٣]: عسى إذا كانت من الله فهي مؤكدة محققة وإذا كانت إلى الله من عبد مخلص صادق فهي رجاء التحقيق بإذن الله تعالى.

- ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ [يوسف: ٨٣]: أي ثلاثتهم. ﴿جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣] ليس على معنى الجمع العددي فقد دل عليه ﴿بِهِمْ﴾ [يوسف: ٨٣] ولكن على معنى الجمع الصفاتي في الزمان والمكان أي: مجتمعين مع بعض غير متفرقين. وهذا من دقة الأداء القرآني في البيان والتنبؤ بما يكون عليه الحال^(٢).

- ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]: يوسف وأخوه وكبيرهم، فتلك عاقبة الصبر الجميل، والله تعالى عليم بالأمور على حقائقها، حكيم فيها يقضي ويقدر على العباد^(٣).

٤- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]:

- إن: للتأكيد.

(١) آيات للسائلين، ص ٣١٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.



- والهاء: ضمير الغائب المتصل عائد على الله. أي: إن الله.
- هو: ضمير الغائب المفرد المنفصل، وكرر الضمير، للتنبيه والتأكيد والاختصاص والشأن^(١).
- العليم: على أصالة كمال الصفة وإحاطتها وعلة وزن فعيل للمبالغة في الصفة، فهو العليم بالسر، والنجوى، والعالم بالغيب والشهادة، ولا تخفى عليه خافية^(٢). فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يخاطب أبناءه ويبين لهم أن الله عَزَّجَلَّ، هو العليم الذي يعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات.
- ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]: فيما يقضي ويدبر ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج^(٣).
- وقد ناسب ذكر هاتين الصفتين: جواب يعقوب لأبنائه، فالله سبحانه عليم بما كان وما جرى معهم ومع أخيهام وحقيقة أمر تهمة السرقة التي أخذ بها، عليم بصدق أو كذب ادعائهم عليم بحقائق أنفسهم، وخفايا الأمور كلها، عليم بعلومه الناس وما لم يعلموه، وهو حكيم فيما كان من أمرهم، حكيم كل ما علم. حكيم في كل أمر^(٤).
- وبعد إجابة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لأولاده أعرض عنهم وانصرف إلى آلامه وأحزانه:
- ثانياً: قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]:

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٥).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٥).

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢١٩).

وهذه صورة مؤثرة للوالد المفجوع، يحس أنه المنفرد بهمه وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل متذكراً فجيعة في ولده الحبيب (يوسف) الذي لم ينسه ولم تهون من مصيبته السنون^(١).

١ - قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسُفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]:

- ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [يوسف: ٨٤]: قام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من عند أبنائه وأسرته وتولى عنهم، وتذكر يوسف وما جرى مع يوسف سابقاً وأيقظت المصيبة الجديدة كوامن حزنه على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأطلقها زفرة حرة، ونفثة مكبوتة من صدره^(٢).

- ﴿يَأْسُفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]: ويا لها من كلمة تقطر حزناً ومرارة وحرقة ولهفة. وهذه الكلمة في اللغة العربية مثل: يا حسرتي ويا ويلتي. ولا يقصد بها حقيقة النداء، وإنما هو مجاز كأنه ينادي الأسف أن يسعفه^(٣).

والأسف، أشد الحزن والحسرة على ما فات. ومن العجيب أن الأسف لم يأت في القرآن إلا مرة واحدة على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وكأنه أختص به وحده^(٤) فحياته كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة في التاريخ مما لا يطيق مثله إلا مثله^(٥).

وقال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم.

(١) سورة يوسف، ص ٥١٧.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، (٣٥٨٢/٩).

(٣) سورة يوسف، ص ٥١٩.

(٤) تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، أبو الليث نصر السمرقندي، (١٧٣/٢).

(٥) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٧.



أما المقام الأول: وهو أنه أعرض عنهم، وفر منهم فهو قوله: وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف.

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: وقال يا أسفى على يوسف وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدرح إذا وقع على القدرح كان أوجع وقال متمم بن نويرة:

وقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذرف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك
وذلك لأنه إذا رأى قبر افتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى. وقال آخر:

فلم تنسني أوفي المصيبات بعده ولكن نكاء القرع بالقرع أوجع
والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

- أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفا على الكل.

- الآن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها^(١) أضف إلى أن مكان من فقد مؤخراً معلوم أما يوسف فيما يعلم يعقوب له مكاناً ولا للمصيبة فيه كيفية.

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ مَا أُعْطِيَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) غير هذه الأمة ولو كان أوتيتها أحد قبلكم لأوتيتها يعقوب حين قال: ﴿يَا سَفَى عَلَى يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]^(٢).

٢- ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

أ. ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ [يوسف: ٨٤] أي: من شدة بكائه وحزنه غشيت عينه غشاوة بيضاء تسببت في ضعف بصره جزئياً أو كلياً^(٣).

ب. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]: على وزن فعيل للمبالغة والقوة في الصفة. أي: يكتم حزنه ومشاعره وأمره في نفسه ولا يظهرها للناس، أو أنه يشكو أمره خفية إلى الله، ولا يعلنه، ولا يشكو إلى غير الله، أو أنه لا يظهر حزنه ولا يعبر عنه بما لا يرضى الله من أمور مخالفة كالعويل والولولة واللطم والصياح وتقطيع الشعر والثياب. والإسوة الحسنة في هذا هو فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موت ابنه إبراهيم ومن الكظم، كظم الغيظ والغضب. ولا يعني ذلك نفي الغضب مطلقاً، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغضب إذا انتهكت حرمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهكذا أفصح القرآن الكريم عن عظيم حزن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وجزعه ولهفته على أبنائه وعلى رأسهم يوسف، بالقول: ﴿يَا سَفَى﴾ [يوسف: ٨٤]. وبالجوارح:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٨.

(٢) التفسير الكبير، (١٨/١٩٣) بتصرف.

(٣) المصدر السابق، (٤/٢١٦).



﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، وفي النفس: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

- ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]: ممتلئ غيظاً وحزناً. وشدة حزنه تدل على قوة مشاعر الأبوة في قلبه، وهي مشاعر إنسانية رفيعة تفيض بها نفوس الكُمَّل من الناس، وكلما ازداد الإنسان إيماناً بالله سبحانه، كانت عواطف الأبوة أقوى في قلبه، وأنصح في نفسه، فالإيمان بالله يكمل إنسانية الإنسان، ويفجر فيها ينابيع الخير والإحسان والحنان. ولهذا نرى الكفار يغلب عليهم ضعف المشاعر الإنسانية ولا عجب أن نراهم يقطعون أرحامهم ويتخلون عن أبناءهم من أجل ملذاتهم الجسدية، وقد أصبحت قطيعة الرحم، وانحلال الأسرى أعظم السمات البارزة في حياتهم الاجتماعية. والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكمل الناس إيماناً، فهم أكملهم وأصدقهم في مشاعرهم الإنسانية عامة، ومشاعر الأبوة خاصة. وكان حزن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أثراً من آثار مشاعر الأبوة الكريمة، وإن الحزن الشديد غير محذور لأنه من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وإنما المحذور والمنهي عنه لطم الخدود، وشق الجيوب، والنياحة، كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما مات ولده إبراهيم: «تَدَمَّعَ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»، ولما رأى عبد الرحمن بن عوف دموع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: وأنت يا رسول الله؟! قال: يا ابن عوف! إنها رحمة^(١). ودمعت عيناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما رفع له ولد

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إنا بك لمحزونون)، ح رقم: ١٢٤١.

لإحدى بناته وهو يموت، وقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّه تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

ويبدو أن أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أشفقوا على أبيهم وخافوا أن تؤدي به الحال التي وصل إليها، فأرادوا تنبيهه ولعلمهم ظنوا أن تقنيته من لقيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أفضل وسيلة يمكن أن تطفئ حرقه قلبه بعد أن غاض ماء عينيه وذهب نورهما^(٢) فقالوا: ﴿تَأَلَّه تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

- قال الدكتور أحمد نوفل: والقسم بهذه الصيغة: ﴿تَأَلَّه﴾ [يوسف: ٨٥] قلنا إنه تكرر في هذه السورة ما لم يتكرر في القرآن كله، والمعنى: والله لا تزال تذكر يوسف لا تنقطع عن ذلك حتى تقارب الهلاك أو تكون من الهالكين. ولا حظ سيطرة حرف (التاء) على جرس كلمات الآية تأله تفتأ تذكر، حتى تكون، أو تكون... مما يوحي بجو التعنيف.

وهذه التاء في قوله: ﴿تَأَلَّه﴾ [يوسف: ٨٥] حرف قسم كالباء والواو ويكن فيها زيادة معنى التعجب كأنهم تعجبوا من قوله: ﴿يَكْأَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

- تفتأ: أي: لا تفتأ، أي: لا تزال. وحذف حرف النفي، لأنه لا يلتبس بالإثبات ونحوه: فقلت يمين الله أبرح قاعداً.

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب: عيادة الصبيان، ح رقم: ٥٣٣١.

(٢) آيات للسائلين، ص ٥٢٢.



- حرصاً: مشفياً على الهلاك مرضاً. يقال: أحرصه، فهو حرص وحرص، بالكسر والفتح وكلام الأبناء مع يعقوب نصيحة منهم له، وإشفاق عليه، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال مجاهد: الحرص ما دون الموت، يعني: قريبا من الموت... وأصل الحرص: الفساد في الجسم والعقل من الحزن والهموم أو العشق أو الهم. يقال: رجل حرص، وامرأة حرص، ورجلان حرص، ورجال ونساء. كذلك لأنه مصدر وضع موضع الاسم ﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] أي: من الميتين^(١).

وإنما قالوا له هذا القول إشفاقا عليه وكفا له عن البكاء. أي لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض يهلكك، لأنه كان قد أشفى على ذهاب بصره وفساد جسمه، أو تموت بالغم والهلاك. وذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب أين هو فالميت هالك لهذا المعنى^(٢).

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: وجملته قالوا تالله محاورة بنيه إياه عند ما سمعوا قوله: يا أسفى على يوسف وقد قالها في خلوته فسمعوها.

والتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم. قال في «الكشاف» في سورة الأنبياء: «التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب». وسلمه في «مغني اللبيب» وفسره الطيبي بأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم.

(١) مختصر تفسير البغوي، عبد الله الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، (٤٥١/١).

(٢) سورة يوسف، ص ٥٢٣.

وجواب القسم هو تفتؤا تذكر يوسف باعتبار ما بعده من الغاية، لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف. وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد لَأَنَّهُ لو كان مثبتا لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا.

ومعنى تفتؤ: تفتّر. يقال: فتىء من باب علم، إذا فتر عن الشيء. والمعنى: لا تفتّر في حال كونك تذكر يوسف. ولملازمة النفي لهذا الفعل ولزوم حال يعقب فاعله صار شبيها بالأفعال الناقصة.

وحرضا: مصدر، وهو شدة المرض المشفي على الهلاك، وهو وصف بالمصدر، أي حتى تكون حرضا، أي باليا لا شعور لك. ومقصودهم الإنكار عليه صدا له عن مداومة ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على لسانه لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه.

وفي جعلهم الغاية الحرّض أو الهلاك تعريض بأنه يذكر أمرا لا طمع في تداركه، فأجابهم بأن ذكره يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ موجه إلى الله دعاء بأن يردّه عليه. فقوله: يا أسفى على يوسف تعريض بدعاء الله أن يزيل أسفه برد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه لَأَنَّهُ كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحى أو بفراصة صادقة وهي المسماة بالإلهام عند الصوفية^(١). والظاهر من الآية الكريمة أن أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان غرضهم تنبيه والدهم والشفقة عليه من مآلات لا تحمد عقباها، ولذلك أرادوا منه ترك البكاء والأسف على يوسف خوفاً على سلامته وصحته. لكن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم من الله ما لا يعلمون

(١) التحرير والتنوير، (٦/٣٣).



وكان يظن بالله ما لا يظنون وكأنني به عَلَيْهِ السَّلَام يلتفت إليهم بعد أن تركهم وأدار لهم ظهره ويقول بلسان الواثق الذي لم ينقطع رجاءه في العليم الحكيم، بقوله: رابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]:

وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية وفي هذا القلب الموصول بالله تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ولألائها الباهر. إن هذا الواقع الظاهر لميئس من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل، إن هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح، بربه فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور وهذه قيمة الإيمان بالله ومعرفته سبحانه، ومعرفة قدرته ورحمته ورعايته عَزَّوَجَلَّ لعباده^(١).

١ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]:

قال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: شكاً إلى الله ولم يشك من الله، ومن شكاً إلى الله وصل، ومن شكاً من الله انفصل، ولما شكاً إلى الله وجد الخلف من الله.

إذا تمنى الناس روحاً وراحاً تمنيت أن أشكو إليك فتسمعاً^(٢)

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ (البث) أشد الحزن، سمي بذلك، لأنه من صعوبته لا يطيق حمله، فيثبه، أي: ينشره^(٣).

(١) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٢٦).

(٢) اللطائف والإشارات، (٣/٢٠٠-٢٠١).

(٣) البحر المحيط، (٦/٣١٥).



وقال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: ﴿بَقِيَ﴾ [يوسف: ٨٦]: همي أو حاجتي، والبت: تفريق الهم بإظهار ما في النفس^(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: وقد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بشاً. فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه^(٢).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والبت: الهم الشديد وهو التفكير في السيئ والمسيء. والحزن: الأسف على فائت فيبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعاً ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَنَّهُ كان معتمداً بالتفكير في مصير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفاً على فراقه^(٣).

- ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]: قصر شكواه على التعلق بالله أي: يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة لأن الدعاء عبادة وصار ايضاً عينه الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى أثراً جسدياً ناشئاً عن عبادة، مثل تفطر أقدام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قيام الليل^(٤). وقال أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ ﴿إِنَّمَا﴾ [يوسف: ٨٦] من أدوات الحصر أي أنه لا يشكو همومه العارضة وأحزانه الدفينة إليكم بل يشكوها إلى الله وحده^(٥).

(١) تفسير سلطان العلماء، (٢/١٣٦).

(٢) فتح القدير، (٣/٤٩).

(٣) التحرير والتنوير، (٦/٣٣).

(٤) المصدر نفسه، (٦/٣٣).

(٥) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٥٢).



٢- ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]:

هذه الجملة تحوي في نفسه كل الرجاء الذي يرجوه والأمل الذي يأمله، وفيه دلالة لى أنه يعلم أن الله كاشف كربه، ومزيل همه، وهو علم من علم الله تعالى، لا من علم أحد، يعلمه بالإلهام أولاً، وبرجائه في الله ثانياً، وبرؤيا يوسف الصادقة ثالثاً، ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين، وتأويل الرؤيا أن يكون في ظل يوسف، وهو في عز مكين، وإن ذلك واقع لا محالة^(١).

- ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]: لينبهم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية، ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه، أي: أنا أعلم علماً من عند الله علمنيه لا تعلمونه، وهو من علم النبوة، وحكي مثل ذلك عن شعيب في سورة الشعراء وفي هذا تعريض برد تعريضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع^(٢).

- وقال ابن العربي: وأحسن الكلام في الشكوى، سؤال المولى زوال البلوي، وذلك قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، من جميل صنعه وغريب لطفه، وعائده على عبادته^(٣).

- وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فإنزال الفاقة بالناس أن يشكو إليهم ويترك الشكوى إلى الله، فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق جائزة لجاز إنزالها بالناس، وقد قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٥٣).

(٢) التحرير والتنوير، (٦/٣٣).

(٣) أحكام القرآن، (٣/١١٠٤).

فَرَعَتْ فَأَنْصَبَ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ [الشرح: ٧ - ٨]. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس: "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" ^(١).

ورأى الفضل بن عياض رجلاً يشكو إلى رجل فقال: يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك. وقال بعضهم: ذكر الله الصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل؛ فالصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق. والهجر الجميل الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل الذي ليس فيه عتاب ^(٢).

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ طراز فريد من أولئك الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، ويعلمون من الله ما لا يعلمه الآخرون. وقد صرح لأبنائه بشيء مما يعلمه وكشفهم بما يحقق قوله حين أذن الله تقدير انتهاء البلوى ومجيء الفرح فكلف أولاده بالبحث عن يوسف وأخيه، فجمع بين الصبر الجميل، وقانون الأخذ بالأسباب، وأمر إخوة يوسف أن يعودوا مرة ثالثة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وكأنه كان يتوقع وجود يوسف في مصر ويرى أن ما حدث لأخيه له علاقة بيوسف ^(٣) عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال لهم:

خامساً: قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]:

لقد أخبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أبناءه بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون، ثم أتبعه بقوله:

١ - ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]:

(١) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ح رقم: ٢٥١٦. حسن صحيح.

(٢) الاستغاثة، ابن تيمية، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، (١/ ٢٧٥ - ٢٧٧).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٧).



- ﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا﴾ [يوسف: ٨٧]: فقد علم من العلم الذي علمه الله إياه وأوحاه إليه أنه إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج، ولهذا فقد قوى رجاءهم وأمرهم أن يرحلوا إلى مصر ويتطلبوا يوسف وأخيه.

- وفي خطابه: ﴿يَبْنِيْ﴾ [يوسف: ٨٧] بوصف النبوة ترقيق لهم وتلطف. وفي هذا دلالة على الحنان الفائق الذي حباه الله لأبنائه مع أنه لا يزال يعتقد أن لهم يداً - على الأقل - فيما يتعلق بيوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

لقد دعاهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام بمحض الرحم، وهو النبوة، ثم أضافهم إلى نفسه، وكأنه يقرب قلوبهم من قلبه بهذه الإضافة وهذا الضم، وكأنه يضمهم واحداً واحداً إلى صدره. وناداهم بحرف النداء، وهم في حضرتهم لإيقاظهم، وتهيتهم، وإحضار عقولهم وقلوبهم لتلقي ما يقول. ثم قال لهم:

- ﴿اَذْهَبُوْا﴾ [يوسف: ٨٧]؛ وهذه كلمة عجيبة جداً، لأن معناها الذهاب إلى مصر، وأن يوسف في مصر، وأن أكذوبة أكله الذئب والدم الكذب على قميصه كذب في كذب، لا شك حين يسمعون منه هذا يتأكدون من أن الشيخ الجليل يعلمه الله ويكشف له الكذب، فيغسل الله قلوبهم من الباطل برؤية هذه المعجزات من أبيهم^(٢).

ففي قوله: ﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا﴾ [يوسف: ٨٧]، دليل واضح على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام شعر بيوسف ولذا قال: ﴿اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُّوسُفَ وَآخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وإلا فكيف يأمرهم بالتحسس وهذه المرة بالذات من يوسف وأخيه وفي مصر بالذات إن لم يشعر بذلك؟ بل شعر وأظهر ذلك لبنيه، ولذلك استجابوا فوراً

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٣٦.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٤٦.



ولم يعارضوه، وهذه هي أهم الأسباب التي جعلت يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يتوقع قرب اللقاء بيوسف:

- إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج.

- علم أن رؤيا يوسف صادقة.

- علم ذلك بوحي من الله.

لما أخبره أبناؤه بسيرة العزيز وكمال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو ويوسف.

- علم قطعاً أن بنيامين لم يسرق، وسمع أن العزيز ما آذاه، وما ضربه، فغلب على ظنه أن ذلك العزيز هو يوسف^(١).

- ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]: يعني أعملوا حواسكم بكل ما فيها من طاقة، كي تصلوا إلى الحقيقة^(٢).

أي: استخدموا مبلغ علمكم وجهد حواسكم وغاية ذكائكم وحيلتكم في الاستقصاء والتحري^(٣).

ومعنى التحسس: البحث بالحواس. قال السمين الحلبي عن التحسس والفرق بينه وبين التجسس عند قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: تطلبوه بحواسكم. التحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر. وقيل: التحسس ما طلبته لغيرك من معرفة أمور الناس. والتحسس ما طلبته

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحديث، ص ١٩١.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٥٣).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧١.



لنفسك. وإن فعل (تحسسوا) يدل على البحث بحرص وانتباه مع تفاعل النفس والمشاعر والحواس والشعور بالأمل الكبير بالعثور على المطلوب. وكأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يطلب منهم تشغيل كل حواسهم في البحث عن يوسف وأخيه في مصر، مع يقينهم بأنهما موجودان فيها^(١).

- ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]: فيها دلالة صريحة في أن يوسف في مصر، بعد الدلالة الخفية التي في قوله: ﴿أَذْهَبُوا﴾ [يوسف: ٨٧] ثم فيها شيء آخر وهو أنكم سترون يوسف في الجهة التي فيها أخوه، وأن اجتماعهما في بحثكم عنهم لا يخلو من إشارة إلى اجتماعهما في مكانين متقاربين كانا أو متباعدين^(٢).

- ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] ﴿مِنْ﴾ [يوسف: ٨٧] أي من أمر وعلم. ولم يقل: (عن) أي: عن أشخاصهم، فإذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، وبدأ بيوسف، لأنه المجهول مكانه ومصيره، ويلزم للاستعلام على أمره أعظم التحسس والاستقصاء، وذكر أخاه (المعلوم نسبياً) في هذا الموضوع، ليدل على أن المجهول يعلم من المعلوم وهذا من مسائل الرياضيات المعروفة^(٣).

كما أن كلمة فتحسسوا فيها معنى الحس الأمني في البحث وجمع المعلومات على الآخرين ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات للوصول إلى الهدف المطلوب كما أن فيها أهمية العلم التجريبي المكتسب بالحواس والتحليل والاستنباط وغلبة المعلومات.

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٢٤).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٩١.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧١.

٢- ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

[يوسف: ٨٧]:

- ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]: اليأس هو قطع الرجاء من غيرك أن يصيبك شيء أي: لا تقطعوا رجاءكم أبداً من رحمة الله وخيره، فهي رسالة كنسيم الريح، تلامس كل بشرة، وتمر على كل أنف، ولا تنتهي ولا تتوقف ولا تنقطع ولكن العيب في الإنسان الذي يغلق الباب دونها ويأبى التعرض لنفحاتها. العيب في الأنف المزكوم الذي لا يتنفس ولا يشم ولا يتذوق. العيب في الوقر على الآذان الصم والأكنة على القلوب العمي، العيب في العجز والكسل والغفلة^(١). وهذه الآية الكريمة حصن حصين يحصن القلب المؤمن من البأس.

- وكلمة ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] كلمة ﴿رَوْح﴾ [يوسف: ٨٧] بفتح الراء تعني الفرج والمجيء بالخير بعد الشدة، وأنه إذا استحكمت وضافت حلقاتها فلا بد أن تفرج، وأن الشدة إذا اشتدت انفرجت، وأنك تعيش ما تعيش مع الأمل، وهل يجوز لك أن تفقده وأنه هو الضياء الذي تراه في جوف الظلمة والنجم الذي تراه في قلب الحبرة وهذا الشيخ الجليل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي سماه: (روح الله) يعرّس هذا المعنى في قلب أبنائه^(٢)، ويوصينا من وراء الزمن أن نزرعه في نفوسنا وفي قلوب أبنائنا حتى لا تكسرنا الأيام، وخاصة إذا توحشت بفعل المعاصي والكبائر والإجرام والمظالم من البشر. إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم الأجيال السائرة على نهج الصراط المستقيم وطريق الأنبياء المرسلين هذه القيم العظيمة لأهميتها في حياة الناس. وأن الناس إذا أحاط بهم اليأس لما يروونه

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٢.

(٢) من حديث يوسف في الذكر الحكيم، ص ١٩٢.



من ظلم وفساد وخراب، وأن الظالم أباح لنفسه أن يظلم، وحرّم على المظلوم أن يقول إنه مظلوم، وأباح لنفسه أن يخرب البلاد، وحرّم على أهلها أن يهتفوا بإنجاز العمران. أقول لم يشأ سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أن يدع هذا نصحا أو حكمة أو فلسفة، وإنما جعله من الدين وربط الإيمان بالله، بالإيمان بسداده، وعونه والقضاء على الكربات، وهذا لو زدته تأملاً زادك تأملاً زادك بهجة، وزادك قوة، وزادك عزمًا وإن من عرف الله لا يعرفه اليأس أبدًا^(١).

٣- ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]:

أ. قال الطاهر بن عاشور: تعليل للنهي عن اليأس فموقع (إن) التعليل. والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف عَلَيْهِ السَّلَام معتلين بطول مدة البعد الذي يبعد معها اللقاء عادة، فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك، فحقه أن يأخذ في سببه، ويعتمد على الله في تيسيره، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها^(٢).

ب. وقال ابن الجوزي في تعليقه على الآية: لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد^(٣).

ج. قال القرطبي: وفيها دليل على أن القنوط من الكبائر وهو اليأس^(٤).

د. وقال محمد متولي الشعراوي: لأن الذي ليس له رب هو من ييأس، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة لكن المؤمن لا يفعل ذلك،

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٢) التحرير والتنوير، (٦/٣٤).

(٣) زاد المسير، (٤/٢٧٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٩/٢٥٢).



لأنَّه يعلم أن له رباً يساعده. وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب فسبحانه يهبه مما فوق الأسباب ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] ^(١).

إن هذه القصة العظيمة في دروسها وعبرها تبين لنا أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ما دب اليأس إلى نفسه قط رغم ما قيل له وما لقي من طول المدة، وبعد العهد بيوسف، مع ذلك كان يستشرف الأمل ويبعثه في نفوس بنيه وليس هو أملاً مبنياً على الأوهام والتخدير والقيود بل أمل إيجابي يحض فيه على الحركة والعمل الدؤوب، وهذا مقتضى تمام التوكل، وصحيح الإيمان، فاليأس من روح الله تعالى وظن السوء به جَلَّ وَعَلَا من خلق الكافرين. والذي يعرف قدرة الله المطلقة وتصرفه التام في الكون وعظيم رحمته بخلقه، ومعيته للمؤمنين، لا يملك إلا أن يتكل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يتوقع منه إلا كل خير، بل يرى العافية في ثناء البلاد، ويوقن أن العليم الحكيم، ما قدر عليه المصيبة إلا لخير يريده له، وهو مع هذا تلطف بالعباد ولا يكلفهم فوق ما آتاهم ^(٢).

وقد كانت لكلمات يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أثر في رفع معنوياتهم، فقد غرس فيهم أملاً وثقة في الله، فهم الآن مصيبون نفسياً وشعورياً للقاء يوسف، بل هم راغبون في لقاءه ويتحسسون مصر وما فيها ليجدوه ويجتمعوا به وخلوا مصر واجتمعوا مع العزيز، الذي اجتمعوا معه مرتين من قبل وكان بينهم ما عرضته الآيات الآتية:

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٥٦).

(٢) القصص القرآني، (٢/٣٢٥).



سادساً: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبُضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]:

وهذا هو الدخول الثالث للإخوة على يوسف. وامتناز بأمر عظيم هو زوال الغشاوة التي كانت على البصيرة وقيام الإخوة بمبادئ التوبة وأفعال الأوبة إلى الله.

١ - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٨٨]:

جاء بالفاء المعقبة أو السببية، ليدل على سرعة مبادرتهم واستجابتهم وتنفيذ أمر أبيهم في التحسس عن أمر يوسف وأخيه أو سعيًا وراء الحصول على شيء من العلم عن يوسف وبنيامين، وجاءت (لما) لتوكيد ذلك ولم يذكر في هذا الموضع بالاسم، بل بالضمير، فلما أبان عن حقيقة شخصه ذكر الاسم حتى تكون المقابلة بين الغائب عليه والمعلوم يوسف مفارقة واضحة جلية وهذا من فصاحة البيان والبلاغة^(١).

٢ - ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨]:

- ﴿قَالُوا﴾ [يوسف: ٨٨] أي لما دخلوا عليه قالوا: أي إن مقالهم جاء فور دخولهم عليه مباشرة دون تأخير ولا تلوؤ ولا انشغال.

﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨]: نادوه بلقبه تفخيماً وتعظيماً له، وهو أهل لذلك. وقد تعطفوا إليه رجاء قضاء حاجتهم ونيل بغيتهم عنده^(٢). وقد كانت في الظاهر طلباً صادقاً للميرة والصدقة وقد كانوا في ميسيس الحاجة إليه، كما دل

(١) يوسف أيها الصديق، (٢/ ٣٢٥).

(٢) يوسف أيها الصديق، المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

خطابهم نظراً لتراكم نسبة الجذب والجفاف أعلاها، فكانت إصابتها لهم أشد وأعظم وهم أهل بادية، لاعتمادهم كلياً على الغيث والمرعى، وهي في الحقيقة تحسس واستعلام عن أخيههم، وقد ابتدأوا رحلة البحث عن أخويهم بالدخول على العزيز: أولاً لأنهم يعلمون أن بنيامين عنده، والابتداء بالمعلوم أول الخطى في البحث عن المجهول. وثانياً: لأن العزيز بحكم مركزه ووظيفته تجتمع لديه المعلومات والأخبار عن أحوال البلاد والعباد. ثالثاً: لما لمسوه فيه من فضل وإكرام وإحسان. ورابعاً: لأن مصر كانت حاضرة البلاد في وقتهم ومركز شبكة القوافل والمواصلات لمن حولها^(١).

٣- ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]:

قدموا ذكر ضعفهم وافتقارهم وما هم فيه من شدة بلغت منزلة الضر والاضطرار، انكساراً وتضرعاً^(٢).

﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]: جعلوا الضر نفسه الذي هو المصدر هو الذي مسهم، وكأنه قصد إليهم، وأصابهم كبارهم وصغارهم، ونساءهم ورجالهم، فلم يدع الضر واحداً منهم إلا مسه^(٣)

٤- ﴿وَجِئْنَا بِضَلْعَةٍ مُّزَجَّجَةٍ﴾ [يوسف: ٨٨]:

وهذا اعتراف منهم بأن بضاعتهم التي أتوا بها هذه المرة قليلة القدر، لا تساوي ما يطلبون في مقابلها، إنهم يرجونه ألا يؤثر كون البضاعة رديئة في التقليل من

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

(٣) من حديث يوسف في الذكر الحكيم، ص ١٩٥.



الكيل الذي كان يكيله لهم في المرتين السابقتين^(١). وكانت بضاعتهم رديئة غير مكافئة، يدفعها الناس ويردونها ولا تكاد تجد لها طالبا ولا راغباً^(٢) ولهذا قالوا بعد ذلك:

٥ - ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ [يوسف: ٨٨]:

أي أعطنا ببضاعتنا هذه ما كنت تعطينا قبل بالدارهم الجياد، وهذا هو المطلوب الأول الذي طلبوه منه بعد أن ذكروا الأمرين: (الضر) و (صفة البضاعة)، والمطلب الثاني فهو قولهم^(٣):

٦ - ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]:

قال السمرقندي رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني تفضل علينا باستيفائه منا مكان الجيد وتصدق علينا ما بين الثمين، يعني ما بين الجيد والردىء^(٤).

وقال عبد الحميد مهماز: بقبول بضاعتنا الكاسدة ولا تنقص كيلنا.

وقال محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولقائل أن يسأل: أليسوا أبناء نبوة ولا تجوز عليهم الصدقة؟ نقول: إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختص به الحق سبحانه آل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أمر خاص بأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الصدقة لا تنبغي لآ محمد، إنما هي أوساخ الناس^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٣.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٧.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٥٤.

(٤) تفسير السمرقندي، (٢/ ١٧٤).

(٥) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٦٠)، رواه مسلم، رقم: ١٠٧٢.

وقال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]: استدل بها من قال: إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء^(١).

٧- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]:

أي جزاؤك عند الله إذ ليس عندنا ما نستطيع أن نجازيك به أو نكافئك عليه وأنت على ما أنت عليه من كريم العطاء، ونحن على ما نحن عليه من الضرر والافتقار^(٢). وقال الدكتور وهبة الزحيلي رَحِمَهُ اللهُ: يشيهم أحسن الجزاء. والتصدق: التفضل مطلقاً ولكنه اختص عرفاً بما يبتغي به من ثواب من الله^(٣).

ونلاحظ في هذا الدخول الثالث لإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لمصر، قد أضرت بهم المجاعة ونفذت منهم النقود وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية يشترى بها الزاد، يدخلون في حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام. وعندما يبلغ الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا يبقى في نفس يوسف قدرة المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته فقد انتهت الدروس وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ولم يطلع عليه أحد إلا الله^(٤).

(١) محاسن التأويل، (٦/ ٢٧٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٩.

(٣) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (٧/ ٥٩).

(٤) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٧).



تاسعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

تهيئت النفوس الآن للمصارحة، بعد هذه الكربات الشديدة والمصائب المتلاحقة ونفذ صبر يوسف على كتمانته لشخصيته ورق قلبه وأخذته الرحمة والشفقة بأهله وأطفالهم ونسائهم وبأبيه الشيخ الكبير، فقال لهم:

١ - ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]:

مجيء هذا القول في صيغة السؤال؛ ليدفعهم إلى التأمل والتدقيق لمعرفة شخصية المتحدث. وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العذر بالجهل ولم يتحدث إليهم بعزة الكبرياء وغرور المكانة التي وصل إليها وهدفه أن تخفف عنهم صدمة المفاجأة، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم. وقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطف، إنما يعبر أيضاً عن تأثره بشكواهم، ثم تسميته لهم، وظهور ثنياه دفعهم إلى تذكره، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام إذا تبسم كأن ثنياه اللؤلؤ المنظوم. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تبسم يوسف، فشبوه بيوسف، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية^(١).

وكان الاستفهام الذي استخدمه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٩]، استفهاماً تقريرياً تذكيرياً، حرك لديهم الذاكرة والذكريات فتبين لهم أنه يوسف، فقالوا مؤكدين ومتأكدين^(٢):

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٦١).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٥).

٢- قال تعالى: ﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

لقد تحقق بهذا الموقف ما أوحى الله تعالى به إلى يوسف عندما جعلوه في غيابة الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وقد فاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم فما كانوا يتوقعون أن يؤول أمر يوسف إلى كل هذا العز والسلطان والتمكين حتى يصبح عزيز مصر، ويأتي إليه إخوته الذين ألقوه في الجب يطلبون فضله وإحسانه وكانهم لم يصدقوا ما سمعوا فسألوه^(١):

أ. ﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]: لقد أعطاهم عَلَيْهِ السَّلَام علامة دقيقة واضحة بينه وبينهم ولا يعلمها إلا هو وهم فقط وهي إشارته إلى فعلتهم معه التي طالما حاولوا سترها وإخفاءها سنين طويلة، لقد تصاعد الموقف الآن إلى قمته، فقد ثبت للإخوة أن الذي أمامهم لا يمكن أن يكون إلا أخاهم يوسف فقالوا:

- ﴿أَيْنَ نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] وسؤالهم هذا فيه معنى التقرير أكثر من الاستفهام، فكأنهم قالوا من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف، فليس القصد من الاستفهام التثبت من أن الذي أمامهم يوسف بقدر ما هو بقصد التعبير عن غرابة المفاجأة غير المتوقعة على الإطلاق، وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى ستين أو أكثر وهم لا يعرفونه ولا يكتفون نفسه عنهم^(٢).

- ﴿أَيْنَ نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]: قولهم هذا يدل على أنهم استشعروا من كلامه ثم من ملامحه، ثم من تفهم قول أبيهم لهم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] إذ قد اتضح لهم المعنى التعريفي من كلامه فعرفوا

(١) التفسير الموضوعي، ٤/ ٢١٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٦١.



أنه يتكلم مريداً نفسه. وتأكيد الجملة بأن، ولا الابتداء، وضمير الفصل لشدة تحقيقهم أنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة لأنهم تطلبوا تأييده لعلمهم به^(١)، وجاء جوابه مجرداً عن التأكيد.

ب. ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]: أجابهم من فورهم ببساطة وإيجاز، دون مقدمات ولا فواصل ولا تفصيل، ودون إطناب ولا تفخيم ولا تهويل^(٢).

ج. ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ [يوسف: ٩٠] وعرفهم بأخيه ويظهر أنه كان موجوداً في جملة من شهدوا الموقف ولهذا عينه باسم الإشارة ﴿وَهَذَا﴾ [يوسف: ٩٠] ويبدو من تعريفهم به أنه لم يكن معروفاً عندهم، وهذا يشعر بأنه لبس ثياب الأكابر مثله ووضع ما يضعون على رؤوسهم، مما يحجب بعض وجوههم، فمن باب أولى أن يكون يوسف كذلك، وعليه فإن ما ذكره بعض المفسرين من نزعه ما على رأسه ليس ببعيد^(٣).

د. ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠]: فيه إقرار بنعمه لا حدود لها لأن المن حين يكون من الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، ونلاحظ أن سيدنا يوسف أكد وحقق بكلمة (قد) وأسند المن إلى لفظ الجلالة (الله) الموصوف بكل كامل والمنزوع عن كل نقص، ثم لاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام يقول ما تراني فيه من جعلي على خزائن الأرض لم يكن عن علم عندي، وإنما هو محض عطاء من الله ومنّ وإكرام منه سبحانه^(٤).

(١) سورة يوسف، ص ٥٣٤.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

(٣) آيات للسائلين، ص ٣٤٤.

(٤) من حديث يوسف وموسى، ص ١٩٨.



- ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠]: بفضلله ورحمته، فلا تعجبوا^(١).
- ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠]: بكل خير في الدنيا والآخرة، وبالخلاص عما ابتلينا به، وبالجمع بيننا بعد التفرق^(٢).

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: وجملة إنه من يتق ويصبر تعليل لجملة من الله علينا. فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اتقى الله وصبر وبنيامين صبر ولم يعص الله فكان تقيا. أراد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إثارة أبيهم إياهما عليهم، وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

وإن ذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمّر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذليل، ويدخل في عمومه هو وأخوه، ومن ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء لأنّه من التبليغ كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إني لأتقاكم لله وأعلمكم به»^(٣).

أهمية التقوى والصبر والإحسان في التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إن من شروط التمكين المهمة التي حققها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ واتصف بها في حياته تقوى الله عَزَّجَلَّ. إن تقوى الله عَزَّجَلَّ تجعل بين العبد وبين ما يخشاه من ربه

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٢٠).

(٢) فتح القدير، (٣/ ٧٢-٧٢).

(٣) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٧).



ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وهي أن نعمل بطاعة الله على نور من الله نرجو ثواب الله، وأن نترك معصية الله على نور من الله نخاف عقاب الله. وهذا ما قام به يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وظهرت ثمرات التقوى العظيمة في حياته.

- كالمخارج من كل ضيق وشدة.

- والسهولة واليسر في الأمور.

- تيسير العلم النافع.

- إطلاق نور البصيرة.

- محبة الله وملائكته والقبول في الأرض.

- ونصرة الله وتأييده وتسديده.

- والبركات من السماء والأرض.

- والحفظ من كيد الأعداء ومكرهم^(١) وغير ذلك من الثمرات...

وقدم التقوى للأهمية: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]؛ فهي الأصل والأساس الذي يبنى عليه الصبر الإيماني، فصبر دون تقوى دنيا بلا آخرة كالذي يصبر عن الزنا خشية الفضيحة والأمراض، لا خوفاً من الله. وأردف الصبر، لأن تقوى الله في عبادته والتزام نعمه والاستقامة على ذلك تحتاج إلى صبر دائم^(٢).

والصبر لا بد منه على أمر الله وعن معصية الله وعلى كل مصيبة قدرها الله عَزَّجَلَّ. فالتقوى والصبر سلاح المؤمن وعدته في كل أحواله وتقلباته وخاصة في

(١) فقه النصر والتمكين، (٦/ ٣٧).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.



أوقات المصائب والمحن^(١). وقد جاء ذكر الصفتين لمناسبتهما في المعنى، فقد اتقى وصبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على كيد إخوته وعلى مراودة امرأة العزيز.

وقال: ﴿إِنَّهُ﴾ [يوسف: ٩٠] لتعم كل متق وصابر. وجاء بصيغة المضارع لتفيد الحاضر والاستمرار، فقد يتوقف المرء عن التقوى والصبر وتتقلب حاله ويختم له بسوء الخاتمة والعياذ بالله^(٢).

هـ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:

- ﴿فَإِنَّ﴾ [يوسف: ٩٠]: الفاء للتعقيب القريب أو للسببية، أي بسبب التقوى والصبر لله لا يضيع أجر المحسنين.

- و (إن) للتأكيد ﴿اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] قدم الأجر للأهمية ليدل في هذه المناسبة على ما صار إليه يوسف من أجر كريم وإحسان في الدنيا والآخرة^(٣).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقرر حقيقة إيمانية يعلل بها لإخوته المدهوشين السبب من إنعام الله عليه، وفي إيصاله إلى ما وصل إليه، فيقول: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

هذه القاعدة الإيمانية الربانية التي قررها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي علل بها سر توفيقه ونجاحه لقد تحققت فيه هذه الصفات الثلاثة، فأهلته لنيل فضل الله وإنعامه وهي: التقوى، والصبر والإحسان ولم تفارق هذه الصفات يوسف في أي مرحلة من مراحل حياته، فصاحبته هذه الصفات عندما كان في بيت العزيز،

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٧.



وعندما راودته امرأة العزيز، وعندما راودته نسوة المدينة، وعندما أدخل السجن، وعندما تعامل مع المساجين وعندما دعاهم إلى الله وعندما قابل الملك، وعندما ولي منصب عزيز مصر وعندما استلم اقتصاد البلاد، كان في كل هذه المراحل والمواقف تقياً صابراً محسناً قد كافأه الله على صبره وتقواه وإحسانه أحسن الله له الجزاء في الدنيا فصار في هذا المنصب الكبير: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وهذا في جانب يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الذي عرّف إخوته على نفسه وعل سير نجاحه.

وأما من جانب إخوته فإن الموقف أخرجهم وأخجلهم، حيث تذكر ما فعلوه به وهو صغير، فشعروا بالندم، ثم هاهم يقابلون يوسف عزيز مصر ثلاث مرات، وهو يعلم أنهم إخوته وأنهم فعلوا به ما فعلوا، ومع ذلك كان يكرمهم ويحسن إليهم في كل مرة، ولم يعاقبهم أو يحاسبهم أو يعاتبهم، لقد قابل إساءتهم بالإحسان وجهلهم بالعلم، فازدادوا خجلاً أمامه عندها خاطبوه قائلين^(١):

ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ (١١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿[يوسف: ٩١ - ٩٢]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]:

بنفس اللغة الإيمانية واللهجة الصادقة معنى الإخوة في الكلام رابطين الأمور كلها بالله سبحانه، إذ الأمر كله لله وإليه يرجع والفاعلية المطلقة لمشيئته، ولا

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٢٩).

يكون شيء إلا بإذنه وعلمه وحكمته مقرين بالحق ولو على أنفسهم معترفين بالفضل ولو في غيرهم^(١).

أ. ﴿قَالُوا تَأَلَّه﴾ [يوسف: ٩١]: مؤكدين قولهم بصيغة القسم الخاصة بالصادق في قسمه ﴿تَأَلَّه﴾ [يوسف: ٩١]^(٢) وقد مضى بيان أن التاء إذا دخلت على القسم أشعرت بتعجب^(٣).

ب. ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]:

- اللام للتأكيد. وكذلك (قد) إذا جاء بعدها فعل ماض. وقالوا: ﴿عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] بصيغة الجمع، أي: عليهم أجمعين، أي: إنه على مستوى وقدرهم جميعاً في كفة أخرى دونه^(٤).

- ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ﴾ [يوسف: ٩١]: وهما جواب القسم، ومن دلالات قد أنها تقرب الماضي إلى الحاضر، وأن الله آثرك علينا في الزمن الأول، ولا يزال فضلك علينا سارياً إلى الزمن الذي نحن فيه، وهذا إقرار منهم باليمن الذي ذكره يوسف لما قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠]^(٥).

إن الله تعالى آثره عليهم فجعله عزيز مصر ذا الجاه والسلطان وآثره عليهم بما حباه من كريم الأخلاق وحسن الخصال وآثره عليهم بالتقوى والصبر والإحسان وآثره عليهم بالوحي والنبوة، فمثل ذلك الإيثار في الدين بما أعطاه الله من نعم

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.

(٣) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.

(٥) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢٠٣.



والإثارة في الآخر بما آتاه الله من النبوة، وكل تلك معان صحيحة محتملة. ثم قالوا مقرين معترفين بالذنب مشيرين إلى حسن التوبة وصلاح الأمر^(١):

ج. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]:

- ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ [يوسف: ٩١]: كان من الكينونة للموجود في الوجود أي: وجوداً (حقاً وفعلاً) وبصيغة المتكلم الجمع في الماضي: أي فيما مضى من أمرنا.

- ﴿لَخَطِيئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]: اللام للتأكيد، والخطأ مجاوزة ومجانبة الصواب والتعدي عليه، وهو عام في كل أمر فيه خطأ وصواب. وقالوا: ﴿لَخَطِيئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، ولم يقولوا: ظالمين، أو مسيئين؛ لأن الخطأ يشمل كل أنواع ودرجات ما سواه، من ظلم وإساءة وغير ذلك، ولأن الخطأ التعدي ومجاوزة حد الصواب، فتضمنين المعنى أن المخطئ يعرف الصواب ويميز بينه وبين الخطأ. أي: إنه على دراية بأمره وليس جاهلاً أو غافلاً أو ساهياً عما يفعل. وجاء بصيغة الماضي، ليدل على أن ذلك كان فيما مضى من أمرهم ولم يعد موجوداً في الحاضر.

لقد اعترف الإخوة بأن حساباتهم كانت خاطئة (نظرياً وتطبيقياً) فأعادوا ترتيب الأوراق على الشكل الصحيح والصواب الذي أمرهم الله به^(٢).

- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]: وهذا اعتذار عن الماضي الذي سلف والذي كان فيه ما كان. ويلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٠.

لم يذكر لهم أبشع ما يمكن أن يعمله إخوة بأخ لهم، وهو إلقاءه في الجب، ولم يعاتبهم لكلمة واحدة يذكرهم فيها بأي شيء كان منهم، وإنما تكلم فقط بما أكرمه الله به وأنه حاول وجدّ في أن يكون تقياً صابراً صادقاً، محسناً في كل أعماله الدينية والدنيوية، وتفرغ لمسؤولياته في إدارة شؤون البلاد. وكانت سيرة يوسف في أمره كله لا تتجاوز الكلمتين الجليلتين اللتين ما زاد في حديث إخوته عن ذكرهما وهما: ﴿مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]، وإخوته ما زادوا له بعد هذه الغيبة الطويلة والأحداث الكثيرة عن ذكر أمرين:

الأول: أثرك الله علينا.

الثاني: وإن كنا لخاطئين.

وطوي الماضي كله بجملتين منه وجملتين منهم وانتقلوا إلى الحاضر، ولأن عقلاء الناس يعلمون أنهم لو عاشوا في الماضي ضاع منهم الحاضر، فلنكتف باختصاره وطيبه، ولنبدأ في معالجة ما نحن فيه^(١). فقابل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اعترافهم بالخطأ وتوبتهم وندمهم بالعفو الصريح البعيد عن اللوم والعتاب والتقريب، فقال:

٢- ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

[يوسف: ٩٢]:

وعفو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مثل هذا الموقف درس من أعظم الدروس، إنه عظة وعبرة لأصحاب الأنفس الموتورة والأحقاد المستورة، وما نالهم من الأذى معشار ما نال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. انظروا إلى العزيز في ساعة الاقتدار ومن

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢٠٤.



أذاه في موقف الإنكار، وفي إمكانه أن يأخذه بذنبه أخذ الجابرة، فإذا به يعرض حتى عن اللوم والتوبيخ^(١).

أ. ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]: أي لا ملامة ولا توبيخ ولا عتاب ولا أدنى مؤاخظة مني عليكم^(٢). ولن أذكر لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضى بما فيه، وقد مسح لقاء اليوم شقاء السنين الطويلة، وعناء المحن الماضية الكثيرة، ولم يكتفِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا، بل توجه إلى الله تعالى يسأله المغفرة لهم والستر عليهم^(٣):

- ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]: وهكذا نرى أن يوسف يرجع الأمر إلى الله ويرد الفضل إليه في كل مناسبة، فهو صاحب الشأن والأمر كله، وقال: ﴿يَغْفِرُ﴾ [يوسف: ٩٢] بصيغة المضارع، لتدل على الحاضر المستمر ولتناسب قوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] وليشير على معنى الدعاء المضمّن فيه. ولم يذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه، فلم يقل: غفرت لكم. ليشير - إضافة إلى تأدبه مع الله - إلى معنى أن الظلم والسوء لم يكن بينهم وبينه على الحقيقة، بل كان بينهم وبين الله، إذ فسقوا عن أمره، وعصوه واتبعوا ما نهاهم عنه من طاعة النفس الأمارة، والشيطان. ومن البديهي أن يوسف ضمّن في كلامه هذا الصفح والعفو عنهم، وما ذكر مغفرة الله لهم إلا وهو يعلم أن مغفرة الله مرتبطة بحقوق العباد وأن من تمام مغفرة الله أن يعفو المظلوم، أو أن يأخذ حقه من ظالمه، فحق العباد محفوظ في ميزان عدل الله حتى يؤدّى أو يعفو صاحبه.

(١) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٣.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢١).



وهكذا سكت يوسف - وهو صاحب الحق في ظاهر الأمر - عن التصريح بمغفرته لإخوته وضمّنها في قلبه، إعلاء لأمر الله، وأدباً معه، وتجرداً من العبد أمام الله عزَّ وجلَّ^(١) صاحب المنّة والإحسان العظيم.

ج. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]: وهذا فهم بحقيقة أن أي رحمة في العالم أو من أي أحد، إنما هي مستمدة من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقد قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك وهو واثق من إجابة دعوته لأنّه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفا عنهم والله أولى منا بالعفو عنهم^(٢). وهذا موقف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ القائم على العفو الصفح والتوجه إلى الله بالدعاء لإخوانه بأن يغفر لهم ويرحمهم جميعاً، وكان على يقين بأن الله رحيم بعباده، ومن رحمته أنه يغفر الذنب ويقبل التوبة ويزيد من فضله إحساناً.

- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [نوح: ٤] لأنّه غفور كريم، ويرحمكم بجماع الخير كله، ومنها الرحمة، لأنّه: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وهكذا ينتهي في هذا المشهد ظلم الإخوة ليوسف وأخيه بخاتمة الحسنى وتعود المياه إلى مجاريها وتصفو النفوس ويتآخى الإخوة بأخوة الإيمان الحقّة الصادقة^(٣).

وبعد قرون كثيرة متوالية وقف خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الكعبة المشرفة، بعد أن دخل مكة المكرمة فاتحاً وقال يخاطب أهل مكة: ما تقولون إنني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ إِلَّامُ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء^(٤).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٢.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٦٦).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٣.

(٤) زاد المعاد، (٣/٤٠٨).



ولا شك أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وقف من إخوته موقفاً كريماً ونبيلاً، ولكن موقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أكرم وأنبّل؛ لأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قال ذلك لإخوته، بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك لقبيلته وعشيرته. وإخوة يوسف ألقوه في الجب، وأبعدوه عن أبيه، بينما المشركون كذبوا رسول الله وآذوه وعذبوا الصحابة ومنعوه أن يبلغ دعوة الله تعالى، حتى خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة فحاربوه، وحاولوا قتله، وقتلوا كثيراً من أصحابه، ومثلوا بهم، وجمعوا الأحزاب عليه، ثم بعد كل هذا عفا عنهم بعد أن تمكن منهم، فكان عفوه عَلَيْهِ السَّلَام أَكْمَل وَأَنْبَل^(١)، وهذا وقد أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَام أن يسرعوا بالبشرى إلى أبيه قائلاً^(٢):

٣- قوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

عادت آيات السورة للمرة الثالثة إلى قميص يوسف وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ودليل براءته إنما حمل في هذه المرة الدواء والشفاء لعيني أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام فالأمر معجزة أكرم الله تعالى بها نبيين كريمين، وهو سبحانه قادر على خلق الشفاء من دون دواء وما الدواء إلا سبب للشفاء، أما المسبب الحقيقي فهو الله تعالى^(٣).

وهذه الآية الكريمة تدل على أن بصر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام قد ذهب من شدة الكمد والحسرة والأسف، وكثرة البكاء، وارتداد البصر من خوارق العادات، وهذا يوسف ويعقوب يرد الله على أيديهما البصر بعد ذهابه قبل عيسى عَلَيْهِ السَّلَام الذي كان يبرئ الأكفم والأبرص^(٤).

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٢١).

(٢) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٢١).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٢).

(٤) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٧).

أ. ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣]: تدل الآية على أن لهذا القميص شأنًا. وكلمة: ﴿أَذْهَبُوا﴾ [يوسف: ٩٣] تعني أنه جدير بأن تذهبوا به وحده. ثم قال: ﴿هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣] وكلمة (هذا) بعد: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾ [يوسف: ٩٣] أفصحت الجملة عن شيء وراء القميص، وهذا الشيء هو أول ما كان بين يوسف وإخوته وله دلالة قاطعة على نبوة يوسف لأن قوله بعد ذلك:

- ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] إخبار بغيب، ثم إن هذا القميص الذي يحمل دلالة نبوة يوسف هو نفسه الذي وجد يعقوب ريحه لما فصلت الجماعة من تراب مصر، وهي في طريقها إلى أرض يعقوب. وكان هذا هو الذي أومأت إليه كلمة: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾ [يوسف: ٩٣] وكلمة ﴿هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣] ^(١).

ب. ﴿فَالْقَوُّهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]:

- ﴿فَالْقَوُّهُ﴾ [يوسف: ٩٣]: الفاء للتعقيب، أي: بادروا من فوركم بإلقائه أو تكون لسببية، أي: إنه سبب لما سيكون من بعد، أي بسببه.

- ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]: وخص نفسه بالإضافة ولم يقل: أبانا، أو أبيكم، ليدل ويؤكد على الخصوصية بينه وبين أبيه ^(٢).

ج. ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] جاءت ﴿يَأْتِ﴾ [يوسف: ٩٣] بصيغة فعل المضارع، وبدون فواصل وذلك يدل على فورية الفعل، أي بمجرد إلقائه عليه فيعود بصيرًا، وهذا يدل على إعجاز خارق من أمر الله القادر.

ويكون المعنى: طلب منهم أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيه، ليرتد إليه بصره فيأتون به، أي: يأتيني بصيرًا، كما أنه لم يأت بصيغة الأمر في الفعل (أتوني به) مثلاً كما فعل مع إخوته أدباً مع أبيه.

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٢٠٦.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٥.



- ﴿بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]: على وزن فعيل، ليدل على قوة الصيغة وعظمتها. ولم يقل: مبصراً. أو بصيغة الفعل: يبصر. وجاء بصيغة الإبصار، ليدل على معنيها: الأول: في رؤية العين. الثاني: في العلم، أي: يبصر الأشباح والصور بعينه، وحقيقتها وكنهها بقلبه. وهذا من كريم فيض الرحيم الرحمن^(١).

هـ. ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]: وهذا تعبير قرآني دقيق، أن يحضروا معهم كل من يمت بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم^(٢).

- ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ [يوسف: ٩٣]: أي جهزوا أمركم من بعد دون استعجال مخل وانتقلوا إلى مصر تحت رعايتي فقد وجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَام أنه قد مسهم الضر حقاً بهم وبأهلهم، لما ظهر له من توفية الكيل بلا ثمن، وطلبهم الصدقة، فأراد بذلك إكرامهم جميعاً^(٣).

- ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]: أي أسرة آل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام بأصولها وفروعها ستنتقل من فلسطين إلى مصر، لتكون إقامتها هناك. ونلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام صار هو الأمر الناهي وما على إخوته - وهم أكبر منه - إلا التنفيذ، أي: صارت قيادتهم وإمرتهم إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَام فقام بالقيادة والمسؤولية خير قيام عَلَيْهِ السَّلَام^(٤).

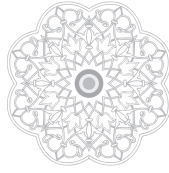


(١) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٢٠٦٧).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٧.

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢٣٢).



المبحث العاشر: أثر البشارة على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وطلب أبنائه منه المغفرة واجتماع شملهم عند يوسف بمصر

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١) [يوسف: ٩٤ - ١٠١].

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٥]

فصلت العير، أي خرجت من مصر. وكلمة (لما) الحينية المتضمنة معنى الشرط
توجب أن يكون يعقوب قال: إني لأجد ريح يوسف فور انفصالها عن أرض مصر،

لأن (لما) توجب ترتيب الجواب على الشرط، وتؤكد ذلك وتقطعه فور وقوع الشرط، وهذا من عطاء الله لصفوة عباده وأنبيائه. وقال العلماء: وقد أشمّه الله ما عبق من القميص من ريح يوسف من مسيرة أيام، وهي معجزة ظاهرة. قال مالك: قد أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس، قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه^(١).

١- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾

[يوسف: ٩٤]:

أ. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ [يوسف: ٩٤]: لمن حوله من الأهل والأحفاد، فأولاده في طريقهم إليه وهذا هو المفهوم بقريئة السياق والمقام.

ب. ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]: أي رائحته وهذه معجزة لنبي الله يعقوب، وإن كلامه في غاية الوضوح^(٢).

ج. ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]: أي إلا أن تنسبوني إلى الفند. والفند نقصان عقل بسبب الشيخوخة. وما هي شيخوخة، ولكنها نبوة وشفقة أبوة؛ ﴿لَوْلَا﴾ [يوسف: ٩٤] حرف شرط، وتعليق وجوابه محذوف، أي لولا أن تفندوني لصدقتهم^(٣). وقد حدث ما توقعه فقالوا:

٢- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]:

قال ابن عاشور: والذين قالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، هم الحاضرون من أهله، ولم يسبق ذكرهم لظهور المراد منهم، وليسوا أبناءه، لأنهم كانوا سائرين في طريقهم إليه^(٤)، وقد تابوا وأنابوا وحسن حالهم.

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٢٠٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٧٨.

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٩).

(٤) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٩).



قال الشعراوي: وكأنهم ملوا حديثه عن يوسف، وأعرضوا عن كلامه قائلين له: إلى متى ستظل على ضلالك وهم لا يعنون الضلال بمعنى الخروج عن المنهج، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي لا علاقة لها بالتدين من محبة شديدة ليوسف وتعلق به وتمني عودته، وكثرة الحديث عنه، وتوقع لقائه. وهم الذين ظنوا أن يوسف قد مات^(١). وأياً ما كان مرادهم فإن العبارة فيها غلظة وخشونة ما كان لهم أن يوجهوها لجدهم فضلاً عن نبي. وذلك من جملة بلاء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام الذي قضاه الله له ليرفع به درجته، فإن ظلم وجهل القرابة وقعه في النفس شديداً؛

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند.

بل ربما صدق في هؤلاء قول الآخر:

أشدّ عداوة وأقلّ نفعاً من الرجل البعيد الأقربونا^(٢)

بنى الأحفاد قولهم على ما قاله آباؤهم كذباً على الله وعلى أبيهم وعلى الناس من قبل، وإن الإنسان ليعجب من حلم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وصبره، فقد قابل أحفاده ومن حولهم برحمة وشفقة والتمس لهم العذر ولم يرد عليهم بقوله، بل ترك الأحداث والوقائع هي التي تحدث عن نفسها.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٧٠).

(٢) آيات للسائلين، ص ٣٥٧.

١ - ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦]:

(الفاء) عطف على التعقيب، ليدل على سرعة ولهفة البشير في المجيء و (أن) صلة مفصلة لتدل على قوة المعنى التالي لها.

- ﴿جَاءَ﴾ [يوسف: ٩٦] حضر، أي: وصار حاضراً معلوماً مشهوداً.

- ﴿الْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦]: ب (أل) التعريف، وعلى وزن فعيل، ولم يقل مبشراً، ليدل على أنه معرف غير مجهول، ولا نكرة، وليدل على سعة وقوة وصفة البشارة التي جاء بها^(١).

٢ - ﴿أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]:

- ﴿أَلْقَنَهُ﴾ [يوسف: ٩٦]: كما أمر يوسف حرفياً وجاء بالمفرد على الحقيقة، وقيل هو نفس الذي جاء بالقميص الكذب، أراد أن يشفع له ذلك عن سوء فعله.

- ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ [يوسف: ٩٦]: أي على وجه يعقوب، والوجه فيه العين محل البصر. المراد: شفاؤه.

- ﴿فَأَرْتَدَّ﴾ [يوسف: ٩٦]: الفاء للتعقيب الفوري، أو للسببية. أي: بسبب إلقاء القميص على وجهه ارتد بصيراً.

- ﴿أَرْتَدَّ﴾: جاء باللفظ، ليدل على العودة للحالة التي كان عليها من قبل، أي: إنه كان بصيراً ثم صار إلى حالة عدم الإبصار، ثم ارتد إلى حالة الإبصار التي كان عليها.

- ﴿بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]: قوة وسعة في صفة الإبصار^(٢).

(١) آيات للسائلين، ص ٣٥٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠١.



والآية تصف لنا بمجرد أن لامس القميص وجه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ارتد بصيراً كما كان. وهذا دليل على هذه المعجزة الخارقة للعادة، والتي يخترق بها القدر الرباني مألوف البشر. إنها آية أجراها الله عَزَّوَجَلَّ ليبين بها على كرامة عبده يعقوب ويوسف، ولتكون آية للناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل، وليقصها القرآن فتبقى من معالم الإيمان^(١).

٣- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْيَ أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]:

ونرى في هذه الجملة ما فيها من ود وحب ورحمة وسمو في الأخلاق ونبل في المواقف.

- ﴿إِنْيَ أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٩٦]: فأرجع ما به من علم إلى الله تأدباً مع الله وإحفاقاً للحق في إرجاع الأمر إلى مصدره وواهبه، وفيه تضمين إلى إرجاع نعمة بصره إلى الله سبحانه.

- ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]: أي مما لم تؤتوه، أي: من علم بأمر يوسف وشأنه وماله وحسن خاتمتهم جميعاً، وأنه حي يرزق. وتأويل الرؤيا التي رآها يوسف مما لم يعلموه ولم يؤذن له بإعلامهم إياه إلا في حينه وبقيت خيوطه العريضة سراً في صدره يلمح به ولا يصرح رغم استفزازاتهم له بالتفنيد وأنه لفي ضلاله القديم. والعلم بالشيء لا ينافي الحزن والتأثر عليه، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزن على ولده إبراهيم وهو يعلم أنه قد سبقه إلى الجنة، وفي هذا دليل على أن ليس كل علم يذاع وينشر، فبعض العلوم يختص الله بها بعض الناس وينهاهم عن إفشائها، وبعضها تعلن في مناسبتها وبعضها تعلن لبعض الناس دون غيرهم. وفي الحديث: «أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم».

(١) سورة يوسف، ص ٥٤٣.



أما علوم الدين من عقيدة وشريعة فيجب أن تذاق وتعلن وتبلغ وتعلم، ولكن بأسلوب حكيم^(١) على نهج الدعاة المهدين.

إن الآية الكريمة تبين أنه لا بأس أن تذكر الآخرين بصحة توقعاتك بعد تحققها شرط أن تكون مبنية على علم لا حدس، كما أن استحضار الخصوصية مع الله من أعظم الأسباب الجالبة للمحبة والشوق إليه سبحانه، فالحب ينبت على حافات المنن وشهود النعم^(٢).

لقد أراد الله بآل يعقوب وإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خيراً، فساق لهم أسباب التوبة والرجوع إليه وعندما رأوا المعجزات للنبيين الكريمين والدهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخوهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وآخرها رجوع البصر إلى أبيهم بعدما ألقى البشير القميص على وجهه، انهدم كل شيء سلبي في نفوسهم وفاض الخير فيها فطلبوا من أبيهم الدعاء لهم بالمغفرة.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]:

بعد أن جاء البشير وبان الأمر وظهر صدق يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يملك الأبناء إلا أن قالوا:

١ - ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]:

- ﴿قَالُوا﴾ [يوسف: ٩٧]: أي الإخوة وبدون مقدمات ولا فواصل.

- ﴿يَا أَبَانَا﴾ [يوسف: ٩٧]: بنداء التقرب والتحب.

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٣.

(٢) أيها الصديق، محمد خيرى، ص ١٧٣.



- ﴿أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف: ٩٧]: طلبوا منه الدعاء بأن يغفر الله لهم ذنوبهم. وفي هذا الطلب تعبير عن طلب مزدوج، فهم يطلبون منه الصفح والعفو والنزول عن حقه حيالهم، بأن طلبوا منه أن يسأل الله تعالى أن يغفر لهم. وتلك التفاتة جميلة تدل على ذكاء وصفاء سريرة^(١).

- ﴿ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف: ٩٧]: وهم يشيرون بذلك إلى أنها أكثر من ذنب واحد، أي: على الجمع في الذنوب؛ ليشمل سرها وجهرها، قديمها وحديثها، كبيرها وصغيرها، وعلى الجمع فيهم: ﴿إِنَّا﴾ [يوسف: ٩٧]؛ ليعممهم جميعاً ممن أجرم بيده أو مشى برجله أو نطق بلسانه أو شارك برأيه أو أقر بقلبه، أو سكت عن نصحه فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر، فالكل مذنبون وإن اختلفت درجاتهم وتبعاتهم.

- ﴿إِنَّا﴾ [يوسف: ٩٧]: أصلها: (إنّ) للتأكيد، و(نا) للجمع، أي: إنهم أكدوا ثانية خطأهم وأقروا به جميعاً.

- ﴿كُنَّا خَطِيئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]: بصيغة الجمع في اسم الفاعل، ليدل على الخطأ في فعلهم فيهم جميعاً والخطأ بشمل كل ذنب، فعمموا ولم يخصصوا، فربما غفلوا في التخصيص عن ذنوب تسلت بعضها من بعض، ولم يعرف الذنب، ولم يعرف نوع الخطأ؛ لأن الله سبحانه أمر بالستر^(٢).

ولم يجبههم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى طلبهم مباشرة، بل أخره إلى وقت آخر، كأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يشعرهم بفداحة ذنبهم. أو أنه أخر الاستغفار إلى وقت ترجى فيه الإجابة أكثر، كوقت السحر. أو لعله عَلَيْهِ السَّلَامُ أخره حتى يلتقي بيوسف ويراه ويطمئن عليه، "فَمَا رَأَى كَمَنْ سَمِعَا"^(٣).

(١) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٥.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٧).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[يوسف: ٩٨]:

إن الآية الكريمة تدل على حب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه متأصل متجذر في أعماقه، وهذا سر من أسرار الله فمهما كانت قسوة الأبناء على الآباء شديدة ومتمادية، فليس أسرع من قلب الآباء صفحاً وعفواً، ولو أدرك الأبناء عظمة هذا السر لما وقع ولد في جرم العقوق^(١).

أ. ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]:

- ﴿سَوْفَ﴾ [يوسف: ٩٨] كلمة السين وسوف تدلان على وقوع الفعل في المستقبل، وكلمة (سوف) تدل على بعده قليلاً من (السين) ومعنى هذا أن سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لو قال: (سأستغفر لكم ربي) لدل على أنه سيستغفر بعد قليل، ولكنه قال: (سوف) فدل على أنه سيستغفر بعد زمن وإن قل، ولهذا قال بعض ساداتنا العلماء إن يعقوب أمهلهم قليلاً حتى يتقربوا من الله أكثر، فإذا استغفر الله لهم غفر لهم. ولم يكن هذا مع يوسف لأنه قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] وهذا طرح منه لكل ما فعلوه، ثم أضاف الدعاء لهم، وقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٩٢]، ثم طمأنهم بأنه سبحانه أرحم الراحمين، وأنه مهما عظم ذنب الناس، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْسَعُ رَحْمَةً وَأَعْظَمُ فَضْلًا.

- قال عطاء: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها في الشيوخ، ألا ترى قول يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨].

(١) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٣٦٨.



- قال العز بن عبد السلام: في قوله ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]:
آخره إلى صلاة الليل أو السحر وليلة الجمعة^(١).

إنّ الدعاء في الأوقات الفاضلة معروف في السنة، ومنه شرع الاستغفار
بالسحر، وعقب الصلوات وفي السجود وعند الأذان وبينه وبين الإقامة وعند
الإفطار في الصيام أقرب للإجابة مما عداها^(٢).

- ﴿أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٨]: أي أسأل لكم المغفرة.

- ﴿رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]: جاء بلفظ الرب ﴿رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] ليعين حال السكينة
والطمأنينة التي يعيشها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام في كلمة واحدة قالها، وهو تعبير عن ثقته
بالله وشعوره بقربه منه^(٣).

وفي كلمة ﴿رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] تأدب مع الله في إرجاع الأمر كله إليه، عرفاناً
وذلاً وفقرراً إليه سبحانه. وللدلالة على صلة الحب القوية بين الله الرب، ونبیه
العبد، فالرب مولى النعم كلها، والمغفرة عطاء من عطاءات الربوبية^(٤) وفيه
تضمنين منه بأنه غفر هو لهم وعفا عنهم.

ب. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]:

- ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ [يوسف: ٩٨]: إن للتأكيد والهاء الضمير عائدة إلى: ﴿رَبِّي﴾
[يوسف: ٩٨] والضمير ﴿هُوَ﴾ [يوسف: ٩٨] لزيادة التأكيد، وأنه هو صاحب الشأن،
ولتمييز كمال صفاته عن نظائرها في غيره ولم يقل: سوف أستغفر لكم ربي

(١) تفسير سلطان العلماء، (٢/١٣٩).

(٢) إتحاف الإلف، (٢/٨٤٢).

(٣) لطائف التفسير، ص ٣٦٧.

(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٦.

الغفور الرحيم، بل أضاف: ﴿إِنَّهُ﴾ [يوسف: ٩٨] للدلالة على عظيم تقديره ومعرفته ويقينه بعظيم صفات ربه^(١).

- ﴿الْعَفُورُ﴾ [يوسف: ٩٨]: الذي يستر الذنب فلا يظهره ولا يؤاخذ عليه^(٢)، فالغفور والعفو سبحانه، هو الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعدنا بالمغفرة لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

فالغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب^(٣). فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على معرفة عميقة بمن يغفر الذنوب، فذكر نفسه به وكذلك دعا أولاده إلى قصده وحده سبحانه، فجدران اليأس وجبال الهموم وكآبة المعاصي تتصدع وتزول وتتلاشى، وتنطلق أرواحهم من سجون المعاصي إلى آفاق التوبة، فهل هناك أجمل من طلب المغفرة بعد الوقوع في الذنوب والمعاصي من الله؟

قل: استغفر الله، لا تقلها فقط، تأمله فيها: استغفر الله، إن قلتها من قلبك تتناثر جميع الوسوس والهواجس والمخاوف^(٤). وسبحان القائل: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٥].

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٧.

(٣) والله الأسماء الحسنى، ص ٥٦٩.

(٤) لأنك الله، علي جابر الفيقي، ص ١٥٦.



- ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]: بِإِسْبَاغِ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَحَسًّا وَمَعْنَى. وَأَضَافَ (أَل) التَّعْرِيفَ وَبَصِيغَةَ (فَعِيل) لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ الصِّفَةِ وَعَظَمَتِهَا وَسَعَتِهَا^(١).

إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُنَا عِبُودِيَّةَ الرَّجَاءِ وَالتَّعَلُّقَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَعَدَمَ الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَتِهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. وَمِمَّا تَسْتَجْلِبُ بِهِ رَحْمَةَ اللَّهِ، الْاسْتِغْفَارَ وَلِذَلِكَ قَدَّمَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْمَ الْغُفُورِ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَرْحَمُ الْعِبَادَ. وَالمَلاحِظُ فِي خُطَابِ يَعْقُوبَ لِأَبْنَائِهِ حُضُورَ اسْمِ الرَّبِّ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] مَعَ الْانْكَسَارِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّوَجُّهِ فِي طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ مِنَ الْغُفُورِ وَالرَّحْمَةِ مِنَ الرَّحِيمِ.

إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكَّدَ لِأَبْنَائِهِ بِأَنَّ رَبَّهُ هُوَ ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] فَقَدْ جُمِعَ بَيْنَ الْأَسْمَانِ الْكَرِيمِينَ، لِأَنَّ الْمَغْفِرَةَ تَسْقُطُ عَقُوبَةُ الذُّنُوبِ، وَيَسْتَرِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ ذُنُوبَ عِبَادِهِ وَيَقِيهِمْ آثَامَهَا، كَمَا يَقِي الْمَغْفِرُ الرَّأْسَ مِنَ السَّهَامِ، وَهَذَا مُقْتَضِي رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا أَنَّ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَانِ الْكَرِيمِينَ إِشَارَةً إِلَى الْكَرَمِ الْغَامِرِ وَالْفَضْلِ الْعَمِيمِ، فَإِنَّ كَوْنَهُ سُبْحَانَهُ (الْغُفُورُ) يَقْتَضِي تَجَاوُزَ عَنِ الزَّلَاتِ وَالْعَثَرَاتِ فَإِذَا قَرُنَ (الْغُفُورُ) بِ (الرَّحِيمِ) الَّذِي ظَهَرَتْ آثَارُ رَحْمَتِهِ فَهُوَ الْفَضْلُ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ فَضْلٌ، فَالْمَغْفِرَةُ تَخْلِيهِ عَنِ الذُّنُوبِ، وَالرَّحْمَةُ تَحْلِيهِ بِالْفَضْلِ وَالثَّوَابِ^(٢).

- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]: حَقِيقَةُ إِيْمَانِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ مِنْ حَقَائِقِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ، وَالَّذِي مِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ بَعْبَادَهُ أَنْ يَغْفِرَ ذُنُوبَهُمْ وَيَرْحَمَ ضَعْفَهُمْ

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

(٢) والله الأسماء الحسنی، ص ١٤٨.

إذا ما أخلصوا التوجه إليه وحده وجاء ذكرها مناسباً لطلبهم الاستغفار وليقرر ويؤكد أن الله سبحانه هو صاحب الحق أولاً وآخرأ وأنه بيده الأمر كله وأنه أهل التقوى وأهل المغفرة^(١).

وبكلام يعقوب لأولاده: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]؛ طوى الماضي بأحداثه وصرنا أمام مرحلة جديدة في حياة آل يعقوب فقد أخذ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أهله جميعاً؛ أبناءه وخدمهم ودوابهم ومواشيهم وأموالهم وأغراضهم، وسار الموكب الإيماني من جنوب فلسطين إلى مصر ليستقروا جميعاً عند يوسف عزيز مصر.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠].

وصل الموكب إلى مصر، ودخلوا جميعاً على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، عزيز مصر وحاكمها الفعلي^(٢).

١ - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]:

هذا هو الدخول الرابع للإخوة وهو الأول بعد المغفرة والخاتم في القصة. وتميز بدخول آل يعقوب جميعاً وتميز بتأويل الرؤيا الصادقة، نظرياً في

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢٣٠).



أول القصة تأويلاً عملياً واقعياً حقاً، وتميز بأن هذا الدخول ما بعده من استقرار بني إسرائيل في مصر أمداً طويلاً وما جرى لهم فيها من أحداث خطيرة اختتمت بمجيء موسى عَلَيْهِ السَّلَام وإخراجه منها بأمر الله^(١).

أ. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٩] جاء بالفاء المعقبة، ليدل على لهفتهم بسرعة الدخول على يوسف ولقائهم به، وصرح باسم يوسف ولم يضممه ولم يأت بلقبه ليدل على أنه علم هذا الدخول ومحوره صاحب الشأن فيه والقائم عليه وأن الابن والأخ يوسف كان المقصود بذاته أيًا كان لقبه وصفته.

ب. ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: ٩٩]: خاصة من دون الباقيين، أي: ضمنهما إليه وأسكنهما عنده، ليدل ويؤكد بهذه الآية على أن إيواء الأبناء للآباء - خصوصاً إذا كبروا - بر محمود وواجب مفروض أكدته الشرائع السماوية والأخلاق الزكية^(٢).

ويبدو من ظاهر الآية أن أمه كانت حية خلافاً لما ذهب إليه أكثر المفسرين، فإنهم قالوا: ماتت أمه قبل أن تبدأ أحداث القصة وتأثروا بذلك بما يروى عن بني إسرائيل من أخبار، وهي أخبار تحتاج إلى دليل صحيح من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأصل حمل الكلام على حقيقته^(٣).

ويبدو أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم، وهذا هو الدخول الأول الذي أوى فيه أبويه، ثم دخل بهم الدخول الثاني إلى البلد بدليل أنه قال:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١١.

(٣) القصص القرآني، (٢/ ٧٢٢٧).

- ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]: أي ادخلوا آل يعقوب جميعكم مصر وكرر لفظ الدخول ليميزه عن الدخول الأول على يوسف حيث أوى إليه أبويه، وجاء به بصيغة فعل الأمر، ليدل على معنى دخولها مع البقاء والإقامة المستقبلية فيها. ويلاحظ أن يوسف قال: (ادخلوا) ولم يقل: اسكنوا. أو: أقيموا في مصر، فتفضل الله على نبيه يوسف ببركة قوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]؛ فأمّن الداخلين من آل يعقوب بصورة خاصة ولم يعم ذلك إلى ذراريهم من بني إسرائيل لحكمة أرادها الله، وهذا من دقة أداء اللفظ القرآني^(١).

- ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]: إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دائم الصلة والتوجه إلى الله والأدب معه سبحانه، يذكره على جميع أحواله، يردع إليه في كل خير ويرد إليه الأمر في كل شأن وها هو هنا يعلق الأمر، بأمنهم في دخولهم. وقد قال الطاهر بن عاشور: والمقصود: الأمن حال اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك. وجملة: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٩٩] تأدب مع الله كالا حتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمن^(٢).

عاش آل يعقوب آمنين في مصر إلى أن جاء العهد الفرعوني، فتعرضوا على أيدي الفراعنة إلى أشد أنواع العذاب والتنكيل واستعبدوا حتى بعث الله فيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليخرجهم من أرض مصر^(٣)، وكان ما كان وكأن المشيئة على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مشيرة إلى أن هذا الأمن لن يدوم وإن طال زمنه^(٤).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٣.

(٢) التحرير والتنوير، (٦/٤١).

(٣) لطائف التفسير، ص ٣٧٢.

(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢١٦.



لقد هيا الله ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنيه أسباب الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الحضرة وأدخلهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في حضارة مصر من بابها الواسع^(١) في مدينتها المتحضرة في جوانبها المادية، وقام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بدعوة التوحيد في تلك المملكة الهكسوسية.

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

ويا له من مشهد بعد توالي الأعوام وانقضاء الأيام وبعد طول المعاناة والألم والضيق وبعد الامتحان والابتلاء وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامي الشديد.

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة، ذلك في ضمير العيب وهذا في واقع الحياة. ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجد إخوته له - تكريما واحتراما وتقديرا - وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين^(٢).

أ. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]: إن من تمام البر أن لا يعتبر نفسه في حضرة والديه هو العزيز، ولا يرتفع عليهما في المجلس وإن كان يسرهما هذا، ولكنه من خلقه العظيم وبره الكريم لا يفعله بل يرفع أبويه على سدة الحكم وكرسي الوزارة^(٣).

(١) سنن الله في الحضارة، ص ٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/٢٩٢٠).

(٣) سورة يوسف، القره داغي، ص ٥٤٧.



ب. ﴿وَحَرُّوْا لَهُ سُجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] عطف على ما سبق، أي: بعد رفع أبويه واستوائهما على العرش خر القادمون على يوسف له سجداً، وترك للسامع المتدبر أن يفهم أن في مقدمة الساجدين ومن قصدوا بذلك هم إخوة يوسف، بدليل قوله لأبيه من بعد: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والخر: سقوط بصوت، وهكذا جعلنا اللفظ نتخيل حركات الساجدين وما رافقها من أصوات حركتهم وأفواههم بالتحية والتعظيم والإجلال.

- ﴿سُجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذا التعبير أضاف لفعل السجود الحالة الوصفية والمعنوية لجمع من الساجدين^(١).

وقد أجمع أهل العلم على أن هذا السجود لم يكن عبادة مصروفة ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأما هو سجود تحية وإكرام. وقال القرطبي: أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان، إنما كان تحية لا عبادة^(٢).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهم خروا سجداً لله من أجل جمع شمل العائلة، ولم يخروا سجداً ليوسف، بل خروا سجداً لمن يجب السجود إليه وهو الله^(٣).

وقال الشيخ محمد طاهر بن عاشور: وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعاً في الشرائع، وإنما منعه الإسلام لغير الله وتحقيقاً لمعنى مساواة الناس في العبودية، ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقاً، لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم^(٤).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٦.

(٢) آيات للسائلين، ص ٣٧٤.

(٣) تفسير الشعراوي، (١٢/٧٠٧٧).

(٤) التحرير والتنوير، (٦/٤١).



وقال محمد راتب النابلسي: أي وخروا لله عَزَّجَلَّ سجداً جميعاً يوسف وأبواه وإخوته الأحد عشر كوكباً، أو أن هذا سجود التحية وكان تقليداً في مصر وهو انحاء الرأس، فحينما ينحني الرأس قليلاً فهذا اسمه عند أهل مصر قديماً سجود، فلا يراد به سجود العبادة، بل هو سجود تحية^(١).

ج. ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]:

- ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ﴾ [يوسف: ١٠٠]: التفت يوسف إلى أبيه قائلاً له ﴿يَتَابَتِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: ما حصل الآن من السجود له أمام ناظره هو:

- ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]: أي رؤياي المنامية التي رأيته، وقصصتها عليك، وأنا غلام صغير، وقد آلت الآن بعد كل تلك السنين إلى ترجمة صادقة لها، أي إن هذا الذي تحقق الآن من إكرامي بكما يا شمسي ويا قمري، ومن سجود إخواني لي بالتحية والإجلال والاحترام والتقدير هو التأويل الواقعي الحي لرؤياي الرمزية من قبل، والتي قصصتها عليك فصدقني النصح بحكمتك وعلمك النبوي الرباني.

- ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]: قد جعلها ربي حدثاً حياً نشاهده وحققة واقعة نعيشها وكعاداته يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لا يغفل عن ذكر ربه مُرجعاً كل خير وحق وفضل إليه سبحانه. وصيغة: (قد) قبل الفعل الماضي تفيد التأكيد والتحقيق. وجاء بصيغة (الرب) ليدل على أن هذا من عطاء صفات الربوبية في الفضل والنعمة والرحمة والإكرام والعطاء السابق بغير حساب. وقال: (ربي) بياء الإضافة ليشير إلى عمق خصوصية الصلة والرابطة بينه كعبد، وبين ربه، ومزيد

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٧.

العرفان والشكر له سبحانه. وقال: (حقاً) ليدل على التحقيق والوجوب وال لزوم والصدق والثبوت. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

د. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

استمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ معدداً - في معرض التحرث بنعم الله وفضله - بعض آلاء ربه ذي الإحسان ويأتي بنعمة إخراجه من السجن على رأسها، ويغفل ذكر نعمة إنقاذه من الجب لطفاً وأدباً مع أبيه وإخوته فلا يؤذيه في أبنائه بتلك الذكرى الأليمة القاسية عليهم جميعاً، خاصة بعد أن غفر لهم وصلاح حالهم^(١).

- ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ [يوسف: ١٠٠]: الواو للعطف. ﴿وَقَدْ﴾ [يوسف: ١٠٠] قبل الماضي للتأكيد والتحقيق. وأحسن: والفعل الحسن من الله، حسن في ذاته حسن في أسلوبه، حسن في مقدماته، ونتائجه. وقال: ﴿بِي﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: لي؛ ليدل على عرفان بلصوق النعمة به وحلولها وإسباغها عليه.

- ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]: أرجع الفضل في إخراجه من السجن إلى الله عَزَّجَلَّ، فهو مسبب الأسباب ومدبر الأمر، وجعله مثلاً لإحسان ربه إليه والإخراج من السجن كان خلاصة أمور ونعم عظيمة من قبل، من فتنة النسوة وحفظ ونجاة وبراءة وتصديق ومن بعد تمكين وتأمين. وجعله على خزائن الأرض، والعزيز على مصر، ثم ما جرى له من إخوته حتى آل الأمر إلى ما هم فيه إلا من خير ولم شمل وصلاح^(٢).

د. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]: وحضوركم إليّ في مصر وترككم البادية إحسان آخر بي وبكم. فلقائي بكم وضمكم إليّ، وأنتم على أحسن حال

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٨.



كان أمنية لي طال انتظارها، ومجيئكم إليّ كان فوق ذلك خاتمة حسنة لمسيرة طويلة من المعاناة والحزن والصبر الجميل ومجيئكم من البادية من شطف عيشها وقحطها وقساوة بيئتها إلى حاضرة مصر في رغد عيشها ولين بيئتها وسعة رزقها المادي والمعنوي^(١).

- قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فجمع الشمل وانتقلتم من الشقاوة إلى القمة بسكن الحاضرة، وكان منزل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام بأطراف الشام في بادية فلسطين وكان رب إبل وغنم وبادية^(٢).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: والمجيء في قوله: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو. والبدو: ضد الحضر، تسمى بدواً؛ لأن سكان بادون. أي: ظاهرون لكل وارد إذ لا تحجبهم جدران، ولا يغلق عليهم أبواب، وذكر: ﴿مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] إظهاراً لتمام النعمة؛ لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة^(٣).

هـ. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]: أي أفسد ما بيننا من عاطفة الأخوة، وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القرب بإغراء الحسد، وتهيج الشر.

وقد ذكر يوسف نفسه وقدمها على إخوته في نزاع الشيطان بينهم تواضعاً وأدباً^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٩.

(٢) المحرر الوجيز، (٣/ ٢٨٢).

(٣) التحرير والتنوير، (٦/ ٨٢).

(٤) يوسف أيها الصديق، ٤٢٠.

ولا يوجد في اللغة على سعتها تعبير ألطف وأدل على كمال التواضع من هذه العبارة الوجيزة جعل ذلك النزع المزعج كأنه كان مشترك بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما مع أنه كان من جانب إخوته وليس منه^(١).

ثم عقب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على قصته بتقرير جوهر الحقيقة، وهي أن مشيئة الله كانت هي الفاعلة بجميع صفات الرب الحسنى من لطف وعلم وحكمة^(٢).

و. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا﴾ [يوسف: ١٠٠]: أي إن ربي عالم بدقائق الأمور، رفيق بعباده فينقذ من يشاء من خلقه بحكمته البالغة، فمن ذا الذي كان يدور بخلدته أن الإلقاء في الحب يعقبه الرق، ويتلو الرق فتنة العشق، وبسببه يزج في غيابات السجن، ثم منه إلى السيادة والملك. فسبحان الله يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة^(٣) من أمور يدبرها بلطفه الخفي. وتعبير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يفيد عظم رفقه سبحانه بعباده وإيصاله الخير لهم من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون وذلك لكمال إحاطة علمه بالظواهر والسرائر والخفايا والبواطن والدقائق والخبايا. ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]^(٤).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يستشعر أثر اسم الله اللطيف ويعلمنا الإيمان به والتوكل عليه، فمن أسماء الله الحسنى اللطيف، وقد عاش يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع اللطيف بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحدثنا عن تجربته وخبرته، ومن ذاق عرف ولا ينسى يوسف أبداً ذكر ربه ويعيد إرجاع الفضل إليه، فهو مصدر الخير كله ومولى النعم، وهو لطيف بما يشاء^(٥).

(١) سورة يوسف، ص ٥٥١.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٠.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠٠.

(٤) آيات للسائلين، ص ٣٧٩.

(٥) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٠.



- اسم الله الطليفي:

اللطيف هو الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة. اللطيف بعباده المؤمنين: هو الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى الخير ومعنى الرؤوف.

ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عند قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وهو بيان لما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بالطف الوجه كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذا يستلزم العلم والغاية المقصودة، والعلم بالطريق الموصول، وكذلك الخبرة^(١).

ز. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]: وبصيغة التأكيد والاختصاص والشأن العظيم، وكما الصفة في العلم والحكمة في ربه ومولاه يختم يوسف حديثه، وجاء بصفتي العلم والحكمة لمناسبة ما تضمنته قصته بصورة عامة، والآية بصورة خاصة، من تحقيق الرؤيا ومن إخراجها من السجن ومن مجيء أهله إليه ومن ندم إخوته ومن لطف المشيئة الربانية الفاعلة عن علم مطلق محيط وعن حكمة واسعة عظيمة^(٢).

ونلاحظ في هذه الجملة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] في آخر هذه الآية الكريم توافقاً مع آخر الآية الكريم المشتملة على تأويل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لرؤيا يوسف، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ

(١) مجموع الفتاوى، (١٦/٣٥٤).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢١.

عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿يوسف: ٦﴾ فبداية البشريات التي بشر بها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه يوسف في تأويله لرؤياه وإتمام هذه البشريات، يقع تحت نور الاسمين الجليلين من أسماء الله الحسنى ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] بداية ونهاية، فسبحان من هذا كلامه^(١).

- اسم الله ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

الحكيم هو من وضع الأشياء مواضعها وساق الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها^(٢).
خامساً: قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والسلطان والرغد والأمان، ليتجه إلى ربه في ذكر نعمائه عليه، وهو في أبهة السلطان وفي فرحة الأهل، أن يتوفاه ربه مسلماً وأن يلحقه ربه بالصالحين. وهكذا يتوارى الجاه والسلطان وتتوارى فرحة اللقاء والاجتماع بالأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه وأن يلحقه بالصالحين^(٣).

١ - ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

بدأ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر النعمتين العظيمتين في الدنيا والتي يندرج تحتها نعم لا تعد ولا تحصى ألا وهما نعمة الولاية على الملك ونعمة العلم^(٤).

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠١.

(٢) تفسير السعدي، ص ٥١٨.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٠).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠٤.



أ. ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

- ﴿رَبِّ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ أي يا رب. وحذف أداة النداء، ليدل على شعوره بقرب المنادى وقوة الوصل معه وشدة الاتصال، وعلى قرب لحاق المنادى به، لحاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بربه.

- ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

(قد) للتحقيق. ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾ [يوسف: ١٠١]: صيغة تحقيق وتأکید.

- ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ أي من بعض ملك الدنيا من سلطان وموالي وبيت ومركب ومال وجاه.

ب. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِّنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]: (من) للتبعض، أي: وعلمتني معرفة مآل الأحاديث سواء كانت رؤيا في المنام، أم كانت أحاديث الناس، شعوباً ودولاً وجماعات من علم سياسة الدولة، وكيف يدبر أمرها، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]: أي علمه بعضها، لا كلها وفوق كل ذي علم عليم، فما علم كل سياسة الحكم، ومعاملة الناس وما علم كل تأويل الرؤى ولكن علم بعضها^(١)، وذلك من تواضعه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام علام الغيوب. وكفى بنعمة العلم من نعمة وكفى بأن يكون الله هو المعلم^(٢).

٢- ﴿فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

أي: يا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق^(٣).

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٦٣).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٥.

(٣) التفسير الموضوعي، (٣/٢٢٩).

٣- ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

أي ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة ومن أدبه عَلَيْهِ السَّلَامُ - في مناجاته مع ربه عَزَّجَلَّ - أنه قد الثناء على الله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١] ثم ذكر عقب ذلك الدعاء. وفي صحيح السنة أن من آداب الدعاء وشروط إجابهته تقديم الثناء على الله تعالى، ثم الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ما يطلبه العبد من ربه.

٤- ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:

ودعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يشتمل على أمرين:

أ. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]: أي أتمني وأنا مستسلم لأمرك ومشيتك وحدك وهي أمنية كل مؤمن بالله تعالى، أن يموت على الإسلام الكامل له جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. فالموت على الإسلام مطلب عزيز ونفيس وشريف، حتى تشوقت إليه نفس الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]: وصية الله لعبادة ووصية الأنبياء لأتباعهم والآباء لأبنائهم ودعاء الصالحين وهكذا نطق يوسف الصديق بحكمة النبوة ومشكاتها التي أنارت بنورها آباءه من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فكان وفيا لإرثهم، أمينًا على وصيتهم.

ب. ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]: واللاحق بالصالحين في الآخرة يلخص كل دعوات الخير في الدنيا والآخرة، فالصالح في الآخرة قد توفي مسلمًا وكان في الدنيا من المرضيين ومن التحقق بركب الصالحين فقد فاز



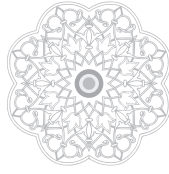
الفوز العظيم، ومن التحق بالصالحين من آبائه فقد نال الدرجات العلا. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ولقد كانت دعوة يوسف متناغمة مع هذه الآيات: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. شهادة من الله وكفى بالله شهيداً، وبهذا الابتهال والتعقيب والدعاء بحسن الختام يختم المولى عَزَّوَجَلَّ قصة نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

هذا، وأثناء شرح هذه الآية الكريمة تلقيت خبر وفاة العلامة الدكتور الشيخ يوسف عبد القرضاوي، فانتابني شعور عجيب وحزن عميق وبكاء على الشيخ، (إنا لله وإنا إليه راجعون) فقد لازمته عقدين من الزمن وتعرفت عليه عن قرب واستفدت من محاضراته ودروسه وكتبه ومواقفه، فقد مر بابتلاءات ومحن وغربة ومطاردة، وكان ثابتاً راسخاً مخلصاً نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، في دعوة الإسلام ورسالته ووضع الله له قبولاً كبيراً وترجمت كتبه وانتشرت في الآفاق، فنسأل الله العلي العظيم الكبير المتعال الرؤوف الرحيم الغفور الكريم أن يتقبل شيخنا القرضاوي ويتجاوز عنه وأن يلحقه بالصالحين، وأن يعلي ذكره في المصلحين، وأن لا يحرمنا أجره ولا يفتننا بعده.



(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٧.



المبحث الحادي عشر: تعقيبات ربانية على قصة

يوسف عليه السلام

قال تعالى: ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (١٠٣) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَّشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانٍ الْقَوَرِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

[يوسف: ١٠٢ - ١١١]:

أولاً: قوله تعالى ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ

وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]:

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها، وتبدأ معها اللفات المتنوعة واللمسات المتعدد، في صفة الكون، وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم، فتأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق، وهو ترتيب ذو هدف معلوم، تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بعث إليهم، وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة، وقد غيرت بهم القرون وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ﴾ [يوسف: ٣] فهذا هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ويختم ختامها على مطلعها^(١).

١ - ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]: اسم إشارة للمفرد البعيد، والبعيد هنا بعد زمان غابر ومكان مغاير^(٢) وجاء به بالمفرد؛ لأن السورة اشتملت على قصة واحدة: (قصة يوسف كاملة).

٢ - ﴿ مِنْ ﴾ [يوسف: ١٠٢]: وهي نبأ واحد من أنباء الغيب الكثيرة التي أنبأك الله بها.

وتعني كذلك علوماً منقولة إلى السامع من زمان أو مكان مغاير.

٣ - ﴿ أَنْبَاءَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]: الأنباء جمع نبأ وهو الخبر الخطير ذو الشأن وتعني كذلك علوماً منقولة إلى السامع من زمان أو مكان مغاير.

٤ - ﴿ الْغَيْبِ ﴾ [يوسف: ١٠٢]: أي ما غاب عنك وعن قوم ولا سبيل لمعرفته إلا بالوحي، والمقصود تفاصيل القصة على ما ذكر بالقرآن، ويجوز أن يكون المراد بالغيب، أي النسبي الذي يعلمه بعض الخلق كمن شاهده وإن غاب

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣١).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٣٠.



عن الأمم التالية، ولا شك في أحداث القصة غيب لم يعلمه بعض من كان له دور فيها، فكيف يقص محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ائتمار الإخوة في خفاء، واجتماعهم على الكيد، إن لم يكن رسولاً يوحى إليه؟

فعلم أن إخباره بهذا النبأ من دلائل صحة نبوته وصدق الكتاب الذي جاء به^(١).

٥- ﴿نُوحِيهِ﴾ [يوسف: ١٠٢]: بصيغة الجمع في الموحى سبحانه، للدلالة على التفخيم والتعظيم فيه وفيما يوحى إليه، وللدلالة على أنه أوحى بجميع صفاته سبحانه من علم وحكمة وقدرة.

٦- ﴿إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]: يا محمد بالافراد للخصوصية، وبكاف الخطاب للمقابلة، والتوجيه المباشر بين المتكلم والمخاطب، وبحرف (إلى) الدال على منتهى البلوغ وتمام الوصول مع الخصوصية^(٢).

٧- ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]:

- ﴿وَمَا﴾ [يوسف: ١٠٢]: نفى لما بعدها.

- ﴿كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]: أي وجود كينونة في محيطهم^(٣) وجملة ما كنت لديهم في موضع الحال إذ هي تمام التعجب^(٤).

- ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]: أي اجتمع أمرهم. أي: تفصيل رأيهم وقرارهم عملياً بأخذ يوسف من أبيه بالحيلة والمكر وإلقائه في الحب مجتمعين على ذلك، وإن كان فيهم من عارض إلا أنه في النهاية صمت وأقر ووافق^(٥).

(١) آيات للسائلين، ص ٣٨٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣١.

(٥) سورة يوسف، ص ٥٥٨.

- ﴿وَهُمْ يَكْذِبُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]: حال من ضمير أجمعوا. وأنت يمكرون بصيغة المضارع لاستحضار الحال العجيبة^(١).

إن الآية الكريمة تبين أن الوحي مصدر من مصادر المعرفة والعلم وهو مصدر يقيني لا يخطئ أبداً ولا مجال لإنكاره؛ لأنه يحمل في مضمونه مؤيدات صدقه وشواهد وقوعه وصحته^(٢).

إن الآية التي أشارت لإثبات رسالة محمد ﷺ عن طريق الإخبار بالقصص الماضية التي لا يمكن علم حقائقها إلا عن طريق الوحي كثيرة، كقصة مريم مع زكريا وكفالتة لها والتي جاءت في سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَكْذِبُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]؛ وفي ذلك إشارة إلى مجموع الاختبار الواردة في الآيات السابقة من نذر امرأة عمران لما في بطنها لله، إلى ميلاد مريم وكفالة زكريا لها، إلى بشارة يحيى، إلى كلام الملائكة لمريم وهذه الأخبار من أبناء الغيب واعتبرتها الآية الكريمة غيباً لأنها وقعت في الماضي وحدثت قبل قرون من حياة الرسول ﷺ وبما أنه لم يكن موجوداً عند حدوثها فهو غيب بالنسبة له والله هو الذي أوحى بهذه الأنباء لرسوله ﷺ وأخبره بها، وهذا يثبت نبوة محمد ﷺ ووجه دلالتها على النبوة والوحي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يجهلون أن محمداً ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ وهذا معناه أنه لم يكن يعلم بهذه الأخبار من الكتب ولم يصاحب أحبار أهل الكتاب فكيف علم بهذه الأخبار الخفية التي لا يعلمها إلا عدد قليل من الأحبار واليهود.

(١) سورة يوسف، ص ٥٥٨.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٣٣).



- وكذلك في التعقيب على قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩].

- وكذلك التعقيب على قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَام، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]. وعند الحديث عن قصة آدم في سورة ص قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩].

فهذه القصص وغيرها في القرآن الكريم تشير إلى صحة نبوة نبينا ولون من ألوان الإعجاز في الذكر الحكيم. ومع كل هذه الحقائق التي أوردتها السورة، والتي تؤكد ظاهرة الوحي ووقوعها، ونزول القرآن الكريم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة الوحي، مما يدل على صحة نبوته ورسالته، نرى كثيراً من الناس يعرضون عن هذه الحقائق وينكرونها ويجادلون فيها، ويشيرون بالشبهات حولها، ولهذا جاء التعقيب الثاني:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤) ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦) ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧) [يوسف: ١٠٣ - ١٠٧].

تفسير الآيات الكريمة:

١ - ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]:

فمهما كنت حريصاً على إيمانهم وتصديقهم، فقررت له الحقائق وحشدت لهم البراهين القطعية والحجج البالغة فإن أكثرهم يبقى معرضاً عن الحق معانداً له، وهي حقيقة واقعة ملموسة ومشهودة في كل عصر من عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحتى يومنا هذا، فلا عجب بعد ذلك أن نرى في عصرنا المادي الحاضر أقواماً ينكرون ظاهرة الوحي، ويستبعدون حدوثها، بل ينكرون الجوانب الروحية في الإنسان، كما نرى أيضاً من ينكر نبوة النبي وصحة رسالته؛ زاعمين أنه اقتبس ما في القرآن الكريم من أخبار من كتب أهل الكتاب وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون، وما حملهم على هذه المزاعم الباطلة إلا التعصب الأعمى المذموم، وإن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] لدليل على أنه كلام العليم الخبير الذي وسع كل شيء علماً في كل زمان ومكان^(١).

قال القاسمي والرازي ما معناه: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها، أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قص نبأ يوسف تعتاً فكان يظن أنهم يؤمنون إذا تلي عليهم، فلما نزلت، أصروا على كفرهم. وكأنه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]^(٢).

في سورة الشعراء كررت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨] تسع مرات فيمن أرسلهم الله، وهم: نوح وهود وصالح وإبراهيم؛ ولوط وشعيب وموسى. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فهذه الآيات تفيد أن طبيعة أكثر الناس عدم الإيمان وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم أقلية^(٣).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٦٣).

(٢) إتحاف الإلف، (٢/ ٨٨٥).

(٣) المصدر نفسه، (٢/ ٨٨٥).



٢- ﴿وَمَا سَأَلْتُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]:

وهذا دليل على صدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقد فتح فتوحاً كبيرة، وجاءته أموال كثيرة وغنم غنائم عظيمة، وتوفي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ودرعه مرهونة، وليس في بيته شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير على رف حجرة السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١).

فمن فعل ذلك غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ ولما ملك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كنوز مصر وخيراتها وأصبح الحاكم الحقيقي فيها سأل الله تعالى أن يرحل عن الدنيا ليلحق بقافلة الصالحين في الرفيق الأعلى وما سأل ذلك عندما كان ممتحناً في الحب والسجن، بل سأل ذلك وهو متربع على سدة الحكم في مصر ويده مفاتيح خزائنها وخيراتها وكذلك فعل نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما شعر أنه بلغ دعوته وأدى أمانته، وعلم أنها أصبحت في أيدٍ أمينة ستحملها بعده إلى أطراف الدنيا، اختار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرفيق الأعلى^(٢).

والآية الكريمة تشير إلى أن دعوة الله يجب أن تقدم إلى الناس وأجر الداعية يكون على الله تعالى الذي يدعو إليه، كما أن الآية الكريمة تشير إلى عالمية الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].^(٣)

٣- قال تعالى ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]:

والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في رحاب الكون، معروضة للأبصار والبصائر في السماوات وفي الأرض، يمرون عليها صباح

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٣٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٣٧).

(٣) إتحاف الإلف، (٢/ ٨٨٦ - ٨٨٩).

مساء، آناء الليل وأطراف النهار، وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها، بارزة تواجه العيون والمشاعر، ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق. وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها وفي ظلها الممدود، ولحظة تأمل في الخضم الزاخر والعين الفوارة والنبع الروي، ولحظة تأمل في النبتة النامية والبرعم الناعم، والزهرة المفتحة، والحصيد الهشيم، ولحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء والسماك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوانات والحشرات والهوام لحظة واحدة كافية لامتلاء هذا القلب إيماناً و يقيناً. لحظة واحدة يستمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب، إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستحب، ولكنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون؛ لذلك لا يؤمن الأكثرون^(١).

- ﴿وَكَأَيِّن﴾ [يوسف: ١٠٥]: الكاف للتشبيه. وأي: للتعجب والاستفهام. فصار في الآية معنى (كم) الاستفهامية التي أضيف إليها معنى التعجب.

- ﴿مِّنْ آيَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٥]: للتبويض، وكل ما في السماوات والأرض من شيء كبر أم صغر آية في ذاته، لكن منها ما يدركه جميع الناس، كالشمس والقمر والماء والهواء، ومنها ما لا يدركه إلا أهل العلم والاختصاص كالذرة والمجرة. ومنها ما لا يزال خافياً على الناس وينكشف لهم تدريجياً كلما توسعت دائرة علومهم. أو تكون (من) للجنس، أي: من جنس آية في السماوات والأرض: عالم الخلق والشهود المشهود بعين البصر والبصيرة العلمية وهو (الكتاب المنشور) وجاء بصيغة الجمع في السماوات ليدل على أن الآيات في جميعها

(١) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٣٢).



وليست مقتصرة على آيات السماء الدنيا فحسب. وجاء بالأرض بصيغة المفرد، وبأل التعريف، ليدل على السماوات والأرض التي يعرفها الناس.

- ﴿يَمْرُوتَ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ١٠٥]: أي يمضون عنها ويتجاوزونها، ولا يتجاوز المار الشيء إلا بعد الوصول إليه أولاً. وقال: ﴿عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ١٠٥] ولم يقل: بها؛ ليدل على أنه تجاوزها بعد أن تم له الاستعلاء والوقوف، أي: مرور المكين لا مرور العابر.

- ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]: الواو حالية.

- ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]: كأنهم لا يرونها، أو كأنهم لا يروم ما فيها من دلائل القدرة والإعجاز والحجة والبرهان، أو لأنهم لا يستدلون بها على خالقها، ولا يريدون ربطها به. وقدم: ﴿عَنْهَا﴾ [يوسف: ١٠٥] - أي: الآيات - على المعرضين، ولقد كان الصديق يوسف قدوة فيما يعرفه عظمة صفات ربه وآلائه فيها ويشكره عليها والثناء عليه بما هو أهله، وموالاته وحده في معاشه ومعاده حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] (١).

٤- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]:

فهم يقرون بوجود الله تعالى فما أنكر وجود الله تعالى إلا حفنة من الماديين والدهريين ولكنهم مع إقرارهم بوجوده يشركون بعبادته وطاعته وما أرسل الله تعالى الرسل ليقولوا للناس: آمنوا بوجود الله، فالإيمان بوجوده سبحانه فطرة مركوزة في فطر الناس عرفها كل الأمم والشعوب، وإنما أرسل الله تعالى الرسل

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٣٨.

ليقولوا للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ اعبدوه وحده وأطيعوه وحده، ولا تعبدوا غيره من صنم أو وثن أو حاكم أو شيطان، أو ملك أو ولي أو نبي.

ومر معنا قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لصاحبيه في السجن: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۚ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّحْدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فتأمل الانسجام والاتفاق بين ما حكى الله من كلام يوسف وبين ما جاء في التعقيب على القصة: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤) ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٣ - ١٠٦] (١).

- ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]: أي نازلة ومصيبة فجأة (٢).

- ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧] أو تأتيهم يوم القيامة بأهواله وهم لا يشعرون بإتيانه وغير مستعدين له (٣). فالغيب موصل الأبواب، لا تمتد إليه عين ولا أذن، ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة فكيف يأمن الغافلون؟ وإذا كانت آيات هذا القرآن الذي يحمل دليل الرسالة وكانت الآيات التي يحفل بها الكون معروضة للأنظار، إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ويشركون بالله شركاً ظاهراً أو خفياً وهم الأكثرون فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماضٍ في طريقه ومن اهتدى بهديه، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين (٤).

(١) التفسير الموضوعي (٢٣٨/٤).

(٢) التفسير الموضوعي، (٢٣٨/٤).

(٣) المصدر نفسه، (٢٣٨/٤).

(٤) في ظلال القرآن، (٢٠٣٤/٤).



ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

آية عظيمة تلخص موقف الداعية ومنهجها ونفسيته، بعد كل الذي قيل من إعراض الأكثرية، يواجه الداعية هذا الموقف بالثبات والإعلان الجريء القوي في مواجهة التيار المنحرف الجارف^(١) ليقول:

١ - ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

- ﴿قُلْ﴾ [يوسف: ١٠٨]: يا محمد وبلغ وأسمع.

- ﴿هَذِهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]: اسم إشارة للقريب، ليدل على أن سبيل الحق والهدى قريبة، بسطها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أيديهم وتحت أنظارهم.

- ﴿سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨]: وهذه السبيل هي الطريق المنزلة من عند الله والممتدة لتصل إلى الله، وأضافها إلى محمد وأفردها لتدل على أن سبيل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي السبيل الحق الأوحى.

٢ - ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

أي على نور ودليل وبينه لا لبس فيها ولا غموض ولا ألغاز ولا طلاس، ظاهرة وواضحة لكل عين مبصرة، ومن ابتغى الحق فالحق أبلغ. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وجاء بصيغة الجمع هنا، ليدل على أن جميع آيات الله بلا استثناء هي بصائر في كل واحدة منها، وجاء بالمفرد في آية يوسف على المصدر،

وقال موسى لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وفي خطبة الوداع بين رسول الله ﷺ هذا المعنى وأكده فقال: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»^(١).

- ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]: البصيرة في الدعوة نفسها، والبصيرة في الداعي إلى الله بأن يكون بصيراً في أمره بصيراً بما يدعو الناس إليه عالمًا به، بصيراً بمن يدعوهم واختلاف درجات عقولهم وثقافتهم: "أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم"، بصيراً بالأسلوب الحكيم في خطابه للناس: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣- ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]:

- ﴿أَنَا﴾ [يوسف: ١٠٨]: ضمير المتكلم المفرد، وهو أيضاً يدل على ضمير المتكلم الفاعل المستتر وجوباً (المضمَر). والتقدير: قل هذه سبيلي أدعو أنا، على بصيرة أنا. وكرر الضمير وأخره لتوكيد على معنى إماميته وأوليته في الاستجابة لدعوة الله والاستقامة على سبيله وأنه الإمام المتبع.

- ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]: عطف على ضمير: (أنا) أي: من الذين اتبعوني على هذه الدعوة واستقاموا معي على هذه السبيل. أي: إن هذه السبيل التي أدعوا إليها هي التي أمرني الله بها وهي السبيل المفردة الحقّة الواضحة البينة التي اتبعتها، وكل من اتبعني، فأنا قائم على رأسها ومن خلفي كل متبع غير مبتدع وفي هذه الآية دليل على أن:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٤٤.



- محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام الدعوة إلى الله وأولهم.
- أن الدعوة إلى الله واجب على كل مؤمن متبع لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- أن سبيل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي وحدها سبيل الله.
- أن سبيل الله قريبة ميسرة، واضحة بينة، وعليها من الله برهان.
- أنها مستقيمة لا عوج فيها، وأنها مفردة لا ثاني لها^(١).
- ٤- ﴿وَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ [يوسف: ١٠٨]: أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسَه عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل، أو نديد، أو ولد، أو صاحب، أو وزير، أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً^(٢).
- ٥- ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]:
أي وأنا بريء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني^(٣).
أي: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيله البراءة من أهل الشرك وأن منهجه وطريقته الدعوة إلى التوحيد والتنزيه عن الشرك والبراءة من المشركين أجمع^(٤). ودعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه ليست بدعاً من دعوات الأنبياء قبله، بل هي مكملة وخاتمة لها وكما أوحى الله إليهم أوحى إليه^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير، (٤/٤٢٢).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٣٠.

(٤) آيات للسائلين، ص ٤١٥.

(٥) التفسير الموضوعي، (٤/٢٤٠).

رابعاً: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۚ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

١ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي إن الذي أرسلهم هو الله وحده، وجاء الضمير الجمع المتكلم، ليدل على عظمة المرسل سبحانه الحاضر المشاهد وعلى فاعليته بجميع علياء صفاته الكاملة.

- ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي يا رسولنا محمد، وفيه تضمين لانتقطاع الرسل من بعده فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمهم، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وأكدت الآية على أنه لا رسول مرسل ولا نبي منبأ من بعد النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩] استثناء منقطع.

- ﴿رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي متصفون بصفات الرجولة الكاملة الحسية والمعنوية.

- ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩] وهكذا لخص لفظ الرجال الصفات الحسية والمعنوية في الرسول من: بشرية، وذكرورة، وقوة في البنية، وبلوغ مبلغ الرجال في السن والعقل والفهم والعلم والحكم وكريم الصفات. علماً بأن صفات الرجولة هذه صفات تكليف لا صفات تشريف، فملك كريم خير من بشر كافر، ومؤمن من الجن خير من كافر في الإنسي وامرأة صالحة خير من رجل ظالم،



ويكفي الرسل فخراً وتشريفاً وتكريماً، أن ينسبوا برسالتهم إلى الله العلي العظيم وأن يكون الموحى إليه من أهل القرى^(١).

٢- ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]:

- ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]: بضمير الجمع في الموحى للتفخيم والتعظيم فيه سبحانه وبجميع صفاته العليا وفي الموحى إليهم أي: جميع رسله. واختار الله الوحي وسبله للتبليغ عنه إليهم. والوحي من الله شرط أساسي^(٢) من شروط التكليف والتشريف بالنبوة والرسالة.

- ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو، ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلماً وأجل فضلاً^(٣).

٣- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

- ﴿أَفَلَمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] للتقريع والتوبيخ والإنكار فهم قد ساروا وسمعوا الأخبار ورأوا الآثار.

- ﴿يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٩]: ولقد كان أهل مكة الرحالة يمرون في سفرهم على ديار عاد وثمود ويرون بأعينهم كيف أهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم وعنادهم^(٤). والتمييز في: ﴿يَسِيرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩] عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر ومن عادى الرسول وأنكر رسالته فقال: هلا يسIRON

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥١.

(٣) فتح القدير، (٣/ ٨٤-٨٥).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٣٢.

في الأرض فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة ويرون مصارع الأمم المذبذبة فيعتبرون بذلك^(١).

- ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب حتى قلوب المتجبرين ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم، وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون، يخافون ويرجون ويطعمون ويتطلبون... ثم إذا هم ساكنون لا حس ولا حركة، آثارهم خاوية، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم وديانهم الماثلة للعيان، والكامنة في الضمائر والمشاعر.

إن هذه التأملات لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن قاسياً غافلاً ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين^(٢).

٤- ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفْلاً تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]

- ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]: اللام للتأكيد، والدار محل السكن والإقامة.

- ﴿الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]: هي التالية والخاتمة لما قبلها ولا دار بعدها.

- ﴿خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]: إذ فيها حقيقة الخير وماهيته ومصدره، وهي خير من

كل خير في الدنيا لأنه أبقي وأدوم فلا يفوتك ولا تفوته ولأنه صاف من كل كدر ولأنه أعظم وأكبر.

(١) آيات للسائلين، ص ٤٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.



- ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [يوسف: ١٠٩]: اللام للإضافة، والذين اتقوا هم الذين جعلوا بينهم وبين أمر الله لهم في دار الابتلاء طاعة^(١).

٥- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

استفهام تقرير استنكاري. وتقدمت همزة الاستفهام على فاء العطف لأصالتها، ولا: نافية. والمعنى: كيف أنكم لا تعقلون ما ذكرناه آنفاً وقد أنعمنا عليكم بالعقل وميزناكم وكرمناكم به، وفي الصيغة استنكار لمن أسقط دور العقل في مثل هذه الأمور، وحث لمن كان له قلب حي أو ألقى السمع وهو شهيد، على أن يعقل أمره، ويكون ذلك بأمور:

- فكراً: فيدين بدين الحق وحده ويسقط جميع الأديان الباطلة والمعتقدات الخرافية والأفكار الخاطئة.

- وعملاً: فيقوم بالصالح النافع من الأعمال التي تنفعه في دنياه وآخرته ومعاشه وعاجل أمره وآجله.

- وخلقاً: فيتخلق بالأخلاق الحميدة.

- ووعظاً وتهديداً: لمن لم يعقل أمره ممن غفل وما وعى، أو ممن غلب على عقله الهوى.

- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]: هذه الحقائق وتغلبوا بسلطان العقل المستنير بالحق والهدى كيد الشيطان الضعيف والهوى السيئ، فمن جاهد وصبر فقد فاز وأفلح، ومن أسلم عقله للشيطان والهوى فقد خاب وخسر، ولا يلو من إلا نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]^(٢).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٥٣.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٥٤.

- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]: فتتدبروا سنن الله في الغابرين. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]: فتؤثرون المتاع الباقي على الفاني.

ثم يصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله، وتمضي فيها سنة الله التي لا تتخلف ولا تحيد^(١).

خامساً: قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَنِيحُوا مِن نَّشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]:

مهما اشتدت المحن، وطال عليها الزمن، فلا بد أن يأتي الله بعدها بالفرج، فكل آت قريب والصبح غير بعيد لقد امتدت محنة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر من عشرين سنة ثم جعل الله العاقبة الحميدة الطيبة له فلا يأس من رحمة الله تعالى، ولا قنوط، فالنصر قد يتأخر والفرج قد يتراخى والأمر منوط بمشيئته تعالى وقدرته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعجل لعجلة العباد^(٢).

١ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ [يوسف: ١١٠]:

إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل وهم يواجهون الكفر والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل وتكر الأعوام والباطل في قوته وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة، إنها ساعات حرجة والباطل يتنفس ويطعن ويطش ويغدر^(٣). ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تفضل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده يشتد الكرب

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٥).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٤١).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٦).



عليهم ويأخذ فيها الضيق بمخائق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً:

٢- ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]:

تلك سنة الله في الدعوات لا بد من الشدائد ولا بد من الكروب حتى لا يبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء النصر من عند الله فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المذنبين، وينجون من البطش الذي يلطه عليهم المتجبرون، ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمراً ماحقاً لا يصده عنهم ولي ولا نصير^(١).

قال المراغي رَحِمَهُ اللَّهُ وهذه سنة الله في الأمم يرسل إليهم الرسل بالبينات ويؤيدهم بالمعجزات، حتى إذا أعرضوا عن الهداية وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادي التكذيب وتراخي النصر، جاء نصر الله وأخذ المكذبين العذاب بغتة، كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكت عادا قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ إِبْلَيْتَ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وفي هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام

(١) المصدر نفسه، (٤/٢٠٣٦).

الرسل كما قال في سورة القمر: ﴿ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣] وقد نصر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربههم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وعن عائشة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ [يوسف: ١١٠] (مخففة) أخرجه ابن مردويه.

ونحوه عن ابن عباس قال: "يئس الرسل أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به، جاءهم نصرنا" ونحوه

- ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ أي فنجي الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم، لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها، هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ ① وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا [الشمس: ٩ - ١٠].

- ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ أي ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وكذبوا رسله، وما أتوهم به من عند ربهم.

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم ويطهروهم ويقيموا عليهم الحجة ويندروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن المهتدون، ويصر المعاندون، فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين.



ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

ثم ختم الله سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كنموذج من قصص المرسلين فيها عبرة لمن يعقل وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل^(٢).

سادساً: قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]:

حث الله عَزَّوَجَلَّ على الاعتبار والتأمل والاستبصار في القصص القرآني.

١ - ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]:

- ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ [يوسف: ١١١]: أي قصص الأنبياء عموماً وقصة يوسف خاصة^(٣).

- ﴿عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]: والعبرة: العظة والفائدة التي تنتقل من الماضي إلى الحاضر لتفعيله وترشيد المستقبل.

ولاحظ التنكير بـ ﴿عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١] ليفيد العموم لا المفرد، فهذا جنس لا فرد واحد.

والعبرة مأخوذة من عبر، ومنه العبور والعبّرات: الدموع التي تعبر من العين إلى الخد. والعبير: الذي يعبر من الزهرة أو العطر إلى الأنف. سميت العبارة هكذا،

(١) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٤٦م، (١٣/٥٥-٦٥).

(٢) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٣٧).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٤٦٢.

لأنَّه تنقل الفكرة من ذهن إلى ذهن ومن شخص إلى شخص، والعبارة تنقل الناس في البحر... إلخ

والاعتبار: أمر في غاية الأهمية ووجه ضرورته أن الحياة الإنسانية قصيرة والتجارب التي يحصلها في عمره المحدود محدودة وهو يحتاج إلى تجارب كثيرة، فكان لا بد إذا من الاستعانة بتجارب الآخرين، ونقل عبرتهم إلى واقعنا. وهذا مؤشر على أهمية مدرسة التاريخ، فليس بعقل من لا يتعلم إلا من تجربته وإن السعيد كما قالوا من اتعظ بغيره. كما يقول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عاقل من لا يعي التاريخ في صدره
ومن درى أخبار من قبله أضاف أعماراً إلى عمره.

- ﴿لَا أُؤَلِّمُ الْآلِبَابَ﴾ [يوسف: ١١١]: ولكن من يجتني هذه العبرة ويستفيد منها: إنهم أولو الألباب، أصحاب العقول النيرة والقلوب الحية، ولكن غير هؤلاء قد يشهد الآية والحادثة بنفسه ثم تضحل آثارها في تلك النفس. المهم أن الإنسان مسؤول عن نفسه أن يبقيا صالحة لتلقي موحيات الكون ودروس التاريخ^(١).

٢- ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١]:

أي: ما كان هذا القرآن الذي أنزل فيه القصص حديثاً يفترى ويختلق دون وحي؛ لأن المختلق الخيالي يعرفه الناس ويستطيعون أن يبينوا الفوارق الجوهرية العميقة بين هذا وهذا والحديث المفترى أنى يأتي بتلك التفاصيل ثم يكون مطابقاً للوقائع التاريخية^(٢).

(١) سورة يوسف، ص ٥٨٧.

(٢) سورة يوسف، ص ٥٨٧.



٣- ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١]:

أي أنه تصديق الذي بين يديه من الكتب المنزلة من السماء ومن كل الرسل المعصومين الذين أوحى الله إليهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: ٣٧]؛ فهذا القرآن الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالحق، وهو الصدق في إخباره عن الله، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر، وعن جميع الغيوب السابقة واللاحقة، العدل في أحكامه، فلا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن الشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وأيضاً؛ فإن هذا القرآن صدق بجميع ما جاءت به الرسل وهيمن عليها، واتفق منها على الأصول العظيمة، والشرائع الكبار العامة الشاملة. وأيضاً، فإن الرسل أخبروا وبشروا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصديق مخبرها وحققت بشارتها^(١).

٤- ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]:

إنه تفصيل لكل شيء، وهذا شامل بجميع ما يحتاجه التخلق في عقائدهم، وأخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفي دينهم ودنياهم فقد شرح الله به، وفصل التوحيد، والرسالة والجزاء وجميع العقائد الصادقة الصحيحة شرحاً وتفصيلاً لا يساويه في ذلك أي كتاب كان. وفصل فيه الحث على حقائق الإيمان وعلى التخلق بالأخلاق الجميلة والتنزه من الأخلاق الرذيلة، وبين الطريق والأسباب التي يحصل بها حسناتها والتي يدفع به سيئها.

(١) فوائد من قصة يوسف، ص ٩٢-٩٤.

كما فصل الشرائع الظاهرة والأعمال الصالحة، والحلال والحرام والخير والشر. وفصل فيه جميع المقاصد والغايات النافعة، الدينية والدنيوية. وفصل ما يتوصل به إليها؛ فصل فيه البراهين العقلية، كما فصل فيه البراهين السمعية.

٥- ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]:

إنَّه هدى ورحمة لقوم يؤمنون؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] أي: لكل حالة قديمة وطريقة مستقيمة، يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي لمصالح الدين كلها، ومنافع الدنيا التي بها يقوم الدين، وتتم السعادة.

والفرق بين الهدى والرحمة: أن الهدى هو الوسائل والطرق الموصلة إلى خيرات الدنيا والآخرة والرحمة من نفس الخيرات والثواب العاجل والآجل. فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة على اتباع هذا القرآن علماً وعملاً. وحض الله المؤمنين بالهدى والرحمة؛ لأنهم هم المتنفعون على الحقيقة، وبإيمانهم اهتدوا وزادهم الله هدى ورحمة؛ فهذا القرآن بصائر للناس كلهم بصّرهم بجميع ما يحتاجون إليه، فلم يبق خير إلا دلهم ولا شر إلا حذّره من، فقامت به الحجة على كل أحد ولكنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون^(١).

✦ سابعاً: جذور بني إسرائيل التاريخية:

ينتسب بنو إسرائيل إلى إسرائيل نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد ذكر القرآن الكريم ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اسمين: يعقوب، وإسرائيل.

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، السعدي، ص ٩٢-٩٤.



أما يعقوب فهو اسم أعجمي، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وكونه أعجمياً يدعونا ألا نبحث له عن معنى في العربية ولا نلتفت إلى الإسرائيليات في تعليل تسميته بـيعقوب^(١).

١ - مواضع ورود اسم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام في القرآن الكريم:

ورد ذكر (يعقوب) خمس عشرة مرة في القرآن، فقد ورد في السور المكية الآتية:

- في سورة مريم: ذكر مرتين، مرة في الإخبار عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، ومرة في دعاء زكريا عَلَيْهِ السَّلَام طالباً من ربه الولد.

- وفي سورة هود: ورد مرة في الإخبار عن بشارة سارة بإسحاق، ثم يعقوب.

- وفي سورة الأنبياء: حيث ذكر مرة في الإخبار عن بشارة إبراهيم بإسحاق ثم يعقوب.

- وفي سورة العنكبوت: ورد مرة في الإخبار عن جعل الله النبوة في ذرية إبراهيم وحفيده يعقوب.

- وفي سورة (ص) ذكر مرة في جمع الكرام الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَام.

وأما السور المدنية التي ذكر فيها، فهي:

- سورة البقرة: وذكر فيها أربع مرات، وذلك في معرض الحديث عن إسلامه ووصيته لأولاده وهو على فراش الموت بالإسلام، ودعوة ذريته إلى الدخول

(١) القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، (٢/ ٥٠).

في الإسلام والإيمان بالكتب المنزلّة، وبجميع الرسل المبعوثين، ويلزم من هذا اتباع اليهود لرسول الله محمد ﷺ، ودخولهم في دينه.

- سورة آل عمران: حيث ذكر فيها مرة واحدة في معرض دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٢- مواضع ذكر اسمه الثاني (إسرائيل) وقد ذكر في القرآن الكريم مرتين:

الأولى: في سورة آل عمران، عند الحديث عمّا حرّمه يعقوب على نفسه وما حرّمه الله على بني إسرائيل.

الثانية: في سورة مريم، عند الحديث عن شجرة النبوة المتفرعة عن إبراهيم وعن يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام^(١).

والذي حرّمه إسرائيل هن نفسه جاء في قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. وقد أنزل الله هذه الآية في مجادلة الرسول ﷺ لأهل الكتاب وبالذات اليهود بشأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وما حرّمه عن نفسه تقرباً إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وتكذب هذه الآية وما بعدها اليهود في مزاعمهم وأكاذيبهم حول يعقوب، فقد دوّن أحبار اليهود في سفر التكوين في العهد القديم الأخبار، ونسجوا الأكاذيب حول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، زعموا فيها أن يعقوب قد صارع الرب ليلاً وأنه قد صرعه عدداً من المرات، وأن الرب المصروع المغلوب باركه وبارك نبيه

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥١).



وجعل الأرض المقدسة لهم إلى قيام الساعة^(١). وهذه من الأكاذيب والافتراءات في حق الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حق نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام.

إن الآية الكريمة: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، تنص على الاسم الثاني ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، فيعقوب هو إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَام، وأولاده وذريته هم (بنو إسرائيل) وكان إسرائيل موجوداً قبل إنزال التوراة؛ لأن الله أنزل التوراة على نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وإسرائيل وجد قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَام بعشرات السنين، وبما أن إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَام نبي، فإن ما التزم به قد أصبح شرعاً ملزماً له، وقد ألزم الله به ذريته وأبناءه وجعله تشريعاً لهم.

ويخبرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح أن أحب الطعام لإسرائيل عَلَيْهِ السَّلَام كان لحوم الإبل، فلما مرض يوماً مرضاً شديداً بعرق النساء واشتد به سقمه وطال مرضه، نذر نذراً لله، لئن شفاه الله وعافاه، ليتقربن إلى الله بترك أحب الطعام إليه، والامتناع عن أكله^(٢).

وبما أن أحب الطعام إليه هو لحوم الإبل، فقد وفى بنذره، بعدما شفاه الله، وامتنع عن تناول لحوم الإبل شكراً لله الذي عافاه من مرضه. وهذا تناسق لطيف مع الآية السابقة من سورة آل عمران التي تدعونا إلى التصديق بأحب شيء إلينا، لننال البر والأجر عند الله^(٣).

(١) موسى عَلَيْهِ السَّلَام كلم الله، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢، ص ٣٥.

(٢) القصص القرآني، (١٥٨/٢).

(٣) موسى عَلَيْهِ السَّلَام كلم الله، ص ٣٦.

قال تعالى: ﴿لَنْ نَأْتِيَكَ بِشَيْءٍ تَنْفِقُوا مِنْهُ مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢) [آل عمران: ٩٢]:

فإذا كان المسلم الصالح لا ينال البر حتى ينفق في سبيل الله أحب شيء إليه، تقربا إلى الله، وبما أن أحب شيء إلى نبي الله إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو لحوم الإبل فقد امتنع عنها وتقرب بذلك الامتناع إلى الله، وجعله في سبيل الله لينال البر عند الله، ويحظى بالدرجات الرفيعة.

وقد ألزم الله بعد ذلك أبناء إسرائيل بما امتنع عنه أبوهما عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصار هذا تشريعاً من تشريعاتهم، وحرّم عليهم بذلك أكل لحوم الإبل^(١).

٣- شجرة النبوة الإبراهيمية:

تبين آيات القرآن الكريم: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء وأبو هذه الأمة وأن شجرة النبوة منه، وأن الأنبياء المذكورين بعده في القرآن، والمبعوثين، بعد زمانه، وهم من نسله وذريته^(٢).

وهذا السياق ورد اسم إسرائيل - يعقوب - للمرة الثانية في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

ذكرت الآية أربعة أنبياء: آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وإسرائيل. ذكر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره أبا البشر، وذكر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره أبا البشرية الثاني، بعد الطوفان.

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٩).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٥٩).



وذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن النبوة انتهت إليه وشجرة النبوة استقرت عنده. وقد تفرع من شجرة النبوة فرعان:

أ. الفرع الإسماعيلي: المتمثل في إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهذا الفرع ختم بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سيد ولد آدم، بل أفضل المخلوقين جميعاً وأحبهم إلى الله.

ب. الفرع الإسرائيلي: المتمثل بإسرائيل حفيد إبراهيم عليهما السَّلَامُ وهو أبو بني إسرائيل وأصل أسباطهم وكل أنبيائهم من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن مريم من ذرية يعقوب من جهة الأم؛ لأنه لا أب له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولهذا الاعتبار ورد ذكر إسرائيل معطوفاً على إبراهيم عليهما السَّلَامُ في الآية: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ﴾ [مريم: ٥٨]. وقد صرح القرآن بأن الله جعل النبوة من ذرية كل من إبراهيم ويعقوب عليهما السَّلَامُ. قال تعالى: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَجِئٍ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦ - ٢٧].

فالله وهب لإبراهيم كلا من إسحاق ويعقوب عليهما السَّلَامُ وكان ذلك بعد أن هاجر إلى الله، وغادر العراق إلى الأرض المقدسة^(١).

٤ - أنبياء الفرع الإسرائيلي:

جعل الله النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم وحفيد يعقوب عليهما السَّلَامُ، والراجح أن ضمير التثنية في قوله: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ [الحديد: ٢٦] يعود على إبراهيم ويعقوب،

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦٠).



ووجه الترجيح في ذلك ما سبق أن قررناه من تفرع فرعي النبوة من الشجرة الإبراهيمية: الفرع الإسماعيلي، والفرع الإسرائيلي.

لقد استمرت النبوة في الفرع الإسرائيلي عدداً من القرون حيث بعث الله أنبياء كثير إلى بني إسرائيل، وأولهم نبي الله إسرائيل نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي كان نبياً لأبنائه، ثم ابنه نبي الله يوسف، ثم الأنبياء الآخرون من بني إسرائيل، مثل موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وآخرهم هو عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

٥- ختم النبوة بالفرع الإسماعيلي:

ختم الله النبوة في الفرع الإسرائيلي بعيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، الذي خلقه الله خلقاً معجزاً، دون أب وأظهر على يديه كثيراً من المعجزات.

وشاء الله أن يختم النبوة كلها بنبي من الفرع الإسماعيلي وهو أفضل الخلق جميعاً محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

٦- بداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب:

يبدأ تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصلتهم بإبراهيم كصلتهم بإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أليس إسماعيل عماً ليعقوب؟ أليس هو شقيق أبيه إسحاق؟ فلماذا لا يجعلون تاريخه تاريخاً لهم مع أنه عم لأبيهم؟

لو كانوا (بنو إبراهيم) لبدأ تاريخهم من تاريخ إبراهيم ولو كانوا بني إسحاق لبدأ تاريخهم من تاريخ إسحاق، ولأنهم (بنو إسرائيل) أي: بنو يعقوب، فإن

(١) القصص القرآني، (٦١/٢).



تاريخهم يبدأ من تاريخ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، ولهم أن يتوقفوا عند حياته وحياة أبنائه الاثنا عشر، وأن يعتبروا ذلك بداية لوجودهم وحياتهم وتاريخهم، هذا لمن يثبت أصله ونسبه ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

٧- من هم الأسباط؟

وردت كلمة أسباط في القرآن الكريم خمس مرات: أربعة منها في سياق تعدد أسماء بعض الأنبياء ونصت هذه الآيات على وجوب الإيمان بمن سمتهم الأسباط وهم أنبياء كرام من بني إسرائيل ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

- كما وردت كلمة الأسباط في سورة آل عمران، وفي السياق نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

- كما وردت كلمة الأسباط في سورة النساء في السياق نفسه أيضاً: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

(١) المصدر نفسه، (٦٣/٢).

إن الأسباط المذكورون في هذه الآيات الأربعة كلها في إطار ذكر الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا الذكر جعل الكثيرين يعدّون الأسباط أبناء يعقوب الاثني عشر، فهل هذا صحيح؟ وهل إخوة يوسف أنبياء؟ إن الذي يعدون إخوة يوسف أنبياء يجعلون معنى الأسباط: الأبناء. فهم أسباط يعقوب، أي أبنائه، وهم أبناء من صلبه، فهل يصح أن نطلق في اللغة على الأبناء أسباطاً؟

قال الإمام الراغب في معنى (السبط): أصل السبط انبساط في سهولة. والسبط: ولد كأنه امتداد الفروع. وقوله تعالى: ﴿الأسباط﴾ أي: قبائل كل قبيلة من نسل رجل^(١).

وقال السمين الحلبي: الأسباط جمع سبط، وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب. وقال الأزهري: الأسباط في ولد إسحاق، والقبائل في ولد إسماعيل، فعلوا ذلك تفرقة بين الأولاد الأخوين، أعني إسحاق وإسماعيل. واشتقاق السبط في الامتداد والتفرع، لأن السبط ولد الولد، فكأنما النسب امتد وانبسط وتفرع. وقيل: اشتقاق الأسباط من السبط، وهو الشجرة التي أصلها واحد، وأعضاؤها كثيرة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فترجم الأسباط بالأمم، فكل سبط أمة، وفي الحديث: الحسن والحسين سبطا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال المبرد: سألت ابن الأعرابي عن الأسباط، فقال: هم خاصة الولد أي: هم أولاد الولد. إذن السبط في اللغة: هو الشيء المنبسط الممتد المتفرع عن الأصل، وهو يطلق على ولد الولد وليس الولد،

(١) مفردات غريب القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ص ٣٩٤.



ومعلوم عندنا أن الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هما سبطا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهما ابنان لابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وإن الأسباط المذكورين في القرآن ليسوا أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، بل ذريته المتفرعة من أبنائه^(١).

٨- أسباط بني إسرائيل هم قبائلهم:

والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، فهم بمعنى الأمم، كما ورد في صريح القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

- ﴿أُمَّمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] في الآية منصوبة، لأنها بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] أي: قطعنا بني إسرائيل اثني عشرة أمة، ولهذا فجر الله لهم الحجر اثني عشرة عينًا على عدد قبائلهم وأسباطهم، وإذا كانت (الأسباط) بمعنى قبائل بني إسرائيل، فإن الأسباط ليسوا أنبياء وإنما ذكرهم الله ضمن مجموعة من الأنبياء على تقدير حذف مضاف. والتقدير: أنبياء أسباط بني إسرائيل، أي: آمنّا بما أنزل على الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأن الله أخبرنا بأسمائهم أنهم أنبياء، وآمن بالأنبياء الآخرين الذي بعثهم الله إلى أسباط وقبائل بني إسرائيل، ولم يخبرنا الله عن أسمائهم.

لقد بعث الله إلى أسباط بني إسرائيل أنبياء كثيرين ولم يخبرنا إلا عن أسماء قليل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

٩- الراجع عدم نبوة إخوة يوسف:

رأى بعض المفسرين أن المراد، بالأسباط في الآيات الأربع الأولى إخوة يوسف الأحد عشر، فبعد أن تابوا عن ذنوبهم واعتذروا إلى أخيه يوسف عن

(١) موسى عَلَيْهِ السَّلَام كلم الله عدو المستكبرين وقائد المستضعفين، ص ٤١.

فعلتهم الشنيعة به، وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ﴾ [يوسف: ٩٢]، وبعد أن استغفر لهم أبوهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنعم عليهم بالنبوة جميعاً ونالوا هذه الدرجة لذا فهم المعنيون بكلمة الأسباط. وهذا الرأي يفتقر إلى الأدلة القوية الصحيحة التي تؤيده وتقرره، بل إن هناك أدلة قوية ترده وتدحضه، وأسوق هنا بعضها:

- إن كلمة أسباط لا تطلق على الولد، بل على ولد الولد فما دون، قال صاحب كتاب الدر المصون: الأسباط جمع سبط، وهم في ولد يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل، واشتقاقهم من السبط، وهو التابع، سموا بذلك لأنهم أمة متتابعون. وقيل للحسنين: سبطا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لانشار ذريتهم. وقال عن ذرية إسرائيل: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

- لم يذكر مؤمن آل فرعون من الأنبياء الذين دعوا المصريين إلى التوحيد غير يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال للمصريين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَا زَلَّمْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، ولم يقل جاءكم يوسف وإخوته.

إن إخوة يوسف قد هموا بقتله وطرحوا في غيابة الجب، وهذا عمل لا يفعله من يُعد لدرجة النبوة.

- إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم وبعد سنين طويلة من فعلتهم به: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧].

- إن كلمة أسباط لم تطلق على ذرية يعقوب، إلا في سيناء بعد الخروج ولم تطلق عليهم أبداً في مصر طيلة ما يزيد عن مائتي سنة، وهذا يفيد أن معنى كلمة الأسباط هو القبائل التي تكونت من أبناء وذرية كل من أولاد يعقوب، لا أسماء آبائهم^(١).

(١) كلام اليهود مجموعة مقالات في اليهود، محمد علي دولة، دار القلم، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ٢٤٥.



إن الذي أراه - وهو ما صح عندي - أن كلمة (الأسباط) التي وردت في القرآن الكريم في سياق تعداد بعض الأنبياء الكرام، إنما تعني الأنبياء الذين بعثوا من ذرية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام طيلة تاريخ بني إسرائيل في فلسطين وليس المراد بهذا اللفظ أولاد يعقوب الأحد عشر كما يرى بعض المفسرين^(١).

وكل ما تقوله عن إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: كانوا في أفعالهم الخاطئة التي سجلتها لهم آيات سورة يوسف عصاة مخطئين ارتكبوا تلك الذنوب والآثام، وبعد ذلك شعروا بتأنيب الضمير، فتابوا إلى الله وأنابوا له، واستغفروا من ذنوبهم، بل طلبوا من أخيه يوسف أن يستغفر الله لهم، كما طلبوا هذا من أبيهم، وبعد ذلك تابوا وأنابوا، واستقاموا وأصلحوا، فأقصى ما وصلوا إليه أن يكونوا مؤمنين صالحين، وعابدين محسنين وهذا ختموا حياتهم^(٢).

١٠ - حياة بني إسرائيل في مصر:

بدأت قصة بني إسرائيل في مصر بعد مجيء يوسف عَلَيْهِ السَّلَام إليها ودعوة والده وإخوته للمقام فيها بعدما تمكن من الحكم وأصبح الرجل الثاني فيها. وقصت علينا سورة يوسف الأحداث العجيبة والمثيرة التي جرت ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام منذ أن كان طفلاً صغيراً يكرهه إخوته الكبار ويغارون منه إلى أن صار رجلاً عظيماً محفوفاً برعاية الله وكرمه^(٣).

تفضل الله عليه، فنجاه من المكائد المتتابعة التي لحقته، وعلمه من تأويل الأحاديث ما ارتفع به شأنه بين الناس وآتاه من الملك في أرض مصر، وكان من

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢٥٤).

(٣) موسى كليم الله، ص ٦٣.

أجل نعم الله عليه أن اجتباه نبياً ورسولاً وأتم نعمته عليه، كما أتمها على آبائه الكرام: يعقوب وإسحاق وإبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

تولى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الوزارة في مصر وساس تمويل البلاد في مجاعة شملت مصر وأرض كنعان ووضع لذلك خطته البارعة التي ذكرها القرآن الكريم وأثنى عليها، فأنقذ البلاد من تهلكة كانت معرضة لها لا محالة. وخلال تلك الأزمنة دخل إخوته يلتمسون منه قوتاً لأهليهم وتكرر دخولهم عليه، وهو يعرفهم وهم لا يعرفونه حتى كشف لهم عن نفسه - وقد مر معنا تفاصيل ذلك - ثم طلب من إخوته الإتيان بجميع آل يعقوب إلى مصر.

وقد هاجر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من الأبناء وزوجاتهم والأحفاد إلى مصر بدعوة من يوسف وذلك في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وكان عمر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مئة وثلاثين سنة، وقد استقبله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استقبالاً حافلاً ثم استقبله ملك مصر وكان من الهكسوس، ورحب الملك بوالد يوسف وإخوته أجمل ترحيب وقال ليوسف: أبوك وإخوتك قد قدموا إليك فهذه أرض مصر أمامك، فأقم أباك وإخوتك في أجود أرضها^(١).

١١ - وصية يعقوب لبنيه حين حضره الموت:

عاش يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في أرض مصر معزلاً مكرماً سبع عشرة سنة حتى صار مجموع عمره مئة وسبعاً وأربعين سنة كما تذكر بعض كتب التاريخ، ثم حضرته الوفاة وكان قد أوصى أبناءه بهذه الوصية التي أخبر القرآن الكريم عنها في اللحظات الأخيرة من حياته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت في مصر، وبين أولاده، قال تعالى:

(١) ينو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، دار القلم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ٢٢٧.



﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنِّي بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٣].

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي الكريم داعية إلى الله في كل لحظات حياته الأخيرة وإن يعقوب النبي الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يوصي أولاده بالإسلام وعبادة الله، وقد جمعهم عندما حضره الموت ليذكرهم بهذا الحقيقة ويوصيهم أن يلتزموها، ويأخذ عليهم العهد ألا يخالفوها، وهذا ما يهم الناظر في التاريخ أن يعرفه وما يمكن أن يستفيد منه من حياة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

وصى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاده وهو يحتضر بعبادة إلهه وإله آبائه: إسحاق وإسماعيل وإبراهيم، فهو أوصاهم بالإيمان بالله وحده، والابتعاد عن عبادة غيره سبحانه، وهذا هو قوام الدين المستقيم؛ وهذه الوصية هي آخر كلامه الذي ختم به حياته، وكانت وصيته هي وصية الأنبياء والمرسلين جميعاً من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأبنائهم وأهلهم وأقوامهم، فجميعهم صلوات الله وسلامه عليهم عاشوا وماتوا وهم يدعو إلى عبادة الله وحده والتمسك بدينه والابتعاد عن الشرك والمعاصي والآثام ويعقوب عاش ومات وهو يخاطب قومه وأمتة مثلما خاطب محمد خاتم المرسلين أمتة والناس: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

(١) الشخصية اليهودية، د. صلاح الدين الخالدي، دار القلم سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ٦٣.



إنَّ دين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هو دين الإسلام، وهو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً، فكل نبي جاء بالإسلام، وطلب من قومه الدخول فيه، وإحسان العبادة لله عَزَّجَلَّ والإسلام دين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ودين كل رسول، وليس هو الإسلام بالمعنى الخاص الذي يطلق على دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي نسخ الله به الرسالات والشرائع وهو الخضوع والاستسلام لله بإخضاع الآخرين وتعبيدهم لله^(١).

لقد غادر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الحياة وهو مطمئن على بنيهِ، بعد إجابتهم على سؤاله الذي شغل باله وهو على فراش الموت، يا أبنائي، ما تعبدون من بعدي؟ وأي دين تلتزمون من بعدي؟

فكانت الإجابة: نعبد رب العالمين وحده، فهو ربنا وخالقنا وإلهانا؛ لأن إلهك وإله الأنبياء من قبل: جدك إبراهيم وعمك إسماعيل، ووالدكم إسحاق. إنه إله واحد لا شريك له، ونحن مسلمون لله، خاضعون لله، داخلون في دين الله، ملتزمون بطاعة الله: ﴿وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ولقد جاءت هذه الآيات في بيان حقيقة دين إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في معرض نقاش اليهود والنصارى ونفى صلتهم بإبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

والخطاب في الآية: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ...﴾ [البقرة: ١٣٣]، لهؤلاء اليهود والنصارى، يقول الله لهم: لماذا تزعمون أن يعقوب كان يهودياً أو نصرانياً؟ وهل كنتم حاضرين وشاهدين وسامعين آخر كلام قاله يعقوب قبل أن يموت؟

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦٩).



إنكم لم تكونوا معه هناك؛ لأنكم لم تكونوا مولودين يومها، فقد أوصى بنيه بالإسلام ديناً، وقد قبل الأبناء وصية الأب وقالوا: نعبد الله وحده إلهاً واحداً ونحن له مسلمون^(١).

١٢ - وفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام:

عاش بنو إسرائيل في مصر محفوفين بالكرمة، وصنوف الامتيازات، وطاب العيش لهم في أرض الكنانة، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، يحظى باحترام كبير في مصر، وذكر الله لنا في كتابه العزيز دعاء ختامياً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يتהל إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه وأن يلحقه بالصالحين بين يديه^(٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى وفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام على لسان مؤمن آل فرعون، عندما خاطب قومه ودعاهم إلى التوحيد فجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

عاش نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَام في مصر داعياً إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بالعبادة في سجنه وفي قصره ووظف منصبه الكبير توظيفاً دعوياً، وقدم الآيات البينات على نبوته، والبراهين على دعوته فأمن به من هداه الله إلا قليلاً من الناس:

(١) القصص القرآني، ص (٢ / ٧٠).

(٢) موسى كلم الله، ص ٦٩.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ [غافر: ٣٤]، وعبر المصريون عن معارضتهم لدعوة يوسف بعد وفاته، فما أن توفي عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى قالوا: لن يبعث الله لنا من بعده رسولاً، وكأنهم ارتاحوا لأنهم تخلصوا منه ومن دعوته^(١).

ولعل القرآن الكريم عبر عن موت يوسف بالهلاك لأجل عدم استجابة أهل لدعوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَم.

ولا نتحدث النصوص القرآنية والحديثية عن بني إسرائيل بعد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا تشير إلى ما جرى لهم في هذه الفترة حتى قرب عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا تبين كم بقي بنو إسرائيل في مصر في تكريم وإعزاز، ولا تحدد الفترة التي بدأ فيها اضطهاد الفراعنة لهم وتعذيبهم^(٢).

وإن كان القرآن الكريم قد بيّن سبب هذا التعذيب، وهو العلو والاستنكار الفرعوني. ونختم كلامنا عن وفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بما قاله الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء والمعراج؛ حيث روى البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال في حديث المعراج الطويل: «فأتينا السماء الثالثة، قيل: من هذا؟ قيل: هذا جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت يوسف، فسلمت عليه فقال مرحباً بك من أخ ونبي».

لقد وضع الله عَزَّجَلَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الثالثة لاستقبال محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عروجه إلى السماوات العلا، وأما قبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأرض مبهم غير محدد، وجسمه فيه لا يبلى، لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء^(٣).

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٥).

(٢) الشخصية اليهودية لليهودي، ص ٦٦.

(٣) القصص القرآني، (٢/ ٢٥٦).



بقي جثمان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مصر، وتذكر بعض كتب التاريخ بأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل يرعى إخوته وينظر في شؤونهم حتى دنا أجله، فأوصاهم بما وصى به يعقوب بنيه، كما أوصى بنقل جثمانه الطاهر معهم إذا عادوا إلى كنعان، وذلك ليدفن مع آبائه هناك (صلوات الله وسلامه عليهم).

واختلفت الروايات في تقدير عمره عَلَيْهِ السَّلَامُ ما بين ١١٠ - ١٢٠ عاماً، فتكون مدة حياته في مصر بعد وفاة والده يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ما بين ٦٠ - ٧٠ عاماً، ولما توفي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإخوته بأرض مصر بقي أعقابهم وكثروا فيها حتى زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فخرج بهم إلى سيناء ونجاهم الله من فرعون وجنده الذي أغرقوا فأدخلوا ناراً^(١). وقد فصلت الحديث عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبني إسرائيل في زمنه في كتابي: "موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلم الله عدو المستكبرين وقائد المستضعفين". وقد أخرج جثمان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على يد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمن حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبي أعرابيان. أخذ علينا ميثاقاً من الله ألا نخرج من مصر^(٢).

❖ ثامناً: حقيقة النبوة وأمور تفرد بها الأنبياء:

إنَّ النبوة واسطة بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه وسفارة بين الملك وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم تَبَارَكَ وَتَعَالَى بخلقه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الآخر، فهي نعمة مهداة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى

(١) القصص القرآني، (٢/٢٥٦).

(٢) حديث طويل أخرجه الحاكم، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين حدثنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ إملاء في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربع مائة: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، وذكر مناقبهم وأخبارهم مع الأمم على لسان سيدنا المصطفى صلى الله عليه ذكر يوسف بن يعقوب صلوات الله عليهما، ح رقم ٤٠٨٨.

إلى عبده. وفضل إلهي يتفضل به عليهم، وهذا في حق المرسل إليهم. وأما في حق المرسل نفسه، فهي امتنان من الله يمن بها عليه واصطفاء من الرب له من بين سائر الناس وهبة ربانية يختصه الله بها من بين الخلق كلهم. ولا تنال النبوة بعلم ولا رياضة ولا تدرك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس كما يظن من في عقله بلادة، وإنما هي محض فضل إلهي واصطفاء رباني، فهو جَلَّ وَعَلَا كما أخبر عن نفسه: ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فالنبوة لا تأتي باختيار النبي ولا تنال بطلبه، ولذلك لما قال المشركون: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فأجابهم الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ فالله تعالى هو الذي يقسم ذلك ويتفضل به على من يشاء من الناس ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه، ما كانت الخيرة لأحد غيره، وما كان الاجتباء لأحد سواه^(١).

وإن الإيمان بالنبوة هو الطريق الموصول إلى معرفة الله ومحبهه والمسلك المفضي إلى رضوان الله وحبته والسبيل المؤدي إلى النجاة من عذاب الله والفوز بمغفرته^(٢). إذ يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب^(٣).

وإن حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوة أشد من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنفسونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه؛ إذ من فقد

(١) كتاب النبوات، ابن تيمية، (١/ ٢٠).

(٢) كتاب النبوات، (١/ ٣٣٧).

(٣) المصدر السابق، (١/ ٤٤٧).



أحد هؤلاء خسر الدنيا، أمّا من عدم الإقرار بالنبوة ف خسارته أشد وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة - عياداً بالله تعالى - ولا شك أن معرفة الله، والإيمان به وعبادته، ومعرفة رسوله وطاعته يحتاجه كل مخلوق مكلف، ومن حكمة الله تعالى أنه كلما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنه جَلَّوَعَلَا يجعله سهلاً ميسراً غير ذي عوج^(١).

ولحاجة الناس إلى معرفة النبوة، والإقرار بالرسول، فقد وضّحها المولى عَزَّوَجَلَّ في كتابه توضيحاً أعظم من أن يشرح في هذا المقال، إذ الشرح يطول، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فتقرير النبوات من القرآن الكريم أعظم من أن يشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كل خير وجماع كل هدى.

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي الكريم قام بواجب النبوة وتبليغ الرسالة على نهج إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من صفوة الخلق الذين أكرمهم الله بالنبوة، وقام بدعوة التوحيد، وإفراد العبادة خير قيام، ونفع الله به الناس في عصره على مستويات عدّة في العقائد والأخلاق والاقتصاد وإدارة الأزمات. وكان قدوة مميزة كمّله الله بالأخلاق الفاضلة وعصمه من الشبهات والشهوات النازلة وساهم في تطهير النفوس وتركيتها وتطهيرها من كل ما يضرها. وظهر أثره على كل من احتك به، من امرأة العزيز وصاحبيه في السجن والملك وإخوته... إلخ.

ومن الأمور التي تميز بها الأنبياء:

١ - الوحي.

(١) درء تعارض العقل والنقل، (٩/٦٦).

٢- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

٣- الأنبياء لا يورثون.

٤- تخييرهم عند الموت.

٥- لا تأكل الأرض أجسادهم.

٦- العصمة.

وقد ذكرت تفاصيل ذلك بالأدلة وقضايا تتعلق بهذا الموضوع كالفرق بين النبي والرسول والنبوة والرسالة، وحقيقة النبوة والحكمة من بعث الرسل، ووظائف الأنبياء والمرسلين، وأهمية الإيمان بالأنبياء والمرسلين، وأولى العزم منهم في كتبي: (نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية) و (إبراهيم خليل الله) و (موسى كليم الله) فمن أراد التوسع فليرجع إليها^(١).

✧ تاسعاً: أهم صفات وأخلاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

بينت قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الكثير من صفاته وأخلاقه في ثنايا القصة، والتي ذكرتها في محلها في هذا الكتاب، فقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات عظيمة وأخلاق كريمة منها الإخلاص والعلم والحكمة والإحسان والعفة والصبر والفطنة والحلم وكظم الغيظ والحفظ والأمانة؛ والتواضع والكرم والشجاعة والعدل والوفاء، والفصاحة وغير ذلك من الصفات التي ذكرتها في شرحي للآيات المتعلقة بقصته العجيبة.

وقد ذكر القاسمي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره ما قاله علماء الأخلاق والحكماء في مقدمة رائعة وتأسيس حكمة ورؤية نافذة في صفات المصلحين والراشدين وفي

(١) نوح والطوفان العظيم، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، ص ٧٥ إلى ٩٨.



أخلاقهم المعهودة ثم قال: وسيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذة عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة، هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة، لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبهها للمتعلمين - العاشقين للفضائل - على نفائس الكتاب العظيم، وليعلموا أن تلك القصص قد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب.

أهم شروط الحكام في رئيس المدينة الفاضلة:

- ١- العفة عن الشهوات، ليسقط نفسه وتتوافر قوته النفسية: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].
- ٢- الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].
- ٣- وضع اللين في موضعه والشدّة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْعَامِكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩].
- ٤- ثقته بنفسه: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].
- ٥- قوة الذاكرة ليتمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].
- ٦- جودة الصورة والقوة المخيلة، حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

٧- استعداده للعلم وحبه له وتمكنه منه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

٨- شففته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخطب الفتيين المسجونين بالتواضع، فقال: ﴿يَصْنَعِي السَّجْنَ﴾ [يوسف: ٣٩] وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما فالأول، بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]. وشهدا له بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

٩- العفو مع المقدرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

١٠- إكرام العشيرة: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

١١- قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

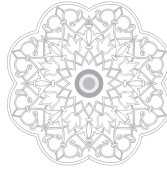
١٢- حسن التدبير: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، ثم تأمل في اقتدار يوسف عَلَيْهِ السَّلَام على سياسة الملك وكيف جذب إليه القلوب بالإحسان، وقال: ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع، والالتمام بالسرقة ليضم أخاه إليه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعاداتهم،



كما عليه جميع الأمم الشريفة الحية، من الرفق بالآمة المحكومة لهم، فيسوسونهم بدينهم وعاداتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء، مما يناسب حكم سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، وذلك أنه أمر اتباعه أن يسألوهم: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]، فكانت شريعة النبي يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع، فعاملهم بما هو عليه ولذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم. وهذه - وإن كانت مسألة بسيطة في الظاهر - هي أم السياسة ورأس علوم العمران وأول ما يوصي به السواس والعقلاء^(١). وهذه بعض الصفات والأخلاق الكريمة التي لخصتها من عالم التفسير رَحِمَهُ اللَّهُ جمال الدين القاسمي.



(١) محاسن التأويل، (٩/٣٠٢-٣١٤).



الخلاصة

بعد الانتهاء من عرض قصة النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من بدايتها إلى نهايتها كما جاءت في كتاب الله العزيز، وبعد الوقوف على أهم التفاسير والمصادر التي تناولت دراسة وتفسير سورة يوسف، ووقفت على أهم دروسها وعبرها وفوائدها، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

١. قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هي القصة الوحيدة التي جاءت في مكان واحد (سورة يوسف)، ولم تتكرر في مواضع أخرى. ولو قارنتها مع قصة موسى كليم الله أو قصة إبراهيم خليل الرحمن أو غيرها لوجدت أن تلك القصص تحتل التوزيع والتقطيع على مشاهد متعددة؛ لأن كل مشهد هو وحدة كاملة مثل موسى والخضر، وإبراهيم وحواره مع عبدة النجوم والكواكب إلخ.

٢. سورة يوسف إحدى السور المكيّة التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر، وفي السجن، ومن تأمر النسوة، حتى نجّاه الله من ذلك الضيق.

٣. سورة يوسف هي السورة الكريمة التي أنزلها الله بأسلوب فذّ وبديع في ألفاظها ومعانيها، وتعابيرها وأدائها، بل إنها تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري برقّتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن



كانت من السور المكية التي تحمل في الغالب طابع الإنذار، إلا إنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جوّ الأنس والرحمة والرأفة والحنان، وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها».

٤. اجتمع ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من عراقة النسب الشيء العظيم؛ الكرام أبناء الكرام، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

٥. ذكر اسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم في (٢٦) آية، ومنها (٢٤) آية في سورة يوسف، وآية واحدة في سورة الأنعام، وآية واحدة في سورة غافر.

٦. معنى (يوسف) عَلَم لا يحتاج إلى تعريف؛ لأنه علامة تدلّ على الطريق، وهو معلّم للخير، ويدلّ على الصّراط المستقيم، إمام وقدوة، ومعلم، ومنذر يُستدل به، فهو عنوان قائم للناس على مرّ الزمن.

٧. يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام فهو من أشرف الناس نسباً وذلك أنه نبي وأبوه نبي وجده نبي وجد أبيه نبي، فهو من سلالة أنبياء.

٨. افتتح الله تعالى سورة يوسف بالحروف المقطعة، وفي هذا دلالة إعجازية لمعاني ومدلولات الذكر الحكيم، وهذا هو الواقع في تسع وعشرون سورة ذُكرت في أولها الحروف المقطعة؛ ﴿الر﴾ [يوسف: ١]: تشير إلى التحدي، وبأن القرآن الكريم مكون من الحروف التي يتكلم بها العرب، لكنه معجز، فهو من جنس كلامهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله؛ لأنه فوق طاقتهم. وستبقى حقيقة معنى هذه الأحرف المقطعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



٩. هزّت سورة يوسف المشاعر والعواطف وحرّكت الضمائر، إذ تجول بنا في عالم الحياة الإنسانيّة بحوادثها ووقائعها ومشاعرها وعواطفها وأفكارها وعقائدها. وإنّ الله سبحانه وتعالى يقصُّ فيها مسيرة حياة الإنسان؛ إنّها قطعة من الحياة بعروقتها النابضة، ومشاعرها المتأججة، ونوازع الخير والشرّ فيها.

١٠. تعرضت قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للتشويه من قبل الروايات الإسرائيلية والتي أوردتها بعض المفسرين والرواة الذين تأثروا بالأساطير الملفقة والموضوعة والمدسوسة والخطيرة المناقضة للشرع في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. وما نسب له في الهم وروايات البرهان الذي رآه فقد كانت اعتداء صارخاً على عصمته عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولقد كان العلامة الرّازي في تفسيره من خير المدافعين عن النّبّي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ دفع عنه هذه التهمة الظالمة التي لا تليق بكمال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى واصطفاهم ليكونوا الأسوة الحسنة للناس.

١١. قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تخط في الحوادث، وتبلغ الغايات المقدرة، وإنّها تفتح أمامنا أفق اليقين المطلق بالقضاء والقدر لنجعل إرادتنا من إرادة الله، منفذة لقضائه، منسجمة مع غايات قدره التي هي الخير المحض؛ فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفائل بالمستقبل.

١٢. إنّ سورة يوسف، تكشف لنا النقاب عن سرّ الإرادة والقدر، وعن العناية الإلهية التي تخفى، إلّا على من آتاه الله حسّاً مرهفاً وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون، وأسبابها الظاهرة، وعواطف الإنسان، ومقرراته وتصميماته. وذلك ما أبصره يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من أوّل القصّة، فأنكشفت له الحقيقة الكبرى فصبر وآمن وترقّب لطف الأقدار وصنيع العناية.

١٣. تشابه قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخوته مع قصة النبي مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته لقومه (قريش) في مكة، فإذا كان إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تآمروا عليه، وفكروا في قتله وإبعاده وإخراجه، وقالوا: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩]، فإن هذه القصة كان تشبيهاً لفؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم تآمروا عليه في دار الندوة، وقرروا حبسه أو قتله أو إخراجه من مكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فظروف الغدر والتآمر التي مرَّ بها يوسف مرَّ بها رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه.

١٤. لقد نزلت سورة يوسف في فترة الحزن على وفاة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ووفاة أبي طالب (عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الذي كان يحميه، وهي فترة اشتدَّ فيها أذى المشركين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واجترأوا عليه لوفاة عمه، ولغياب الزوجة الصالحة التي كانت تسليه وتواسيه، فكان بحاجة إلى تسلية تخفف عنه ما تلقاه من الأذى وما يُعانيه من الحزن. ولذلك قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في آخرها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

١٥. ذكرت قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعظمها في سورة يوسف، والقصة القرآنية من خصائصها أنها ربانيّة المصدر، موحى بها من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي لا يعترها ما يعترى القصص البشرية من نقصٍ وتحريف، وقد حفظها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بحفظه لكتابه، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهي جزء من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.



١٦. إن القصة القرآنية لا تحلّق بالإنسان في عالم المثاليات التي لا وجود لها في عالم الواقع، بل تخاطبه على أنّه بشر له طاقة محدّدة لا يمكن أن يتجاوزها، فهي قصّة واقعية لا تخرج عن حياة البشر، ولكن هذه الواقعية رغم عدم إنكارها لحالات الهبوط، وواقعيّتها، إلّا أنّها لا تمجّدها وتسلّط الأضواء عليها، كم تفعل بعض القصص البشريّة. فهي قصّة شاملة لجميع نواحي الحياة، وجميع جوانب الإنسان المختلفة تصوّر الواقعة أدقّ تصوير بعيداً عن الإسفاف والمبالغة.

١٧. إن للقصص القرآني غرضاً تربوياً عالياً، ألا وهو العبرة والعظة في الأحداث والأشخاص، فمن أساء منهم ومن أحسن أمام دواعي الخير والشرّ، وذلك أنّ القصة القرآنية تُربي الأفراد والمجتمعات على أفراد العبوديّة لله رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وعدم الشرك به، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتُربي الأجيال على التّحلي بالأخلاق الفاضلة، والبعد عن رذائلها وذميمةها.

١٨. إنّ القرآن الكريم كتاب مبين واضح جليّ لأنّه نزل بلغة العرب، وهي أفصح اللغات وأكثرها بياناً، وأكثرها تأدية للمعاني، وهذا يُفند مزاعم القائلين بعجز اللغة العربيّة عن مسايرة ركب التطوّر العلمي في العصر الحاضر، وهي أكذوبة كبيرة وفريّة عظيمة على اللغة العربيّة، روجها أعداء الإسلام من المستشرقين، وأخذ بها - مع الأسف - كثير من المثقّفين العرب، فعزلوا لغتهم العربيّة عن مجالات الدّراسة والتدريس في معظم الجامعات والكليّات العلميّة وغفلوا عن حقيقة هامّة، هي أنّ اللغة العربيّة كانت لغة الحضارة الإسلاميّة، التي ضمّت تحت أجنحتها مختلف الثقافات والعلوم التي كانت سائدة في العالم، الحضارة التي خلّفت أكبر تراث علميّ وحضاريّ لأمة من الأمم. وغفلوا أيضاً عن كون اللغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، والذي أخبر عن كثير من الحقائق العلميّة التي ما عُرفت إلّا في العصر الحاضر.



١٩. إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَلْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي تَمَيَّزَ عَنْ سَائِرِ كُتُبِ الرُّسُلِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ، بِأَنَّهُ كِتَابٌ وَمُعْجَزَةٌ وَمَنْهَجٌ حَيَاةٍ فِي أَنْ مَعًا، بَيْنَمَا كَانَتْ مُعْجَزَاتُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْفَصِلَةً عَنْ كُتُبِ الْأَحْكَامِ الَّتِي نَزَلَتْ إِلَيْهِمْ، وَيُظَلُّ الْقُرْآنُ مُعْجَزَةٌ تَحْمِلُ مِنْهَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

٢٠. مِنْ مَوَاضِعِ سُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْضُوعُ الرُّؤْيَا، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ فِي سَبْعِ رُؤَى فِي سِتَّةِ مَوَاضِعٍ، ثَلَاثَةٌ مَوَاضِعٍ اشْتَمَلَتْ عَلَى أَرْبَعِ رُؤَى جَاءَتْ فِي سُورَةِ يُوسُفَ، مِنْهَا رُؤْيَا يُوسُفَ، وَالسَّاقِي، وَحَامِلُ الْخَبَرِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَرُؤْيَا الْمَلِكِ، وَقَدْ تَمَّ بَيَانُهَا فِي مَحَلِّهَا فِي مَوَاضِعِ الْكِتَابِ. وَأَوَّلُهَا الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، فَهِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ مِنْ جِزْءٍ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعُونَ جِزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»، وَأَمَّا الْحَلْمُ: وَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْحَلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ". وَأَضْغَاثُ أَحْلَامٍ أَوْ أَحَادِيثُ النَّفْسِ: وَهِيَ تَفَاعُلٌ لِلنَّفْسِ تَجَاهَ الْوَاقِعِ وَالْمَوَاقِفِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا الْإِنْسَانُ، فَتُسْتَخْرَجُ هَذَا الْمَخْزُونُ فِي شَكْلِ أَحْلَامٍ، يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يَحْدُثُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ.

٢١. إِنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ وَمَا عَدَاهَا هِيَ إِمَّا مَبْشَرَاتٌ أَوْ مَنذَرَاتٌ، أَوْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَأَحَادِيثُ نَفْسٍ. وَإِنْ جَمِيعُ الرُّؤَى مِنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى رُؤْيَا الْمُسْلِمِ فِي الْمَنَامِ، حَتَّى رُؤْيَا الْمُسْلِمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ لَيْسَتْ دَلِيلًا شَرْعِيًّا لِإِثْبَاتِ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ إِيْجَابٍ وَنَدْبٍ أَوْ تَحْرِيمٍ وَكَرَاهِيَةٍ، وَصَحَّةٍ وَبُطْلَانٍ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ تَوْخِذُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَيَاتِهِ وَمِنْ بَقِيَّةِ الْأَدْلَةِ الْمَعْتَبَرَةِ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: فَلَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمَبْشَرَاتُ، قَالُوا: وَمَا الْمَبْشَرَاتُ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ.



٢٢. أدرك يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بحدسه وبصيرته بأن وراء رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتي قصّها عليه بأن هذا الغلام له شأنًا عظيمًا، ولم يفصح هو عن ذلك، ولهذا ينصح به بأن لا يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءه لأخيه الصغير (غير الشقيق)، فيجد الشيطان من وراء هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلى نفوسهم بالحق، فيدبروا له الأمر.

٢٣. كان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حريصًا على ربط أبنائه بسيرة آبائه السادة والقداوات الصالحة إسحاق وإبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ويظهر في ذلك أهمية ربط الأولاد بسير المصلحين من الأنبياء والمرسلين والصحابه الكرام الغر الميامين.

٢٤. لا شك أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قصّ على أولاده، ومن بينهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سيرة إبراهيم، وما حدث له من أحداث في العراق وهجرته إلى الشام، وذهابه إلى مصر وبناء البيت الحرام بمكة المكرمة، وكذلك سيرة إسحاق جده، وإسماعيل عمّ يعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما بذلوه من جهاد عظيم في الدعوة إلى الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، ومحاربة الشرك، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والمحافظة على العبادة الرشيدة، وفهم تصوّرات الوجود عن الكون والحياة، والإنسان والقضاء والقدر، والجنة والنار. وإنّ سيرة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانت من عوامل الثبات بعد الله والاستمرار على نهجهم في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢٥. إن الأحد عشر كوكبًا الذين رآهم يوسف الصديق هم الإخوة، وإن رؤياه عَلَيْهِ السَّلَامُ تبين أنّه رآهم شمسًا وقمرًا وأحد عشر كوكبًا؛ ثمّ رآهم بعد ذلك ساجدين. وهذا يعني أنّه رآهم أولاً بصفاتهم التي نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود؛ ثمّ رآهم وهم ساجدون له، وذلك بملامح الخضوع لأمر من الله، ولذلك تكررت كلمة (رأيت) لإيضاح الأمر.

٢٦. بَيْنَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]؛ أي: أن أعمال الكيد التي يقوم بها الناس، قريبتهم وبعيدهم تجاه الحق والصدق والتقوى، إنما الشيطان هو بطلها الحقيقي. ولذلك تجد الشيطان في هذه القصة حاضراً في كل مواطن التأزم والكيد والمكر.

٢٧. ظهر من خلال سورة يوسف، حرص يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتعلق ابنه بربه من خلال إجابته على سؤال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الرؤيا، ووضح له ما خصه ربه به من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

٢٨. علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن رفعة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مستقبله رفعة إلهية؛ لأنه علم أن نعم الله تعالى متناسبة، فلما كان ما ابتدأه به من النعم اجتناء وكمالاً نفسياً تعين أن يكون ما يلحق بها، من نوعها ثم إن ذلك الارتقاء النفساني الذي هو من الواردات الإلهية غايته أن يبلغ بصاحبه إلى النبوة أو الحكمة.

٢٩. إنَّ في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخوته عبر كثيرة، وعظات بليغة، وأدلة قاطعة على أنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى لكل الذين سألوا عن قصتهم، وللذين لا يسألون، فالقصة غنية بالمعاني والمواعظ والحكم والدروس المستفادة، ولم تذكر في التنزيل الحكيم لمجرد الاطلاع على أحوال بعض الأمم السالفة، ويتنزه كلام الحكيم العليم عن اللغو والباطل وما لا فائدة فيه؛ ولهذا كرر القرآن الكريم دعوة الناس ليتدبروا آياته، ويعرفوا ما فيها فوائد واعتبار، كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٣٠. إن المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة، فإخوة يوسف افترضوا أن أباهم في ضلال مبين وأنه يحب أخاهم أكثر منهم رغم أنهم عصبه، ثم تصرفوا



بناءً على هذا التصور، والنتيجة أنّهم ندموا ندماً عظيماً، فلم يخل لهم وجه أبيهم كما افترضوا، ودفعوا نتيجة فعلهم والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

٣١. أساء أبناء النبي المبارك يعقوب الظنّ، وحسدوا أخاهم يوسف على منزلته من أبيه، والحسد داء عضال قتال، وهو نكد في الدنيا وخسارة في الآخرة؛ لذا جاء النهي عنه صريحاً واضحاً: «ولا تحاسدوا»، وفي الحديث الآخر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دبّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتّى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم».

٣٢. كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أصغر إخوانه، وكما هو مسلم به عند كلّ أب وأم أنّ للصغير حباً خاصاً تظهر فيه الرأفة والحنان والشفقة، وأما الكبير محبوب، ولكن يعكس هذا الحبّ التقدير والاحترام والاعتزاز بالابن، فمثلاً النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحبّ فاطمة ويحبّ ابنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن كان أسلوبه في استقبالهم والتعامل معهم مختلفاً، فكان إذا دخلت عليه فاطمة قام إليها وقبلها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه.

٣٣. إنّ الشخص لا يُلام على محبّته لبعض أبنائه دون بعض، أو بعض الناس دون بعض؛ إذ المحبة من الله سُبحانَهُ وتعالى، فهو الَّذي يلقِيها في قلوب العباد، فهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ينادي جبريل في أهل السماء: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».



٣٤. إِنَّ الْحَبَّ وَالْحَنَانَ، وكذلك البغض والغلظة مسائل عاطفية لا تخضع إلى التقنين؛ ولا تكليف بها، وحينما يتعرض القرآن لها، فالحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوضح بأنَّ الحبَّ والبغض انفعالات طبيعية؛ فَأَحِبِّ مَنْ شِئْتَ وَأَبْغِضْ مَنْ شِئْتَ؛ ولكن إياك أن تظلم النَّاسَ لمن أحببت أو تظلم مَنْ أَبْغَضْتَ، بل اقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٣٥. أُصِيبَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَاءِ الْحَسَدِ وَالْغِيَرَةِ، وَأَطَاعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَوَقَعُوا فِي عَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَقَطَعَ الْأَرْحَامَ وَالظُّلْمَ الْكَبِيرَ لِيَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَمَوْهُ فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ. كما أن الحجاج التي جاء بها إخوة يوسف لأبيهم في كون يوسف أكله الذئب قبلها النبي المبارك يعقوب بن إسحاق، فهو صاحب الفراسة والذكاء والفتنة، وبتوجيه من الله تعالى.

٣٦. اسْتَقْبَلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُصِيبَتَهُ بِفِرَاقِ وَلَدِهِ الْحَبِيبِ يَوْسُفَ وَمُصِيبَتِهِ أَيْضًا بِعَقُوقِ أَوْلَادِهِ وَاحْتِيَالِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَحَقْدِهِمْ عَلَىٰ أَخِيهِمْ وَحَسَدِهِمْ لَهُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ الَّذِي لَا شَكْوَىٰ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ مَعَ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَذَلِكَ لِيَعْلَمَ النَّاسُ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فالأمة بحاجة إلى من يعلمها الصبر، وحرى بنا أن نقتدي بالَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً.

٣٧. نَجِدُ فِي سُورَةِ يَوْسُفَ، بَيَانَ أَنَّ عَاقِبَةَ الْمَكْرِ السَّيِّئِ خَسَارٌ وَبَوَارٌ، فَإِخْوَةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكُرُوا بِهِ مِنْ أَجْلِ إِبْعَادِهِ، فَكَيْفَ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ؟ وَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ كَادَتْ وَمَكُرَتْ، وَغَلَقَتْ الْأَبْوَابَ، وَأَعْتَدَتْ لِلنِّسَاءِ مِتْكَأً، فَلَمَنْ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ؟ وَفِي هَذَا طَمَآنَةٌ وَعِزَاءٌ لِلأُمَّةِ وَبَيَانٌ لَهَا أَنَّ مَكْرَ أَعْدَائِهَا سِيرَتَدُّ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْمَكْرَ



الكَبَّارِ يحاك الآن على مستوى الأمم، وعلى مستوى الدُّول، ومستوى الشُّعوب، والأفراد، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

٣٨. نزل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجب وهو بحالة الذل، ولم يغادره إلا وهو مُوحى إليه، سواء كان بوحى الإلهام أو بوحى النبوة، فالله عَزَّجَلَّ تداركه برحمته ولطفه بما سكن نفسه المضطربة وأزال وحشته وخوفه، ف شعر بأن الله معه يرعاه ويرحمه ويلطف به، وبأنه سينجيه من محتته ويظهره أيضاً على إخوته حتى يأتي الوقت الذي يذكرهم فيه بجريمتهم.

٣٩. إن غيابة الجبِّ في محنة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قبيل الرحيل به لمصر فيها تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في غار ثور قبيل الهجرة للمدينة. وكما ذكرنا، فإن سجن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمصر ظلماً وعدواناً فيه ذكرى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهم في شعب أبي طالب بعد أن حاصرتهم قريش وقاطعتهم ظلماً وعدواناً، وهذا كله يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

٤٠. إن الوصف القرآني يصور لنا واقع الخطة بكاملها بكلمتين اثنتين: ﴿غيابة الجبِّ﴾، فإذا بنا نفهم أن المقترح أراد التخلص من يوسف دون أن يتم قتله بصورة مباشرة، بأن يُقصى عن أبيه، وأن لا يذهبوا به بعيداً جداً لمشقة ذلك عليهم، ولا يتركوه في مكان قريب يمكنه من العودة إلى أبيه، ولا يتركوه في الفلاة في مكان مكشوف.

٤١. إنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عمل على إبقاء الثقة بينه وبين أولاده، واعتذر عن دعوتهم لأخيهم بعذرين: أولاً الحزن على يوسف وذهابه من عنده. ثانياً: بخوفه أن يأكله الذئب في ساعة غفلة منهم. وتأمل الحكمة وأسلوب التربية العظيمة،

فإنه ليس من الحكمة أن يهدم جسر الثقة بينه وبين أبنائه، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم منهم يقيناً ما هم عليه من سوء طويّة، لكنّه لا يفاتحهم بذلك حرصاً على بقاء خيط الحياء في نفوس الأبناء موصولاً، فإذا انقطع تجرأوا على المعصية أكثر. فلينتبه الآباء والأمّهات والمدرّسون إلى هذه النقطة: أن انقطاع حبل الحياء بين الكبير والصغير يجعل الحياة لا تطاق.

٤٢. في دعوة نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] أي: وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب، ولا يستطيع الإنسان تحمّل مثل هذا الاختلال والتمويه إلا بعون الله، وتجميله بالصبر الجميل. فهكذا استقبل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف، ومصيبته أيضاً بعقوق أولاده، واحتياهم وكذبهم وحقدهم على أخيه وحسده له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليواجه كذبهم وتزويرهم وما كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى. استعان بالله تعالى وحده ولم يطلب معونة أولاده لأنّه يعلم أنّهم هم سبب بلائه ومصيبته.

٤٣. وفي استشعار مراقبة الله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]؛ أي لا يخفى ما فيها من تهديد ووعد لأولئك الذين استعبدوا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو حرّ كريم، واستعباد الحر واسترقاقه من كبائر الذنوب في الإسلام. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره.

٤٤. ساق الله عَزَّوَجَلَّ الأسباب التي أخرج بها يوسف من البئر، وانتقل إلى مصر، وسارع أهل السيارة إلى بيعه والتخلص منه، فقد أصيبوا بالقلق والهم من عند الله، ففقدوا الحرص عليه والرغبة فيه، فتم بيعه، ليمضي قدر الله في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.



٤٥. استقرأ عزيز مصر في وجه يوسف الخير والنبيل والبركة وحسن الطالع، فألقى الله تعالى محبته في قلبه وهو ما رَغِبَ في شرائه، فاشتراه وأخذه إلى بيته معزراً مكرماً، وأوصى امرأته به.

٤٦. قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أفرس الناس ثلاثة، أولهم العزيز، حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [يوسف: ٢١]، والثاني: التي قالت: ﴿يَتَأَبَتِ اسْتَجِرُّهُ﴾ [القصص: ٢٦]، والثالث: أبو بكر الصديق حين تفرس في عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٧. جرت العادة أن يُهان الرقيق ولا يُكرم، ولكن الله تعالى هياً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعيش مكرماً معزراً في أرفع بيوت مصر وأعلاها، ممّا يدل على عناية الله تعالى ورعايته له في محنته وغربته وحرمانه من أبيه وأهله، ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

٤٨. أصبح ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مكانةً في بيت العزيز بعد أن أحبه، وعامله باحترام وتقدير، ولذلك حرص على تعلم شؤون الإدارة في البلاد، وصار قريباً من مراكز صناعة القرار في مصر وتعلم الشيء الكثير من أحوال البلد وعقلية الإدارة، والتركيبية السياسية والاجتماعية، والإمكانات الاقتصادية، واطلع على تفاصيل المجتمع المصري، فكانت رعاية الله وحفظه محاطة بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتوفرت له أسباب الراحة وهناء العيش والنعيم، ثم كل أسباب التعليم، وساعده ذلك فيما بعد عندما تولى مقاليد الحكم في اتخاذ القرارات الصحيحة التي أنقذت مصر من كارثة محققة.

٤٩. تعتبر مرحلة حياة يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ الأولى في مصر من أكثر المراحل خطراً، وأشدّها صعوبة، وأقساها امتحاناً، فلئن ابتلي مع إخوته بتشريده الأسري، فلقد كان ابتلاؤه في هذه المرحلة من حياته للجانب الروحي والخلقي نتيجة الجمال الخُلقي والخُلقي.



٥٠. تحدّث العلماء عن مقاصد سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد وقفوا على أهمها: التّعقل والتدبّر والتبصّر، فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ أي: تعقلون ما أنزل الله تعالى من الآيات والقصص، وتنفكرون في مآلات الأمور، أضف لذلك، تقوية الإيمان بالله تعالى، والتوكل الكامل عليه، وتفويض الأمر إليه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

٥١. من مقاصد قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الرضا التّام من المؤمن بقضاء الله تعالى وقدره، وحسن اليقين بالله تعالى، بأن المصائب والابتلاءات والمحن تحمل في طياتها المنح الربانيّة ما دام صابراً راضياً مطيعاً لله تعالى، فلا يستيئس من رحمة الله، ولا يقنط من فضل الله، بل يطمع في نصر الله، وفي تفريج الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والنبي المبارك سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مثل قمّة الرضا والأمل الكبير، وطرّد البأس والقنوت. والدلالة على الطريق التي تؤدّي إلى تقوى الله من خلال بيان وإظهار ثمارها في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه سبب للمخرج من كلّ ضيق وبها ييسر الله الأمور وينور العقول، ويطهر النفوس، وبها تنزل البركات الماديّة والمعنويّة، وبها الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم.

٥٢. إن من أغراض قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدّين كلّّه من عند الله، وبيان أن الدين كلّّه موحد في الأساس، وبيان أن وسائل الأنبياء في الدّعوة موحّدة، وتثبيت فؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجال الدّعوة، والعبرة والاتّعاظ، وتصديق التبشير والتحذير، وبيان نعمة الله على أنبيائه وأصفياه، وتنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان.

٥٣. إن العبرة بحال العبد في الخواتيم والنهايات، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب



النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماع التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء بالمغفرة والرحمة.

٥٤. صان يوسف إرث النبوة بما فيه من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة، فعفا عن إخوته بما روته السورة: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقالها سيد البشر محمد لأهله يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فالسورة حملت لنا معاني الإحسان في سيرة السادة الأنبياء الذي اجتباهم الله ليكونوا قدوة الأمم، وقد نالوا الرفعة في الدنيا والآخرة.

٥٥. لزم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مقام الإحسان في شتى شؤونه في سرائه وضرائه، وفي خاصة نفسه، ومع والديه، ومع إخوته وفي حال الفتنة، وفي حال الانتصار وفي حال عبادته لربه.

٥٦. قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد ضمنها سبحانه من النكت والعبر والحكم أمراً عظيماً، وذكر فيها حسن مجاورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته وصبره على أذاهم وحلمه عنهم وإغضاءه عند لقائهم عن تبكيتهم وكرمه في العفو، والأنبياء والصالحين والملائكة والشیاطين والإنس والجن والأنعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن والتوحيد والنبوة والإعجاز والتعبير والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجميع الفوائد التي تصلح للدين والدنيا، وذكر الحبيب والمحبوب، ولم يدخل فيها شيئاً من غيرها دون سائر القصص، وكان عقابها إلى خير وسلامة واجتماع شمل وعفو من الله وتجاوز عن الكل.

٥٧. إِنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي نَهَايَةِ أَمْرِهِمْ، نَدَمُوا وَطَلَبُوا الْعَفْوَ وَالسَّمَاحَ مِنْ يُوسُفَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُمْ وَرَجُوعُهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَقَدْ عَلِمَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مَا عَزَمُوا عَلَى فَعْلِهِ ذَنْبٌ، وَأَنَّهُمْ قَدْ عَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَى التَّوْبَةِ مِنْهُ بَعْدُ، وَهُوَ لَا يَسُوغُ فَعْلَهُمْ بَلْ يَعْطِينَا الدَّلِيلَ عَلَى قِيَمَةِ الْمَعْصِيَةِ وَبَأَنَّ لَا رَجُوعَ عَنْهَا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الذَّنْبِ تَمَامًا.

٥٨. نجد في سورة يوسف قصص التائبين المستغفرين، وبيان أثر التوبة والاستغفار في حياة الإنسان، وقد تَبَعْتُ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي الْقُرْآنِ، فَوَجَدْتُ أَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَمَرَ قَوْمَهُ بِهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارِ خَفِيفَ عَلَى اللِّسَانِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَخْصِ الدَّعَاءِ، وَالدَّعَاءِ هُوَ الْعِبَادَةُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فَالتَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ مِنَ السَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ فِي سُورَةِ يُوسُفَ.

٥٩. إِنَّ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ الَّتِي أَفَاضَهَا اللَّهُ عَلَى يُوسُفَ إِنَّمَا هِيَ جَزَاءُ إِحْسَانِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنْ سَنَةِ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ أَنْ يَجْزِيَ الْمُحْسِنِينَ بِهَذَا الْجَزَاءِ: الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وَالْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي وَصَفَهُ بِهَا رَبُّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِصِلُ بَرَحْمَتَنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُفْصِلُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]؛ إِنَّ ثَمَرَةَ الْإِحْسَانِ فِي الدُّنْيَا، التَّمَكِينُ لِلْمُحْسِنِينَ فِي الْأَرْضِ مَعَ ادِّخَارِ أَجْرِهِمْ كَامِلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي مَرَّةٍ ثَالِثَةٍ وَصَفَ يُوسُفَ بِالْإِحْسَانِ عَلَى لِسَانِ السَّجِينِينَ: ﴿نَبْتَنَّا بَنًا وَّيْلَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

٦٠. مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فَائِقَ الْجَمَالِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّهُ مِنَ الْجَمَالِ مَا لَمْ يَهْبِهِ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ



رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أُعْطِيَ يَوْسُفُ شَطْرَ الْحَسَنِ». وَلَمَّا رَأَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ أَنَّ مَوْقِفَ النِّسْوَةِ تَغْيِرُ وَتَبْدُلُ بَعْدَ رُؤْيَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَاهَدَتْ الْانْبِهَارَ وَالْانْدِهَاشَ وَظُهُورَ الصَّدْمَةِ عَلَى وَجُوهِهِ.

٦١. اسْتَبَدَّتِ الشَّهْوَةُ بِالْمَرْأَةِ وَطَغَتْ عَلَى جَمِيعِ مَشَاعِرِهَا وَانْدَفَعَتْ وَرَاءَهُ وَشَقَّتْ قَمِيصَهُ طَوْلًا مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ وَوَجَدَتْ زَوْجَهَا أَمَامَهَا. وَقَدْ سَارَعَتْ بِذِكَاةٍ عَجِيبٍ وَقَلَبَتْ كُلَّ الْحَقَائِقِ وَاتَّهَمَتْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَاوَلَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ أَمَامَ زَوْجِهَا خَائِنًا، وَهَكَذَا وَضَعَتْ نَفْسَهَا فِي مَوْضِعِ الْمُدَّعِيِ وَالْقَاضِيِ وَأَصْدَرَتْ الْحُكْمَ بِسُجْنِ الْمُتَّهَمِ أَوْ بِمُعَاقِبَتِهِ بِعَذَابِ أَلِيمٍ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا أَرَادَتْ الْإِنْتِقَامَ مِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكِبَرِهَا الَّتِي مَرَّغٌ بِالْتِرَابِ.

٦٢. إِنْ مَرَّادُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَنِ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهِ؛ مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَلَعَلَّهَا شُهُورٌ وَأَعْوَامٌ عَلَى هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الصَّامِتَةِ الرَّهِيْبَةِ بَيْنَ الطَّهْرِ وَالْعَفَافِ، وَالْحَيَاءِ الْمُسْلِحِ بِسِلَاحِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ الشَّهَوَاتِ الْمَسْعُورَةِ الْمُسَلَّحَةِ بِسِلَاحِ الْفِتْنَةِ وَالْإِغْرَاءِ، وَالتَّمَكُّنِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَكَلَّمَا أَزْدَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِعْرَاضًا وَإِبَاءً، أَزْدَادَتْ إِقْبَالًا عَلَيْهِ وَشَغْفًا بِهِ، وَأَزْدَادَتْ تَهْتِكًا وَإِغْرَاءً. وَاسْتَمَرَّتْ تَرَاوِدُهُ بِخَدَاعِ رَهِيْبٍ عَسَى أَنْ تَوْقِعَهُ فِي أَسْرِ عِبُودِيَةِ الشَّهْوَةِ وَوَحْلِ ذُلِّ الْهَوَى.

٦٣. إِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَاذَ بِمَعَاذِ فَانْتَصَرَ، وَعَزَّ مِنْ اعْتَرَّ بِاللَّهِ وَانْتَصَرَ مِنْ اسْتَنْصَرَ بِاللَّهِ، فَانْتَصَرَتْ الْبَرَاءَةُ وَالطَّهْرُ عَلَى الرَّذِيلَةِ وَالْدَنَاءَةِ وَالسَّفَاهَةِ. وَفِي قَوْلِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]: لَفَتْ لِنَظَرِهَا إِلَى أَنَّ الْبَيْتَ، وَإِنْ خَلَا مِنَ الرِّقَبَاءِ، فَإِنَّ عَلَيْهَا رَقِيْبًا لَا يَغِيْبُ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَخَافَهُ وَتَخْشَى غَضَبَهُ وَعِقَابَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.



٦٤. التجأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رَبِّهِ ومعاذِهِ وملجئُهُ يدعوه متضرعاً إليه، وهو واقف بينهنّ وهنّ يراودنه عن نفسه، بالقول والحركات واللفتات ويتبارين في عرض فتنهنّ وجمالهنّ عليه. وإذا هو يستنجد ربّه أن يصرف عنه محاولاتهم لإيقاعه في حبائلهن، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه ويدعو الله أن ينقذه منه.

٦٥. اختار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أخفّ الضررين، وأهون الشرين، فالسجن فيه إضرار ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرار بدينه وخلقه، وهو أشدّ ضرراً وأعظم من الأول. ورسم عَلَيْهِ السَّلَامُ سلوكه هذا، القاعدة الشرعية الفقهية: (يُختار أهون الشرين، وأخف الضررين). والسجن بلاء لا ينبغي لأحد أن يتمناه، ولكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أثر ما يدعونه إليه فهو معنى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

٦٦. تواضع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ، وأظهر افتقاره لمعونته سبحانه، فجرد نفسه عن كل حول وقوة، فلا حول له إلا بالله تعالى، ولا ثبات له في محنته إلا بثبितه سبحانه، فأقبل إلى الله يناجيه بضراعة وخشوع، وجاءه الفرج والسمو والعزة والتمكين.

٦٧. رحل عزيز مصر عن مسرح الأحداث قبل دعوة امرأته للنسوة إلى القصر لمشاهدة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن امرأة العزيز هي التي صارت لها السلطة على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعده فقد كانت تقول للعزيز وهو حي ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، أما الآن فهي تملك وتحكم وتهدد وتقول: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وفعلاً، نفذت تهديدها بمساعدة أهل الحل والعقد، وحكم على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسجن رغم براءته من كل سوء. والله أعلم.



٦٨. من أدب القرآن العظيم أنه لم يذكر اسم المرأة التي راودته، ولا أشار إلى زوجها، وهو عزيز مصر، وفي ذلك توجيه للتحلي بهذا الأدب الرفيع، وألا يذكر في مثل هذا المقام إلا ما يظهر الحقيقة فقط دون الخوض في التفاصيل.

٦٩. خرجت أخبار امرأة العزيز مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نسوة في المدينة، وقد تسرب الخبر من خدم القصر الذين لاهمّ لهم إلا الحديث عن خفايا القصور وفصائحها حتى صارت الحكاية على ألسنة النسوة. وقد نجحت امرأة العزيز في الكيد لنسوة المدينة ووقعن في فخها، وكان لدخول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهن بأمر امرأة العزيز تأثيراً بالغاً عليهن، فقد رأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله جمع بين الهيبة والجمال والنور والبهاء والصفاء الباطني والحسن الظاهري، وانهمكن في النظر إلى جمال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فعملت السكاكين عملها في أيديهن وجزتها ونزفت الدماء من أيديهن وهن لا يشعرن بألم الجراح أو بنزف الدماء لأنهن مخدرات الأعصاب والمشاعر. وشبهت النسوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالملائكة؛ لأن الملائكة هي مضرب الأمثال في الجمال.

٧٠. ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]؛ فيها صراحة شديدة واعتراف صارخ بأهواء النفس، والحديث الواضح عن الأهواء داخل نفس امرأة العزيز، ومن هذه الآية يظهر خطاب القوة ولغة الفوقية والتهتك الذي يعكس حياة تلك الطبقة المترفة، وواضح أنها لا تخشى لومهن ولا تستحي مما عملت، بل تفخر به وتستعلي به عليهن. فالعصمة هي برهان على العظمة ودليل للقوة، فكان النبي الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ أقوى من الشهوة العارمة، ولم يعبأ بكل مظاهر الأبهة والسلطان والترف.

٧١. لم تستطع هذه المرأة بكل سلطانها وجمالها وأنوثتها أن تنتصر على نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي لا يزال يعيش قريباً منها في قصرها وتحت



أمرها وسلطانها وهي تعرض كل ما تملك من أسباب الفتنة والإغراء وأسباب الوعيد والتهديد.

٧٢. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَلِّمُنَا أهمية الفرار من مواطن الفتن فقد فرّ هارباً يطلب الباب ليتخلص من شرّها وهذا درس عملي علّمه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لكل عاقل يتدبر معاني كلمات الله في تنزيله الحكيم فما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يحتاج إليه كل فتى وفتاة في هذا العصر عند الابتلاء بالفتن، فقد بادر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ترك موضع الفتنة واتجه مسرعاً إلى الباب.

٧٣. دخل نبي الله الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن السجّين بعد أن خرج من محنته الكبرى في قصر العزيز تقيّاً نقيّاً ليواجه محنة أخرى: ضيق السجن وظلمته ووحشته والشعور بالظلم والاضطهاد، وهو سجن آخر للنفس يزيدهما همّاً وألمّاً وحسرة. ومن رحمة الله تعالى بيوسف أنه هياً له سبب خروجه عند دخوله.

٧٤. يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في حال من الضيق والمعاناة إذ فقد والده وأهله، وابتلى في عرضه الشريف واجتمع عليه كيد إخوته وامرأة العزيز والنسوة وأخيراً السجن ظلماً، فحين تظهر عليه سجية الإحسان في هذه الحال فكيف في سائر أحواله.

٧٥. كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعبر للسجناء رؤاهم وأحلامهم وكان أيضاً يحسن إليهم في معاملته، ويواسيهم ويساعدهم، فهو من المحسنين حقاً وأحسن في معاملته مع الناس في سعة القصد وفي ضيق السجون وبقي محافظاً على جوهره الأصيل ثابتاً في مقام الإحسان رغم ما طرأ على حياته من تغير وتبدل.



٧٦. بقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السجن بضع سنين، وعندما أراد الله خروجه ساق الأسباب الخفية، فكانت سبباً في خروجه من السجن. فرؤيا الملك وعجز الملاء عن تأويلها وتذكر الذي كان معه في السجن ساهم في ذلك كله. وإذا أراد الله أمراً هياً له أسبابه وأراد الله أن يخرج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن معزراً مكرماً فكانت رؤيا الملك بداية الفرج.

٧٧. في تأمل تجربة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحبي السجن نجد أصلاً من أصول منهج الدعوة، فعندما سأل السجينان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الرؤيا بدأ بالتوحيد، فدعا إليه رغم ظروف سجنه، ولم يعدّ السجن عائقاً عن الدعوة، بل جاء في السّورة تقرير منهج الدعوة مجملاً: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والدعاة في مشارق الأرض ومغاربها بحاجة إلى التذكير بهذا المنهج.

٧٨. إن يوسف كان مظلوماً في سجن الملك، وهو يملك المعلومات والخطط ما يجعله في محل قوة عند المفاوضة إلا أنه لم يشترط لنفسه شيئاً، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح، والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلماً لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مستوعباً لفقه الخلاف، حيث إن الملك والشعب بعيدون عن المنهج، منغمسون في مناهج الجاهلية، ومع هذا التقى معهم في الخير المحض، والسعي نحو إنقاذ البلاد والعباد في محنة المجاعة والقحط. وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة الناس، ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض.

٧٩. عجز الملاء عن تأويل رؤية الملك (سبع بقرات سمان وبقرات عجاف وسنبلات الخضر وآخر يابسات)، وأخبر الملك بذلك وذهب إلى يوسف

وأجاب يوسف الساقى في طلبه ولم يطلب لقاء الملك ليخبره بالتأويل؛ وهذا يدل على نبل نفسه وترفعه رغم السجن وهو يعلم أنهم لم يأتوا إليه إلا لِمَا عجز غيره عن تعبيرها.

٨٠. رفض يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستجابة لدعوة الملك بالخروج من السجن بعفو ملكي، ولم يتعجل الاستجابة لدعوة الملك، مع أنه مسجون ظلماً، ومضى على سجنه بضع سنين، ومن كان مثله متلهفًا للخروج، فما أن تبدو أول إشارة للخروج حتى يتعجل، هذا وإن لم يَرْجُ ويتوسط ويشفع.

٨١. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال للساقى المفرج عنه من قبل: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] هو نفسه يوسف الذي رد دعوة الملك للخروج بعد بضع سنوات، ورفض الخروج حتى تظهر براءته.

٨٢. فتح الملك ملف قضية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وباشر التحقيق، واعترف الجميع ببراءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بما في ذلك امرأة العزيز التي وجدت نفسها بين مطرقة الملك في هجومه الصاعق ومعرفته بتفاصيل القضية وشهادات النسوة اللاتي جهرن ببراءة يوسف، فلم تجد مخرجاً ولا مناصاً فقد آن الوقت من الخروج من تأنيب الضمير والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ وكشف الحقيقة.

٨٣. إنَّ السياق القرآني يبين أن الملك عرض على يوسف الوزارة، وكان الذي أشرف عليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يمكن أن يوازي اليوم هذه الوزارات: التخطيط، التموين، الزراعة، المالية، الاقتصاد، العمل، الثروة الحيوانية، وزارة القوى البشرية والتعليم، الإعلام؛ وهذا يستخلص من قوله تعالى: ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].



٨٤. يُقرر الله بأن استلام يوسف للوزارة، هو باب التمكين له في الأرض، وأنه رحمة أصابه بها، وإنه أجر دنيوي عاجل، وما ينتظره من الله من الثواب الآجل وهو أعظم وأكبر: ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يصرح بأن استلامه للحكم كان من نعم الله عليه ولم يكن نقمة: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

٨٥. وجد الملك في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الأمانة والخبرة، فوافق على طلبه، وسلمه مسؤولية إدارة الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مملكته كلها، وأصبح عَلَيْهِ السَّلَامُ الوزير الأول في مصر وعزيزها، وصاحب الكلمة النافذة فيها بعد ملكها، وجمع الله له بهذا النبوة والحكم فقد كان نبياً وحاكماً وفي هذا ردٌّ على أولئك الذين يحصرون مهمة الأنبياء في بيان شؤون العقيدة والعبادة فقط، ويحاولون عزل الدين عن شؤون الحكم والسياسة والاقتصاد وغير ذلك.

٨٦. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يقوم بعمل كبير، ويتحمل مسؤوليته، فرشّح نفسه لأخطر المناصب أعلاها وأكبرها عملاً وجهداً وسهرًا، وأكثرها نفعاً لعامة الناس كبارهم وصغارهم وضعفائهم وفقرائهم، والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزمات اقتصادية خانقة، تبعة كبيرة ومسؤولية جسيمة، يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تكلفهم رؤوسهم.

٨٧. تولى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الوزارة في مصر، وساس تموين البلاد في مجاعة شملت مصر وأرض كنعان، ووضع لذلك خطته البارعة التي ذكرها القرآن الكريم وأثنى عليها الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فأنقذ البلاد من تهلكة كانت معرضة لها لا محالة. وخلال تلك الأزمنة دخل إخوته يلتمسون منه قوتاً لأهلهم،

وتكرر دخولهم عليه، وهو يعرفهم وهم لا يعرفونه حتى كشف لهم عن نفسه (وقد مر معنا تفاصيل ذلك)، ومن ثم طلب من إخوته الإتيان بجميع آل يعقوب إلى مصر.

٨٨. المسلم يستطيع أن يجعل أعماله في الدنيا وقوته وماله وغناه لتحقيق غايته الدنيا والآخرة، فلو التزم المؤمن بالنية الصادقة، والعمل الصالح، فإن جميع أعماله من الإصلاح والملك وتحقيق العدالة وتوفير الخير للناس أجمعين فهو لله تعالى، وينال جزاءه في الآخرة - كما فعل سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَام - فليس هناك تناقض بينهما.

٨٩. وصى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاده بعدم الدخول من باب واحد وإنما من أبواب متفرقة وهذا من باب الأخذ بالأسباب. ولا يمنع وقوع قدر الله إذا أَرَادَهُ، وهو مؤمن به راض بقضائه مستسلم لحكمه متوكل عليه. ومَرَّتْ أحداث جسام على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وتمسك بالصبر الجميل والشكوى إلى الله وحده وعدم اليأس من روح الله وانتظار الفرج والثقة في الله بأنه أصبح قريباً.

٩٠. عندما ضاقت الأمور على إخوة يوسف ومسهم الضر وطلبوا من عزيز مصر التصديق عليهم، رَقَّ قلب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وعرفهم بنفسه وطلبوا منه العفو والصفح واعترفوا بخطئهم، وعفا عنهم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]؛ أي: لا ملامة عليكم ولا توبيخ ولا عتاب ولا أدنى مؤاخذه مني عليكم، ولن أذكر لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضى بما فيه، بل توجه إلى الله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

٩١. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة للشباب في التقوى والخوف من الله وألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقدوة في الوفاء والأخلاق العظيمة، وفي التفكير في المآلات، وفي تحمّل النتائج مهما كانت مؤلمة.



٩٢. نجد في هذه السّورة استثمار الفرص، وخاصة من قبل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يُسجن، وأثناء سجنه، وبعد السجن، وحتى آخر مراحل عِزّه. وإن الأُمَّة بحاجة إلى أن تستثمر الفرص استثماراً حقيقياً في موضعه، فترك الفرص غَصَص، والفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود.

٩٣. ذكر التمكين في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مرتين، المرّة الأولى هنا وذلك بعد أن أراد إخوته أن يزيلوه عن ظاهر هذه الأرض فألقوه غيابة الجبّ. والمرّة الثانية بعد أن بدا لذوي المرأة أن يحولوا بينه وبين رحابة الحياة وسعة الأرض في غيابة السجن، فانظروا أرشدني الله وإياكم إلى التدبير الرباني والإحكام القرآني حيث كان التعقيب على هاتين كليتهما؛ أعني إخراج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من غيبة الجبّ وإخراجه من غياهب السجن بهذه العبارة القرآنية: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

٩٤. لم يذكر مؤمن آل فرعون من الأنبياء الذين دعوا المصريين إلى التوحيد غير يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال للمصريين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، ولم يقل جاءكم يوسف وإخوته.

٩٥. نرى النبي الوزير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ابتداءً بإثبات معجزته، ثم نهى عن الشرك، ووجههم إلى الاقتداء بشخصه، وقد صاروا له صاحبين، ومن ثم وازن بين الوجدانية وتعدد الآلهة، ثم بيّن لهم أنه لا وجود لما يسمونه آلهة، وأن الدين الحق الذي يوافق قضية العقل البديهية هو الوجدانية وعبادة الله الواحد الأحد.

٩٦. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وضع سلسلة من الحقائق المنطقية المتسلسلة المتتابعة، وذلك بتناسق موضوعي متدرج وصل به إلى هدفه المنشود في دعوة



صاحبيه إلى دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد يقال: إن دعوته إلى الوحداية، كانت بين اثنين. وإن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتداءً دعوته بين زوجته وصديقه أبي بكر وابن عمه علي ومولاه زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعاً، وبقي مستخفياً بالدعوة بضع سنين، فليست العبرة بكثرة العدد، ولكن باليقين وقوة الإيمان.

٩٧. نرى بأن سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكتف بتعبير الرؤيا، بل نجده بادر، فوضع لهم خطة عمل لمواجهة سنوات القحط والجفاف، وكانت خطة اقتصادية تتناول الحياة الزراعية والتنموية للأمة خلال خمسة عشر سنة مقبلة، وخطط التنمية في مختلف مجالات حياة الأمم والشعوب من تعليم وزراعة وصناعة وعمران، والتي عرفها الناس في العصور الحديثة، ليست حديثة ولا مبتكرة، إنها قديمة ذكرها القرآن الكريم ووضع أصولها وطبقها النبي الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٩٨. إن العلوم التي علمها الله تعالى يوسف لم تكن محصورة في علوم العقيدة والعبادة وتعبير الرؤيا، فقد كان النبي الوزير مهندساً وعالمًا، لديه خبرة وعلم بكثير من العلوم التي تتعلق بشؤون الزراعة والادخار والتموين، وتعلمها دون أن يدخل مدرسة وجامعة، وقد علمه الله إياها بواسطة الوحي الذي كما مر معنا في قوله: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي﴾ [يوسف: ٣٧]. ولم يبخل عليهم بعلومه وخبرته، كما يفعل الآن الخبراء الذين تستقدمهم الدول المختلفة من الدول المتقدمة في مجال العلوم، فلا يقدمون مشورتهم وخبرتهم للمحتاجين إليها حتى يأخذوا عليها ثمنًا باهظًا وامتيازات كبيرة.

٩٩. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رسم هذه الخطة الإستراتيجية لتحسن أحوال الشعب المصري المعيشية، وللإعداد لمرحلة مستقبلية تمتد خمسة عشر عامًا، وهو نبي



كريم مؤمن بقضاء الله وقدره، ويعلم أن كل شيء خلقه الله بقدر سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به مشيئته في الأزل، ويعلم بأن الإنسان لا يستطيع أن يخترق أسوار القدر، ولكن القدر غيب عن الإنسان، وقد أمر بأن يسعى في تحصيل أسباب ما يراه نافعا، واجتناب أسباب ما يراه ضارا ثم يرضى بما قدر الله تعالى له.

١٠٠. كان من ثمار تدبير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء وفي هذا القصص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي، لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها.

١٠١. إن من شروط التمكين المهمة التي حققها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ واتصف بها في حياته تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ تجعل بين العبد وبين ما يخشاه من ربه، ومن غضبه وسخطه وعقابه، وإنها وقاية تقيه من ذلك، وهي أن نعمل بطاعة الله على نور من الله نرجو ثواب الله، وأن نترك معصية الله على نور من الله نخاف عقاب الله، وقد ظهرت ثمرات التقوى العظيمة في حياة يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٠٢. كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دائم الصلة والتوجه إلى الله والتأدب معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يذكره على جميع أحواله، إذ يرجع إليه في كل خير، ويرد إليه الأمر في كل شأن، وكان كثير الدعاء والرجاء والأمل بالله، وهو صاحب الجود والإحسان على من أساء له، وهو ما جعل دعوة هذا النبي الجميل عَلَيْهِ السَّلَامُ قائمة على طمأنينة في النفس وراحة بالبال ودأب في العمل، والتكليف بالدعوة لصلاح الإنسان في دنياه وآخرته.

١٠٣. إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ طراز رفيع من أولئك الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، ويعلمون من الله ما لا يعلمه الآخرون. وقد صرح لأبنائه بشيء

مما يعلمه، وكاشفهم بما يحقق قوله حين أذن الله تقدير انتهاء البلوى، ومجيء الفرح، فكلف أولاده بالبحث عن أخيهم يوسف، فجمع بين الصبر الجميل، وقانون الأخذ بالأسباب، وأمر إخوة يوسف أن يعودوا مرة ثالثة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

١٠٤. يُعلمنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أهمية عبودية الرجاء، والتعلق برحمة الله، ومغفرته، وعدم اليأس من قضائه وقدره، ورحمته التي وسعت كل شيء، وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً. ومما تستجلب به رحمة الله صفة الاستغفار، ولذلك قدم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اسم الغفور الذي يغفر الذنوب ويرحم العباد.

١٠٥. هاجر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من الأبناء وزوجاتهم والأحفاد إلى مصر بدعوة من يوسف وذلك في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وكان عمر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مئة وثلاثين سنة، وقد استقبله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استقبلاً حافلاً ثم استقبله ملك مصر وكان من الهكسوس، ورحب الملك بوالد يوسف وإخوته أجمل ترحيب وقال ليوسف: أبوك وإخوتك قد قدموا إليك فهذه أرض مصر أمامك، فأقم أباك وإخوتك في أجود أرضها.

١٠٦. وصى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاده، وهو يحتضر بالإيمان بالله وحده، والابتعاد عن عبادة غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا هو قوام الدين المستقيم؛ وهذه الوصية هي آخر كلامه الذي ختم به حياته، وكانت وصيته هي وصية الأنبياء والمرسلين جميعاً من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لأبنائهم وأهلهم وأقوامهم، فجميعهم صلوات الله وسلامه عليهم عاشوا وماتوا، وهم يدعون إلى عبادة الله وحده، والتمسك بدينه، والابتعاد عن الشرك والمعاصي والآثام، ويعقوب عاش ومات وهو يخاطب قومه وأمتة مثلما



خاطب محمد خاتم المرسلين أمته والناس: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ
أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

١٠٧. وجدنا بأن قصة بني إسرائيل بدأت في مصر بعد مجيء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ
إليها ودعوة والده وإخوته للمقام فيها، واستمروا فيها إلى عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وخروجهم معه.

١٠٨. عاش بنو إسرائيل في مصر محفوفين بالكرامة، وصنوف الامتيازات،
وطاب العيش لهم في أرض الكنانة، وكان يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ، يحظى
باحترام كبير في مصر، وذكر الله لنا في كتابه العزيز دعاء ختامياً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ
وهو يبتهل إلى ربه وداعياً بأن يلحقه بالصالحين: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ
وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۖ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا ۖ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

١٠٩. لقد عاش نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مصر داعياً إلى توحيد الله عَزَّجَلَّ
وإفراده بالعبادة في سجنه، وفي قصره، ووظف منصبه الكبير توظيفاً دعوياً،
وقدم الآيات البينات على نبوته، والبراهين على دعوته فأمن به من هداه الله إلا
قليلاً من الناس: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ [غافر: ٣٤]، وعبر المصريون
عن معارضتهم لدعوة يوسف بعد وفاته، فما أن توفي عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى قالوا: لن
يبعث الله لنا من بعده رسولاً، وكأنهم ارتاحوا لأنهم تخلصوا منه ومن دعوته.

١١٠. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من صفوة الخلق الذين أكرمهم الله بالنبوة، وقام
بدعوة التوحيد، وإفراد العبادة خير قيام، ونفع الله به الناس في عصره على
مستويات عدة في العقائد والأخلاق والاقتصاد وإدارة الأزمات. وكان قدوة
مميزة كمله الله بالأخلاق الفاضلة وعصمه من الشبهات والشهوات النازلة

وساهم في تطهير النفوس وتزكيتها وتطهيرها من كل ما يضرها. وظهر أثره على كل من احتك به، من امرأة العزيز وصاحبيه في السجن والملك وإخوته... الخ

١١١. أظهرت قصة يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ الكثير من صفات وأخلاقه في ثنايا القصة، والتي ذكرتها في محلها في هذا الكتاب، فقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات عظيمة وأخلاق كريمة، ومنها الإخلاص والعلم والحكمة والإحسان والعفة والصبر والفتنة والحلم وكظم الغيظ والحفظ والأمانة، والتواضع والكرم والشجاعة والعدل والوفاء، والفصاحة وغير ذلك من الصفات التي ذكرتها في شرحي للآيات المتعلقة بقصته العجيبة.

١١٢. مهما اشتدت المحن، وطال عليها الزمن، فلا بد أن يأتي الله بعدها بالفرج، فكل آت قريب والصبح غير بعيد لقد امتدت محنة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر من عشرين سنة ثم جعل الله العاقبة الحميدة الطيبة له فلا يأس من رحمة الله تعالى، ولا قنوط، فالنصر قد يتأخر والفرج قد يتراخى والأمر منوط بمشيئته تعالى وقدرته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يعجل لعجلة العباد.

١١٣. انتهت قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعبر خاتمة للسورة؛ إذ تحتوي على دروس عظيمة وفوائد جلية وحجج وبراهين على صدق الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته وطبيعة الناس وموقفهم من دعوات الأنبياء والمرسلين، وأن تبليغ الرسالة لا يكون بمقابل مادي من الناس وإنما الأجر على الله، وأن جوهر دعوة الله؛ أنها تذكير وبلاغ للعالمين جميعاً، فهي ليست إكراهاً وقهراً وليست لعباً ولهواً. وإن من أسباب كفر الناس إعراضهم عن آيات الله في كتابه المنشور وعدم الإخلاص لله في التوجه والقصد.

١١٤. بينت التعقيبات، أن دعوة الله واضحة بينة مبرهنة، ووضحت بعض صفات المرسلين وصفة الرسالة ودعت إلى إعادة النظر في الأمور وترهيب



من سوء العاقبة وترغيب بحسن الخاتمة ودعوة إلى التعقل في الأمر. ووعدت الرسل وأتباعهم بحسن الختام في الدنيا والآخرة ووعيد للمجرمين بشديد العذاب. وفيه تضمين برفع المعنويات وإشاعة الأمل، والتثبت على الحق.

١١٥. في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ظهرت أهمية ربط الحياة بالقرآن والسنة، فالأمة الآن تعيش ظروفًا صعبة لم تمرّ بها في تاريخها وأعلم يقينًا أن المخرج يكمن في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

١١٦. تبين السورة أهمية القصة، وأثرها على حياة الداعي والمدعو، وقد اشتملت سور القرآن على عدد من القصص كما بين الله في هذه السورة. والحاجة ماسة لاستخدام هذا الأسلوب القرآني من قبل الدعاة وطلاب العلم والمصلحين.

١١٧. نجد في هذه السورة قواعد وأصولاً في السياسة الشرعية التي نحن في أمس الحاجة إليها في هذا العصر في الشورى، في التخطيط، في بُعد النظر، في العدل، الذي هو أساس قيام الدول وغير ذلك، وكما نجد في السورة أيضاً قواعد وأصولاً في معالجة الأزمات، بل إدارتها، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة. وأمّتنا تمرّ بأزمات متنوّعة، ومن أقوى الأزمات التي ورد ذكرها في السورة، السبع الشداد. وفي أسلوب إدارته عَلَيْهِ السَّلَامُ للأزمة التي مرّت بمصر فوائد ينبغي أن نقف معها.

١١٨. الارتباط الوثيق بين الأمم السابقة واللاحقة، فرغم اختلاف العصور يبقى التوافق في الطبع البشري، وفي الظروف البشريّة؛ ولذلك قصّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ هذه القصة رغم وقوعها قبل قرون من مبعثه ليستفيد ممّا فيها من دروس وعبر، وتستفيد منها أمّته إلى قيام الساعة. والقرآن الكريم بين أن

قراءة سير الأولين للاعتبار منها، ترفع كفاءة الأمة، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

١١٩. من دروس هذه السورة الثبات في منهج يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، واطراده وعدم تذبذبه من أول حياته، وحتى آخر لحظات عمره، فهو مطّرد مستمر في منهج معتدل في سرائه وضرائه في البئر، في السجن، مع الملك، وهو يرفع أبويه على العرش، في كلّ أحواله التي قصتها السورة، نلاحظ اطراداً عجيباً. والدعاة وطلاب العلم، بل الأمة كلّ الأمة بشعوبها ودولها تحتاج إلى الاستقامة والاطراد على المنهج الصحيح وبخاصة في هذه الظروف التي تقلّب فيها رياح الفتن القلوب وتصرفها.

١٢٠. إن قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من أحسن القصص، وليست أحسن القصص، وإنما القصص القرآني هو أحسن القصص، قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَام وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير، ولهذا فهي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن الكريم، بل قصص سائر الأنبياء كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين أعظم من قصة يوسف ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف. فقصص القرآن على وجه العموم (أحسن القصص) وليس المراد قصة يوسف على وجه الخصوص.

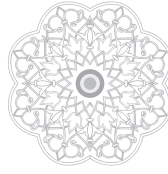
١٢١. في آخر آية في سورة يوسف حث الله عَزَّجَلَّ على الاعتبار والتأمل والاستبصار في القصص القرآني: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].



١٢٢. من الدروس المستفادة في قصة النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أفراد العبودية لله وحده وتولي مسؤولية التكليف بعمارة الأرض يستدعي الأخذ بكل أسباب القوة والتمكين والعزيمة على المستوى السياسي والاقتصادي والحجج المنطقية والحوار والدعوة إلى الإصلاح. ختم يوسف حياته بهذا الدعاء العظيم: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

١٢٣. إن مهمة أهل العلم وعلماء الأمة لا تقتصر على نشاطات دعوية محدودة لها علاقة بالعبادات وأركان الإسلام وحسب، بل لا بد للداعية والعالم والمفكر أن يدخل معترك الحياة العامة، والأخذ بالسنن التي خطها لنا الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والقدوات الصالحة، فنبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أصبح وزيراً أو بالأحرى رئيس وزراء كما هو في زماننا، ولذلك فإن الإسهام في دراسة وإعداد الخطط التنموية، وترسيخ مفاهيم الدولة والهوية الجامعة والازدهار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي مسؤولية جماعية، فلا بد من تحمل المشقة والأهوال، والابتلاءات، لتشييد هذا الصرح السياسي والأخلاقي والحضاري، ويكون العالم العامل هو مرجعية عليا وسند للحاكم والمحكوم، وبالتالي يؤدي دوراً متكاملًا مع أدوار العاملين والمتخصصين في شتى مجالات الحياة الإنسانية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



المصادر والمراجع

- ١- إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، محمد بن موسى بن نصر، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- ٢- أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني، منال فهد، المكتبة المركزية، رسالة جامعية، ٢٠١٩م.
- ٣- أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.
- ٤- اختيارات ابن تيمية، محمد بن سريع، دار التدمرية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.
- ٥- الإخلاص في القرآن الكريم، محمد بن محمد الوهيبي، دار التوحيد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
- ٦- أخلاق الأنبياء، محمد درويش.
- ٧- أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ.
- ٨- الاستغاثة، ابن تيمية، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ٩- أسرار ترتيب السور، السيوطي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ.



- ١٠- أسماء الأنبياء ودلالاتها ومعانيها، خالد محمد، نور حوران للنشر والتوزيع، دار العرب للدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.
- ١١- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ.
- ١٢- الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، د. أشرف أحمد، مكتبة آفاق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦/٢٠١٥م.
- ١٣- آيات للسائلين تفسير تحليلي وموضوعي، د. ناصر العمر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- ١٤- أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٣م.
- ١٥- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، دار الجيل، الطبعة الثالثة، ١٤٣١هـ.
- ١٦- أيها الصديق، محمد خير، مركز آيات لتعليم القرآن الكريم، حقوق الطبع محفوظة.
- ١٧- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- ١٨- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- ١٩- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٥٧م.



- ٢٠- بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، محمد بن زريق الرحيلي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ.
- ٢١- البكاء والقيم الجمالية له بصيغة الجمع في النصوص القرآنية، د. قاسم صالح العالي، دار المقتبس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
- ٢٢- البيان في علم المناسبات، فايز السريح، دار القبس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.
- ٢٣- تأملات إيمانية في سورة يوسف، ياسر برهامي، دار الخلفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- ٢٤- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- ٢٥- التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد المغراوي.
- ٢٦- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٧- التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ٢٨- تفسير ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- ٢٩- تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.



- ٣٠- التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، رفيق المصري، دار القلم، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- ٣١- تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٣٢- تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، أبو الليث نصر السمرقندي.
- ٣٣- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- ٣٤- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى.
- ٣٥- تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.
- ٣٦- التفسير الكبير، أبو عبد الله فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
- ٣٧- تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- ٣٨- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٤٦م.
- ٣٩- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.



- ٤٠ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ٤١ - التفسير الموضوعي لسور القرآن، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.
- ٤٢ - تفسير النابلسي، د. محمد راتب النابلسي.
- ٤٣ - تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، دار ابن حزم، الطبعة الأولى.
- ٤٤ - تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
- ٤٥ - تفسير من وحي القرآن، فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨هـ.
- ٤٦ - توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ٤٧ - جامع المسانيد والسنن، ابن كثير، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- ٤٨ - جماليات النظم القرآني، د. عويض العطوي، مركز تدبر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ٤٩ - الحق الواضح المبين، السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ٥٠ - حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.



- ٥١- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.
- ٥٢- دراسة أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣م.
- ٥٣- دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ٥٤- دعوة الرسل، مصطفى العدوي.
- ٥٥- دلالة الألفاظ التي انفردت بها سورة يوسف، جهاد محمد، جامعة آل البيت، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
- ٥٦- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- ٥٧- الروايات الإسرائيلية في قصة يوسف، رحمة سعد، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر.
- ٥٨- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٥٩- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م.
- ٦٠- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.



- ٦١- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
- ٦٢- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- ٦٣- السلسلة الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- ٦٤- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- ٦٥- سنن الترمذي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
- ٦٦- سنن الله في الحضارة، أحمد سريرات، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- ٦٧- سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان-الأردن.
- ٦٨- الشخصية اليهودية، د. صلاح الدين الخالدي، دار القلم سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ٦٩- شرعة الله للأنبياء، د. محمد الزحيلي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
- ٧٠- شفاء العليل، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ.
- ٧١- صحيح ابن حبان، ابن حبان البستي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.



- ٧٢- صحيح مسلم، مسلم ابن الحجاج، دار الطباعة العامرة، ١٣٣٣هـ.
- ٧٣- صفوة البيان، حسين مخلوف، دار المحدثين للنشر والترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- ٧٤- الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين الصغير، دار الرشيد، بغداد - العراق، ١٩٨١م.
- ٧٥- عجائب فريدة من سورة يوسف، عادل أكتوف، دار طليطلة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.
- ٧٦- العدد في القرآن الكريم، د. عبد الرحمن سعود إبداح، دار دروب، عمان - الأردن، الطبعة ٢٠٢٢م.
- ٧٧- غرر البيان من سورة يوسف، أحمد الشوابكة، دار الفاروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- ٧٨- فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٧٩- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، د. علي الصلابي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- ٨٠- فوائد مستنبطة من قصة يوسف، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٨١- في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- ٨٢- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.



٨٣- فيض القدير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦ هـ.

٨٤- قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَام، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير الطبعة الأولى، ٢٠٢٠ م.

٨٥- قصة يوسف مدرسة أخلاقية، محمد محمود حماد، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م.

٨٦- قصة يوسف، محمد أحمد عبد الله ثابت، مكتب مدبولي، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م.

٨٧- قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.

٨٨- القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح بن عبد الفتاح الخالدي، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ م.

٨٩- الكشف، أبو القاسم الزمخشري، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

٩٠- كلام اليهود مجموعة مقالات في اليهود، محمد علي دولة، دار القلم، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٤ م.

٩١- الكليات، أبو البقاء الكفوي، دار الرسالة، بيروت - لبنان.

٩٢- لأنك الله، علي جابر الفيافي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٢٠ م.



٩٣- لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.

٩٤- لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة.

٩٥- اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمه، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

٩٦- مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي، مكتبة القدسي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٩٧- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد للطباعة والنشر، السعودية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

٩٨- محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨.

٩٩- مختصر تفسير البغوي، عبد الله الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٠٠- المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٠١- مسند أحمد، أحمد ابن حنبل، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٠٢- المسيح عيسى ابن مريم، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م.



- ١٠٣- مصر في القرآن والسنة، أحمد يوسف، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ١٠٤- معجم تقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١٠٥- مفردات غريب القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ١٠٦- من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.
- ١٠٧- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة ١٤.
- ١٠٨- مواقف إسلامية، د. عبد العزيز كامل، دار المعارف الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ١٠٩- مؤتمر تفسير سورة يوسف، عبد الله العلمي، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١م.
- ١١٠- موسوعة الأخلاق، إشراف الشيخ علوي عبد القادر السقاف، الدرر السنية، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
- ١١١- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلم الله، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م.
- ١١٢- الموطأ، الإمام مالك بن أنس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.



١١٣- النبوءات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١١٤- نظرات في التفسير، عبد الحميد كحيل، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.

١١٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - مصر.

١١٦- نوح والطوفان العظيم، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير.

١١٧- الوحدة الموضوعية، محمد محمود حجازي، مطبعة المدني، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ.

١١٨- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ.

١١٩- وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

١٢٠- والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، بدون طبعة.

١٢١- بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، دار القلم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

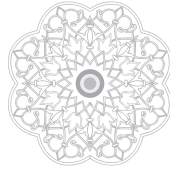
١٢٢- يوسف الأحلام، محمود المصري، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٢٣- يوسف أيها الصديق، د. محمد عاطف السقا، دار المكتبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.



- ١٢٤- يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، د. علي القره داغي، دار النداء، إستانبول - تركيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
- ١٢٥- يوسف في بيت العزيز، عبد السلام المجيدي، مكتبة عالم الثقافة، بدون طبعة وتاريخ.
- ١٢٦- يوسف وقصته العجيبة، عيش متولي، شركة مكتبة المعارف المتحدة، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
- ١٢٧- يوسفيات، علي جابر الفيبي، دار الميمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.





كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.



١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.
٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
٢٣. الشيخ عمر المختار.
٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.
٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
٢٧. وسطية القرآن في العقائد.
٢٨. فتنة مقتل عثمان.
٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.
٣٠. دولة المرابطين.
٣١. دولة الموحدين.
٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.



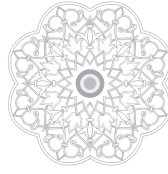
٣٣. الدولة الفاطمية.
٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.
٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
٣٩. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.
٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.
٤١. الشورى في الإسلام.
٤٢. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.
٤٣. الإيمان باليوم الآخر.
٤٤. الإيمان بالقدر.
٤٥. الإيمان بالرسل والرسالات.
٤٦. الإيمان بالملائكة.
٤٧. الإيمان بالقران والكتب السماوية.
٤٨. السلطان محمد الفاتح.



٤٩. المعجزة الخالدة.
٥٠. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.
٥١. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
٥٢. التداول على السلطة التنفيذية.
٥٣. الشورى فريضة إسلامية.
٥٤. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
٥٥. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
٥٦. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
٥٧. العدل في التصور الإسلامي.
٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
٥٩. الأمير عبد القادر الجزائري.
٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.
٦١. سنة الله في الأخذ بالأسباب.
٦٢. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
٦٣. أعلام التصوف السني «ثمانية أجزاء».
٦٤. المشروع الوطني للسلام والمصالحة



٦٥. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر
٦٦. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
٦٧. الإباضية... مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
٦٨. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ (الحقيقة الكاملة).
٦٩. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ
٧٠. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم؛ ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
٧١. إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة.
٧٢. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ (كليم الله)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين
٧٣. قصة الحوار بين موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.
٧٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة طه.
٧٥. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.
٧٦. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.
٧٧. قصة مؤمن آل فرعون.
٧٨. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات).
٧٩. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).
٨٠. سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).
٨١. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.
٨٢. النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.



السيرة الذاتية للمؤلف



د. علي محمد محمد الصَّلَابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣ م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦ م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩ م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

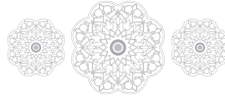


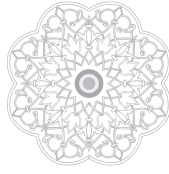
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفاً أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- سير الخلفاء الراشدين.
- الدولة الحديثة المسلمة.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
- الإباضية... مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ (الحقيقة الكاملة).
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ
- نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم؛ ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة.
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ (كليم الله)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين
- قصة الحوار بين موسى والخضر (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ).
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة طه.



- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.
- قصة مؤمن آل فرعون.
- لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات).
- سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).
- سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).
- مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.





فهرس الموضوعات

إهداء	٥
تقديم لكتاب: النبي الوزير يوسف الصديق "عَلَيْهِ السَّلَامُ" من الابتلاء إلى التمكين	٧
مقدمة	١١
المبحث التمهيدي: مدخل إلى قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ	٢٠
أولاً: اسمها وعدد آياتها:	٢٢
ثانياً: ترتيب السّورة في المصحف:	٢٤
ثالثاً: سبب نزول السّورة:	٢٤
رابعاً: زمن وظروف نزول السّورة:	٢٦
خامساً: التشابه بين قصة النبي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصة رسولنا محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:	٢٧
سادساً: قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والحكمة في سوقها في مكان واحد:	٢٩
سابعاً: فضائل سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:	٣٠
ثامناً: معنى كلمة (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ ونسبه وفضله:	٣١
تاسعاً: كم مرّة ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم:	٣٣
عاشراً: مناسبة سورة يوسف لما قبلها (سورة هود):	٣٧
حادي عشر: مناسبة أوّل السّورة بآخرها:	٣٩
ثاني عشر: أهميّة قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وخصائصها وأغراضها:	٤٠
ثالث عشر: من مقاصد سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:	٥٩
رابع عشر: المقدّمة القرآنيّة لقصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:	٦٢



المبحث الأول: رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ونصيحة أبيه وكيد إخوته وإلقاؤه في البئر

- ونجاته منه: ٨٧
- الرؤى؛ ثبوتها وحكمها وأنواعها: ٩٥
- ثبوت الرؤى: ٩٦
- أنواع الرؤى: ٩٧
- معنى اسم الرب: ١١٦
- معنى اسم العليم: ١١٨
- معنى اسم الله الحكيم: ١٢٠
- مقام الصبر وانتظار الفرج: ١٢١
- مقام التواضع والتحدث بنعمة الله: ١٢١
- ومن دلالات هذا الآية: ١٢٢

المبحث الثاني: بداية التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وفتنة امرأة العزيز ومكر نسوة المدينة

- ودعاؤه بالخلاص من كيدهن: ١٧٥
- شخصية العزيز: ٢٣٤

المبحث الثالث: دخول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن ودعوته لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتفسيره

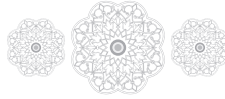
- لرؤيا صاحبيه: ٢٦٩
- المبحث الرابع: رؤية الملك وتفسير يوسف لها ٢٩٧
- المبحث الخامس: مطالبة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتحقيق وثبوت براءته ٣١٧
- المبحث السادس: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سدة الحكم والسلطان والتمكين ٣٤٥
- دعائنا التخطيط: التنبؤ والأهداف: ٣٦٩

المبحث السابع: مجيء إخوة يوسف إلى مصر وإكرامه لهم وطلبه حضور

- أخيهم من أبيهم ٣٧٣
- المبحث الثامن: أخذ يعقوب الميثاق على أبنائه وتوجيههم للتعامل مع سنة الأخذ
بالأسباب وحيلة يوسف في بقاء أخيه معه وفقد يعقوب لأبنائه الثلاثة ٣٩٥



المبحث التاسع: اشتداد البلاء على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصبره العظيم وثقته المطلقة بالله تعالى وعفو يوسف على إخوته.....	٤٥١
المبحث العاشر: أثر البشارة على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وطلب أبنائه منه المغفرة واجتماع شملهم عند يوسف بمصر.....	٤٩٣
المبحث الحادي عشر: تعقيبات ربانية على قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.....	٥١٩
الخلاصة.....	٥٦٧
المصادر والمراجع.....	٦٠١
كتب صدرت للمؤلف.....	٦١٥
السيرة الذاتية للمؤلف.....	٦٢١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إيماناً من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بأن الأمة الإسلامية إنما تنهض بالعلوم النافعة، وتنهض بالأفكار العالية، وترتقي بالأخلاق الراقية، وتتقوى بالحضارة الجامعة، وشاء الله تعالى أن تمتاز حضارة الإسلام بالقراءة الصحيحة لكتاب الله المسطور (القرآن والسنة) وكتاب الله المنظور (الكون وما فيه) قراءة دقيقة تجديدية تحليلية في ظلال الإيمان والأخلاق، وكرامة الإنسان وحقوقه، حيث دل على ذلك قوله تعالى: {اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5].

وبهذه القراءة الجامعة للوحي الصحيح، والعقل المستضيء بنور الله تعالى، يتحقق الاستخلاف والشهود الحضاري النافع، القائم على العزة، والعدل، والرحمة للعالمين. ونحن في الاتحاد تبنينا هذا المشروع بطريقة جديدة وهي: نشر خلاصة جهود العلماء المتخصصين في فروع العلوم الإسلامية، بدل أن نبدأ من جديد.

فالיום نقدم جهود فضيلة العالم المحقق المتخصص في سير الأنبياء (عليهم السلام) الدكتور علي محمد الصلابي التي بذل فيها جهوده المباركة خلال سنوات طوال: مستهدفاً الإسهام في هذا المشروع الحضاري العظيم، جزاه الله خيراً.

وبعد هذه الموسوعة سنقدم موسوعة أخرى في السياسة، ثم في الاقتصاد، ثم في الفكر إلخ... بتوفيق الله تعالى آمليين من أمتنا -وبخاصة علماءها ومفكروها- دعم هذا المشروع، وإفادتنا بملاحظاتهم القيمة.

والله أسأل أن يجعل هذه الموسوعات التي نقدمها إلى أمتنا خالصة لله تعالى، ونافعة للبلاد والعباد، ومحقة الغايات التي وضعت لها، والمقاصد التي أريد منها.. آمين.

محبتكم جميعاً: أ.د. علي محيي الدين القره داغي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

TK: 978-625-5637-70-3
ISBN: 978-625-5637-79-6



9 786255 637796

asaletyayinlari.com.tr

asaletyayinlari

